النبوّة والرّسالة

بينَ ٱلإمامَيْن ٱلغزَالي وٱبْنِ تيميَةَ

إعداد الطالب

محمد ولد الداه ولد أحمد
ولد الطالب عيسى

دارُ طوق النّجاة

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م
حقوق الطبع محفوظة

دار طوق النجاة
بيروت - لبنان

النّبوّة والرّسالة

بينَ الإمامَينِ الغزالي وابنِ تيميةَ

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد اطلعت علىٰ هذا الكتاب المسمىٰ بـ« النبوة والرسالة بين الغزالي وابن تيمية » ، وقد اتضح لي أن مؤلفه قد بذل جهوداً كثيرة في سبيل جمعه ، والوقوف علىٰ مواضيعه المهمة ، خصوصاً في مسألة مهمة من مسائل العقيدة وهي إثبات النبوة والرسالة .

وقد ظهر في هذا الكتاب المساقُ الواضح ، والسبك المتناسق ؛ حيث ركز مؤلفه علىٰ الأدلة التي استدل بها كل من الإمامين علىٰ ما يقولان به ويذهبان إليه .

فالإمام الغزالي كان أكثر اعتماده على الأدلة العقلية ؛ لأنه كان يواجه خصماً عنيداً وهم الفلاسفة الذين لا يعترفون بقرآن ولا نبوة ، فكان لا بد من مواجهتهم بشيء يقرون به وهو العقل والمنطق .

أما الإمام ابن تيمية : فكان جل اعتماده على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة معاً ؛ لأجل إثبات العقيدة في نفوس المسلمين ، وتمكينها في قلوبهم ؛ لئلا يقعوا في براثن المشككين ، وكي يتمكنوا أيضاً من الرد علىٰ ضلالاتهم .

من خلال ذلك يتبين أن الأدلة العقلية والنقلية هما كفتا ميزان لاغنىٰ بإحداهما عن الأخرىٰ ؛ فالأدلة العقلية هي للدفاع عن الدين والوقوف في وجه

العدو بصلابة ، والأدلة النقلية لتمكين العقيدة في نفوس المسلمين ، وحمايتها من الشوائب الوافدة إليها من الخارج .

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن كتب العقيدة التي ألفت امتازت ببيان الأدلة العقلية والنقلية ، وهناك كتب قد أفردت لسرد الأدلة العقلية فقط في مواجهة الخصوم مثل كتاب « المطالب العالية من العلم الإلهي » للإمام الفخر الرازي ، وهو يقع في أحد عشر جزءاً ، ومثل كتاب « شرح المواقف » لعضد الدين الإيجي ، ومثل كتب الإمام الغزالي « الاقتصاد في الاعتقاد » و« فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » و« مقاصد الفلاسفة » و« تهافت الفلاسفة » و« المنقذ من الضلال » وغيرها ، فهذه الكتب كان أكثر اعتمادها على الأدلة العقلية ؛ لإقناع الخصوم من جنس ما يعترفون به .

وبالمقابل : فهناك كتب أفردت للاعتماد على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة أكثر من اعتماد الأدلة العقلية ؛ من أجل تثبيت العقيدة في قلوب المسلمين ، مثل ما كتبه الإمام ابن تيمية ضمن فتاواه عن العقائد الإسلامية .

وهناك كتب جمعت بين الأدلة العقلية والنقلية معاً ، مثل « شرح الفقه الأكبر » للإمام مُلا علي قاري ، وكتاب « شرح العقائد النسفية » للإمام سعد الدين التفتازاني ، و« شرح العقائدة الطحاوية » للإمام عبد الغني الغنيمي الحنفي الدمشقي وغيرها .

فلا يمكننا الحكم على الإمام الغزالي بأنه فيلسوف استقىٰ علومه من الفلاسفة ؛ إذ أن استخدامه للفلسفة لم يكن إلا من أجل دحض حجج الفرق العقلانية التي كان يواجهها ، كذلك لا يمكننا الحكم عليه بأنه ترك التصوف في آخر حياته لأنه لم يثمر لديه ولجأ إلى الكتاب والسنة ؛ فكتابه « الإحياء » شاهد علىٰ عدم تركه للتصوف ، ومن قال ذلك . . فعليه بالدليل .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن التصوف لم يخرج يوماً عن الكتاب والسنة ، بل هو مستمد منهما ، وقواعده مبنية عليهما ؛ يقول إمام التصوف الإمام

أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : علمنا هذا مبني على الكتاب والسنة ، فمن ادعىٰ شيئاً ليس في الكتاب ولا السنة . . فقوله مردود عليه .

ولقد كان لكتبِ التصوف النصيب الأكبر من التشويه والدسائس ؛ لأن أعداء الدين رأوا أن التصوف هو روح الإسلام . . فدخلوا من خلاله كي يشوهوا صورة الدين عامة .

كذلك لا بد من الإشارة إلى أننا إذا أردنا أن نثبت رأياً لعالمٍ ما . . فلا بد من الرجوع إلىٰ كلام هذا العالم المثبت في كتبه ومؤلفاته ؛ فقد كثر الدس والكذب على العلماء من أجلِ تشويه صورهم ، وبالتالي تشويه صورة الإسلام بصورة عامة .

ومن أمثلة الدس الذي وقع في كتب الفقه : ما ذكره الإمام الشعراني في كتابه « تنبيه المغترين » من أن الحاسدين له في عصره زوَّروا كتبه ، وأدخلوا فيها مسائل مخالفة للمذاهب الأربعة ، وقصصاً عن جحا وغيره ؛ كي يشوهوا صورة هذا العالِم ، وبالتالي صورة العلم والإسلام ، وقد قيض الله لهذا العالِم من يقوم برد تلك الأكاذيب المنسوبة إليه ، فلإن حصل هذا في حياة العالم . . فكيف بعد وفاته؟!

لذا : لا يجوز التسرع بالحكم على الأشخاص بناءً على الدعاوي المشهورة المذاعة بين الناس ، فلا بد من الرجوع إلى المصادر في كل ما يقال ، ولا بد من التثبت قبل نشرها بين الناس ؛ لأن ذلك يسيء إلى العلماء ، ويحرم الناس من الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ، ومن ناحية أخرىٰ هو نشر للكذب وافتراء على العلماء ، وهذا لا يجوز شرعاً ولا خُلُقاً .

وعلىٰ ذلك : فينبغي أن يقوم الحوار بين المسلمين أنفسهم قبل أن يمتد إلىٰ غيرهم . . كما أن عليهم أن يبدؤوا رحلتهم إلى الفهم الصحيح من خلال إقامة الحوار فيما بينهم ، ويجب أن يقوم هذا الحوار لا على أساس الأسماء والألقاب والشعارات ، ولكن تحت الاسم الذي اختاره الله لهذه الأمة حين قال : ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا

﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ، وعلى أساس أن الفهم له بداية وتوسط ونهاية ، وكل يأخذ منه قدر اتساع أُفقه ، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها .

إن الصراع الذي كان ولا يزال يحدث بين مختلف أطياف المسلمين إنما كان منشؤه سوء الفهم لهذا الدين ، وسوء الفهم إنما يكمن في ظن هذا الفريق أو ذاك بأنه حاز الفهم الكامل لهذا الدين دون غيره من المسلمين ، فينعكس ذلك تطبيقياً في مسلك صاحبه علىٰ شكل تعصب شديد للرأي يحول دون فهمه للغير ، وبالتالي دون فهمه للدين .

والحقيقة أن الفهم الكامل لهذا الدين لم يحمله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما الناس من بعده آخذين عنه غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم ، وهم موزعون علىٰ سلم الإدراك والفهم بين بداية وتوسط ونهاية ، كلٌّ بحسب سعة أُفقه كما ذكرنا آنفاً .

ونحن نرىٰ خبراً يظهر في الصحف اليومية يقرأه العامي فيدرك منه ما يدرك ، ويقرأه المتعلم المثقف فيعرف منه ما يعرف ، ويحلله الخبير المتخصص فيستنتج منه ما يستنتج ، فلا هذا ينكر علىٰ ذاك فهمه ، ولا تقوم خصومة بين أحدهم والآخر ، هذا يكون في شأن مسألة دنيوية بسيطة ، فكيف إذاً بالأمر حين يتعلق بنص من نصوص الدين؟! هل يمكن لأحد أن يزعم أن الناس كلهم في هذا الأمر سواء؟ أو هل يمكن لأحد أن يلزم غيره بما فهم هو من نصوص الشريعة حتىٰ ولو كان فهمه أعمق وأدق وأخص؟

والدليل على مستويات الفهم وتباينها ما قيل في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»[1] .

إن روح هذا الدين إنما تكمن في صدق الاعتقاد بأسسه ومقتضيات هذه الأسس ، فكيف يسوغ لأحد من الناس أن يُكْرِه غيره علىٰ ما يعتقد هو ، أو

---

(١) انظر «الفردوس» (١٦١١) .

يحرج علىٰ ذلك الغير في اعتقاده ، ثم يظن أنه بذلك يخدم الدين ويدعو إليه؟!

وثمة إشكالات أخرىٰ لفهم بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، اتخذها البعض ذريعة لتأصيل التفريق بين المسلمين ، ونعتهم بألقاب وأسماء تكرس الشقاق والتفرقة بينهم .

فمن ذلك : ما يسلكه البعض في فهمهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وإن بني إسرائيل تفرقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا : ومن هي يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي »[1] فأول ما يتجه فهم هؤلاء من هذا الحديث إلى البحث عن صفات هذه الفرق ، وتحديدها والخوض في أهلها ، عوضاً عن النظر في صفات الفرقة الناجية والتي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما أنا عليه وأصحابي » ، فالحديث في أصله إنما يحض على الالتفاف حول أصل الدين « ما أنا عليه وأصحابي » ، ثم معاملة فروعه بقدر اقترابها من هذا الأصل .

وكل فرقة انحرفت عن الأصل الصحيح لهذا الدين . . إنما بدأت انحرافها بتركيز على فرع من فروعه ، ثم تضخيم أهمية هذا الفرع حتىٰ يستولي علىٰ عقل صاحبه ، ويحل عنده محل الأصل فيحصل الخلل .

فالحديث يحذر من هذا الانحراف المتلبس بثوب الدين المتخفي تحت رداء فروعه ، ولعل صعوبة إجراء الحوار اليوم بين المسلمين أنفسهم إنما تكمن في اشتغال كل فريق منهم بالفرع الذي هيمن علىٰ تصوره لحقيقة الإسلام ، فأصبح كل فريق يحاور الآخر وفي يده جزء من الحق يظنه الحق كله . . فيحول هذا الظن دون انتفاعه بما لدىٰ غيره من الحق ، ويصبح الحوار من قبيل ضرب الحق بالحق ، والذي هو من أكبر أنواع الباطل الذي حذرنا منه الحبيب المحبوب صلى الله عليه وسلم ، كما إن المقصود من قوله صلى الله عليه

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٤١) .

وسلم : « كلهم في النار » هو تنبيه المسلمين إلىٰ ترك الصفات والسلوكيات والكبائر التي توجب لصاحبها أو مرتكبها دخول النار ، لا ليحكموا علىٰ بعضهم البعض بها ، وإنما ليسلكوا طريق الاقتداء ، وهو الطريق الموصل إلى الجنة ، وهو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

ومن سوء الفهم أيضاً لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم : ما يفهمه البعض من قوله : « سألت ربي عز وجل ثلاث خصال . . فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم . . فأعطانيها ، وسألته أن لا يقتل أمتي بالسنة . . فأعطانيها ، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً . . فأبىٰ عليَّ »[(١)] . فيعتبرون الخلاف والقتال بين المسلمين ضربة لازب لا فكاك لهم منه بنص الحديث ، والحديث من هذا الفهم براء ؛ فالمقصود هنا : أن الله ضمن لهذه الأمة أمرين : أحدهما : أن لا يستأصلها عدو من غيرها ، وثانيهما : أن لا يهلكها بسنة عامة ، وترك الثالثة لاجتهاد المسلمين ؛ تنبيهاً لهم علىٰ خطرها ، وتوجيهاً لهم إلى العمل في تأليف القلوب وتقريب الآراء ، لا ليتخذوا من هذا الحديث ذريعة لهم للاستكانة وقبول ما هم عليه من تفرقة وتمزق ، ولو صح هذا الفهم على أنه إخبار عن قدر غالب على الأمة لا يمكن لها تجاوزه في أي عصر من العصور أو دولة من الدول ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما وجد عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعهد عمر بن عبد العزيز ، وغيرهما من العهود والفترات التي استقرت فيها الشؤون السياسية لدولة من الدول في تاريخ الأمة الإسلامية .

فالحديثان أعلاه يدعوان إلى الاجتماع لا الفرقة ، ويوجهان إلى الرجوع إلى أصل هذا الدين ، وعدم الاشتغال بفروعه دون أصله ، وفي مقابل ما تكفل الله به لهذه الأمة من حفظ من الاستئصال الخارجي ، وحفظ من البوائق الكونية . . فقد تكفل لها بالحفظ من الضلالة في الفهم والتقدير متى اجتمعت ؛

---

(١) أخرجه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٣) .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن أمتي لا تجتمع علىٰ ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافاً . . فعليكم بالسواد الأعظم »[1] ، وقد ركز الفقهاء على الاجتماع بمعنى الإجماع ، فيكون معنى « لا تجتمع » : أي لا تُجمع ، ولكن الحديث يعني أيضاً : لا تجتمع ؛ أي : لا يجتمع رؤوسها في مكان ثم يقضوا فيما بينهم أمراً . . إلا وكان الحق في جانبه ، وكأن مجرد اجتماع أهل الحل والعقد في مكان ما . . كفيل بأن ينال حظه من العصمة فيما يخلص إليه المجتمعون ، وبذلك يكون حديث : « لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة » مكمل لحديث : « سألت الله اثنتين » من حيث إنه ضمان للأمة من المحذور الثالث أيضاً محذور الاختلاف والفرقة ، ولكنه ضمان مشروط باجتماعها وسعيها ، وبذلها الوسع في التقارب والاجتماع المتجرد من الأهواء ؛ لأنه متىٰ حصل هذا الاجتماع ، ومتىٰ خلا من الأغراض والأهواء . . فإن العصمة لما يتمخض عنه من تصورات وقرارات قائمة بنص الحديث الشريف .

هذا ما أردنا أن نشير إليه ؛ كي يعرف المسلم العقيدة الخالصة ، ويبلغ الفهم الصحيح للنبوة والرسالة ، معنىً ومبنىً وصورة ، فتكون نفسه بالحق معمورة ، لأن النبوة والرسالة هما طريق العبودية الخالصة لله تعالىٰ ، والحق أحق أن يتبع ، والله تعالى أعلم ، وصلى الله علىٰ عبده النبي الأمي سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه

أ. د هاشم محمد علي مهدي

مستشار الدراسات والبحوث

برابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة

في غرة رجب سنة (١٤٢٥هـ)

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٣٩٥٠) .

شكر ودعاء وتقدير

إن من لا يشكر الناس لا يشكر الله ، ومن لا يدعو لمن أحسن إليه لم يكافئه ، ومن لا يقدّر جهد الآخرين لئيم .

وإني لا أرضىٰ بواحدة من هٰذه لأحد من المسلمين .

لذا فإنني ـ بعد حمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وشكره علىٰ ما أعان وهيّأ من سبل المكرمات ، والصلاة والسلام علىٰ سيد السادات محمد وآله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين الطاهرات ـ أشكر لهٰذه البلاد المباركة حسن استضافتها لي وإكرامها وفادتي ، حيث تقلبت في مدارسها وجامعاتها حتى استكملت مراحلها . وإني لذلك أشكرها حكومة راشدة وشعبا كريما مضيافا ، وأدعو للجميع بالتوفيق والعافية والسداد .

وأشكر علىٰ وجه الخصوص جامعة أم القرىٰ ورابطة العالم الإسلامي علىٰ تكاتفهما لصالح استكمالي للدراسات العليا .

وإني إذ أشكر هٰؤلاء لأدعو من أعماق قلبي لأستاذي الراحل الدكتور/ صلاح عبد العليم إبراهيم الذي تشرفت بإشرافه عليَّ حين اختياري لهٰذا الموضوع والموافقة عليه . فرحمه الله من أستاذ ناصح مشفق ، جعله الله مع العلماء العاملين ، وحشره في زمرة الصالحين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وإني إذ أدعو له وأترحم عليه لأشكر وأدعو وأقدر لأستاذي الكريم الأستاذ الدكتور/ محمود أحمد خفاجي الذي واكب هٰذه الرسالة من بداية كتابتها ، وقام بواجب القراءة والتصحيح والتوضيح ، فله مني الشكر الجزيل والدعوة الخالصة بدوام العافية وطول العمر مع حسن العمل ، والفوز بجنات عدن

تجري من تحتها الأنهار ، فجزاه الله عني خيرا من عالم يشجّع عند الكسل ، ويثبّت عند الوجل ، ويحفّز لبلوغ الأمل .

هٰذا وإني لأقدر جهود كل من أعانني بعرية كتاب ، أو دلالة علىٰ مقال ، أو مدّ لي يد العون والمساعدة ، وأخص بدون ذكر اسم : إخواني وجيراني في العزيزية الشرقية .

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل .

الباحث

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوىٰ ولا يضر إلا نفسه ـ ولا يضر الله شيئا . نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه فإنما نحن به وله .

وبعد فهٰذه مقدمة نبين فيها أسباب اختيار هٰذا الموضوع الميمون ، ونستعرض خطة بحثه ، ونوضح المنهج الذي سلك في كتابته .

أسباب الاختيار :

إن المسلم يتطلع دائما إلىٰ ما يزيد إيمانه ، وإن النبوة هي أصل الدين وطريق الإيمان وزيادته ، ذلك أن معرفة الله تعالىٰ وما يطلبه من عباده وما يرضيه وما يسخطه لا سبيل إلى العلم به إلا بتعليم منه بواسطة من يصطفيه لرسالته من عباده فلذلك كانت قلوب الناس متعلقة بها راغبة في العلم الوارد عن طريقها ، محبة لمعرفة أخبار المصطفين لها .

لذلك رغبت في المزيد من التتلمذ علىٰ أولئك المصابيح الوضاءة لأنهم قدوة كل مسلم وأسوة كل مؤمن في الاعتقاد والعلم والعمل والشفقة على الخلق والصبر علىٰ أذاهم ودعوتهم والمبالغة في نصحهم وإرشادهم .

ولما كانت هٰذه الرغبة لابد من أدلاء علىٰ طرق تحصيلها من العلماء العاملين أحببت أن أحققها بواسطة علمين مشهورين هما الإمام الغزالي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية إذ جهودهما في مجال العلم والعمل بما جاء به الأنبياء

بالمكان المعلوم منذ عصرهما إلىٰ هـٰذه الأيام ، هـٰذا مع ما كانا عليه من حب النفع والخير للمسلمين عموما .

فما علم من مكانتهما العلمية وجهودهما العملية كان من أهم الحوافز لي على اتخاذ مؤلفاتهما معبرا وجسرا موصلا للغرض المنشود بالإضافة إلىٰ ما في دراسة حياتهما وأخبارهما من فوائد علمية وتربوية .

فمن قرأ كتاباتهما في مجال النبوات واستضاء في دراسته لنصوصهما بنور الكتاب والسنة كان قد وفق للجمع بين الفوائد العلمية الذاتية وأبرز للمسلمين ما ينفعهم بإذن الله في العاجل والآجل وكفاهم مؤونة البحث المضني ومواصلة السهر والكتابة ، والتفهم والتحليل والمقارنة والمراجعة ، وهـٰذه الأمور مع ما فيها من مشقة فإن الباحث الذي يطلب الحق بالإنصاف يجد فيها الراحة النفسية والطمأنينة القلبية وخصوصا في المقارنة بين الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية إذ فيها من الفوائد والمتعة العقلية والروحية ما يجعلها هدفا في حد ذاتها ، ثم إن الباحث الذي يقرأ كتابات الغير عنهما يجد من بعض المؤلفين تصويرا لبعد الشقة بينهما الأمر الذي يدفعه للأخذ بأسباب استكشاف حقيقة ذلك الاختلاف ومدىٰ عمقه . ولا يجد أجدىٰ له في تلك الغاية من الدخول في أعماقهما والخوض في بحورهما واستثارة درر أفكارهما وسبر أغوار مقاصدهما فبذلك إن كان لديه ملكة السباحة يتهيأ له الاصطياد في الزلال ، ويمكنه تجنب المزالق التي تفضي به إلى الغرق ويستطيع أن يميز بين الصافي من العكر . فإذا نظر ما في الشبكة رآه ناضجا طريا ، ومفيدا لكل عقل حي .

هـٰذا مجمل أسباب الاختيار الأصلية .

الخطة ومنهج البحث :

بني هـٰذا البحث علىٰ مقدمة بينت أسباب اختياره ودواعي دراسته واستعرضت خطته ومنهج بحثه ـ ثم تمهيد ، وأربعة أبواب هي أعمدته الأساسية وخاتمة تلخص نتائجه .

خطة البحث :

العنوان : النبوة والرسالة بين الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة : فسيبين الباحث فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة بحثه .

تمهيد عن حياة : (الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية) ويتكون هٰذا التمهيد من فصلين :

الفصل الأول : الغزالي ، عصره وحياته الشخصية والعلمية ، منهجه في العقيدة .

الفصل الثاني : ابن تيمية ، عصره وحياته الشخصية والعلمية ، منهجه في العقيدة .

الباب الأول : حقيقة النبوة والرسالة :

ويشتمل علىٰ أربعة فصول :

الفصل الأول : مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما ويضم ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي .

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الفصل الثاني : معنى الوحي وطرقه .

ويشتمل علىٰ ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي .

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الفصل الثالث : صفات الأنبياء

ويشتمل علىٰ ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي .

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الفصل الرابع : النبوة والولاية

ويشتمل علىٰ ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي .

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الباب الثاني : حاجة الناس للنبوة وحكم إرسال الرسل

ويضم فصلين :

الفصل الأول : حاجة الناس للنبوة .

وتحته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي .

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الفصل الثاني : حكم إرسال الرسل .

وتحته ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي .

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الباب الثالث : طرق إثبات النبوة .

ويشتمل علىٰ ثلاثة فصول .

الفصل الأول : طرق إثبات النبوة عند الإمام الغزالي .

الفصل الثاني : طرق إثبات النبوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية .

الفصل الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الباب الرابع : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويشتمل علىٰ فصلين :

الفصل الأول : إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم والرد على المنكرين .

وفيه ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الفصل الثاني : خصائص نبوته صلى الله عليه وسلم .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي .

المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة .

الخاتمة : وتتضمن نتائج البحث :

المنهج :

إن مناهج البحث وطرقه كثيرة ومتنوعة حتىٰ في الكلية الواحدة ، وقد رأينا أن اختيار الطالب لمنهج معين يسلكه في بحثه أمر محبب في الجامعات ولا لوم

عليه في اختيار هـٰذا المنهج عن ذاك ، ولا عتب عليه في اتخاذ طريقة معينة تؤدي إلىٰ غرض البحث وتساعد علىٰ تحصيل المطلوب منه .

ذلك أن لكل موضوع مسلكاً يناسبه ومعابر يعبر إليه منها ، وحيث كان الأمر كذلك فقد اخترت السير على الخطة المرسومة أعلاه لما تبين لي أنها كفيلة بالوفاء بمقاصد البحث وموصلة بإذن الله تعالىٰ إلىٰ غاياته .

ومن منهجي أن أضع القارىء أمام آراء الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية في النبوة والرسالة وأجعله يعيش معهما ويشاركني في تفهم نصوصهما .

بمعنىٰ أني إذا قلت : رأي الإمام الغزالي مثلاً جمعت ما تيسر لي من نصوصه في المسألة المبحوثة ورتبتها حسب ما يتضح لي من تقارب بينها أو تعارض أو تنافر أو تضاد وفي هـٰذه الحالات الأخيرة أتدخل فيها للتوضيح والربط ، وربما للتحيل والنقد ، وذلك في حدود المطلوب ولا أتعمد رفع صوتي ولا سوطي علىٰ تلك النصوص وما تضمنته من أفكار جاءت على الوصف المذكور ، ولا أتغافل عن تعارض أو تناقض ظهر لي فيها إذ المطلوب الوصول إلى الغاية وذلك لا يتم إلا بالدراسة الجادة المنصفة . ومن منهجي الذي التزمه أني لا أزاحم نصوص هـٰذين الإمامين في المسائل المعروضة بنصوص العلماء الآخرين وذلك لما رأيت من تشويش هـٰذا المسلك علىٰ رأيهما الحقيقي ومعارضة آرائهما بآراء غيرهما .

وقد نفرت نفسي من منهج من يكتب عن علم فتجد له فصلا كاملا من نصوص غيره ، وكأنه هو لم يكن له في المسألة كلام معتبر .

وكذا لا يرضيني ما يرتكبه الباحثون من مصادرة آراء الأعلام المقارن بينهما بتحكيم آراء الآخرين فيهما ، وربما يكون ممن هو دونهما في المكانة العلمية والفترة الزمنية دون اعتبار لهـٰذه الفوارق والفواصل . ومن الضروري أن ذلك يتم علىٰ حساب أفكارهما وآرائهما ونصوصهما . فتجنبت ذلك لأنه عندي من مصادرة الرأي والحكم على الحاضر غيابيا .

ولذلك فإني في المباحث التي خصصتها لدراسة نصوصهما واستكشاف آرائهما لم أثبت فيها نصاً لغيرهما .

أما في مباحث التعقيب فإني أحكم الكتاب والسنة وأهل الاختصاص غيرهما في حاصل آرائهما .

وذلك أني وجدت العلماء غيرهما يرجعون إلىٰ نصوصهما ويحكمونهما في مواطن النزاع وموارد الاختلاف ، فإذا تبين لي أن المسائل المعروضة تبرهن علىٰ نزاع بينهما طلبت وجه الصواب في كتب التفسير وشرّاح الحديث الشريف .

فإذا كان أهل العلم يحكمونهما ، فلا وجه لأن أحكم فيهما من لا يعلم تفوقه عليهما . ومن منهجي أني حاولت علىٰ وجه العموم عدم الإطالة والإطناب بل رغبت في المحافظة علىٰ تناسب المباحث والفصول والأبواب .

لذا جاءت الرسالة متفقة مع خطتها ومتمشية مع منهجها متناسقة في أبوابها ، وافية بما طلب منها دون تشنج علىٰ طرف أو إغضاء علىٰ خطأ ، أو إهمال لسقط .

والكمال لله تعالىٰ والعصمة لأنبيائه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾[1] .

* * *

---

(١) سورة النساء ، آية (٨٢) .

تمهيد

الفصل الأول

حياة الإمام الغزالي

المطلب الأول

عصره

إن المقصود في هـٰذا التمهيد هو التعريف لا التصنيف ذلك أن كلا من الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية قد صنف في حياتهما مصنفات وأفردت مؤلفاتهما بمؤلفات ودرست أحوالهما من جهات عديدة ، فلا يحتاج الباحث في هـٰذا الموضوع أن يطيل في التمهيد له بأكثر من مدخل تعريفي يساعد علىٰ فهم المقصود فهما صحيحا إذ العلم بعصر العالم وما كان فيه من حوادث مهمة أو التعريف علىٰ وسائل تكوينه العلمي وطرق تحصيله للفنون أمور مهمة لأنها تقربنا إلىٰ فكره ومكونات عقله وما له أثر في مسار حياته وتقلبات أحواله ، لذا كان لابد من حديث عن عصر كل منهما وشخصيته ، وحياته العلمية ثم منهجه في العقيدة إذ هي المقصود الأول في هـٰذا البحث موضوع الرسالة .

إن الإمام الغزالي عاش ما بين سنة (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ) في عصر يموج بالفتن ويعجّ بالفرق المتناحرة ، وتحكمه سلطات متعددة متوافقة في الظاهر متخالفة في الواقع ، إذ لكل سلطان أو قائد أطماعه وطموحاته التي يريد الوصول إليها باسم الخلافة أو الجبهة الأقوىٰ .

هـٰذا بالإضافة إلىٰ ما كان من تعصبات تتقاسم ذلك العصر ؛ إذ شاعت المذاهب العقدية كالأشعرية ونضجت ونظمت لها خطوط دفاع وهيبة في نفوس الأتباع الذين رأوا كثرة العلماء المناظرين علىٰ طريقتها والمنافحين عنها بعد

انتصارها على المعتزلة ومساندة بعض السلاطين لها .

ثم إن حركة الترجمة قد أعطت ثمارها في عقول كثير من الناس ، حيث انتشر بين الأوساط العلمية المنطق وعلوم الفلاسفة علىٰ أنواعها وأقيستها . يضاف إلىٰ ذلك الواقع المذهبي الفقهي وما ظهر من تعصبات وتقليد عمّ المتفقهة والأصوليين وأخذ أشكالا من الجدل والمناظرات ، وراج التصوف وأصبح له أربطة ومدارس ، ورفعت الباطنية بألوانها وأشكالها رؤوسها ، واشرأبت لبسط نفوذها وفرض إلحادها فمارست التصفية الجسدية بالاغتيالات وحياكة المؤامرات ، ونفذت إلىٰ عقول الناس بنشراتها الهدامة ودعايتها المضللة[١] .

هـٰذا هو واقع عصر الإمام الغزالي الذي نشأ فيه وكون ثقافته من دراسته والتفكر في أحواله وعايش ذلك محتكّا به في شبابه ، وأخذ النظر فيه جزءا كبيرا من وقته . وما ذكرناه وأحلنا فيه إلىٰ زميل الإمام الغزالي قد طفحت به صفحات كتب التاريخ والفرق ، وأعظم برهان علىٰ ذلك أن الإمام الغزالي نفسه وهو غير مؤرخ ولا عالم بالفرق كحال الشهرستاني قد هاله حال عصره وكثرة المتناقضات فيه حتىٰ وصل إلىٰ درجة من الاضطراب النفسي والشك في صواب الجميع الأمر الذي حدا به لدخول حلبة الصراع الفكري والعقدي طالبا فيما يذكر المصيب ووجه إصابته والمخطىء وسبب خطئه ، والملحد ومدىٰ جرأته والمتفلسف ودرجة زندقته ، والمتصوف وظهور مخرقته إلىٰ غير ذلك من الأسماء التي دخل الإمام الغزالي وراءها لسبر أغوار عقائدها وأسباب ضلالها[٢] .

---

(١) انظر الملل والنحل ، تأليف أبي الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر احمد الشهرستاني المتوفىٰ ٥٤٨هـ ، ط ، دار الفكر ٤١ـ٢٠٩ .

(٢) انظر المنقذ من الضلال ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٧) ط دار الكتب العلمية ط ١٤٠٩هـ ٢٣ وما بعدها . وانظر مقدمة تحقيق فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ، تحقيق الدكتور/ سليمان دنيا ط١ ١٣٨١هـ عيسى البابي وشركاه . ٧٧ـ١٠٤ .

فبهـٰذا نعلم أن الإمام الغزالي كان في عصر يتصارع أهله فكريا ويتماكرون سياسيا ويتخادعون باطنيا وينافقون ظاهريا ويتقاتلون عسكريا .

وهـٰذه تناطحات وتطاحنات لم يكن بالغائب عنها بل كان من المراقبين لها أو المشاركين في وقودها وإطفائها معا . وكتبه وما كتب عنه شاهد عليه بذلك .

* * *

المطلب الثاني

شخصيته

اسمه ونسبه : هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، أبو حامد الغزالي[1] . مولده : ولد الإمام الغزالي في عام ٤٥٠ هـ في بلدة طوس[2] .

نشأته وأسرته : نشأ الإمام الغزالي في بلدته طوس تحت رعاية والده الذي يذكر أنه كان صالحا صوفيا يبكي من المواعظ ويتضرع إلى الله تعالىٰ أن يرزقه ولدا يكون فقيها واعظا[3] .

ولٰكنه توفي قبل أن يرىٰ ولده الإمام الغزالي بلغ مبالغ الرجال وتهيأ له ما كان يسأله له من فقه ووعظ[4] .

وبما أن والده كان يعيش من كسب يده في نسج الصوف وغزله وبيعه فإنه كان يعد من الفقراء ، لذا خلف لولديه محمد وأحمد قليلا من المال وأوصىٰ بهما أحد أصدقائه من المتصوفة المتجردين فرعاهما وأنفق عليهما ما ورثاه من أبيهما ، فلما نفد نصحهما بالالتحاق بمدرسة أخرىٰ لتتوفر لهما الرعاية مع التفقه وطلب العلم[5] .

فالإمام الغزالي علىٰ هٰذا نشأ في كنف أسرة متصوفة فقيرة تتكفف العيش

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ط١٠ ، ١٤١٤هـ ، ١٩/ ٣٢٣ .

(٢) انظر الحقيقة في نظر الغزالي ، تأليف الدكتور سليمان دنيا ، ط٤ دار المعارف بمصر ١٨ ، ١٩ .

(٣) انظر طبقات الشافعية الكبرىٰ ، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ، ابن علي بن عبد الكافي السبكي ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وآخر ، ط١ عيسى البابي الحلبي وشركاه ٦/ ١٩٤ .

(٤) الحقيقة في نظر الغزالي ١٨ .

(٥) انظر طبقات الشافعية الكبرىٰ ٦/ ١٩٣ ، ١٩٤ .

وترضىٰ بما تنتجه إلىٰ أن مات راعيها الأب ، فتحول بوصية من أبيه إلىٰ راع متصوف فقير متجرد لا يتكسب لانقطاعه للعبادة والرياضة .

ثم دله إلىٰ حيلة يعيش منها هو وأخوه إذ نفدت تركة أبيهما فكان ذلك الراعي لهما قد دلهما علىٰ مدخل للعلم والمضي في طريق الجد والاجتهاد ، لذا كان الإمام الغزالي يقول : (طلبنا العلم لغير الله ، فأبىٰ أن يكون إلا لله)[1] . إن مخيلة الإمام الغزالي مهما توسعت بعد هٰذه النشأة فإنها لن تنمحي منها آثارها ولم تنطمس منها أحداثها . وعليه فلا شك أن عيشة المتصوفة ومنهج حياتهم ظل يلاحقه حتىٰ خضع له وفضله علىٰ غيره وتخلىٰ عن كل شيء من أجل التفرغ لممارسته علىٰ ما سيأتي .

* * *

---

(١) السابق ١٩٤ .

المطلب الثالث

حياته العلمية

رأينا أن الإمام الغزالي دخل المدارس والأربطة منذ الصغر ليسد حاجته الضرورية في المعيشة وينال الرعاية المناسبة إذ هو طفل يتيم ، وكان لجوؤه لهٰذه المدارس مدخلا مناسبا ليبدأ مرحلته العلمية مبكرا ، حيث لم يقنع بالتفقه في بلدته طوس فقط بل رحل إلىٰ جرجان العامرة بالعلماء والمدارس ومراكز الثقافة الأخرىٰ فلما وصلها أكبّ على الدروس يقرأ ويقيد ويحفظ ويذاكر ، وذلك باللغتين العربية والفارسية ، فلما وجد من نفسه أنه قد أخذ من العلم ما ينبغي له أن يتقن إحكامه بالمراجعة والتدرب توجه إلىٰ بلدته طوس ومكث فيها ثلاث سنوات يتقن حفظ ما علقه ، ويدارس من يجلس إليه ليعرض عليه ما فهمه وتعلمه[١] .

فلما قضىٰ تلك المدة بين أهله وفي بلدته توجه إلىٰ نيسابور حيث المدارس النظامية الزاخرة بشتىٰ أنواع المعارف والعلوم ، وحيث الأساتذة الكبار النقاد فكان من حظه أن انتظم في مدرسة إمام الحرمين الجويني[٢] ، فلازمه وأخذ عنه العلوم بأنواعها من فقه وأصول ومنطق وغير ذلك من المعارف التي تيسرت في تلك المدرسة علىٰ يد ذلك الشيخ وغيره من أقرانه من أهل العلم والفكر في تلك المدينة العامرة .

ويبدو أن الإمام الغزالي لما توفي شيخه الجويني أحس من نفسه أنه قد تأهل ليكون معيدا ومناظرا ووجد من حيوية الشباب وحب الظهور ما دفعه لولوج

---

(١) انظر مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، تأليف الإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي المتوفىٰ ٧٦٨هـ ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ٣/ ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) هو إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩ـ٤٧٨هـ) انظر مقدمة تحقيق كتابه البرهان ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ ١/ ٢١ـ٤٠ .

معسكر الوزير نظام الملك[1] حيث العلماء يجتمعون ويتبارزون ويعلمون ويناظرون ، وينالون الهبات ويفوزون بالأعطيات ويحصلون على التعيينات الرسمية . وفي ذلك المجلس ظهر نبوغ الإمام الغزالي المبكر أمام جلة من العلماء ، واستحوذ علىٰ فؤاد الوزير فقرّبه وأدناه وعينه في نظاميته ببغداد . فبدأ الإمام الغزالي في التدريس بها ومعاناة أصناف الناس وأنواع الفكر والفرق حتىٰ تراكم علىٰ قلبه الاهتمام بذلك الواقع المحير لكثرة النزاعات والتحزبات والمدافعات فأفسدت عليه حياته في بغداد رغم ما كان فيه من مكانة علمية وجاه عريض علىٰ ما سنرىٰ إن شاء الله تعالىٰ . ولسنا بحاجة في هـٰذا إلىٰ غير الغزالي نفسه حيث صور ذلك تصويرا دقيقا لأنه شاهد عيان يتحدث عن نفسه وعما حوله ، وصلته به بعد أن صار خارج الميدان فيقول :

(أما بعد فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أبثّ إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلىٰ يفاع الاستفسار ، وما استفدته أولا من علم الكلام وما اجتويته ثانيا من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق علىٰ تقليد الإمام ، وما ازدريته ثالثا من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخرا من طريقة التصوف ، وما انجلىٰ لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلىٰ معاودتي نيسابور بعد طول المدة)[2] .

هـٰذه الأسئلة لا يوجهها طالب لعالم إلا وهو يعلم أنه ملم بها قادر على الإجابة عليها وخصوصا أن الخطاب فيها مقصور عليه ، فهي في الحقيقة سؤال واحد : هو : لماذا لا تكتب لنا عن حياتك ؟

إلا أننا لم نجد في الأسئلة شيئاً عن أهل القرآن والقراءات والتفسير ،

---

(١) انظر الحقيقة في نظر الغزالي ٣٠ وما بعدها .

(٢) المنقذ من الضلال ٢٣ ، ٢٤ .

ولا عن أهل الحديث والأثر ، ولا أهل اللغة والأدب ، فهل هٰؤلاء لم يعايشهم الإمام الغزالي أم أنه لا أثر لهم في المجتمع الإسلامي آنذاك ؟

وإذا كانت الأسئلة لم يرد فيها سؤال عنهم فلنتوقع أن الأجوبة لا تتناولهم أيضاً ، وإلىٰ إجابة الأسئلة : قال الإمام الغزالي لسائله : (فابتدرت لإجابتك إلىٰ مطلبك بعد الوقوف علىٰ صدق رغبتك ، وقلت مستعينا بالله ومتوكلا عليه ، ومستوثقا منه ، ملتجئا إليه : اعلموا أحسن الله تعالىٰ إرشادكم وألان للحق قيادكم أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب علىٰ كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجي : ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[١] هو الذي وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وهو الصادق المصدوق حيث قال : (ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة)[٢] . فقد كان ما وعد أن يكون)[٣] .

الاختلاف والتفرق الموعود به واقع ، وتباين الطرق ظاهر وكل يدعي أنه هو الناجي فما الدليل علىٰ ذلك ؟ .

ولما كان الخوض في غمار هٰذا البحر العميق مغرق والنجاة فيه قليلة فلماذا يخوضه الإمام الغزالي ؟

وجواب ذلك من نص كلامه هو :

(ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هٰذا لبحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم علىٰ كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ،

---

(١) سورة الروم ، الآية (٣٢) .

(٢) انظر سنن أبي داوود ، كتاب السنة ، باب شرح السنة ، وسنن الترمذي كتاب الإيمان ، باب (١٨) .

(٣) المنقذ ٢٤ ، ٢٥ وانظر الفرق بين الفرق ، الباب الأول منه وما بعده .

وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومستنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أتطلع علىٰ بطانته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف علىٰ كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع علىٰ غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور علىٰ سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلىٰ درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعنا في جبلتي لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة علىٰ قرب عهد شرة الصبا . . .)[1] .

فهٰذا هو الإمام الغزالي طالبا للعلم وباحثا عن الحقيقة التي أدخله طلبها في متاهات من العقائد والأفكار والمذاهب والاتجاهات مع علمه بما فيها من مخاطرة وما في معاناة الرد أو المناظرات لأصحابها من مشقة وعنت ، وحيث إن المؤرخين لم يحفلوا كثيرا بتتبع أسماء شيوخه وتحديد الفنون التي أخذها عن هٰذا أو ما أخذه عنه وأخذه عن غيره فإننا لا ننوي تجاوزهم وتتبعها ، ولٰكن تذكر أن حصيلة الإمام الغزالي العلمية في أنواع الفنون والعقائد تدل علىٰ تعدد مشايخه وكثرة من أخذ عنهم ، ولذا لا يمكن أن نقول فقط .

إنه أخذ في صباه طرفا من الفقه علىٰ أحمد بن محمد الراذكاني في بلدته[2] طوس . وأخذ في جرجان تعليقة من الفقه أيضاً على الإمام أبي نصر الإسماعيلي[3] ، ولازم في نيسابور إمام الحرمين[4] بل هناك جيش من المشايخ

---

(١) السابق .
(٢) انظر طبقات الشافعية الكبرىٰ ٦/ ١٩٥ .
(٣) السابق وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣ .
(٤) انظر مقدمة تحقيق محمد السليماني لقانون التأويل للقاضي أبي بكر بن العربي ط١ دار القبلة=

وإن لم يذكرهم المؤرخون ولم يحل عليهم الإمام الغزالي في مؤلف خاص بهم أو أثناء مؤلفاته الأخرىٰ والسبب في الحقيقة غير واضح وأوضح الأسباب أن الإمام الغزالي ما كان يرىٰ إلا أنه هو الأستاذ والمرجع ولذا قلت النصوص المنقولة في كتبه ولم يشر فيما وقفت عليه إلىٰ أحد العلماء إلا لبيان وجه مستدرك عليه .

وعندي أن كثرة تلاميذه وكثرة ترحاله شغلتهم عن الاحتفاظ بأسماء عدد يكفي في سرد قائمة معقولة من تلاميذه ولعله لما أهمل شيوخه ولم يدونهم ولم يذكر منهم بالاسم إلا من يريد التعقيب عليه جازوه بذلك[(١)] .

وإلا فتلامذته بلا شك في نيسابور أيام ملازمته للجويني ، وخمس سنوات في معسكر نظام الملك ، وأربع سنوات أو أكثر في بغداد ، ثم في دمشق والقدس والحجاز ، وما كان في مدرسته النظامية في بغداد مرة أخرىٰ ، ثم في مدرسته الخاصة في نيسابور التي ختم بها حياته العلمية خلق كثير من الطلبة والتلاميذ[(٢)] .

أما مؤلفاته فكثيرة جداً لكثرة المجالات التي خاض فيها ، وتعدد الفرق التي عارضها أو وافقها والأتباع الذين يريد إرشادهم وتعليمهم والعبّاد الذين يريد توضيح المنهج أمامهم وهـٰذه الكثرة في الأسماء يعتبر جلها رسائل كبيرة الأسماء متعددة الأغراض ذكر هو معظمها في كتبه ومصنفاته موضحا سبب تأليفها وفوائدها وترتيبها بين كتبه من حيث الأهمية في المنهج المدروس إن كان فقها أو عقيدة[(٣)] ، وقد درست مؤلفات الإمام الغزالي قديما وحديثا وانتقد

= للثقافة الإسلامية ، جدة ، ١٤٠٦هـ ، ٥٤ وما بعدها ومقدمة تحقيق كتاب المعلم بفوائد مسلم للإمام أبي عبد الله محمد بن علي ابن عمر المازري ، تحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، دار الغرب الإسلامي ١/ ٩٣ـ١٠٤ .

(١) انظر الحقيقة في نظر الغزالي ١٨ـ٦٣ .

(٢) أبو حامد الغزالي والتصوف ، تأليف : عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية ، دار طيبة ، ط٢ ، ١٤١٩هـ ، ٢٧ـ٣٤ .

(٣) انظر المنقذ ٧٧ وجواهر القرآن، دار إحياء العلوم ط٢ ، ١٤٠٦هـ، ٣٩ـ٤١ والإحياء ١/ ٩٢ .=

منها ما دعت وجهة نظر ذلك الناقد إلىٰ نقده ورده أو إتلافه وإحراقه وحتى التنفير منه أو التحذير عنه .

وأعظم جهد وقفت عليه خصص لدراسة كتب الإمام الغزالي جمعا لأسمائها واختصاصاتها وصحة عزوها وأماكن وجودها هو كتاب : مؤلفات الغزالي ، تأليف عبد الرحمن بدوي[1] .

حيث استعرض مؤلفه الأعمال التي بذلت قبله في التعريف بكتب الإمام الغزالي موجها انتقاده لبعضها مسترضيا الآخر ، ثم قسم كتابه إلىٰ سبعة أقسام :

القسم الأول : كتب مقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي ١٠ـ٢٣٨ .

القسم الثاني : كتب يدور الشك في صحة نسبتها للغزالي ٢٣٩ـ٢٧٦ .

القسم الثالث : كتب من المرجح أنها ليست للغزالي ٢٧٧ـ٣٠٢ .

القسم الرابع : أقسام من كتب الغزالي أفردت مستقلة ٣٠٣ـ٣٥٢ .

القسم الخامس : كتب منحولة ٣٥٣ـ٣٨٨ .

القسم السادس : كتب مجهولة الهوية ٣٨٩ـ٣٢٦ .

القسم السابع : مخطوطات موجودة ومنسوبة للغزالي ٣٢٧ـ٤٦٨[2] .

وأظن أن سردها هنا لا يفيد في هـٰذا البحث كثيراً وما سنعتمد عليه منها سوف يكون إن شاء الله تعالىٰ من القسم الأول في الغالب ، والنادر من القسم الثاني .

فهـٰذا هو الإمام الغزالي بمجمل حياته العلمية طالبا ومعلما وداعية بالمؤلفات والمناظرات والردود والمحاورات ، وما فاتنا هنا من التعرف علىٰ منهجه في العقيدة ندركه إن شاء الله تعالىٰ في المطلب الآتي :

* * *

---

(١) انظر المذكور ط١ المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٠م .

(٢) انظر السابق والحقيقة في نظر الغزالي ٦٤ وما بعدها وأبو حامد الغزالي والتصوف ٤١٣٥ .

المطلب الرابع
منهجه في العقيدة

رأينا أن الإمام الغزالي بدأ متفقها علىٰ مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، ثم كان من أبرز شيوخه المعروفين إمام الحرمين وهو أصولي متكلم علىٰ طريقة الأشعرية ، واستمعنا للإمام الغزالي نفسه يحدث أخاً له في الدين عما استفاده في حياته العلمية ومغامراته العقلية والفكرية بعد أن انحلت عنه ربقة التقليد للآباء في العقائد الموروثة .

وكانت الأسئلة عن الطوائف الآتية :

أولاً : ما الذي استفدته يا إمام من علم الكلام ؟

ثانياً : ما الذي اجتويته من طرق أهل التعليم القائلين بعصمة الإمام ؟

ثالثاً : ما الذي ازدريته من طرق التفلسف ؟

رابعاً : ما الذي ارتضيته آخرا من طريقة التصوف ؟[(١)] .

حتىٰ قال في آخر اعتراف له بالجد في الطلب الموصل للحق حسب نظره في أصناف الفرق والطوائف : (ومن طلب ما لا يطلب فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب)[(٢)] .

وعندي أن تقسيم الطالبين للحق إلى الأصناف الأربعة نوع من قصر النظر إذ في الأمة من هو متمسك بالحق وفوق هـٰؤلاء في اليقين والجد في طلب الحق والدفاع عما هو عليه .

فالمتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية طوائف حادثة في الملة الإسلامية ولا تمثل إلا بعضا قليلا من أصناف الطالبين للحق في الأمة وإن كانوا أكثر مشاغبة ومجادلة .

---

(١) انظر المنقذ ٢٣ـ٢٦ .

(٢) السابق ٣٠ .

وعلىٰ كل فالإمام الغزالي قرأ عقائد هـٰؤلاء منتقدا لا معتقدا وباحثا عن أسباب ضلالهم لا ملتمسا وجها لهدايتهم أو لبيان مزية لهم في الحق أو فضيلة في الدين وهـٰذا واضح جدا من خلاصة ردوده عليهم وتتبعه لعوراتهم وطلبه لسقطاتهم بل معلوم من سياق الأسئلة أنه متضرر بما ضيعه من وقت في النظر في كتبهم وأحوالهم والبحث عن أسرارهم ومآل مقالاتهم حيث درسهم هـٰكذا على الترتيب : علم الكلام ، طريقة الفلسفة ، وطريقة وتعليمات الباطنية ، ثم طريقة الصوفية[1] ، ثم أخذ في بيان حاله مع علوم هـٰؤلاء فتحدث عن تحصيله لعلم الكلام وتصنيفه فيه حتىٰ وجده كما يقول : (علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة)[2] .

وهـٰكذا حاله مع الفلسفة[3] وحاله مع مذهب التعليم وغائلته[4] ثم خاتمة المطاف في تتبع أحوال أصناف الطالبين كان مع الصوفية الذين وجد الإمام الغزالي في سلوك طريقتهم ضالته وكاد أن يلقي عصى التسيار في زواياهم وأربطتهم[5] ، ولـٰكن نقل الذهبي وغيره أنه : (كانت خاتمة أمره إقباله علىٰ طلب الحديث ، ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام)[6] .

أما ما نُقم عليه من كتب وعبارات وألفاظ مستبشعة فقد تصدىٰ لها أهل زمانه والعلماء من بعده فاعتذر في حياته أو دافع عن معلوماته ومرئياته ، ويغنينا عن الإطناب في ذلك ما ألمحنا إليه من حاله وما نقل عن حسن خاتمة أمره

---

(١) انظر السابق ٣١ ، ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) انظر المرجع السابق ٣٤ـ٤٧ .

(٤) انظر المرجع السابق ٤٨ـ٥٥ .

(٥) السابق ٥٦ـ٦٥ .

(٦) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٥ ، ٣٢٦ وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٦/ ٢١٠ .

وما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية من رجوعه وندمه علىٰ ما في كتبه إذ يقول ــ بعد نقد لما جاء في كتبه عن النبوة وغيرها ــ : (ولهٰذا تبين له في آخر عمره أن طريقة الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدىٰ من طريق الآثار النبوية وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ومات أثناء ذلك علىٰ أحسن أحواله وكان كارها ما وقع في كتبه من نحو هٰذه الأمور مما أنكرها الناس عليه)[١] .

والذي يظهر لي ــ والله أعلم ــ أن الإمام الغزالي وإن تبرأ من أصناف الطالبين وركن إلى الصوفية ثم زهد فيها في آخر عمره أنه لم يغير رأيه نهائيا في منهج الأشاعرة الكلامي إذ ما زال يثني عليه في المنقذ كما ذكرنا آنفا إلا أن منهجه في الاقتصاد في الاعتقاد في ترتيب أهمية هٰذا العلم للناس بطبقاتهم كان عندي مصيبا حيث إن من الناس من يضره ، ومنهم من لا يحتاجه ، ومنهم من يكفيه أن يتعلم منه عند الضرورة ما يقمع به شبهة عرضت له أو يدفعها عن غيره ، وهٰذا منهج كرره الإمام الغزالي في الكتاب المذكور[٢] ، وفي إحياء علوم الدين[٣] . ولا نشك أن الإمام الغزالي بدأ جهودا إصلاحية في منهجه في العقيدة بتأليف كتاب إلجام العوام عن علم الكلام حيث يقول فيه :

(اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين ـ وها أنا أورد بيانه وبرهانه ، فأقول : حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هٰذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور :

١ـ التقديس .

٢ـ التصديق .

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ط١ ، ١٤١٥هـ ، مكتبة الرشد ، الرياض ١٥٩ ، وانظر جامع الرسائل لنفس المؤلف ط١ ، ١٣٨٩هـ مكتبة ابن تيمية ١/ ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) انظر منه ط١ ، ١٤٠٣هـ ، دار الكتب العلمية ، ٦ـ١٨ .

(٣) المذكور ١/ ٨٨ـ٩٢ .

٣ـ الاعتراف بالعجز .

٤ـ السكوت .

٥ـ الإمساك .

٦ـ الكف .

٧ـ التسليم)[١] ثم أخذ في البرهنة علىٰ ذلك من المنقول والمعقول[٢] إلىٰ أن قال (أما البرهان السمعي طريقه أن نقول : الدليل علىٰ أن الحق مذهب السلف وأن نقيضه بدعة ، والبدعة مذمومة وضلالة ، والخوض من جهة العوام في التأويل ، والخوض بهم فيه من جهة العلماء بدعة مذمومة ، وكان نقيضه وهو الكف عن ذلك سنة محمودة ، فهٰهنا ثلاثة أصول :

الأول : أن البحث والتفتيش والسؤال عن هٰذه الأمور بدعة .

الثاني : أن كل بدعة فهي مذمومة .

الثالث : أن البدعة إذا كانت مذمومة كان نقيضها وهي السنة القديمة محمودة[٣] .

هٰذا مجمل منهج الإمام الغزالي في العقيدة وما يتصل بها من فرق ، ودراسته تحتاج إلىٰ رسالة دكتوراه . وفيما أجملناه دلالة علىٰ ما أغفلناه طلبا للتناسب الذي قد أوضحناه . وإلى الفصل الثاني في هٰذا التمهيد الذي نؤسس عليه المباني وعلىٰ ضوئه نفهم المعاني .

* * *

---

(١) المذكور ، ضبطه وقدم له رياض مصطفىٰ عبد الله ، دار الحكمة ، دمشق ١٤٠٧هـ ٤٥ـ٦٠ .

(٢) انظر السابق ٦٠ـ٩٦ .

(٣) السابق ١٠٣ .

الفصل الثاني

حياة شيخ الإسلام ابن تيمية

المطلب الأول

عصره

لقد ولد شيخ الإسلام ابن تيمية سنة : ٦٦١هـ بحران العراق . وتوفي سنة : ٧٢٨هـ بدمشق الشام ، فكان عمره : ٦٧ من القرنين السابع والثامن .

والمتتبع لتاريخ المسلمين لا يكاد يجد فيه فترة أحلك من هٰذين القرنين : لما تلاحق فيهما من الأحداث العجيبة ، وما اجتمع فيهما على المسلمين ، من ضعف وتناحر في الداخل ، ومن هجمات لم يعهد لها مثيل من الخارج ، ولما تفشىٰ فيهم من الانحراف العقدي والخلقي والظلم والفساد ، وقد شمل ذلك مختلف جوانب الحياة .

أما في الجانب السياسي : فقد انقسمت الدولة الإسلامية إلىٰ دويلات ضعيفة متناحرة ، ولم يبق للخلافة العباسية نفوذ يذكر ، وقد قضى التتار علىٰ آخر قلاع هٰذه الدولة وأجهزوا عليها باجتياحهم لبغداد عاصمة الدولة الإسلامية وقتلهم للخليفة المستعصم ومن معه سنة : ٦٥٦هـ أي قبل مولد ابن تيمية بخمس سنين .

وقد ولد ابن تيمية بالعراق وعاش بالشام ومصر ، وكانت هٰذه المناطق مسرح الأحداث وعقر دار الإسلام إذ ذاك .

وقد عاصر شيخ الإسلام بعض حملات الصليبيين علىٰ بلاد الشام ومصر

حيث استمرت حملاتهم طيلة قرنين ابتداء من سنة : ٤٩٠هـ إلىٰ سنة ٦٩٠هـ استولوا خلالها مرات علىٰ بيت المقدس ـ طهره الله من أيدي اليهود الغاصبين ـ وعلىٰ غيرها من الثغور الشامية كطرابلس وعكا وصيدا وصور وغيرها كما استولوا علىٰ بعض الثغور المصرية كثغر دمياط .

ولم نطلع في كتب التاريخ علىٰ تفصيل مشاركة شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاد الصليبيين ، غير أنه حين أخرج من القاهرة إلى الإسكندرية سنة : ٧٠٩هـ كتب أخوه إلىٰ أهل دمشق كتاباً بأخباره جاء فيه : « إن الأخ الكريم قد نزل بالثغر المحروس علىٰ نية الرباط »[١] . وإنما يخاف على الإسكندرية حينئذ من غزو الصليبيين ، وقد استرجعت منهم الثغور قبل ذلك بتسع عشرة سنة .

كما عاصر شيخ الإسلام هجمات التتار على الشام بعد أن دوخوا شرق العالم الإسلامي وشماله ، وكان هجومهم أعنف هجوم على المسلمين حصل في تاريخهم ، إن لم يكن أعنف هجوم في تاريخ البشرية ، وقد بدأ هجوم التتار علىٰ بلاد المسلمين سنة : ٦١٦هـ واستمرت حملاتهم إلىٰ سنة ٧٠٢هـ وبلغ هـٰذا الهجوم ذروته باستيلائهم علىٰ عاصمة الخلافة العباسية وقتلهم للخليفة المستعصم في صفر سنة : ٦٥٦هـ وبذلك شغر منصب الخلافة لمدة ثلاث سنين لأول مرة في تاريخ المسلمين ، وقد انتهىٰ هـٰذا الفراغ الدستوري ببيعة السلطان الظاهر للمستنصر العباسي بمصر في رجب سنة : ٦٥٩هـ .

ثم عاد الفراغ الدستوري ثانية بقتل التتار للخليفة المستنصر في المحرم سنة : ٦٦٠هـ حتىٰ بايع السلطان الظاهر بيبرس للحاكم العباسي بمصر في المحرم سنة : ٦٦١هـ وقد حفلت كتب التاريخ والتراجم بمشاركة شيخ الإسلام ابن تيمية في جهاد التتار بالسنان واللسان والقلم ، ومن أشهر ذلك خمسة مواقف هي :

(١) البداية والنهاية : ١٤/ ٥٢ .

١ـ فتواه بوجوب جهاد التتار بعدما زعموا الإسلام ونطقوا بالشهادتين مع إصرارهم علىٰ مخالفة مقتضاهما ؛ إذ لم يحكموا شرع الله وإنما حكموا قانونهم الذي يسمونه « الياسا» أو : « الياساق» . بعد تردد كثير من المفتين في حكم قتالهم ، فلما أفتى الشيخ بذلك وبين مستند فتواه أجمع عليها المفتون وأهل الحل والعقد من المسلمين(١) .

٢ـ خروجه إلىٰ سلطان مصر ليقنعه بوجوب جهاد التتار وحرمة خذلان أهل الشام في قتالهم لهم ، وقد كانت هـٰذه الوفادة ناجحة إلىٰ أبعد الحدود حيث خرج معه السلطان بجيشه والعلماء إلىٰ دمشق لجهاد التتار حتىٰ هزمهم الله(٢) .

٣ـ خروجه إلىٰ قازان ملك التتار ليأخذ منه الأمان لأهل دمشق بعد هزيمة جيشي مصر والشام بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون أمام التتار حتىٰ وصل التتار إلىٰ مشارف دمشق سنة ٦٩٩هـ ، وقد كانت هـٰذه الوفادة ناجحة أيضا لما ترتب عليها من أخذ الأمان لأهل دمشق علىٰ أنفسهم وأموالهم(٣) .

٤ـ خروجه إلىٰ بولاي ملك التتار بعد استيلائه على الأغوار وتخريبه لتلك الجهات وسبيه لنساء المسلمين وذراريهم ، وكانت الوفادة ناجحة أيضاً حيث استخلص من أيدي التتار كثيراً من أسرى المسلمين ونسائهم(٤) .

٥ـ مشاركته في معركة شقحب ، فقد حمل السلاح في نفر من أصحابه وخرج مع جيشي الشام ومصر لجهاد التتار ، وقد كان في كل المواقف يحثّ الناس على الجهاد ويرفع معنوياتهم ، فلما التقى الجمعان في شهر رمضان عام : ٧٠٢هـ أبدى الشيخ من الشجاعة والثبات والبلاء الحسن ما جعله محل تقدير من القادة والجيوش والعامة .

---

(١) انظر البداية والنهاية : ١٤/ ٥٢ .
(٢) انظر مجموع الفتاوىٰ : ٢٨/ ٥٠٠ وما بعدها ، والبداية والنهاية : ١٤/ ٢٥ .
(٣) انظر البداية والنهاية : ١٤/ ١٧ .
(٤) انظر السابق .

وقد هزم الله التتار في هـٰذه المعركة بعد قتال عنيف[(١)] .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية له أثر كبير في عصره حيث كان مؤثرا لا متأثرا ومصلحا دينيا واجتماعيا ومشاركا في الشؤون العامة للأمة برأيه وعلمه وسعيه في المصالحة بين المسلمين وجمع كلمتهم وحثهم علىٰ طاعة السلطان والانقياد لأوامر الرحمن حتىٰ كان بتلك الجهود المخلصة محبوبا موقرا من العامة والخاصة .

هـٰذا بالإضافة إلىٰ أن له خصوما وحسادا وأعداء يخافون من نشاطه العلمي وسعيه الإصلاحي وفتاواه التي تحرك السلاطين فمن دونهم ، أما الأعداء من أجل المعاصرة والمغالبة من أجل الظهور فيبدو أن شيخ الإسلام ابن تيمية ما كان يكترث بهم كثيراً ولا يعطي لهم من الاهتمام والوقت إلا المجلس من أجل إظهار الحق أما إذا تبين لهم ما يريده وما يدعو إليه تركهم وما هم فيه ولا يرضىٰ بمرور الوقت بعد ذلك في مهاترات الأقران ومجادلات الحساد[(٢)] .

هـٰذا هو عصر شيخ الإسلام ابن تيمية ومجمل ما كان له من فاعلية في أوضاع الأمة المتردية وما كان له من وقوف في وجه النكبات القاتلات ، ونرىٰ في المطلب الثاني شخصيته وكيف تكونت حتىٰ وصلت هـٰذا المبلغ في الإمامة .

* * *

---

(١) انظر السابق ١٤/ ٢٤ـ٢٨ ، وانظر دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول ، ماجستير في قسم التاريخ والحضارة بجامعة أم القرىٰ، إعداد الطالبة/ مريم محمد عوض بن لادن، ١٤٠٣هـ .

(٢) انظر محمد دهمان ، في رحاب دمشق وأخبار دار الحديث السكرية التي كان يقطنها شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٠ وما بعدها ، انظر خطط الشام ، محمد كرد علىٰ ، المطبعة الحديثة ، بدمشق ، ١٣٤٣هـ ١/ ١٤٣ ، والفتاوىٰ ٢٨/ ٥٥٣ وما بعدها ، انظر مقدمة تحقيق الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول ، تأليف ابن تيمية ، تحقيق محمد بن عبد الله بن عمر الحلواني ، محمد كبير أحمد شودري ، نشر دار الرمادي ، ١٤١٧هـ ، ١/ ٣٣ـ٤٧ .

المطلب الثاني

شخصيته

اسمه ونسبه : هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن الخضر بن تيمية النميري الحراني ثم الدمشقي[١] .

مولده ونشأته : ولد كما أسلفنا في حران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول عام ٦٦١هـ ونشأ فيها إلىٰ أن بلغ السابعة تقريبا حتىٰ جاءت نكبة التتار لتلك الناحية لجأ أهله إلىٰ دمشق يجرون كتبهم ويسيرون بعيالهم[٢] .

وفي دمشق كانت مواصلة النشأة السريعة حيث طلب العلم وهو متمكن من المشايخ في المدارس والجوامع ودور الحديث المنتشرة ، (فنشأ بدمشق أتم النشء وأزكاه ، وأنبته الله أحسن النبات وأوفاه ، وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة ، ودلائل العناية فيه واضحة . . .)[٣] .

وهٰذه الهبات الربانية إذا وجدت تنمية ورعاية أثمرت بسرعة ثمرات مباركة . وهٰذا ما هيأه الله تعالىٰ لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث رضع لبن المرأة الصالحة ست المنعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية والدته الشيخة المعمرة فوق السبعين سنة المتوفاة سنة ٧١٦هـ[٤] وإذا كان ارتضع من أمه هٰذه لبنا مباركا وفطرة سليمة ، فإن والده المدرس في دار الحديث السكرية

---

(١) انظر السابق ١/ ٥١ وقارن بما في كتاب تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبو زهرة دار الفكر العربي ٦٠٠ ، ٦٠١ .

(٢) انظر ذيل تاريخ الإسلام للذهبي بواسطة محقق كتاب التوكل لابن تيمية علىٰ بن عبد العزيز بن علي الشبل ، دار الصميعي ط١ ، ١٤١٦هـ ، ٧٩ وما بعدها .

(٣) لكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية ، تأليف الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ، تحقيق وتعليق نجم عبد الرحمن خلف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، ٥٣ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٤/ ٨١ .

بدمشق أرضعه القرآن وعلومه والحديث وفنونه وأجلسه بين يديه وأقعده بين يدي غيره من جلة علماء دمشق ، وكان فيما رأينا مهيأ من الله تعالىٰ للحفظ والفهم والتحصيل مع ما ظهر عليه من الجد والاجتهاد في الطلب ، وذلك ما سنتحدث عنه في حياته العلمية وهو المطلب الثالث .

* * *

المطلب الثالث

حياته العلمية

رأينا ما وُصف من حال شيخ الإسلام ابن تيمية من مخاييل النجابة والذكاء المفرط مع الجد والاجتهاد في الطلب وما هيأه الله له من فرص طلب العلم من توافر العلماء والمدارس رغم ما في تلك الحقبة من نكد ومروعات إلا أنه : (ختم القرآن صغيرا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتىٰ برع في ذلك ، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار ، ولقد سمع غير كتاب علىٰ غير ذي شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية . . .)(١) .

(فاستوعبت آفاق دراسته ـ الفقه والحديث والعقائد وعلوم العربية ، وكان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلسفية ودراساته المقارنة تدل علىٰ معرفته لآراء الفلاسفة . . . ولما شب أحمد عن الطوق وامتلأ قلبه بالمعرفة ، واستوىٰ رجلا سويا جلس في مجلس الدرس بعد أبيه ، إذ أبوه قد مات سنة ٦٨٢هـ)(٢) .

هٰذا هو شيخ الإسلام ابن تيمية تعلم منذ الصغر علوم الكتاب والسنة واللغة العربية وما يتصل بذلك من نحو وصرف وبلاغة ثم نظر حوله فوجد المكان شاغرا فجلس للتدريس فحضر الناس لمجلسه الأول فأعجبوا به وتعجبوا من صغر سنه وغزارة علمه . وتواصل عطاؤه حتىٰ بزّ أقرانه ولاحق شيوخه .

وتوسعت معارفه شيئا فشيئا بدوام النظر والمطالعة والمناظرة والبحث عن الحق والحقيقة . فإذا به يسهم مساهمات واسعة في معارف الفلاسفة وينقدهم ويبطل ما بنوه من قواعد وينقض ما أسسوه من بنيان ، ثم يظهر ذلك للناس في كتب مفيدة رزينة الحوار سهلة الأسلوب سليمة من العيوب(٣) .

---

(١) الكواكب الدرية ٥٣ .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ٦٠٥ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٤/١٦ .

ولا نريد هنا مدحه ، ولكن نقصد تلخيص جملة مما وُصف به ، إذ المقام هنا مقام إيجاز . ولذا فإننا نحيل إلى الذين توسعوا في دراسة شيوخه وتلاميذه ودرسوا كتبه وتتبعوا أماكنها وقارنوا بينها وصححوا أسماءها وبينوا ما نشر منها ، ونوع النشر الذي خرج به ، فذلك أكثر فائدة للقارىء وأفيد لهٰذا البحث الذي يحتاج أن يوفر جل صفحاته لعنوانه ويسهل بالتعريف فقط المدخل لقرائه[١] .

ولئن أحلنا علىٰ من استوفى المعلومات عن الشيوخ والتلاميذ والمؤلفات فلنعط مجملا عن مضمون منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة وذلك هو المطلب الرابع .

* * *

(١) انظر المجهود المضني الذي قام به الدكتور/ علي بن عبد العزيز بن علي الشبل في مقدمة تحقيقه المشار إليه آنفا لرسالة التوكل لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث جمع أسماء (٢٦١) من مؤلفات ورسائل هٰذا الشيخ ما بين مخطوطة ومطبوعة ونبه علىٰ ما حقق في أقسام الدراسات العليا وما ناله جهد من العلماء الآخرين . انظر ١٥ـ٧٤ وقارنه بجهد الزملاء الحلواني ومحمد كبير شودري في تحقيقهما للصارم المسلول في قسم العقيدة بجامعة أم القرىٰ حيث حصلا به على الماجستير ، مرجع سابق ١/ ٦٤ـ١٥٢ .

المطلب الرابع

منهجه في العقيدة

إن منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة كان منطلقا من مركز معلوماته الأساسية وهي الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة إذ هٰذه هي المعلومات التي لقنها منذ نعومة أظفاره وشب عليها وعاش عليها كهلا ثم مات وهو ينافح عنها شيخا هٰذا مع أنه درس العلوم التي كانت من أسباب انحراف كثير من الناس ، كالفلسفة والمنطق اليوناني وعلم الكلام ، وتفهمها وتعمّق فيها ليدرك مواطن الزيغ فيها وأسباب ضلال أصحابها .

فرد على المتكلمين بقواعد حسان ثابتة استخرجها من استقراء القرآن الكريم وما فيه من أساليب جدلية وبين حيال ذلك ما كان عليه السلف الصالح ثم رد على المناطقة ونقض المنطق وفضح الباطنية وأفتىٰ فيهم فتاوىٰ موثقة لم يتمكنوا من التهرب من انطباقها عليهم ، وبين منهاج السنة ودحض مفتريات الزنادقة من المتصوفة وأهل البدع عموما .

وبهٰذه الجهود أحيا في الأمة روح النظر والابتعاد عن المنزلقات مع توضيح مناهج السلف الصالح وما كانوا عليه من بعد عن مواطن الشبه مع التمسك بالمنصوص وفهمه علىٰ مقتضيات المعقول والمنقول ودرء التعارض بينهما ، وما وصفناه من منهجه ، فمؤلفاته شاهدة به ومتواتر عنه نقله ، وهو الذي كان سببا في تنوع خصومه وكثرة أعدائه ولٰكن يبقى الحق ويذهب الباطل وأهله .

وأحسن ما وقفت عليه في الذب عن مصداقية شيخ الإسلام ابن تيمية وما عرف عنه من بيان للحق وطمس ما افتراه عليه أعداؤه هو ما كتبه

الدكتور/ صالح الفوزان في مجلة البحوث الإسلامية[1] .

هٰذه نبذة من حياة شيخ الإسلام تعطىٰ لمحات ، ولا تكفي في نهاية الغايات وإلىٰ صلب البحث بإذن الله تعالىٰ .

* * *

(١) انظر العدد ٢٤/ جمادي الآخر ١٤٠٩هـ وقارنه بما في العدد ١٨/ ١٤٠٧هـ ٢٣٩ وما بعدها والعدد ٢٤ أيضا ٢٠٣ وما بعدها .

الباب الأول

حقيقة النبوة والرسالة

الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما

تمهيد

النبوة والرسالة في اللغة والاصطلاح

أولاً : تعريف النبوة والنبي لغة واصطلاحاً :

الأصل في اشتقاقه بالاستقراء عند علماء اللغة والشريعة يرجع إلىٰ ثلاثة ألفاظ هي :

الأول : أن النبي مشتق من النبإ الذي هو الخبر العظيم .

الثاني : أنه من النبوة أو النباوة علىٰ معنى العلو والارتفاع والعلَم الظاهر .

الثالث : أنه من النبيء الذي هو الطريق الواضح الذي ينهج بلا دليل وخريت .

وهٰذه الاشتقاقات لا تعارض بينها من حيث المعنىٰ علىٰ أنه يوجد بين أهل اللغة وغيرهم من أهل العلم الذين لهم حظ في فهم المقاصد اللغوية اختلاف يسير في لفظ (النبي) هل هو مهموز أو غير مهموز ؟ وأيهما أجود : الهمز أو التسهيل ؟ وما السبب المرجح لأحد اللفظين على الآخر ؟ .

وبالبحث سيتضح ذلك إن شاء الله .

أصل كلمة (نبي) في اللغة إما من (نبأ) المهموز أو (نبا) بدون همز .

فمن الأولىٰ يقال : نبأ ، ونبأ وأنبأ ،

قال في القاموس : (النبأ محركة الخبر . ، . . والنبيء المخبر عن الله تعالى[1] .

ومن الثانية : (نبا) أي نبا الشيء ينبو ، أي تجافىٰ وارتفع وتباعد[2] .

والذي يظهر أن لفظة النبي مشتقة من النبأ . والرفعة والعلو والظهور من لوازم معناه عند من اطلع علىٰ مكانته عند ربه وعند عباد الله في الدنيا والآخرة .

قال في القاموس : (والنبي والنباوة ما ارتفع من الأرض كالنبوة) ، و(النبيء المخبر عن الله تعالىٰ ، وترك الهمز المختار ، والجمع أنبياء ونبآء وأنبياء والنبيؤن ، والاسم : النبوءة . . وقول الأعرابي : يا نبيء الله بالهمز . أي الخارج من مكة إلى المدينة أنكره عليه ، فقال : لا تنبر باسمي ، فإنما أنا نبي الله أي بغير همز)[3] .

وعلىٰ أنه مأخوذ من النبإ الذي هو الخبر يقول الجوهري :

(والنبأ : الخبر ، تقول : نبأ ونبأ أي أخبر ، ومنه أخذ النبيء لأنه أنبأ عن الله تعالىٰ ، وهو فعيل ، بمعنىٰ فاعل)[4] .

ويوافق ابن الأثير هـٰذين اللغويين فيقول :

(النبيء : فعيل بمعنىٰ فاعل للمبالغة من النبإ : الخبر ، لأنه أنبأ عن الله ، أي أخبر ، ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه ، يقال : نبأ ونبأ وأنبأ .

قال سيبويه : (ليس أحد من العرب إلا ويقول : تنبأ مسيلمة ، بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز في النبي ، كما تركوه في الذرية والبرية والخابية ، إلا

---

(١) القاموس المحيط ، تأليف : مجد الدين الفيروزابادي ، دار المعرفة ، بيروت (بدون) ٤/ ٣٩٣ باب الهمزة فصل الميم والنون .

(٢) الصحاح للجوهري ، تأليف : إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، ط٣ ١٤٠٤هـ ٦/ ٢٥٠٠ الألف اللينة .

(٣) القاموس المحيط ١/ ٢٩ .

(٤) الصحاح ١/ ٧٤ ، ٧٥ .

أهل مكة فإنهم يهمزون هـٰذه الأحرف الثلاثة ، ولا يهمزون غيرها ، ويخالفون العرب في ذلك)[1] .

ويقول الراغب : (نبي : النبي بغير همز ، فقد قال النحويون : أصله الهمز فترك همزه ، واستدلوا بقولهم : مسيلمة : نبييء سوء)[2] .

إلىٰ أن قال :

(.فالنبي بغير الهمز أبلغ من النبيء بالهمز ، لأنه ليس كل منبإ رفيع القدر والمحل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال : (يا نبيء الله . فقال : (لست بنبيء الله ولـٰكني نبي الله) لما رأىٰ أن الرجل خاطبه بالهمز ليغض منه)[3] .

وللقاضي عياض أن : (النبيء يهمز ولا يهمز ، فمن همزه جعله من النبإ وهو الخبر فعيل بمعنىٰ فاعل لإنبائه عن أمر الله تعالىٰ وشريعته وما بعثه به . وقيل بمعنىٰ مفعول لأن الله أنبأه بوحيه وأسرار غيبه)[4] .

فالنبي عند أهل اللغة علىٰ هـٰذا مأخوذ من النبإ الذي هو الخبر المفيد فائدة عظيمة وهل يحصل المتلقىٰ له علىٰ علم أو غلبة ظن ؟ ، (ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتىٰ يتضمن هـٰذه الأشياء الثلاثة)[5] ، والأصل فيه كذلك أنه مهموز لـٰكن ترك همزه علىٰ وجه الجواز والاختيار أو لأن عدم الهمز أبلغ أو لأن لغة قريش فيه التسهيل وعدم الهمز .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية ، بيروت ٥/ ٤ .

(٢) مفردات القرآن . تأليف الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني ، تحقيق ، صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ط١ ، ١٤١٢هـ ص ٧٨٨ ، ٧٨٩ .

(٣) مفردات الراغب ٧٩٠ .

(٤) مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار ، تأليف القاضي عياض اليحصبي ، طبع ونشر المكتبة العتيقة بتونس ، دار التراث بالقاهرة ٢/ ٢ .

(٥) القاموس المحيط ١/ ٢٩ .

أما عند من يقول إن النبي مأخوذ من كونه طريقا إلى الله تعالىٰ ، وأن العرب تقول للطريق الواضح النبيء فإن الأمر يعود كذلك إلى البحث في كونه مهموزاً أم لا ؟

(والنبيء الطريق الواضح والمكان المرتفع المحدودب كالناى ، ومنه : لا تصلوا على النبيء) (أي المكان المنحدر) (والنبي كغني الطريق)[1] .

فيكون فيه علىٰ هـٰذا الهمز والتخفيف على الجواز والتسهيل للاستعمال وإن كان أخذ النبي من الرفعة أو التنقل من مكان إلىٰ مكان أو الخروج من بلد إلىٰ آخر كما في القاموس والصحاح من أجل الدعوة والتبليغ فذلك أيضاً سائغ من حيث اللغة وداخل ضمن هدف النبوة ووظيفة النبي ، قال في القاموس : (والنباوة ما ارتفع من الأرض كالنبوة والنبي ، . . وبالكسر النبوة)[2] .

وفي الصحاح أن : (النبوة والنباوة ما ارتفع من الأرض . فإن جعلت النبي مأخوذا منه ، أي أنه شُرِّف علىٰ سائر الخلق فأصله غير الهمز ، وهو فعيل بمعنىٰ مفعول ، وتصغيره نبي ، والجمع أنبياء)[3] .

ويضيف الراغب الأصفهاني أن : (بعض العلماء ـ قال ـ هو من النبوة ، أي الرفعة ، وسمي نبيا لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله : (ورفعناه مكان عليا) علىٰ أنه ليس كل منبإ رفيع القدر والمحل : والنبوة والنباوة الارتفاع)[4] .

قال أبو زيد : (نَبأت على القوم أنبأ نبأ ونبوءاً إذا طلعت عليهم . . ونبأت من أرض إلىٰ أرض ، إذا خرجت منها إلىٰ أخرىٰ . . ونبأت به الأرض جاءت به . .)[5] .

---

(١) نفسه ٤/ ٣٩٣ .

(٢) القاموس المحيط ٤/ ٣٩٣ وانظر منه ١/ ٢٩ .

(٣) المصدر المذكور ٦/ ٢٥٠٠ .

(٤) مفردات القرآن ٧٩٠ ، والآية المذكورة في إدريس عليه السلام ، مريم آية (٥٧) .

(٥) الصحاح للجوهري ١/ ٧٤ ، ٧٥ .

ويكون النبي : (عند من لم يهمزه من النبوة ، وهو ما ارتفع من الأرض ومعناه أن له رتبة شريفة ومكانة نبيهة عند مولاه ، أو رفيع البرهان فالوصفان في حقه مؤتلفان)[١] . (وقيل النبيء مهموز وهو ما ارتفع من الأرض لرفعة منازلهم)[٢] ، (ونبأ كمنع نبأ ونبوءاً ارتفع وعليهم طلع ومن أرض إلىٰ أرض خرج)[٣] . ونقل عن ابن بري : أنه يأتي فعيل بمعنىٰ مُفعِل ، كنذير وأليم : بمعنىٰ منذر ومؤلم ، وله شواهد من القرآن الكريم[٤] .

هٰذه مجمل معاني اللغة التي اشتق منها لفظ النبي علىٰ ما قدمنا من حصرهم لأصل اشتقاقه في النبإ والنبي بمعنى الطريق والنبوة بمعنى الارتفاع ورأينا أن الأصل فيه الهمز إلا عند قريش وأن غيرهم من العرب ترك همزه في الـمُحـقّ ويقولون : تنبأ مسيلمة ، ومسيلمة نبيء سوء تنبيها علىٰ أن أخباره كاذبة وليست من عند الله تعالىٰ .

وليس للإمام الغزالي كلام في المصطلحات اللغوية ولا يعول علىٰ أخذ مقاصده من المفردات العربية[٥] ، وقد كانت لشيخ الإسلام ابن تيمية عناية بلغة الكتاب والسنة ودراسة لمعاني المفردات اللغوية التي حصل في مدلولها اللغوي نزاع بين علماء الأمة ومن ذلك لفظ النبي ، ومما اشتق في أصله اللغوي ؟ حيث ناقش الآراء السابقة موافقا علىٰ ما أوصلته معلوماته الواسعة إلىٰ صحته ، راداً ما اقتنع أنه خطأ مخالف لما علم من منهج العرب في استعمالها ، مصححا لأوجه أخرىٰ تنقصها الدقة في استخلاص النتائج الصحيحة .

---

(١) شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا ، لنور الدين على القارى ، تحقيق حسين محمد مخلوف ، ط المدني ٢/ ٧٢٦ ، ٧٢٧ .

(٢) مشارق الأنوار ٢/ ٢ .

(٣) القاموس ١/ ٢٩ .

(٤) انظر : النبي والرسول ، تأليف : الدكتور/ أحمد بن ناصر بن محمد آل حمد ، مكتبة الزلفي ، السعودية ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، ص ٩ ، ١٠ .

(٥) انظر الإحياء ١/ ٨٤ .

وقد وافق شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ أن النبي أصله الهمز في الاشتقاق ويزيد أن القراءة السبعية قاطعة بذلك حيث قرأ الإمام نافع وأقرأ الناس القرآن بالهمز في النبيء بالإضافة إلىٰ أن القول بأن أصله الهمز يجوز معه تسهيل الهمز في الاستعمال ولو لم يكثر الاستعمال بينما لا يجوز استعمال الهمز فيه إذا قلنا بأن أصله عدم الهمز إذ حرف العلة الأصلي في الكلمة لا ينطق به مهموزا ، علاوة علىٰ أن الهمزة أقوىٰ من حرف العلة وأشرف ، واشتقاق اللفظ من أصل يمكن من استعماله استعمالا أوسع أفضل من قصره علىٰ أصل يمنع من ذلك عند الاستعمال ، زد علىٰ ذلك أن لفظ النبي هنا بالهمز والتسهيل مشتركان في الاشتقاق الأكبر حيث اجتمعت فيهما النون والباء ، وانفرد أحدهما بالهمزة والآخر بحرف العلة .

وإلىٰ نص كلامه قال رحمه الله : (والنبوة مشتقة من الإنباء ، والنبي فعيل ، قد يكون بمعنىٰ فاعل ، أي منبى ، وبمعنىٰ مفعول أي منبأ ، وهما هنا متلازمان ، فالنبيء الذي ينبىء بما أنبأه الله به ، والنبىء الذي نبأه الله ، وهو منبأ بما أنبأه الله به ، وما أنبأه الله به لا يكون كذبا ، وما أنبأ به النبي عن الله لا يكون يطابق كذبا لا خطأ ولا عمدا . .)[1] .

(ونفس النبوة تتضمن الخبر ، فإن النبوة مشتقة من « الإنباء » وهو الإخبار بالمغيب ، فالنبي يخبر بالمغيب ويخبرنا بالغيب)[2] .

ولفظ « الإنباء » يتضمن معنى الإعلام والإخبار ، لٰكنه في عامة موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار ، فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة . .)[3] ، (وجمع النبي أنبياء مثل ولي

---

(١) كتاب النبوات ، تأليف ، تقي الدين أحمد بن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م ، ٣٣٣ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ، تأليف تقي الدين أحمد بن تيمية ، تحقيق الدكتور/ محمد رشاد سالم ، ط١ ، ١٤٠٣هـ من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١/ ١٧٩ .

(٣) النبوات ٣٣٥ .

وأولياء ووصي وأوصياء ، وقوي وأقوياء ، ويشبهه حبيب وأحباء) ، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾(١) .

ففعيل إذا كان معتلا أو مضاعفا جمع علىٰ أفعلاء ، بخلاف حكيم وحكماء وعليم وعلماء . وهو من النبأ وأصله الهمزة وقد قرىء به وهي قراءة نافع(٢) يقرأ : (النبيء) ، لـٰكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلك في الذرية والبرية ، وقد قيل هو من النبوة ، وهو العلو ، فمعنى النبي : المُعلَّى الرفيع المنزلة .

والتحقيق أن هـٰذا المعنىٰ داخل في الأول ، فمن أنبأه الله وجعله منبئا عنه ، فلا يكون إلا رفيع القدر عليا ، وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل علىٰ خصوص النبوة إذا كان هـٰذا يوصف به من ليس بنبي بل يوصف بأنه الأعلىٰ كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾(٣) ، وقراءة الهمزة قاطعة بأنه مهموز .

وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أنا نبي الله ولست بنبيء الله)(٤) . فما رأيت له إسناداً لا مسنداً ، ولا مرسلاً ، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث ولا السير المعروفة ، ومثل هـٰذا لا يعتمد عليه واللفظان مشتركان في الاشتقاق الأكبر فكلاهما فيه النون والباء وفي هـٰذا الهمزة ، وفي هـٰذا الحرف المعتل ، لـٰكن الهمزة أشرف فإنها أقوىٰ .

قال سيبويه : هي نبوة من الحلق ، تشبه التهوع ، فالمعنى الذي يدل

---

(١) سورة المائدة ، آية (١٨) .

(٢) هو الإمام نافع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم ، أبا رويم الليثي ولاء إمام دار الهجرة ، توفي بها سنة ١٦٩هـ ، انظر : معرفة القراء الكبار ، للحافظ الذهبي ، وتحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة ، لابن الجزري ، ط١ ١٣٩٢هـ ، دار الوعي بحلب ، ١٦ .

(٣) آل عمران ، آية (١٣٩) .

(٤) سيأتي إن شاء الله أنه في مستدرك الحاكم ٢/ ٢٣١ ، وأنه حديث ضعيف . انظره في ص ٣٣ من هـٰذا البحث .

عليه ، ويمكن أن تلين فتصير حرفا معتلا فعبّر عنه باللفظين ، بخلاف المعتل فإنه لا يجعل همزه ، فلو كان أصله نبي مثل : علي ووصي وولي لم يجز أن يقال بالهمز كما لا يقال عليء ووصيء ووليء بالهمز ، وإذا كان أصله الهمز جاز تليين الهمزة ، وإن لم يكثر استعماله كما في لفظ : خبيء وخبئة ، وأيضا فإن تصريفه : أنبأ ونبأ ينبى ، وينبيء بالهمزة ، ولم يستعمل فيه : نبا ينبو ، وإنما يقال : هٰذا ينبو عنه ، والماء ينبو عن القدم إذا كان يجفو عنها ، ويقال : النبوة ، وفي فلان نبوة عنا ، أي مجانبة ، فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء لا من النبوة)[1] .

ولما أراد شيخ الإسلام ابن تيمية أن يبين أن لفظ النبي كلفظ الرسول من حيث إن الأصل في كل منهما الإضافة إلى الله تعالىٰ ـ رسول الله ـ نبي الله ، علىٰ ما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ ـ قال : (فرسول : فعول بمعنىٰ مفعول أي مرسل ، فرسول الله الذي أرسله الله ، فكذلك نبي الله هو بمعنىٰ مفعول أي منبأ الله ، الذي نبأه الله ، وهٰذا أجود من أن يقال : إنه بمعنىٰ فاعل ، أي منبى ، فإنه إذا نبأه الله فهو نبي الله ، سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه ، فالذي صار به النبي نبيا أن ينبئه الله . وهٰذا ما يبين ما امتاز به عن غيره فإنه إذا كان الذي ينبئه الله كما أن الرسول هو الذي يرسله الله ، فما نبأ الله حق وصدق ليس فيه كذب ، لا خطأ ، ولا عمدا . .)[2] .

الخلاصة : هٰذه النصوص التي سقناها من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية تدل علىٰ أن النبي ، مأخوذ من الإنباء الذي يوجب القطع بالحكم له بالهمز علاوة علىٰ أن قراءة الإمام نافع للقرآن الكريم : النبيء بالهمز وعدم ثبوت

---

(١) النبوات ٣٣٥ـ٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٥ ويقارن بما في جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ومراجعة أحمد محمد شاكر ط٢ ، دار المعارف بمصر ، ٢/ ١٤٠ـ١٤٢ .

الحديث في النهي عن الهمز في النبيء يؤيده وأن الأجود أن يقال فيه أنه بمعنىٰ مفعول أي منبأ من الله تعالىٰ .

تعقيب : يبقىٰ أن نقول إن الهمزة التي هي الأصل عند الجميع قد قال الراغب : إن النبي بغير همز أبلغ ، ولم يعلل ذلك إلا بقوله : (لأنه ليس كل منبإ رفيع القدر والمحل)[1] ، وهـٰذا التعليل يوافقه عليه شيخ الإسلام كما تقدم مع جزمه بأن الهمز أبلغ من التسهيل ولـٰكن شيخ الإسلام ذكر أن الحديث المذكور في النهي عن الهمز في لفظ النبي لا يعرفه في شيء من كتب الحديث وجل من لا يسهو ، فالحديث في مستدرك الحاكم بسنده إلىٰ أبي ذر رضي الله عنه قال : (جاء أعرابي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبيء الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست بنبيء الله . ولـٰكني : نبي الله) .

قال الحاكم : (هـٰذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه ولـٰكن الذهبي في التلخيص قال : (قلت : بل منكر لم يصح . قال النسائي : حمران ـ أحد رواة الحديث ـ ليس بثقة ، وقال أبو داوود : رافضي ، روىٰ عن موسىٰ بن عبيدة وهو واه ، ولم يثبت أيضاً عن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما (أنه) قال : ما همز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء ، وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم)[2] .

هـٰذا كلام الحافظ الذهبي في سند الحديث وقد حكم له بالنكارة التي تدخله في أبواب الضعيف الذي لا يحتج به وأن أحد رواته واه ، وأن الأثر المروي أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما في القول ببدعة الهمز لا يثبت ، ولـٰكن إذا صح أن الهمز ليس في لغة قريش إلا في الأحرف الثلاثة الآنفة الذكر

---

(١) المصدر المذكور ٧٩٠ .

(٢) المستدرك على الصحيحين في الحديث لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري ، وفي ذيله : تلخيص المستدرك لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، دار الكتب العلمية ٢/ ٢٣١ .

عن سيبويه فعندئذ يحكم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من لغة قومه الهمز وكذلك الخلفاء من بعده ويكون من استعمل الهمز عندهم في النبي إما غاضا من شأنه نابرا أو نابزا باسمه قاصدا معنىٰ غير المعنى الذي يقصدونه بالنبي عند الإطلاق ومن هنا جاز التحاكم إلى اللغة دون القراءة أو السنة ، أما القراءة بهمز النبيء فصحيحة متواترة عن إمام دار الهجرة وقراءته سنة كما قال الثقات عن الإمام مالك ونظمه الناظم لمقرئه بقوله :

(إذ كان مَقرأ إمام الحرم ... الثبت فيما قد روى المقدَّم
وللذي ورد فيه أنه ... دون المقارئ سواه سنه)[1]

إلىٰ أن قال في أحكام الهمزة :

(القول في التحقيق والتسهيل ... للهمز والإسقاط والتبديل
والهمز في النطق به تكلف ... فسهلوه تارة وحذفوا
وأبدلوه حرف مدٍّ محضا ... ونقلوه للسكون رفضا

إلىٰ أن قال :

في حرفي الأحزاب بالتحقيق ... والخلف في بالسوء في الصديق)

قال شارحه : (وقوله في حرفي الأحزاب - يعني في الكلمتين جميعا وهما قوله تعالىٰ : ﴿للنبيء إن أراد النبيء﴾[2] ﴿وبيوت النبيء﴾[3] .

---

(١) القصد النافع لبغية الناشيء والبارع على الدرر اللوامع في مقرىء الإمام نافع ، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن الحسن التازي ، وشرح الإمام محمد بن إبراهيم الشريشي ، تحقيق : التلميدي محمد محمود ، دار الفنون ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، ١٥٤ ، ١٥٥ و١٧٢ ، واطلاق الحكم بأن قراءة الإمام نافع سنة دون غيرها من القراءات مما أُخذ على الناظم ، ولعله يعني به كما أراد الإمام مالك عندما سئل عن قراءته فقال : سنة ، يعني سنة أهل المدينة . والله أعلم .

(٢) سورة الأحزاب ، آية (٥٠) .

(٣) سورة الأحزاب ، آية (٥٣) .

وإنما تصرفوا مع الهمزة هٰذا التصرف لأنها : (حرف جلد صعب في اللفظ بعيد المخرج ، وهي مشبهة بالتهوع أو السعلة لشدتها ، وبعد مخرجها. . .)[1] .

وهٰذه الأوجه مع قوة الهمزة وشرفها وصعوبة النطق بها هو ما تقدم في نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية .

فالراجح علىٰ هٰذا أن النبي مأخوذ من الإنباء وأن الأصل فيه الهمز ، وأنه فعيل علىٰ معنىٰ مفعول لأنه ما نبأ إلا بعد أن نبىء أي ما فعل الإنباء إلا بعد ما فعل به ، فهو استحق اسم النبيء لإنباء الله تعالىٰ له دون توقف علىٰ إنبائه هو لغيره بما أنبأه الله به .

وبهٰذا نكون قد عرفنا : النبوة والنبي لغة ، ويدخل في ثنايا ذلك التعريف بالنبوة في الاصطلاح وإن كان لابد من مزيد إيضاح .

النبي والنبوة في الاصطلاح :

تبين بما تقدم أن النبي هو من نبأه الله تعالىٰ بالغيب علىٰ وجه يؤمن به هو ويقطع أنه أمر من قبل الله تعالىٰ .

وبذلك يفوز بهٰذه المكانة العالية والتشريف العظيم واستحق اسم « النبيء » . فإذا كان الأمر الذي نبىء به يتعدىٰ إلىٰ غيره بأمر الله تعالىٰ فهو منبأ ومنبى . نبأه الله بوحيه وأطلعه علىٰ جانب من غيبه وأمره أن يبلغه إلىٰ عباده لذا قالوا : (النبوة سفارة العبد بين الله تعالىٰ وبين ذوي الألباب من خليقته. . كما قيل في هدفها الزائد علىٰ تعريفها إنها : (إزاحة علل ذوي الألباب فيما تقصر عقولهم عنه من مصالح الدراين)[2] .

---

(١) القصد النافع ١٥٥ .

(٢) دلائل النبوة ، لأبي نعيم الأصبهاني ، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران المهراني الأصبهاني ، حققه الدكتور محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس ، دار النفائس ، ط٣ ، ١٤١٢هـ ، ٣٣ .

يقول ابن حزم : (وإنما تكون النبوة بإخبار الملك ، وبوحي صادق ولا سبيل لغيره إلى الوصول إلىٰ مثله ، إلا من خصه الله عز وجل بذلك بدون أن يكون للذي نبىء في ذلك عمل ؛ وإنما هي أن يكون المرء يعلمه الله تعالىٰ علوما يعلمها بها دون أن يتعلمها ولا يكتسبها . فهٰذا حقيقة النبوة)[1] .

وفي شــرح المقاصد أن (النبيء إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحىٰ إليه وكــذا الرسول)[2] .

وتتبع اختلاف العلماء في تعريفات النبوة يطول ، وأجوده عندي ما ذكرته هنا علىٰ أنه سيأتي في تعريف الرسول والفرق بينه وبين النبي ما يتضح منه الوجه الأصوب من مذاهب العلماء في ذلك .

ثانياً : تعريف الرسول والرسالة في اللغة والاصطلاح :

يأتي في اللغة العربية الإرسال والرسالة والرسول علىٰ معان متحدة أو متقاربة ويفهم منها التوجيه والانبعاث والإطلاق والإتيان بالأمر علىٰ وجه الأناة والترفق .

كما أن وزنه الصرفي : فعول « يستوي فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث سواء كان بمعنى الرسالة أو المرسل علىٰ ما سيتضح بإذن الله .

قال في القاموس : (الرسل . . والإرسال : التسليط والإطلاق والإهمال والتوجيه . والاسم الرسالة بالكسر وكصبور وأمير .

---

(١) الأصول والفروع لابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم ، تحقيق الدكتور محمد عاطف العراقي وزملاؤه ، دار النهضة العربية ، ط١ ، ١٩٧٨م ، ٢/ ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) شرح المقاصد ، تأليف : مسعود بن عمر بن عبد اللـه الشهير بسعد الدين التفتازاني ، تحقيق : الدكتور عبد الرحمن عميرة ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، عالم الكتب ، ٥/ ٥ ، وانظر ما بعدها .

والرسول أيضاً المرسل والجمع أرسل ورسل ورسلاء والموافق لك في النضال ونحـــوه .

(وإنا رسول رب العالمين) لم يقل رسل لأن فعولاً وفعيلا يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع . وتراسلوا أرسل بعضهم إلىٰ بعض)[1] .

(وأرسلت فلانا في رسالة ، فهو مرسل ورسول ، والجمع رسل ورسل . والمرسلات : الرياح ، ويقال : الملائكة ، والرسول أيضاً الرسالة .

وقال الأسعر الجعفي :

ألا أبلـــغ أبـــا عمـــرو رســـولاً بـــأنـــي عـــن فتـــا حيكـــم غنـــي

ومنه قول كثير :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتـهـم برســـول)[2]

ويحدثنا الراغب الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن عن أصل هٰذه الكلمة وعموم إطلاقاتها ، والمفهوم من دلالاتها في الاستعمال مستدلا علىٰ ذلك من آي الكتاب العزيز وشعر فصحاء العرب فيقول :

(رسل : أصل الرسل ، الانبعاث على التؤدة . . . ومنه الرسول المنبعث ، وتصور منه تارة الرفق ، فقيل علىٰ رسلك ، إذا أمرته بالرفق ، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول ، والرسول يقال تارة للقول المتحمل كقول الشاعر وهو أبو المنهال الأشجعي :

ألا أبلـــغ أبـــا حفـــص رســـولا فـدىٰ لـك مـن أخـي ثقـة إزاري

وتارة لمتحمل القول والرسالة . . .

وقال الشاعر :

ألكنـي إليهـا وخيـر الـرســو ل أعلمهـــم بنـــواحـــي الخبـــر

---

(١) المصدر المذكور ٣/ ٣٨٤ .

(٢) الصحاح ٤/ ١٧٠٩ ، وانظر ترجمة الشاعر وتخريج الأبيات في المصادر المذكورة .

. . . ورسل الله تارة يراد بها الملائكة ، وتارة يراد بها الأنبياء. . . والإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة ، وقد يكون ذلك بالتسخير كإرسال الريح ، والمطر. . . وقد يكون ذلك بالتخلية وترك المنع. . . والإرسال يقابله الإمساك)[1] .

(وأما الرسول فهو المرسل ، ولم يأت فعول بمعنىٰ مفعل في اللغة إلا نادرا وإرساله أمر الله له بالبلاغ إلىٰ من أرسل إليه واشتقاقه من التتابع ، ومنه قولهم : جاء الناس أرسالاً إذا تبع بعضهم بعضا ، فكأنه ألزم تكرير التبليغ أو ألزمت الأمة اتباعه)[2] .

ومن هٰذا نعلم أن الإرسال عام وخاص وأنه يكون بالخير والشر وأن الرسول من يبعث محملا أو متحملا قولا أو أمرا أو فعلا ليبلغه أو ينفذه .

الرسالة والرسول في الاصطلاح :

يأتي اختلاف العلماء في التعريفات الاصطلاحية بناء على اختلاف نظرتهم للمعرف وحقيقته وحدوده وانطلاقا من قولهم إنه لا مشاحة في الاصطلاح[3] ، ومن هنا اتسع باب البحث في الاعتراضات على التعريفات التي لا تكون جامعة أو مانعة .

وهٰذا ما حصل في تعريف النبي والرسول والنبوة والرسالة حتىٰ حكم الإمام الغزالي : (بأن الرسالة لا تقتنص بالحد والحقيقة بذكر جنسها وفصلها. . (حيث) إن إعطاء الحدود صعب عسر على الأذهان)[4] .

ومع ذلك فقد حاول أهل العلم تقريب معاني هٰذه الألفاظ إلىٰ أذهان الناس

---

(١) المصدر المذكور ٣٥٢ ، ٣٥٣ باختصار .

(٢) الشفا للقاضي عياض مصدر سابق ٢/٧٢٨ .

(٣) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ١١٩ .

(٤) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

وإن كان المرجع الفاصل في ذلك هو الكتاب والسنة .

يقول الماوردي : (والأنبياء هم رسل الله تعالىٰ إلىٰ عباده بأوامره ونواهيه زيادة علىٰ ما اقتضته العقول من واجباتها. . .) (فهم رسل الله تعالىٰ إلىٰ خلقه إما بخطاب مسموع أو بسفارة ملك منزل)[1] .

قال النسفي : فإرساله الرسول : (أمره بإبلاغ الرسالة والوحي : وهو إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام)[2] .

ويضيف الشارح : (جمع رسول فعول من الرسالة ، وهي : سفارة العبد بين الله تعالىٰ وبين ذوي الألباب من خليقته ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة)[3] .

فمجمل هٰذه التعريفات تدل علىٰ أن الرسول : هو إنسان حر ذكر عاقل بالغ أوحي إليه بوحي من الله تعالىٰ وأمر بتبليغه لمن أرسل إليهم ، والرسالة علىٰ ما ذكره العسكري : (جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤديها إلىٰ غيره ، والنبوة تكليف القيام بالرسالة فيجوز إبلاغ الرسالات ولا يجوز إبلاغ النبوات)[4] .

ويفهم من هٰذا أنه يفرق بين النبوة والرسالة ، وذلك هو حديثنا الآتي إن شاء الله تعالىٰ ، بعد جلب جملة من تعريفات العلماء للرسول لنصلها بالبيان عن الفرق بين النبي والرسول والعلاقة بين النبوة والرسالة :

١ـ (فقيل : الرسول ذكر حر بعثه الله تعالىٰ بشرع جديد يدعو الناس إليه

---

(١) أعلام النبوة ، تأليف ، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي ، قدم له محمد شريف سكر ، ط٢ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤١٢هـ ، ٣٣ و٣٨ .

(٢) العقائد النسفية لأبي حفص عمر بن محمد النسفي بشرح مسعود بن عمر بن سعد الدين التفتازاني ، ط مكتبة المثني بغداد (بدون) ص٣٣ .

(٣) السابق .

(٤) الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، ضبطه وحققه : حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ، ط ١٤٠١هـ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام)[١] .

٢ـ (وقيل : الرسول ذكر حر بعثه الله تعالىٰ إلىٰ قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم ، وإن لم يكن جديداً في نفسه كإسماعيل عليه السلام إذ بعث لجرهم أولا ، والنبي يعمه ومن بعث بشرع غير جديد كذلك)[٢] .

٣ـ (وقيل : الرسول ذكر حر له تبليغ في الجملة وإن كان بيانا وتفصيلا لشرع سابق والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بتبليغ أصلا أو أعم منه ومن الرسول)[٣] .

٤ـ (وقيل : الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة كتابا منزلا عليه ، والنبي غير الرسول من لا كتاب له)[٤] .

٥ـ (وقيل : الرسول من له كتاب أو نسخ في الجملة ، والنبي من لا كتاب له ولا نسخ)[٥] .

٦ـ (وقيل : الرسول من يأتيه الملك عليه السلام بالوحي يقظة والنبي يقال له ولمن يوحىٰ إليه في المنام لا غير ، وهـٰذا أغرب الأقوال ويقتضي أن بعض الأنبياء عليه السلام لم يوح إليه إلا مناماً وهو بعيد ، ومثله لا يقال بالرأي)[٦] .

وبعد أن شرح عبد الجبار بن أحمد في شرح الأصول الخمسة الأصل الثاني

---

(١) شرح المقاصد ٥/ ٦ .
(٢) السابق .
(٣) انظر شرح الفقه الأكبر ، ملا علي القاري الحنفي ، دار الكتب العلمية ، ٩٤ .
(٤) الكشاف لأبي القاسم محمود جار الله الزمخشري ، ط دار المعرفة ٣/ ٣٧ وحاشية العقائد النسفية ، ٣١ .
(٥) شرح المقاصد ٥/ ٥ ، ٦ .
(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، ط٢ ، إحياء التراث ، بيروت ١٧/ ١٧٢ ، ١٧٣ .

الذي هو : العدل ، رتب عليه مباحث النبوات وبين وجه ذلك إلىٰ أن قال : (اعلم أن الرسول ، من الألفاظ المتعدية أي لابد من أن يكون هناك مرسل ومرسل إليه ، وإذا أطلق فلا ينصرف إلا إلى المبعوث من جهة الله تعالىٰ دون غيره ، حتىٰ إذا أردت غير ذلك فلابد من أن تقيد. . . وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أنه لا فرق في الاصطلاح بين الرسول والنبي)[١] .

٧- وفي العقائد العضدية : (الرسل : جمع رسول وهو من أرسله الله تعالىٰ إلى الخلق ليدعوهم إليه بالأوامر والنواهي الشرعية)[٢] .

٨- وفي مجموعة الحواشي البهية علىٰ شرح العقائد النسفية :

(والرسول إنسان بعثه الله تعالىٰ إلى الخلق لتبليغ الأحكام)[٣] .

٩- ونقل القرطبي عن الفراء قوله : (الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانا ، والنبي الذي تكون نبوته إلهاما أو مناما ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا)[٤] .

١٠- وفي التعريفات للجرجاني : (الرسول : إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام . ، والرسول (عنده) في اللغة هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض . قال الكلبي ، والفراء : كل رسول نبي من غير عكس ، وقالت المعتزلة : لا فرق بينهما ، فإنه تعالىٰ خاطب محمداً مرة بالنبي وبالرسول مرة أخرىٰ ، والنبي : من أوحي إليه بملك أو ألهم في قلبه أو نبه بالرؤيا الصالحة فالرسول أفضل بالوحي الخاص الذي فوق وحي النبوة ،

---

(١) شرح الأصول الخمسة ، تأليف : عبد الجبار بن أحمد ، بتعليق الإمام أحمد بن الحسين ابن هاشم ، حققه وقدم له : الدكتور عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبه ، ط١ ، ١٣٨٤هـ ٥٦٧ .

(٢) العقائد العضدية ، للقاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفىٰ ٧٥٦هـ ، ط١ دار سعادات ، ١٣١٦هـ ، ٢/ ٢٧٦ .

(٣) المصدر المذكور ، ط كردستان العلمية بمصر ١٣٢٩هـ ، ١/ ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ط٢ ، ١٩٦٥م ، ١٢/ ٨٠ .

لأن الرسول هو من أوحىٰ إليه جبريل خاصة بتنزيل الكتاب من الله)[1] .

هٰذه عشر تعريفات تدل علىٰ مجهود علماء الأمة في استقراء أحوال الأنبياء والرسل وصفاتهم المتعلقة بالنبوة والرسالة حيث اقتصر البعض منهم في تعريفه علىٰ أهم تلك المميزات من الحرية والذكورية والإنسانية والوحي بالأحكام التي لا تنال إلا عن طريق الخبر ولا تحصل بالنظر .

وبعضهم نظر إلىٰ حال المنبأ وكيف يتم تنبيئه هل بواسطة ملك الوحي المعروف بنزوله بوحي الله ونواميسه الكبرىٰ إلىٰ أنبيائه السابقين لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم نظر إلى الموحىٰ به هل هو كتاب جديد يشتمل علىٰ أحكام زائدة علىٰ أحكام سبق أن نزلت علىٰ غير هٰذا النبي فنسخت أو أضافت جديدا .

وبعضهم لاحظ المخاطبين بالوحي وحالهم حال الخطاب هل هم مشركون مكذبون أم النبي الذي بعث فيهم يعرفون ما يدعوهم إليه ويأمرهم به ولا يخالفونه في أصل التوحيد والعلم بصدق النبوات ، وإن كانوا علىٰ طرف من الجاهلية وارتكاب المخالفات والتكاسل عن الطاعات .

وعندي أن الجميع متفقون علىٰ أن النبي هو من نبيء بغيب من الله تعالىٰ لا يمكن حصوله لأحد من الخلق إلا من جهة الله جل جلاله سواء كان بواسطة ملك خاص أو ملك مطلق من الملائكة أو كان بالقذف في الروع أو إلهام علىٰ نحو ما أو صوت يسمعه أو رؤيا يرها فما من أحد من الأنبياء إلا وجمع له ذلك كله أو نبيء ببعضه حتىٰ وقع له علم ضروري وإيمان راسخ أنه المخصوص بهٰذا الأمر المكلف به الملزم بتحمل أعبائه .

وعندي أن المفهوم من عباراتهم أن هناك فرقا أو فروقا بين النبي والرسول حتىٰ من المصرحين بأنه لا فرق عندهم بينهم حيث إن القرآن الكريم مصرح

---

(١) المصدر المذكور ، تأليف الشريف علي بن محمد الجرجاني ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٣هـ ، ١١٠ و٢٣٩ .

بأن الله تعالىٰ فضل بعض النبيين علىٰ بعض والسنة شارحة لأنواع عديدة من مظاهر ذلك التفاضل والفروق وهم يؤمنون بذلك ويقدمونه لا محالة علىٰ مجرد فهومهم من اللغة والاستقراء الناقص الذي لا يسلم من اعتراضات وجيهة أو ظهور أمثلة تنقضه من نصوص الوحي الذي يجب التسليم له[1] .

ولنصل هٰذا بالفقرة الآتية عن الفرق بين النبوة والرسالة والعلاقة بينهما حيث جئنا علىٰ مفهوم النبوة والرسالة في اللغة والاصطلاح .

الفرق بين النبوة والرسالة والعلاقة بينهما :

ألمحنا فيما سبق إلىٰ أن العلماء قد تفاوتت تعريفاتهم للنبي والرسول أو النبوة والرسالة ، وأشرنا إلى اختلافهم في القول بالفرق بين النبوة والرسالة مما يتبين به أنه ليس بدافع مذهبي أو تعصب إلى اتجاه عقدي إذ لم تتواطأ علىٰ عدم التفرقة طائفة معينة تنافح عن وجهة نظرها ، ولم تطبق جماعة معينة علىٰ أن هناك فروقا لازمة أساسية ، ذلك أن النصوص محتملة لوجهة التأويل والتوجيه حيث إنها صالحة لأن تكون دليلاً علىٰ عدم الفرق ومتجهة لوجود فروق ، والأمر عندي في ذلك واسع ؛ حيث إن من فرّق بوجود كتاب منزل جديد إلىٰ قوم كافرين لم يمنع أن يكون النبي ـ الذي ليس له كتاب منزل جديد ـ داعيا إلى الإيمان والتوحيد ، قائما على المدعوين بالسياسة الشرعية والتدبير ، لذا اكتفىٰ بأن بين النبوة والرسالة عموماً وخصوصاً من وجه ، وأقرّ بأن كلاً من النبي والرسول اشتركا في الأصل وهو الإنباء ، وقرنا بالإرسال العام وكلفا بالبلاغ المبين وإنما يطلق الإرسال المطلق للرسول الذي نبىء وأنزل عليه كتاب جديد لقوم مخالفين كافرين ، وقام يدعوهم إلىٰ أصل التوحيد ويشرع لهم بوحي الله إليه حتىٰ يظهر الحق ويندحر الكفر وتعرف الملة التي يدعو إليها إلىٰ عموم

(١) انظر : النبي والرسول ، تأليف الدكتور أحمد بن ناصر بن محمد آل حمد ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، مكتبة القدس بالزلفي ، السعودية ، ١٤ـ٢٣ .

المخاطبين بها ويتميز بذلك المؤمن المصدق من الجاحد المعاند .

قال العسكري : (والفرق بين الرسول والنبي أن النبي لا يكون إلا صاحب معجزة ، وقد يكون الرسول رسولا لغير الله تعالىٰ فلا يكون صاحب معجزة ، والإنباء عن الشيء قد يكون من غير تحميل النبأ ، والإرسال لا يكون إلا بتحميل ، والنبوة يغلب عليها الإضافة إلى النبي ، فيقال :

نبوة النبي لأنه يستحق منها الصفة التي هي علىٰ طريقة الفاعل ، والرسالة تضاف إلى الله لأنه المرسل بها ولهٰذا قال : (برسالتي) ولم يقل : بنبوتي)[١] .

وقال القاضي عياض : (واختلف العلماء هل النبي والرسول بمعنىٰ أو بمعنيين . فقيل هما سواء ، وأصله من الإنباء وهو الإعلام ، واستدلوا بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ . . . ﴾[٢] الآية .

فقد أثبت لهما الإرسال معا ، قالوا : ولا يكون النبي إلا رسولا ولا الرسول إلا نبيا إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة بمعرفة ذلك وحوز درجتهما ، وافترقا في زيادة الرسالة للرسول وهو الأمر بالإنذار والإعلام . . وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن الرسول من جاء بشرع مبتدأ ، ومن لم يأت به نبي غير رسول وإن أمر بالإبلاغ والإنذار ، والصحيح الذي عليه الجماء الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا)[٣] .

ويأتي ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية بنص أصرح في المقصود فيقول :

---

(١) الفروق اللغوية ٢٢٣ .

(٢) سورة الحج ، آية ٥٢ .

(٣) الشفا ٢/ ٧٢٩ ـ ٧٣١ .

(وقد ذكروا فروقا بين النبي والرسول ، وأحسنها : أن من نبأه الله بخبر السماء ، إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول ، فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، ولٰكن الرسالة أعم من جهة نفسها ، فالنبوة جزء من الرسالة ، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بل الأمر بالعكس .

فالرسالة أعم من جهة نفسها ، وأخص من جهة أهلها)[١] .

فصاحب هٰذا النص يثبت أن الفرق الأحسن بين النبي والرسول هو : أن النبي الرسول من أُمر بالتبليغ ، وأنه بذلك كانت الرسالة أخص من النبوة ؛ لأنها داخلة فيها وجزء منها .

هٰذا علىٰ أن في عبارات النص غموضا لا يرفعه شرح النص علىٰ ما هو عليه ، ولعل سبب ذلك سقط في الأصل[٢] .

وبهٰذا نعلم أن العلماء مختلفون في تعريف النبي والرسول والفرق بين النبوة والرسالة . وأن للمفرقين من الحجج ما يؤيد مذهبهم ولغير المفرقين أدلة محجوجة .

وما دام الأمر يتسع لوجهات النظر والاجتهاد في فهم معطيات النصوص بدون دوافع تسيء إلىٰ حقيقة النبوة ومفهومها الشرعي فلا نطيل في هٰذا التمهيد بالنصوص والردود ، ولنصل هٰذا بالمبحث الأول وهو رأي الإمام الغزالي في مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لعلي بن أبي العز الحنفي ، بتحقيق جماعة من العلماء ، ط مكتبة الدعوة الإسلامية ، شباب الأزهر ، (بدون) ١٠٧ .

(٢) انظر : النبي والرسول ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي

إنه مع كثرة مؤلفات الإمام الغزالي في شتى العلوم والفنون فإننا لا نجد له كتابا مخصصا للنبوات يمكننا من خلال عرضه وتتبع أدلته واستقراء منهجه أن نحكم عليه بحكم أو أحكام وفق منهج واحد في كتاب واحد درست فيه النبوة دراسة معمقة متحدة الأسلوب والأفكار .

والذين درسوا مراحل الحياة العلمية للإمام الغزالي اطلعوا علىٰ أنه عاش حياة غير مستقرة وعايش بروحه وعقليته وربما بعقيدته تلك الحياة المرحلية التي وصفت بأنها مرت على الفقه والجدل وعلم الكلام والمنطق ثم الفلسفة بأنواعها ومن ثم الفرق الباطنية ومصارعتها والرد علىٰ كتبها وإشاعاتها الفاسدة ، ثم العزلة والخلوة والتصوف والإعجاب به وبمعارفه وتفضيل أهله والسالكين علىٰ طريقته علىٰ غيرهم من طوائف الأمة .

وانطلاقاً من وصفهم لهٰذه الحياة العلمية فإنهم يخلصون إلىٰ أن الإمام الغزالي لا يمكن تحديد أفكاره إلا من خلال سبر مراحل حياته تلك والوقوف معه في كل مرحلة فيها لمعرفة أثرها فيه وكيفية إظهاره هو لذلك الأثر والذي عنينا هنا من ذلك هو أن الإمام الغزالي بحث النبوة في فصول صغيرة يوجه الخطاب فيها للمنكرين لأصل النبوات ؟ أو الكافرين بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أو طوائف من المسلمين يرتبكون من الذنوب والمعاصي واتباع العقل والفلسفة ما يلزم علىٰ منهج الإمام الغزالي الذي يحاورهم من خلاله أن واقعهم يشهد عليهم بالتكذيب بالنبوة إذ إن : (من أثبت النبوة بلسانه وسوىٰ أوضاع الشرع على الحكمة[١] ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة)[٢] .

---

(١) يعني الفلسفة .

(٢) المنقذ من الضلال ، تأليف أبي حامد بن محمد بن محمد الغزالي ، مجموعة الرسائل رقم=

وانطلاقاً من هٰذا الواقع الذي وصفنا فإن الإمام الغزالي لا يعنيه في هٰذه المناظرات دلائل اللغة العربية أو تعريفات المؤلفين في مجال أصول الدين للنبوة والرسالة حيث إنه لا يفيده كثيرا وهو لا يهدف حسب المجادلة إلى الحشو الذي لا يعين علىٰ إفحام الخصم وإقناعه بأصل النبوة من خلال مدركاته التي يعلمها من نفسه وأطوار حياته وما يحصل له من نمو في المدركات التي يدرك بها الموجودات وأنواع الكائنات بعد أن لم يكن معه منها شيء عند الولادة .

إذا فالإمام الغزالي في كتاباته في النبوات يحاول جاهدا الاستدلال للخصم بأي دليل يراه يقرب إليه الفكرة ويجتذبه إلى الإيمان بها كما أنه يخاطبه حسب الأسلوب الذي يعلم منه معرفته له والتسليم به . وهٰذه أمور ستتضح بإذن الله تعالىٰ عند عرض نصوصه في هٰذا الموضوع .

إذا نظرنا في نصوص الإمام الغزالي التي كتبها عن الرسالة والنبوة نجده في بعض كتبه يقول : (قاعدة في النبوة والرسالة)[1] وفي آخر يقول : (حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها)[2]

وفي ثالث يقرر أنه : (لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي)[3] .

فالإمام الغزالي يريد أن يعطي القارىء حقيقة النبوة أو قاعدة في النبوة والرسالة حسب علمه وما يحق لأهل العلم أن يدعوا معرفته من هٰذا العلم الغيبي الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالىٰ ومن ارتضاه من خلقه لرسالاته وأسرار غيبه إذ مجال كلام العلماء في النبوة مقصور علىٰ ما أخذوه من الوحي الذي يبلغه ذلك المنبأ الموحىٰ إليه من الله ومن خرج عن هٰذه الدائرة وتكلم في

= (٧) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، ٧٧ ، ٧٨ .

(١) عارج القدس في مدارج النفس ، مصدر سابق ، ١٢٩ .

(٢) المنقذ من الضلال ٦٦ .

(٣) إحياء علوم الدين تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي صحح بإشراف الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان ، دار القلم ، بيروت ، ط٣ ، ٣/١١ .

الوحي بكلام ليس من شأن المخلوق الكلام فيه إلا بالوحي إذ لا يعرف إلا به كان متكلما من عنده ولا يكون نتاجه ذلك محل ثقة وبناء علىٰ هـٰذا فإن الإمام الغزالي نظر إلىٰ مصادر المعرفة فوجدها إجمالاً كالآتي :

١ـ الحواس التي تنموا شيئا فشيئا ومدركاتها الملموس والمنظور والمطعوم والمشموم والمبصرات والمسموعات .

٢ـ المعقولات التي هي طور بعد المحسوسات ثم التمييز حيث يدرك الإنسان (فيه أمورا زائدة علىٰ عالم المحسوسات ، لا يوجد منها شيء في عالم الحس) والعقل يفرق به بين الواجبات والمستحيلات والجائزات وهـٰذه أمور : (لا توجد في الأطوار قبله) .

٣ـ وطور آخر : (وراء العقل تنفتح فيه عين أخرىٰ يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل) ، ومعلوم أن الأطوار التي قبل هـٰذا الطور معزولة عنه كما أن كل واحد منها هي معزول عن سابقه فمن استبعد من العقلاء بعد هـٰذا مدركات النبوة فإنه لا مستند له (إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه) ، لذا فقد : (قرب الله تعالىٰ ذلك علىٰ خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير) ، ويعني بذلك الرؤيا المنامية ـ وهـٰذا الأنموذج لو لم يكن معروفا في جنس بني آدم عامة ويجده كل واحد من نفسه ، وذكر له ، لأنكره وأقام الدليل على استحالته ، (فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعا من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل)[1] .

فالإمام الغزالي علىٰ هـٰذا يعرف النبوة بإحدىٰ خواصها وهي إدراك الغيب الذي لا يتصور أن ينال ببضاعة العقل أو التجربة . ويوضح هـٰذه الخاصية بأن

(١) المنقذ من الضلال ٦٦ ، ٦٧ .

علمي الطب والنجوم وجودهما معلوم للناس وخصائصهما عند أهلهما وثقة العالم بهما أكيدة وهما من العلوم والمعارف التي يعلم الباحث فيهما بالضرورة (أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى)[1] ، ويعلل ذلك بأن من أحكام النجوم ما لا يقع إلا في كل ألف سنة وأن من خواص الأدوية ما لا يعرف إلا في مثل ذلك وهـٰذا برهان عنده يتبين به :

(إمكان وجود طريق لإدراك هـٰذه الأمور التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هـٰذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدىٰ خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرناه قطرة من بحرها) .

وانطلاقا من هـٰذه النماذج التي أعطي الإنسان منها ما يحمله على التصديق بأصل النبوة أخذ الإمام الغزالي من ممارسته العملية للسلوك الصوفي أنموذجا وهو :

٤ـ الذوق إذ يقول بعدها : (وأما ما عدا هـٰذا من خواص النبوة إنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف) ، حيث إن الإنسان لا يفهم خاصية للنبي ليس له منها نصيب فالتصديق بعد الفهم ، فبهـٰذا الأنموذج الذي يحصل للسالك في أول طريق التصوف يكون نوع من الذوق المشترك ويكون التصديق بما لم يحصل بنوع قياس (فهـٰذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة)[2] .

وهـٰذا منه ثقة بمسلكه وإظهاراً لثماره عليه والتي منها عنده أن الصوفية : (ظاهرهم وباطنهم (مقتبس) من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة علىٰ وجه الأرض نور يستضاء به . . إذ من أول الطريقة تبتدىء المشاهدات

---

(١) هـٰذا رأي الإمام الغزالي الذي كرره أكثر من مرة ، ومعلوم أن العلماء يعدون هـٰذه من العلوم التجريبية ولعلها تكون في أصلها هبة من الله تعالىٰ .

(٢) السابق ٦٧ ، ٦٨ .

والمكاشفات حتىٰ إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد . . . وبالجملة فمن لم يرزق منه بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم ، وانطلاقا من قناعته هٰذه يصرح قائلا : (ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها)[١] .

وكما أن الإمام الغزالي أدرك حقيقة النبوة وخاصتها حتىٰ صار ذلك له علما ضروريا من الممارسة والتجربة المؤدية للذوق الذي هو عنده (كالمشاهدة والأخذ باليد)[٢] ، فإنه يدل من يريد أن يحكم بالنبوة لمعين حتىٰ يحصل له علم ضروري بذلك أن ينظر في الأخبار الواردة عنه ويمعن النظر فيما جاء عنه من أقوال وعبادات بعد أن يفهم معنى النبوة علىٰ ما تقدم إيضاحه ، فإنه أي السالك بالتجربة والاعتبار للأقوال والأعمال يحصل له علم ضروري يقيني بالنبوة .

فالإمام الغزالي علىٰ هٰذا وصل إلىٰ علم ضروري بالنبوة ، والأمر الضروري ذاتي لا يشارك فيه صاحبه إلا من حصل عنده من العلم به ما حصل له ومعلوم أن مفهوم النبوة والرسالة والعلم بهما ليس من العلوم الضرورية التي يستوي فيها الناس . ويشهد لهٰذا أن الإمام الغزالي نفسه لم يكن عنده هٰذا العلم الضروري بالنبوة والرسالة الذي قال إنه فاز به بعد سلوك المسلك الصوفي ؛ لذا فقد احتاج إلىٰ تعريف غيره بها بذكر خاصيتها الأساسية وهي إدراك الغيب الذي لا مجال للعقل والتجربة فيه إلىٰ غير ذلك من الأمور التي شرحها ليقرب بها مفهوم النبوة إلىٰ مخاطبه إذ هي عنده مرتبة فوق مرتبة الإنسانية ولو طلب من نبي أن يشرح خواص الرسالة وحقيقتها وإظهار حدها وجنسها وفصلها لتوقف الإيمان به علىٰ معرفة هٰذه الأمور التي لا تتوجه المطالبة بها ولم يقع التكليف من الشارع بالعلم بها بل يكفي التصديق بالرسالة

---

(١) المنقذ من الضلال ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) السابق ٧٠ .

بمعرفة وجودها وآثارها كما هو الواقع في كثير من الأمور التي يعلم الناس وجودها وأثرها ولا يطالبون بحدها ولا رسمها ، (فإن العقل والنفس وكثيرا من المفارقات تتصور ولا حد لها ولا رسم)[1] .

فالإمام الغزالي علىٰ ما شرح يبين : (أن الرسالة لا تقتنص بالحد والحقيقة بذكر جنسها وفصلها ، وذلك لأن معرفة الأشياء لا تتوقف على الظفر بحدودها ووجدان جنسها وفصلها ، فكم من موجود لا جنس له ولا فصل ولا حد ولا رسم ، وماله جنس وفصل فربما لا يظفر بجنسه وفصله ، وأكثر الأمور كذلك ، فإن إعطاء الحدود صعب عسر على الأذهان .

نعم يستدل علىٰ وجوده وحقيقته بآثاره . . ولو سأل سائل نبيا من الأنبياء عن خواص الرسالة وماهيتها وإبراز حدها بجنسها وفصلها ترىٰ كيف كان جوابه عنها ؟

أو كان يشرع في تحقيق ذلك وذكر حده ورسمه وتعديد خواصه حتىٰ تتوقف رسالته علىٰ معرفة ذلك كله ، وإن لم يعرف المستجيب ذلك لا يمكنه تصديقه ؟

أم كان يجب عليه التصديق في الحال سواء عرف حد الرسالة أو لم يعرف وإذا كانت الرسالة مرتبة فوق مرتبة الإنسانية كما كانت الإنسانية مرتبة فوق مرتبة الحيوانية ، لم يتوقف اتباع الرسول علىٰ معرفة الرسالة كما (لا) يتوقف استسخار الحيوان علىٰ معرفة الإنسانية ، بل الإنسان لو أراد تعريف الحيوان خواص الإنسانية كان ذلك سفها منه ، وتكليف ما لا يطاق ، كذلك لو أراد الرسول تعريف الإنسان خواص الرسالة كان ذلك تكليفا منه بما لا يطاق ، فلا المطالبة متوجهة عليه ولا الجواب عنه لازم . . . والتعريف بالحقائق مكانياتها وزمانياتها والمواليد التي بين المكان والزمان)[2] .

---

(١) معارج القدس ١٣٠ .

(٢) السابق .

من هـٰذا النص وغيره يتضح أن الإمام الغزالي عالج قضايا النبوة بهدف تقريب مفهومها وبيان العلاقة بين مصادر المعرفة لدى الإنسان بصفة عامة والأنبياء بصفة خاصة .

ومما يتضح من عرضه ذلك أن النبوة لا تدرك بالحواس ولا بالعقل ، ذلك أنها طور فوق هـٰذه المدارك ، ومن ادعى استحالة النبوة من العقلاء فإنه لا دليل له علىٰ تلك الدعوىٰ إلا مجرد انعدام هـٰذا الطور الذي فوق مدارك البشر في حقه(١) .

ولـٰكن من لطف الله تعالىٰ بعباده وقدرته أن أعطىٰ للإنسان من خواص الأنبياء نماذج يفهم بها معنى النبوة ليصدق بها إذ التصديق إنما يكون بعد الفهم .

فوجود علوم ومعارف في العالم لا تنال بالتجارب ولا مطمع للإنسان فيها ببضاعة العقل من الدلائل الواضحة عند الإمام الغزالي علىٰ أن مصدرها تعليم من الله تعالىٰ لأحد عباده إما بواسطة أو بغير واسطة ، وهـٰذا الواحد الذي يعلّم الناس هـٰذه العلوم التي فوق عقولهم مع ثقتهم بها وتسليمهم لها دون علم أكيد بخصائصها من أقوى البراهين علىٰ أصل النبوة ، ثم هـٰذا النوم الذي تفقد فيه الحواس السيطرة على القوى المخيلة في الإنسان حتىٰ تنطلق بحرية من الإيرادات التي كانت الحواس توردها عليها وتشغلها بها بحيث تصير قابلة لما يعرض عليها من المغيبات التي لا سبيل للإنسان إليها في حال يقظته وسلامة مداركه إذ هي من قبيل الوحي والوحي لا يستجلب بفكر وحدس ولا ينال بتجربة أو عقل لذا كانت هـٰذه الخاصية العامة التي يراها المؤمن والكافر من أدل الدلائل عند الإمام الغزالي على الاستدلال لأصل النبوة وعلىٰ تخصيص النبي بحصول هـٰذه الخاصية له في حال اليقظة علاوة علىٰ مشاركته لغيره في هـٰذا النموذج حال النوم مع مزيد ثبات فيه وعدم تنقل المخيلة به إلىٰ معلومات

---

(١) المنقذ ٦٧ ، ومعارج القدس ١٣٦ وما بعدها .

أخرىٰ مشابهة أو مضادة لما عرض عليه أو أوحي إليه[1] .

ومع أن الإمام الغزالي يحث في مجالات عديدة علىٰ مخاطبة الناس علىٰ قدر عقولهم وتجنب ما قد يسبب لهم فتنة أو تشويشا وأن ذلك هو مقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[2] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (خاطبوا الناس علىٰ قدر عقولهم . .)[3] ، فإنه جلب في باب النبوات من الأساليب والعبارات التي لا يفهم جل الناس المراد منها إما لتعدد أوجه تفسيراتها وكثرة احتمالاتها ، وإما لبعدها عن المجال الذي استعملت فيه لهجر علماء أهل السنة لاستعمالها فيه لوفرة العبارات الموافقة للكتاب والسنة ووضوح دلالتها عندهم بحيث يستهجنون أساليب الفلاسفة وعباراتهم القلقة .

ومهما اعتذر الإمام الغزالي بأن : (الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح إلىٰ أقصىٰ غايات المذاهب بصائرهم) قد اعترضوا : (علىٰ بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين . . وزعمت ـ هٰذه الطائفة ـ أن تلك الكلمات من كلام الأوائل ، مع أن بعضها من مولدات الخاطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية . وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه ، مؤيدا بالبرهان ولم يكن علىٰ مخالفة الكتاب والسنة فلِم ينبغي أن يهجر ويترك)[4] .

---

(١) انظر المنقذ ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) سورة النحل ، آية (١٢٥) .

(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٣٩ ، وانظر صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم ، الحديث تعليقا (١٢٧) وانظر صحيح مسلم ، المقدمة ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ، وهو موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه ، وانظر فتح الباري ١/ ٢٢٥ .

(٤) المنقذ ٤٥ ، ٤٦ وقارن بما في فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٣) دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٦هـ ، ١١٥ . ومنهاج العابدين إلى =

إن هٰذا الاعتذار وما جاء بعده من تعليل وبيان لما يترتب عليه من إهمال جملة من الشريعة وما يلحق بذلك من المفاسد ، لا يمنع من القول بأن الإمام الغزالي خاطب الناس بما لا تدركه عقولهم أو جلّهم ، وأنه سلك في باب النبوات مسالك الفلاسفة الأوائل في الأسلوب والتمثيل والشرح ، كما شرح هو ذلك نفسه ، سواء كان ذلك من وقع الحافر على الحافر ، أو استحسانا وتقليدا علىٰ بعده ــ عندي ــ منه حيث إنه يشتد عليهم في النقد في هٰذا المجال بالذات معلناً أن العقل لا مستند لهم فيه ، وعليه فمن كلامه نأخذ أن كلامهم في النبوات ليس معقولا في نفسه ولا مؤيدا بالبرهان ، وفيه مخالفة للكتاب والسنة ، وكان ينبغي أن يهجر ويترك ، وإن كان التطابق العلمي والفكري بين أسلوبهم وأسلوبه لم يتم إلا في حالات نادرة محتملة(١) .

إن الإمام الغزالي نقل بأمانة يشهد له بها في كتاب « مقاصد الفلاسفة « ، علوم الفلاسفة في المنطق ، والإلهيات ، والطبيعيات ، ومن ذلك أنه شرح في : المقالة الخامسة في ما يفيض على النفوس من العقل الفعال ، من قسم الطبيعيات عندهم حيث ذكر فيه عشرة أمور تتعلق بتأثر النفس بما يفيض عليها من العقل الفعال .

ومن هٰذه الأمور : (سبب الرؤيا الصادقة ، ثم الرؤيا الكاذبة ، ثم سبب إدراك النفس علم الغيب .

ثم اتصالها بعالم العلو

ثم سبب مشاهدتها ورؤيتها في اليقظة صوراً لا وجود لها في الخارج .

= الجنة ط١ ، ١٤٠٩هـ ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٤) .

(١) انظر إثبات النبوات لابن سينا علي ، حققها وقدم لها ، ميشال مرمورة ، دار النهار للنشر ، بيروت « ١٩٦٨م ، ٤١ـ٤٧ ، وأحوال النفس ، رسالة في النفس وبقائها ومعادها للمؤلف نفسه ، تحقيق وتقديم ، الدكتور/ أحمد فؤاد الأهواني ، طبع دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط١ ، ١٣٧١هـ ، ١١٤ وما بعدها .

ثم معنى النبوة والمعجزات وطبقاتها .

ثم وجود الأنبياء ، ووجه الحاجة إليهم)[1] .

وبحثاً عن حقيقة النبوة والرسالة والعلاقة بينهما عند الإمام الغزالي يجدر بنا أن نأتي ببعض ما كتبه علىٰ لسان الفلاسفة لنقارنه بما كتبه هو مفهوماً له عن النبوة والرسالة لنرىٰ مدىٰ مصداقية ما أشرنا إليه من التوافق مع ملاحظة عدم التطابق .

يشرح الإمام الغزالي سبب الرؤيا الصادقة فيبدأ بعرض صلة الروح بالبدن وحاجة البدن إلى الراحة والنوم الذي تحصل الرؤيا أثناءه فيقول : الخامس في سبب الرؤيا الصادقة :

(. . . فإذا ركدت الحواس بسبب انحباس الروح الحاملة لقوة الحس عنها ، بسبب من هٰذه الأسباب ـ المتقدمة ـ بقيت النفس فارغة عن شغل الحواس ، لأنها لا تزال مشغولة بالتفكر فيما تورده الحواس عليها .

فإذا وجدت فرصة للفراغ ، وارتفع عنها المانع ، استعدت للاتصال بالجواهر الروحانية الشريفة العقلية التي فيها نقش الموجودات كلها ، المعبر عنها في الشرع باللوح المحفوظ .

فانطبع فيها ، أعني في النفس ، ما في تلك الجواهر من صورة الأشياء ، لاسيما ما يناسب أغراض النفس ويكون مهماً لها .

ويكون انطباع تلك الصورة في النفس منها ، عند الاتصال ، كانطباع صورة مرآة في مرآة أخرىٰ تقابلها عند ارتفاع الحجاب بينهما . وكل ما يكون في إحدى المرآتين يظهر في الأخرىٰ بقدرها)[2] .

ثم أخذ في بيان كيفية حفظ الحافظة للصور الجزئية الواردة عليها في

---

(١) المصدر المذكور تحقيق الدكتور/ سليمان دنيا ، ط دار المعارف بمصر ١٩٦١م ، ٣٧١ .

(٢) مقاصد الفلاسفة ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

النوم ، وما يدخل ذلك من تسلط المتخيلة ، وما يعانيه المعبّر للمرائي من تتبع تلك الانتقالات والمحاكاة. . .

إلىٰ أن قال :

(السادس : أضغاث الأحلام ، وهي المنامات التي لا أصل لها ، وسببها حركة القوة المتخيلة ، وشدة اضطرابها ، فإنها في أكثر الأحوال لا تفتر عن المحاكاة والانقلابات . وكذلك في حال النوم لا تفتر أيضاً في أكثر الأحوال[1] .

وقد بين أيضاً أن النفس إذا كانت ضعيفة اشتغلت بمحاكاتها ، فلا تستعد للاتصال بالجواهر الروحانية)[2] ، ثم يشرح السبب الذي يجعل القوى المتخيلة مضطربة هٰذا الاضطراب بالإضافة إلىٰ ضعف النفس فيوضح أنه تابع لأحوال البدن وما يغلب عليه من طبائع . إلىٰ أن قال :

(السابع : في معرفة سبب الغيب في اليقظة :

اعلم أن سبب الحاجة إلى النوم لإدراك علم الغيب بالرؤيا ، ما أوردناه من ضعف النفس وكون الحواس شاغلة لها ، حتىٰ إذا ركدت الحواس ، اتصلت النفس بالجواهر العقلية ، واستعدت للقبول منها .

ويمكن أن يكون ذلك لبعض النفوس في اليقظة من وجهين :

أحدهما : أن لقوى النفس قوة ، لا تشغلها الحواس ، ولا تستولي عليها ، بحيث تستغرقها وتمنعها من شغلها ، بل يتسع ويقويها للنظر إلىٰ جانب العلو وجانب السفل جميعا ، كما يقوىٰ بعض النفوس ، فيجمع في حالة واحدة ، بين أن يتكلم ويكتب .

فمثل هٰذه النفوس يجوز أن يفتر عنها في بعض الأحوال ، شغل

---

(١) السابق ٣٧٨ .
(٢) السابق .

الحواس ، ويطلع إلىٰ عالم الغيب . فيظهر لها منه بعض الأمور فيكون مثل : البرق الخاطف ، وهٰذا النوع من النبوة .

ثم إن ضعفت المتخيلة بقي في الحفظ ما انكشف من الغيب بعينه ، وكان وحياً صريحاً . .) .

ثم وضح أن هٰذا السبب نوع كمال ، وأن المتخيلة إذا نشطت فيه بالمحاكاة كان من الوحي الذي يحتاج إلىٰ تعبير كالرؤيا التي تفتقر إلى التعبير .

وأما السبب الثاني : فهو نوع نقصان لتغلب المزاج إلى الطبيعة السوداء حيث يبقى الشخص ضعيف الروح كالمبهوت (فهٰذا أيضاً لا يستحيل أن ينكشف لنفسه من الجواهر الروحانية شيء من الغيب ، فيتحدث به ويجري علىٰ لسانه . . وهٰذا يوجد في بعض المجانين والمصروعين ، وبعض الكهان من الأعراب ، فيحدثون بما يكون موافقا لما سيكون)[1] .

(والثامن : في سبب رؤية الإنسان في اليقظة صوراً لا وجود لها .

وذلك أن النفس قد تدرك الغيب إدراكاً قويا ، فيبقىٰ عين ما أدركه في الحفظ ، وقد تقبله قبولا ضعيفا تستولي عليه المخيلة فتحاكيه بصورة محسوسة .

(فلا فرق بين أن تقع الصورة في الحس المشترك من خارج ، أو من داخل ، . . فمهما ضعف العقل عن ردها وتكذيبها بسبب مرض من الأمراض لم يبعد أن ينطبع في الحس المشترك ، ما يقع في المخيلة ، فيرى المريض صورا لا وجود لها .

بل إذا غلب الخوف ، واشتد توهم الخائف ، وتخيله إياه ، وضعفت النفس والعقل المكذب ، فربما يمثل للحس صورة المخوف منه ، حتىٰ يشاهد ويبصر ما يخافه .

---

(١) السابق ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

ولهٰذا يرى الجبان الخائف صورا هائلة . . . وقد تشتد شهوة هٰذا العليل الضعيف فيشاهـــد ما يشتهيه ، ويمد إليه يده ، كأنه يأكله ، ويرىٰ صورا لا وجود لها بسبب ذلك)[1] .

وهنا يصل الإمام الغزالي إلىٰ صميم مفهوم النبوة وحقيقتها عند الفلاسفة الذين تعنىٰ شرح مقاصدهم دون رد عليها في محلها فيقول :

(التاسع : في أصول المعجزات والكرامات .

وهي ثلاث خواص :

الخاصة الأولىٰ : في قوة النفس في جوهرها ، بحيث تؤثر في هيولى العالم بإزالة صورة وإيجاد صورة ، بأن تؤثر في استحالة غيرها ، ويؤثر في استحالة الهواء غيما ، ويحدث مطرا كالطوفان ، أو بقدر الحاجة للاستسقاء ، أو ما يجري مجرىٰ ذلك ، وهو ممكن) ثم يضرب أمثلة لتوضيح أن النفس الإنسانية مؤثرة في بدنها مع شدة شبهها بجواهر النفوس الملائكية . . وهو بالأمثلة التي يضربها يبين أن النفس تحدث في البدن تغيرات بمجرد التصور :

(فإذا صار مجرد التصور سببا لحدوث هٰذه التغيرات في هيولى البدن . . فيجوز أن تؤثر في بدن غيره ، مثل هٰذا التأثير أو دونه . . وقد يتعدىٰ أثر بعض النفوس إلىٰ بدن آخر حتىٰ يفسد الروح بالتوهم ، ويقتل الإنسان بالتوهم ، ويعبر عن ذلك بأنه إصابة العين . . . وإذا كان هٰذا ممكنا لم يبعد أن تقوىٰ نفس من النفوس على الندور علىٰ قوة أكثر من هٰذا ، فيؤثر في هيولى العالم بإحداث حرارة وبرودة وحركة . . ومثل هٰذا يعبر عنه بالكرامة والمعجزة) .

الخاصية الثانية : للقوة النظرية ، وهي أن تصفو النفس صفاء يكون شديد الاستعداد والاتصال بالعقل الفعال حتىٰ يفيض عليها العلوم ، فإن النفوس منقسمة :

---

(١) نفسه ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

إلىٰ ما يحتاج إلى التعليم ، وإلىٰ ما يستغني عنه .

والمحتاج إلى التعليم : منه ما يؤثر فيه التعليم ، وإن طال تعبه . ومنه ما يتعلم سريعا .

وقد يوجد من يستنبط الشيء من نفسه ، من غير معلم ، بل الغلوم كلها لو تؤملت لوجدت مستنبطة من النفوس ، فإن المعلوم الأول ، لم يكن متعلما من معلم ، بل يرتقي ذلك إلىٰ من عرف من نفسه .

وما من ناظر إلا وهو يذكر استنباطات كثيرة ، قد استنبطها من نفسه من غير معلم) .

ثم أخذ في بيان تفاوت العقلاء في شدة الحدس والذكاء وإدراك الحد الأوسط والوصول إلى النتائج إلىٰ أن قال :

(ومن انكشفت له هـٰذه المعقولات كلها في زمان قصير من غير تعلم ، فيقال إنه نبي أو ولي ، ويسمىٰ ذلك كرامة أو معجزة للنبي . وهو ممكن وليس بمحال) .

الخاصية الثالثة : للقوة المتخيلة :

أن النفس قد تتقوىٰ كما سبق ، وتتصل في اليقظة بعالم الغيب كما سبق ، وتحاكي المتخيلة ما أدركت بصور جميلة ، وأصوات منظومة ، فيرىٰ في اليقظة ويستمع ما كان يراه ويسمعه في النوم للسبب الذي ذكرناه ، فتكون الصورة المحاكية المتخيلة للجوهر الشريف ، صورة عجيبة في غاية الحسن ، وهو الملك الذي يراه النبي ، أو الولي ، أو تكون المعارف التي تصل إلى النفس من اتصالها بالجواهر الشريفة يتمثل بالكلام الحسن المنظوم الواقع في الحس المشترك ، فيكون مسموعا ، فهـٰذا أيضاً ممكن غير مستحيل .

فهـٰذه طبقات النبوة :

ومن اجتمعت له هـٰذه الثلاث فهو النبي الأفضل ، وهو في الدرجة القصوىٰ من درجات الإنسان ، وهي متصلة بدرجات الملائكة) .

ثم شرح أن الأنبياء متفاوتون في هٰذه الخصائص وتبعا لذلك تفاوتوا في منازلهم في القرب من الله تعالىٰ وملائكته .

العاشر : في إثبات أن النبي لابد له أن يدخل تحت الوجود ، وأن يصدق بدخوله في الوجود) .

ويريد بذلك العناية الإلهية وحاجة العالم إلىٰ نظام يقوم على العدل ، (فنظام العالم لا يستغني عمن يعرفهم وجه صلاح الدنيا والآخرة ، ولا يشتغل بذلك كل واحد) .

ثم يوجز أن الله تعالىٰ قدر في خلقه مقادير وهداهم إلى الاستفادة بالعلم مما أعطاهم ، ذلك أن مصالح الدنيا والآخرة لا تعرف إلا من قِبل من خلق وأعطىٰ ثم هدىٰ ، وترتيب الوسائط في ذلك هو أن : (الملك واسطة بين الله تعالىٰ والنبي . والنبي واسطة بين الملك والعلماء . والعلماء واسطة بين النبي والعوام . والعالم قريب من النبي . والنبي قريب من الملك . والملك قريب من الله سبحانه وتعالىٰ . ثم تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء ، والعلماء في مراتب القرب ، تفاوتا لا يحصى) .

وإلىٰ هنا يختم الإمام الغزالي هٰذا الكتاب الذي لخصنا منه هٰذه الفقرات بقوله : (فهٰذا ما أردنا أن نحكيه من علومهم المنطقية ، والإلهية ، والطبيعية ، من غير اشتغال في تمييز الغث من السمين . والحق من الباطل . ولنفتح بعد هٰذا كتاب (تهافت الفلاسفة) حتىٰ يتضح بطلان ما هو باطل من هٰذه الآراء)[1] .

من المعلوم أن هٰذه الأفكار التي تضمنتها هٰذه النصوص في معظمها وليدة بيئة لا ترجع إلىٰ كتاب مقدس ، وإنما تعتمد منهجا عقليا يقحم العقل فيما لا يمكن أن يصل فيه إلىٰ أمر مقطوع به في المغيبات لذا نجد أن فقرات هٰذه النصوص التي عرضناها مذيلة في الغالب بأن هٰذا الأمر المقترح لا يستحيل في

---

(١) مقاصد الفلاسفة ٣٨٠ وما بعدها .

العقل أو يجوز أو من الممكنات أو من المستحيلات التي يدركها العقل بالبدهيات .

وإذا كانت في معظمها كذلك فإنه لا يخفىٰ أنها مطعمة بأفكار وعبارات من بيئة تؤمن بمصادر للمعرفة غير العقل إلا أن المنهج العقلي قد طغىٰ عليها حتىٰ قلل من شأن المعرفة التي مصدرها النبوة .

وعلى العموم فإن الأمور المذكورة هنا في « مقاصد الفلاسفة « لا تعدو سرداً لأمور مشتركة بين بني آدم عموما وإن كانوا بلا شك يتفاوتون فيها صدقا وإدراكاً وأثرا وصحة ومرضا فغاية ما فيها جعل قوة جوهر النفس وصفائها ونفوذ مخيلتها أصولا للمعجزات والكرامات .

وبما أن الإمام الغزالي يعلم أن الفلاسفة في الإسلام مزجوا كلامهم بكلام أهل الحق لترويج باطلهم(١) ، فقام باستقراء كلامهم وقسمه إلىٰ ثلاثة أقسام :

١ـ قسم يجب التكفير به .

٢ـ وقسم يجب التبديع به .

٣ـ وقسم لا يجب إنكاره(٢) .

وعندما ينظر الباحث إلىٰ رد الإمام الغزالي علىٰ فقرات النصوص السابقة يجد أنه أي الغزالي يأخذ على الفلاسفة اعتبارها من الطبيعيات ويذهب إلىٰ أن الأولىٰ بها أن تذكر في الإلهيات . التي يعلم أن أخطاءهم فيها كثيرة وهـٰذا استدراك في المنهج أما الرد فمنه قوله :

(أما الملقبة بالطبيعيات فهي علوم كثيرة : نذكر أقسامها ، ليعرف أن الشرع ، ليس يقتضي المنازعة فيها ، ولا إنكارها إلا في مواضع ذكرناها) ثم سرد أصولها وفروعها التي منها علوم الغيب ومصادر المعرفة الأخرىٰ ثم قال مؤكداً القول السابق :

---

(١) المنقذ ٣٤ .

(٢) نفسه ٣٨ وانظر تهافت الفلاسفة ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(وليس يلزم مخالفتهم شرعاً في شيء من هٰذه العلوم وإنما نخالفهم ، من جملة هٰذه العلوم ، في أربع مسائل) ، والتي يهمنا منها الأولىٰ وهي في نصه وتعقيبه :

(الأولىٰ : حكمهم بأن هٰذا الاقتران المشاهد في الوجودات بين الأسباب والمسببات ، اقتران تلازم بالضرورة ، فليس في المقدور ، ولا في الإمكان ، إيجاد السبب دون المسبب ، ولا وجود المسبب دون السبب . . .

وإنما يلزم النزاع في الأولىٰ ، (يعني التي ذكرناها) من حيث إنه ينبني عليها إثبات المعجزات ، الخارقة للعادة ، من قلب العصا ثعبانا ، وإحياء الموتىٰ ، وشق القمر ، ومن جعل مجاري العادات لازمة لزوما ضروريا أحال جميع ذلك ، وأولوا ما في القرآن ، من إحياء الموتىٰ ، وقالوا : أراد به ، إزالة موت الجهل ، بحياة العلم ، وأولوا تلقف العصا ، سحر السحرة ، بإبطال الحجة الإلهية ، الظاهرة علىٰ يد موسىٰ ، صلى الله عليه وسلم ، شبهات المنكرين ، وأما شق القمر ، فربما أنكروا وجوده ، وزعموا أنه لم يتواتر

ثم حكم عليهم أنهم : (لم يثبتوا من المعجزات الخارقة للعادات إلا ثلاثة أمور) ثم لخصها بأوجز مما ذكره في المقاصد حسب ما تقدم إلىٰ أن ختم ذلك بقوله :

(فهٰذا مذهبهم في المعجزات ، ونحن لا ننكر شيئا مما ذكروه ، وأن ذلك مما يكون للأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وإنما ننكر اقتصارهم عليه ، ومنعهم قلب العصا حية ، وإحياء الموتىٰ وغيره ، فلزم الخوض في هٰذه المسألة ، لإثبات المعجزات ، ولأمر آخـــر ، وهو نصرة ما أطبق عليه المسلمون، من أن الله تعالىٰ قادر، علىٰ كل شيء ، فلنخض في المقصود)[1] .

وحاصل ما خاض فيه معهم في مسألة الاقتران بين ما يعتقد في العادة أنه سببا ، وبين ما يعتقد مسببا أنه ليس ضروريا خلافا لما هو مقرر عندهم ،

(١) تهافت الفلاسفة ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ـ٢٣٧ .

وضرب لهم أمثلة علىٰ أن الوجود عند الشيء لا يدل علىٰ أنه موجود به فالاحتراق بالنار وانسلاك الروح في النطفة وغير ذلك من أنه لا دليل على الاقتران فيه إلا لمشاهدة (والمشاهدة تدل على الحصول عندها ولا تدل على الحصول بها) .

أما في المثال الأول فقد حكم ضدهم بأن (فاعل الاحتراق. . هو الله تعالىٰ ، إما بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، فأما النار وهي جماد فلا فعل لها) .

وأما في المثال الثاني : فقد حكم عليهم بأنه لم يقل أحد من الفلاسفة المقرين بالصانع الذي الكلام معهم ـ أن الأب فاعل ابنه أو أن : (انسلاك الروح والقوى المدركة والمحركة في نطفة الحيوانات) متولد عن الطبائع ، (بل وجودها من جهة الأول ، إما بغير واسطة ، وإما بواسطة الملائكة ، الموكلين بهٰذه الأمور الحادثة) ، (. . . ولهٰذا اتفق محققوهـــم ، علىٰ أن هٰذه الأعراض والحوادث ، التي تحصل عند وقوع الملاقاة بين الأجسام ، وعلى الجملة عند اختلاف نسبها ، إنما تفيض من عند واهب الصور ، وهو ملك من الملائكة. .) .

ويتمسك الإمام الغزالي في وجه ادعاءات الفلاسفة أن الأسباب لا تتخلف عنها مسبباتها وأن ذلك من ضرورياتها ببيان أن الله تعالىٰ يفعل بالاختيار والإرادة وأن الممكنات يجوز أن تقع ويجوز أن لا تقع (واستمرار العادة بها مرة بعد أخرىٰ ، يرسخ في أذهاننا ، جريانها علىٰ وفق العادة الماضية ترسيخا لا تنفك عنه ، بل يجوز أن يعلم نبي من الأنبياء ـ علَيهم السلام ـ بالطرق التي ذكروها ، ـ يعني الفلاسفة ـ أن فلانا لا يقدم من سفره غدا ، وقدومه ممكن ، ولٰكن يعلم عدم وقوع ذلك الممكن. . فلا مانع إذن من أن يكون الشيء ممكنا ، في مقدورات الله تعالىٰ ، ويكون قد جرىٰ في سابق علمه ، أنه لا يفعله مع إمكانه ، في بعض الأوقات ، ويخلق لنا العلم بأنه ليس يفعله في ذلك الوقت) .

فالخصم عند الإمام الغزالي في إنكاره للمعجزات الحسية لا دليل عنده إلا عدم المشاهدة : (وفي مقدروات الله تعالىٰ غرائب وعجائب ، ونحن لم نشاهد جميعها ، فلم ينبغي أن ننكر إمكانها ، ونحكم باستحالتها) .

فقدرة الله تعالىٰ جارية بالتصرف في المادة وعناصرها مدبرة لأطوارها ومعجزات الأنبياء من هٰذا القبيل .

(فالأولىٰ بنا وبكم إضافة ذلك إلى الله تعالىٰ ، إما بغير واسطة أو بواسطة الملائكـــة) .

فهٰذا لا يقل درجة عن زعمهم أن تلك الخوارق تصدر عن نفس النبي أو باقتراحه من مبدأ آخر ، وإن كنا كما يقول الإمام الغزالي لا ننكر أن : (الشيء إذا كان في نفسه ممكنا والمبدأ به سمحا جوادا) وانصرفت له همة النبي وتعين نظام الخير في ظهوره لاستمرار نظام الشرع أن ذلك (مرجحا جهة الوجود) (ولا يصير الخير معينا فيه إلا إذا احتاج نبي ، في إثبات نبوته إليه لإفاضة الخير)[1] .

وإلىٰ هنا نكون قد فهمنا أن الإمام الغزالي كان فاهما لمقاصد الفلاسفة غير منكر لما صح عنده عدم مخالفته للعقل والشرع ، ولذا وافقهم على القول بالخصائص الثلاث للنبي ونازعهم في القول بالاقتران في الأسباب لما رتبوا علىٰ ذلك من إنكار معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنكر عليهم الاقتصار على الخصائص الثلاث أو ما يلزم منه القول بعلم المخلوق بالجزئيات أو الأثر المباشر للحوادث من دون الله تعالىٰ إذ الإمام الغزالي كما هو واضح يربط أصل النبوة وإمكانها بقدرة الله تعالىٰ وحكمته واختياره وتدبيره لخلقه . علىٰ أن ابن رشد في تهافت التهافت يعقب علىٰ كلام الإمام الغزالي الذي نقلناه من المقاصد والتهافت قائلاً :

(أما الكلام في المعجزات فليس فيه للقدماء من الفلاسفة قول ، لأن هٰذه

---

(١) السابق ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، وقارن بما في الاقتصاد في الاعتقاد ، ١٢١ .

كانت عندهم من الأشياء التي لا يجب أن يتعرض للفحص عنها ، وتجعل مسائل ، فإنها مبادىء الشرائع ، والفاحص عنها والمشكك فيها يحتاج إلىٰ عقوبة عندهم . . وأنه لا يشك في وجودها .

وأن كيفية وجودها ، هو أمر إلهي معجز عن إدراك العقول الإنسانية)[1] ، ثم كرر ابن رشد أنه لا يعلم أحدا من الفلاسفة فحص هـٰذه المسائل المتعلقة بوجود الله تعالىٰ ، ووجود السعادة والفضائل قبل ابن سينا إلىٰ أن قال : (وليعلم أن طريق الخواص في تصديق الأنبياء طريق آخر قد نبه عليه أبو حامد وابن سينا ـ في غير ما موضع . وهو الفعل الصادر عن الصفة التي بها سمي النبي نبيا . الذي هو الإعلام بالغيوب .

ووضع الشرائع الموافقة للحق ، والمفيدة من الأعمال ما فيه سعادة جميع الخلق .

وأمـا ما حكـاه في الرؤيـا عن الفلاسفة فلا أعلم أحدا قال به من القدماء إلا ابن سينـا .

والذي يقول به القدماء في أمر الوحي والرؤيا إنما هو عن الله تبارك وتعالىٰ ، بتوسط موجود روحاني ليس بجسم ، وهو واهب العقل الإنساني عندهم ، وهو الذي تسميه الحذاق منهم ، العقل الفعال ويسمىٰ في الشريعة ملكا)[2] .

والذي صرح ابن رشد به هنا من تنبيه الإمام الغزالي على الصفة التي يكون بها النبي نبياً قد تبناها بغير عزو في كتابه « مناهج الأدلة في عقائد الملة » في المسألة الثانية في بعث الرسل[3] .

---

(١) تهافت التهافت ، للقاضي أبي الوليد محمد بن رشد ، القسم الثاني ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م ٧٧٣ـ٧٧٦ .

(٢) السابق ٧٧٦ .

(٣) المصدر المذكور تقديم وتحقيق الدكتور/ محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٦٤م ، ٢١٥ .

ولا يخفىٰ أن الإمام الغزالي متأثر أو ناقل عن ابن سينا ، وغير خاف أيضاً أنه مطلع علىٰ ما خاض فيه الفلاسفة الأقدمون من هٰذه المسائل ، وما أوردناه من نقله عنهم وتعقبه لهم فيما استدركه أو أنكره يكفي في توضيح معرفته بمعارفهم والذي يهمنا من ذلك هو القدر الذي نفهم به ما يأتي :

١ـ مفهوم النبوة وحقيقتها .

٢ـ حقيقة الملائكة .

٣ـ الوحي وكيفيته .

لأن هٰذه العناصر الثلاثة إن خالف فيها الإمام الغزالي الفلاسفة الأقدمون أو المحدثون كابن سينا والفارابي من المتفلسفين في الإسلام وغيرهما كان خارجا في باب النبوة عن أنماط الفلاسفة ، وإن كان موافقا لهم في وجه لا يخل التسليم به في منهج العقل والنقل فلا لوم عليه في ذلك وخصوصا إذا لاحظنا ما أسلفناه من تطور حياته العلمية .

أما ما زاد عن ذلك فهو محل البحث والمؤاخذة .

وقبل أن نسير في استكمال نصوص الإمام الغزالي في مفهوم النبوة نذكر أنه قال : (والعاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقا قبله ، سواء كان قائله مبطلا أو محقا . . .)[١] .

وبهٰذا المنهج المقترح سوف نسير بإذن الله تعالىٰ ، فنقول إن الإمام الغزالي جاء كلامه في النبوة في كتابه : معارج القدس في مدارج معرفة النفس[٢] مطابقا لكلام ابن سينا في كتابه : أحوال النفس[٣] .

كما يشابه في غرابة الأسلوب والتدرج في الفكرة إلىٰ حد كبير منهج ابن

---

(١) المنقذ ٤٥ .

(٢) المصدر المذكور ١٣٢ وما بعدها .

(٣) المصدر المذكور ١١٤ وما بعدها .

سينا في كتابه : إثبات النبوات[١] ، ونقتصر هنا علىٰ نقل كلامه هو دون كلام غيره لأن ذلك هو المنشود .

رأينا أن الإمام الغزالي استبعد نهائيا إدراك العقلاء لخصائص النبوة بوسائل الحس ومدركات العقول والتجارب . وأن من أدلة أصلها الرؤيا المنامية ووجود علوم لها خصائص فوق مستوى العقل والتجربة كالطب والنجوم ، الأمر الذي نجزم بأنها من قبل الله تعالىٰ بواسطة معلم علمها للناس .

ومن هـٰذا نعلم أن النبوة والرسالة عنده هبة من الله تعالىٰ يعد الله لها من شاء من عباده ، فهـٰذا هو نتيجة بحثه بعد هـٰذا العنوان : (بيان أن الرسالة هل هي حظوة مكتسبة أم أثرة ربانية) .

قال : (فنقول : اعلم أن الرسالة أثرة علوية وحظوة ربانية وعطية إلهية لا تكتسب بجهد ولا تنال بكسب . ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٢] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾[٣] .

لـٰكن الجهد والكسب في إعداد النفس لقبول آثار الوحي بالعبادات المشفوعة بالفكر والمعاملات الخالصة عن الرياء والسمعة من لوازمها .

فليس الأمر فيها اتفاقا جزافيا حتىٰ ينالها كل من دب ودرج ، أو مرتبا علىٰ جهد وكسب حتىٰ يصيبها كل من فكر وأدلج) .

(فالنبوة لنوع الأنبياء ليست مكتسبة لأشخاص النوع وإن العمل بموجب النبوة ليس يخلو عن اكتساب واختيار لإعداد واستعداد[٤] ، فكما أن الإنسانية لنوع الإنسان غير مكتسبة لأشخاص النوع ، والملائكية لنوع الملائكة ليست مكتسبة لأشخاص النوع فكذلك النبوة ، ولـٰكن العمل بموجب النوعية ليس

---

(١) المصدر المذكور ٤١ وما بعدها .
(٢) سورة الأنعام ، آية (١٢٤) .
(٣) سورة الشورىٰ ، آية (٥٢) .
(٤) معارج القدس ١٣١ .

يخلو عن اكتساب واختيار لإعداد واستعداد كالتعبد والعزلة عن مواطن الشر وأهله واكتساب الأخلاق الحميدة والصفات الجميلة .

(علىٰ أنها أحوال عرضية ، وأعراض طارئة على النوعية ، بنوع استحباب واستحقاق ، من كمال تركيب المزاج) .

ثم عدد الإمام الغزالي من صفات الأنبياء الحميدة التي فارقوا بها بني آدم وتمكنوا بها من حمل أعباء الرسالة علىٰ ما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ في فصل صفات الأنبياء .

ومن قوله في النبي صلى الله عليه وسلم : (أنه لطيف الشمائل إذا تحرك وسكن ، قد نهض باحتمال أعباء ما حمل من الرسالة فأداها ، وأفاض رحمته على العالمين فوفاها صلى الله عليه وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين)(١) .

فخلاصة هـٰذا المبحث هي أن الإمام الغزالي بحث في حقيقة النبوة والرسالة مقربا مفهومهما والعلاقة بينهما للمسلمين ، راداً علىٰ غيرهم من اليهود والنصارىٰ والبراهمة والفلاسفة المنكرين لأصل النبوة أوالمقدمين العقل والفلسفة علىٰ علوم الأنبياء وما جاؤوا به من أحكام ومعارف ، مستنكراً عليهم اقتصارهم علىٰ ثلاث خصائص من خصائص الأنبياء الكثيرة ومن هـٰذا نصل إلىٰ ما يأتي :

١ـ أن النبي عند الإمام الغزالي هو من نبأه الله بالوحي . بأي طرق الوحي كان ذلك علىٰ ما سيأتي تفصيله إن شاء الله في الفصل الثاني من هـٰذا الباب .

٢ـ أنه أي الإمام الغزالي يفرّق بين النبوة والرسالة تبعا للجمهور ، إذ يقول : (فأما علم الوحي فخاص بالرسل موقوف عليهم ، كما كان لآدم وموسىٰ عليهما السلام ، وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وغيرهم من الرسل ، وفرق بين الرسالة والنبوة ، فالنبوة : قبول النفس القدسية حقائق المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والقابلين ، وربما يتفق قبول لنفس من

---

(١) السابق ، ١٣٢ .

النفوس ولا يتأتىٰ لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب)[1] .

قلت : قد يكون عذر عدم التبليغ أنه بُلغ قبله الأصل ، ولـٰكن المنبّأ يدعو ويسوس ويصلح الناس ، كما يُفهم من بقية النص[2] .

٣ـ أنه يرىٰ أن النبوة هبة من الله تعالىٰ لا واجبة ولا مستحيلة بل جائزة ، ولا كسب للنبي فيها بعقل أو علم أو تجارب أو عزلة وخلوة وتعبد .

٤ـ وأنه من سنة الله تعالىٰ فيمن يختاره من عباده بإرادته وأمره الذي يختص به أن يكون علىٰ مرتبة من العقل والفطنة والأدب والأخلاق الفاضلة بحيث يكون في ذلك معجزا لبني آدم .

٥ـ وأن النبي يتلقى الوحي عن الله تعالىٰ بطرق عديدة ومنها وأعلاها أنه يخاطبه الملك المكلف بالوحي ويراه وغيره من الناس لا يراه ولا يفهم عنه إن سمع صوته .

٦ـ وأن مرتبة النبوة ليست فوقها مرتبة ، وأنه لا نور يستضاء به إلا ما أخذ من مشكاة النبوة .

٧ـ وأن العقل يدل علىٰ صدق الرسول وينتهي عند ذلك الحد ثم يتلقىٰ من النبي بالقبول ما يقوله .

٨ـ وأن دور العقل في تحصيل العلم بأصل النبوة وإثباتها يتناول أمورا عديدة منها النظر في أطوار الإنسان ذاته وما حصل له من النمو في التمييز والعقل والتجارب التي تكسب العلم والحكمة ، فيصل من ذلك إلىٰ أن هـٰذه الأطوار التي يباين كل واحد منها ما بعده بحيث لو ذكر لمن لم يحصل له لأنكره وكذب مدعيه ، فينتج من ذلك أن يجوز أن هناك أطواراً أخرىٰ لم يصل إليها وحواسه وعقله وما جاء عليه من أطوار أخرىٰ لا تصل إليها .

٩ـ وأن الإنسان أعطي نموذجا من الوحي الذي هو الرؤيا الصادقة وذلك من

---

(١) الرسالة اللدنية ١٠٣ .

(٢) انظر المرجع السابق ١٠٤ ، ١٠٥ .

لطف الله تعالىٰ به حتىٰ يكون عنده نوع من المشاركة للأنبياء لكي يفهم معنى النبوة والرسالة ، والملائكة والوحي ، وغير ذلك من الغيب ، الذي لا ينال بالنظر وإنما يتلقىٰ من الخبر .

١٠- ويرى الإمام الغزالي أن جهلة من الناس : (طلبوا الحقائق بالألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس من الألفاظ)[١] ، لذا فهو يهدف في تعليمه إلىٰ مقاصد العلوم ، ومن ذلك أن يعلم أن النبوة والرسالة هي مصدر معرفة كل العلوم التي لا تدرك بالعقل والتجارب ، لذا فلا دواء للأبدان من عللها ولا للأرواح والقلوب من أمراضها وأسقامها إلا بما جاء به الأنبياء إذ هم الأطباء و(كما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة علىٰ خواص الأشياء)[٢] ، فكذلك يجب تقليد الأنبياء في أدوية القلوب والأرواح لعلمهم بخاصيتها .

وعليه فيجب علىٰ من يطلب فائدة العبادات وأثرها النافع في معالجة القلوب والأرواح أن يقلد الأنبياء في ذلك ويسلم لهم بخاصية معرفة مقاديرها وأوقاتها وأثرها كما سلم لهم في العلم بخواص الأشياء الأخرىٰ من طب ونجوم وغير ذلك .

فهٰذا ما بان للإمام الغزالي بالضرورة وهو : (أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل . .

فأدوية الأبدان مركبة والعبادات مركبة من اعتقادات وأقوال وأفعال وذلك كله : (لا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٨٤ .
(٢) المنقذ ٧١ .

إلا بنور النبوة. . وعلى الجملة : فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائد ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلىٰ هـٰهنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا أن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه)[١] .

١١ـ ولما حدد الإمام الغزالي ميدان العقل والتجارب وجزم بأن خواص الأشياء موقوفة علىٰ من أعطى النبوة ، قصد من جانب آخر إلى الرد علىٰ من يتمسك من المتفلسفة ــ كما يقول ــ بالتجارب ، ويدعي أنه لم يجرب ما جاءت به الأنبياء ، لذا لا يعترف بما يخبرون به من الخصائص ، فيتعجب منهم قائلا : (فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هـٰذه البدائه ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص ، معرفتها معجزة لبعض الأنبياء ، فكيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب !)[٢] .

فيريد الإمام الغزالي أن يصل إلىٰ إقناع المتفلسف بأنه إذا لم يقتض عقله تصديق الأنبياء ، وأنه استمع إلى المجربين للطب والنجوم وجرب حتىٰ وجد صدق بعض ذلك فسلم به قلبه ولم يحصل له ذلك فيما وراء ذلك فكيف يصدق به ؟

فيقال له : (استمع أقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، وأسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك) .

أما كيف يجرب ذلك فيدله عليه الإمام الغزالي قائلا :

(ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلىٰ تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين . وبالجملة إلىٰ ما لا يصلح إلا به دينهم

---

(١) السابق ٨٠ .
(٢) السابق ٨٠ .

ودنياهم ، حصل له علم ضروري بأن شفقته علىٰ أمته أعظم من شفقة الوالد علىٰ ولده)[١] .

وإذا نظر إلىٰ عجائب ما ظهر عليه من الأفعال ، وإلىٰ عجائب الغيب الذي أخبر عنه القرآن علىٰ لسانه وفي الأخبار ، وإلىٰ ما ذكره في آخر الزمان فظهر ذلك كما ذكره ، علم علما ضروريا أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التي لا يدركها العقول)[٢] .

١٢ـ إن الإمام الغزالي عندما يقف بالعقل إلىٰ هـٰذا الحد الذي تقدم آنفا في نصوصه فإنه يعتقد أن هـٰذا هو مجاله عند السلف الذين : (جمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول)[٣] .

إذ يوضح ذلك في معرض استدلاله بالبرهان العقلي والسمعي علىٰ أن الحق ما ذهب إليه السلف ، وأن العقلاء مجمعون علىٰ أن المغيبات لا تدرك بالعقل .

(ولا سيما علىٰ سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع بل أقروا بجملتهم أن ذلك لا يدرك إلا بنور النبوة وهي قوة وراء قوة العقل يدرك بها من أمر الغيب في الماضي والمستقبل أمور لا علىٰ طريق التعرف بالأسباب العقلية ، وهـٰذا مما اتفق عليه الأوائل من الحكماء ، فضلا عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقرين بقصور كل قوة سوىٰ هـٰذه القوة)[٤] .

١٣ـ وإذا كان الإمام الغزالي حاول أن يقف بالعقل عند حده ويعطيه أقصىٰ

---

(١) السابق ٨١ .

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٩٨ .

(٣) السابق ١/ ٩٨ .

(٤) إلجام العوام عن علم الكلام ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ٩٢ ، وقارن بما في معارج القدس ٧٣ ، ٧٤ و٧٦ .

إمكانياته حتىٰ يرينا الطور الذي بعده ، فإنه وسع لنا دائرة النفس والقلب حتىٰ فتح أمامهما أفق الملك والملكوت ومكن لهما بالتصفية من الاطلاع على المغيبات بلا حدود واضحة . وصور القلب بأنه إن صفىٰ كان كالمرآة المصقولة التي لا تحجبها كدرة ولا يمنعها من أن تنطبع فيها صور المعلومات مانع خارج إذ الجواد جل جلاله يبذل الجود ولا يبخل به وإنما كدرة النفس أو القلب أو عدم التوجه إلىٰ جهة اللوح المحفوظ هي المانع والحجاب(١) .

ويأتي إن شاء الله تعالىٰ في الفصل الثاني من هـٰذا الباب نصوصه في ذلك إذ هي الصق بالوحي وطرق تكليم الله تعالىٰ للبشر من هـٰذا المبحث المخصص لفهم حقيقة النبوة عند الإمام الغزالي .

وبهـٰذا نكون قد اتضح أمامنا أن الإمام الغزالي يفهم النبوة علىٰ أنها منحة ربانية واصطفاء من الله تعالىٰ لمن رباه علىٰ عينه وأدبه الأدب الذي يؤهله لحمل أعباء الرسالة ، فعند ذلك ينزل عليه ملكا موكلا بالوحي إلى الأنبياء فيوحي إليه من أمره ما شاء ويوجهه إلىٰ من يشاء من خلقه ويظل يمده بالعلوم والمعارف التي أراد الله تعالىٰ إبلاغها لمن بعث إليهم ذلك النبي حتىٰ تتم مهمته .

ثم إن هـٰذه النبوة والرسالة التي لا تنال بعقل ولا كسب ، لابد في الباحث عن حقيقتها أن يعلم أن حدها أوسع من ألفاظ المعرّفين إذ هي في أصلها وإن كان العقل يقتضيها ويصدق بها فإنه لا يدرك حقيقتها لأنها طور فوقه ويكفيه أن يستدل عليها بالآثار والعلوم المتواترة والأعمال والأقوال الموجودة ، فإن اعتبر بذلك صدق بها وعلم إمكانها ووجوها واضطرار الخلق إليها وأيقن بخصائصها التي لا تنحصر في النماذج المذكورة ، ولا تشتبه بمعارف البشر دونها .

وعند ذلك أمكننا أن نحكم بأن الإمام الغزالي يخالف الفلاسفة في مفهوم النبوة والرسالة ، ولم يوافق المتكلمين في منهجهم المشترط للمعجزة والتحدي بها طريقا وحيدا لمعرفة حقيقة مدعي النبوة وصدقه ، فمن علامات

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ١٨ـ٢٣ ومعارج القدس . ١٠٠ وما بعدها .

مخالفته للفلاسفة القول بأن النبوة لا تنال بالكسب وإنما هي أثرة ربانية ، والإيمان بالملائكة والوحي بأقسامه .

وعلىٰ لازم مذهبهم أنها تكتسب وأنها من القوى النفسية والنظرية وقوة الحدس والتخييل وأنها نوع من التأمل الداخلي والاستبطان الباطني . وعليه فإن النبوة لا تنقطع عندهم ، وهو يؤمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين لا نبي بعده علىٰ ما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ في نصوصه .

وموافقته لهم على الخصائص الثلاث التي ذكروها . تبين أن غيره من العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية يسلم بها ويذم المقتصرين عليها كما يذمهم الإمام الغزالي وينكر عليهم . ومع ذلك فإنه لا يرتاب باحث في أن للإمام الغزالي من النصوص في أمر النبوة ما يمكن أن يدخل به أي طائفة من طوائف الفلاسفة والمتكلمين وأنه بذلك حير كثيرا من العلماء والباحثين حتىٰ أصدروا في الحكم علىٰ منهجه في ذلك أحكاما متعارضة وأحياناً متناقضة .

فهٰذا شيخ الإسلام ابن تيمية مع دراسته المتأنية لكتب الإمام الغزالي يثبت أن مسلكه في النبوة مسلك صحيح أقوىٰ من مناهج المتكلمين ثم يصنفه لنصوص أخرىٰ في زمرة الفلاسفة معتمدا في ذلك علىٰ نماذج جعلها الإمام الغزالي بمثابة البرهان على الفلاسفة إذ منهجه كما يقول أن يذكر لكل قوم برهانا من الفن الذي عندهم ويسلمون به[(١)] .

قال شيخ الإسلام في معرض نقده لمسالك المتكلمين في النبوات : (. . . ولهٰذا لما ظهر للغزالي ونحوه ضعف طريق الاستدلال بالمعجزات الذي سلكه شيوخه وهو لا يعرف غيره ، أعرض عنها ، وذكر أنه إنما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنها العبارة ، وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول ، وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته ،

---

(١) انظر المنقذ ٧٧ ، وانظر ص ٣٠٢ ــ ٣١١ ، ٣٣١ ــ ٣٤٢ من هٰذا البحث .

وهـٰذه طريق صحيحة قد سلك الجاحظ نحوا منها ، ولـٰكن النبوة التي علمها أبو حامد هي النبوة التي تثبتها الفلاسفة وهي من جنس المنامات ، ولهـٰذا استدل علىٰ جوازها بمبدإ الطب والهندسة ونحو ذلك)[1] .

ومن المعلوم أن الإمام الغزالي لم يعرض كلية عن منهج المتكلمين في الاستدلال بالمعجزات علىٰ صدق النبي[2] ، وقد اتضح أنه لا يقلد الفلاسفة في أصول إثبات النبوات ، وأن أعظم مخلط في باب النبوات من الفلاسفة الإسلاميين الذين يتهم الإمام الغزالي بالأخذ عنهم الفارابي[3] وابن سينا[4] يكفرهم ويعتقد أن مذاهبهم هي مذاهب الزنادقة وأن الباطنية الذين اتبعوهم في هـٰذا الباب قد توغلوا في الضلال البعيد[5] .

وهـٰذا ما وافقه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية[6] .

فقال مبينا أن أرسطو ليس في كلامه وأتباعه كلام في النبوة ، وأن الفارابي وأمثاله يفضلون الفيلسوف على النبي ويجعلون النبوة من جنس المنامات ، وأن ابن سينا وإن كان يعظم النبوة أكثر من غيره إلا أنه يجعل للنبي ثلاث خصائص فقط يلزم عليها أن النبوة مكتسبة ، وأن من لم يفهم مرادهم اغتر بألفاظهم ، فالتبس عليه الحق بالباطل ولم يتمكن من التمييز بين مراد الأنبياء ومرادهم .

وهـٰذا الخلط (موجود في كلام ابن سينا ومن أخذ عنه ، وقد ذكر الغزالي ذلك عنهم تعريفا بمذهبهم ، وربما حذر عنه ، ووقع في كلامه طائفة من هـٰذا في الكتب المضنون بها علىٰ غير أهلها[7] ، وفي غير ذلك . حتىٰ في كتابه

---

(١) النبوات ٣٦٤ .
(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٣ ، ١٢٥ .
(٣) انظر آراء أهل المدينة الفاضلة ، ٦٨ـ٦٩ .
(٤) انظر إثبات النبوات ٤٣ وما بعدها وأحوال النفس ١١٤ وما بعدها .
(٥) انظر المنقذ ٧٧ ، ٧٨ .
(٦) انظر النبوات ٢٤٨ .
(٧) انظر خاتمة معارج القدس ١٧٦ .

الإحياء يقول : الملك والملكوت والجبروت ، ومقصوده الجسم والنفس والعقل الذي أثبته الفلاسفة ، ويذكر اللوح المحفوظ ومراده به النفس الفلكية[١] ، إلىٰ غير ذلك مما قد بسط في غير هـٰذا الموضع[٢] ، وهو في التهافت يكفرهم[٣] .

وفي المضنون به يذكر ما هو حقيقة مذهبهم حتىٰ يذكر في النبوات عين ما قالوه[٤] .

فالإمام الغزالي علىٰ ضوء هـٰذا النص من الغالطين في أمر النبوة الذين لا يعرفون من خصائصها الكثيرة والعظيمة (إلا القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام ، وأبعد هـٰؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة)[٥] .

وعندي أن الإمام الغزالي قد أوضح ذلك قبل شيخ الإسلام ابن تيمية إلا أن دراسته لمذاهب هـٰؤلاء المذكورين أثّرت فيه حتىٰ أصبحت معارفهم من مكونات معارفه الأساسية وتخصصه الدقيق الذي امتزج بفكره بحيث يسيل مع القلم بلا شعور منه حتىٰ وقع منه التحذير من كلامهم وتكفيرهم به مع الأخذ به وتضمينه طائفة منه في أهم كتبه . ولا مناص لباحث من التسليم بذلك وتقريره نتيجة نهائية إلا أنه يمكنه مع ذلك أن يثبت أن الإمام الغزالي يخالف الفلاسفة ومن أخذ بمناهجهم في أصل النبوة وحقيقتها ويرد صريح مذاهبهم في ذلك وما يلزم عليها . ويمكنه كذلك أن يرجح رجوع الإمام الغزالي عن تلك الطائفة التي ذكر شيخ الإسلام أنها وقعت في كتبه من كلامهم ، وأنه مات نادماً عليها في أحسن أحواله يعتمد الآثار النبوية ، ويشتغل بسماع الصحاح وتلاوة القرآن

---

(١) ٣/٦ و٢٣ ، ٢٤ .

(٢) انظر كتاب الصفدية ، تأليف تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ، ابن تيمية ، تحقيق الدكتور/ محمد رشاد سالم ط٢ ١٤٠٦هـ ١/ ٢١١ و١٣٠ و١٣٧ـ١٣٨ .

(٣) وتقدم نصه في ذلك .

(٤) انظر النبوات ٢٤٩ وقارن بما في معارج القدس ١٣٢ وما بعدها .

(٥) النبوات ٢٤٨ .

وتدريس الفقه ، وعلىٰ هٰذا فإن الإمام الغزالي لم يستغل بنشر الفلسفة ولم نجد عنده تمجيدا للفلاسفة ومعارفهم ، فلا يقول بنظرية العقول والفيض ولا يرىٰ تفضيل الفيلسوف والحكيم على النبي ، ويتمسك بأحكام الشرع ويكفر من يرىٰ مخالفته اتباعا لما عنده من الفلسفة أو الزندقة ، وعلىٰ هٰذا فمن التساهل وصل ما عند ابن عربي وأمثاله من التلاعب بالدين به إذ إن مرتكب ذلك لا يحد مستندا صريحا يرتكز عليه والاحتمالات كما أسلفنا كثيرة وتنوع مصادر المعرفة البشرية عديدة وأهل الحلول والاتحاد والزندقة والتصوف الفلسفي قبل الإمام الغزالي بمؤلفاتهم ودعاياتهم وانحرافاتهم في العقائد والأحكام والسلوك[1] .

وهٰكذا رأينا الإمام الغزالي قد سلك مناهج متعددة في بيانه لحقيقة النبوة . وأن محاولته للدفاع عن مكانة النبوة والرسالة في العقيدة الإسلامية تطلبت منه الغوص في علوم عديدة ومناهج عقدية وفكرية كثيرة ، امتزجت بفكره وتغلغلت إلىٰ عقله حتىٰ رأىٰ عدداً من العلماء أنه لم يتمكن وهو يكتب ضد أصحابها دفاعا عن العقيدة الإسلامية وحماية للأمة من سموم العقائد والأفكار والمناهج المنحرفة من التمييز التام بين الأصول المحمية من المستوردة الدخيلة الضارة ، وهٰذا يعني أنه إن كان فهمه لمقاصد الفلاسفة أفاد في جوانب فإنه أفسد وأضر في جوانب أخرىٰ حيث إنه سلم لهم وهو في مقام الرد والإبطال بأمور كثيرة ، والتمس في سبيل ذلك الأدلة الشرعية لآرائهم مما أكسبها وجاهة ورواجا عند من يريد لها ذلك ليتخذ منها سلماً جاهزاً لبث سموم فكره وإظهار انحرافاته بمزج الفلسفة بالتصوف .

ونحن وإن كنا أبدينا ذلك عن الإمام الغزالي ، فقد أوضحنا أنه لا يقلد

---

(١) انظر شرح العقيدة الأصفهانية ١٠٧ و١٢٣ والصفدية ١/ ١٣٠ والحقيقة في نظر الغزالي ٣٩١ ، ٣٩٢ ومقارنة بين الغزالي وابن تيمية للدكتور/ محمد رشاد سالم ، ط الدار السلفية ١٤٠٠هـ ، ٤٩ وما بعدها .

الفلاسفة في النبوات ، ولا يدفعه تهافتهم في هـٰذا الأصل العظيم على التحامل عليهم حتىٰ ينكر ما يوافق العقل الصريح ويسلم به أهل النقل الصحيح .

وبهـٰذا نختم هـٰذا المبحث لنصله بالمبحث الآتي ، والذي سنبين فيه إن شاء الله رأي شيخ الإسلام في مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما بعد أن درسنا في هـٰذا المبحث رأي الإمام الغزالي في ذلك . والله أعلم .

* * *

المبحث الثاني

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

نواصل في هٰذا المبحث الحديث عن مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما من خلال تتبع نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية الذي نجده بحث هٰذا الموضوع بالشرح والرد والنقد والنقض ، حيث بينه للمؤمنين به من المسلمين ، وخص بالنقد طائفة من المتكلمين ، موضحا انحرافات مقلدي الفلاسفة من المتصوفين ، مخاصماً الفلاسفة والمناطقة العقلانيين وهو في ذلك كله كان مستوعبا لهٰذه الميادين العلمية والفكرية قاصدا الإنصاف والهداية ، محاميا عن الشريعة ومقاصدها متفطنا لأهداف أعدائها وما يستعملونه من أنواع الأسلحة بغية النيل من أصولها واستقطاب طوائف من أتباعها والمحسوبين في زمرة المؤمنين بها .

سبق معنا أن بينا أن شيخ الإسلام ابن تيمية يرىٰ أن النبوة في أصل الاشتقاق من الإنباء الذي هو الإخبار بالغيب علىٰ وجه مخصوص ، وأن النبي هو من نبأه الله أي أطلعه علىٰ جانب من غيبه علىٰ سبيل الإعلام والتكليف ، وأن النبي فعيل بمعنىٰ فاعل أي منبى ، وأن الأجود عنده أن يكون بمعنىٰ مفعول أي منبأ الله إذ هٰذه هي ميزته علىٰ غيره حيث إن الذي صار به النبي نبيا أن ينبئه الله فهٰذا هو إنباء الله له .

هٰذا بالإضافة إلىٰ ما اختاره من الهمز للنبي على الأصل وما جلبه في ذلك من أدلة لغوية ونحوية وصرفية علاوة على القراءة السبعية[1] .

وهنا نجده نظر إلى الإرسال من زوايا عديدة معتمدا في ذلك على اللغة العربية ونصوص الوحي الذي استقرأه ، فوجده يطلق الإرسال في حق

---

(١) انظر ص ٣١ ــ ٣٤ من هٰذا البحث .

المخلوقات التي تعقل ولها إرادة وقصد خير أو شر ، والتي لا تعقل ولا إرادة لها ، وإنما تفعل فعلها بأمر الله وقضائه وقدره الكوني .

فالملائكة رسل الله تعالىٰ لعباده بالخير تارة وبالشر لقوم تارة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾(٣) .

والرياح من رسل الله تعالىٰ :

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾(٥) .

ويرسل الله تعالى الشياطين على الكافرين ، قال تعالىٰ : ﴿ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾(٦) .

ويرسل الله تعالىٰ علىٰ فسقه الجن والإنس شواظا من نار ونحاس ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾(٧) .

فالإرسال علىٰ هٰذا : (اسم عام يتناول إرسال الملائكة ، وإرسال الرياح ، وإرسال الشياطين ، وإرسال النار . . . وأما عموم الملائكة والرياح والجن ، فإن إرسالها لتفعل فعلا لا لتبلغ رسالة . . فمن أرسله الله ليفعل فعلا

---

(١) سورة فاطر ، آية (١) .
(٢) سورة الحج ، آية (٧٥) .
(٣) سورة هود ، آية (٨١) .
(٤) سورة الأعراف ، آية (٥٧) .
(٥) سورة الأحزاب ، آية (٩) .
(٦) سورة مريم ، آية (٨٣) .
(٧) سورة الرحمن ، آية (٣٥) .

بمشيئة الله وقدرته ، فهٰذا عام يتناول كل الخلق ، كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته وإذنه المتضمن لمشيئته .

والعام بحكم مشيئته وقدرته ، والخاص هو أيضاً بحكم مشيئته وقدرته وهو مع ذلك بحكم أمره ورضاه ومحبته ، وصاحب الخاص من أولياء الله يكرمه ويثبته ، وأما من خالف أمره فإنه يستحق العقوبة ، ولو كان فاعلا بحكم المشيئة ، فإن ذلك لا يغني عنه من الله شيئا .

لٰكن أهل الإيمان يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه ويعبدونه وحده ويطيعون رسله .

والشياطين يفعلون بأهوائهم وهم عاصون لأمره متبعون لما يسخطه ، وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته)[1] .

ويلاحظ شيخ الإسلام أن معنى الإرسال يفيد الانبعاث علىٰ مهل وتؤدة وتتابع ، كما يجمع بينهما أمر آخر وهو أن كلا منهما يأتي عاما وخاصا وشرعيا وكونيا تبعا لمشيئة الله وقدره .

فقال : (وهٰذا ـ يعني ما تقدم من الكلام في عموم الإرسال وكونه بالقدرة والمشيئة ـ كلفظ البعث يتناول البعث الخاص ، البعث الشرعي كما قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ ﴾[2] .

ويتناول البعث الكوني كقوله :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأۡسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ ﴾[4] .

---

(١) النبوات ٢٥٧ـ٢٥٩ .

(٢) سورة الجمعة ، آية (٢) .

(٣) سورة الإسراء ، آية (٥) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٦٧) .

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن إرسال البشر والملائكة هو الذي تدل عليه الآية الكريمة : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾(١) .

وقوله تعالىٰ في الملائكة والبشر من اصطفاء الله منهما رسلا :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾(٢) .

(فهنا جعل الملائكة كلهم رسلا ، والملك في اللغة هو حامل الألوكة وهي الرسالة) فالملائكة والبشر هم (الذين يرسلهم الله بالوحي و(الرسول المضاف إلى الله إذا قيل رسول الله ، فهم من يأتي برسالة من الله من الملائكة والبشر) ، فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه هي رسل الله عند الإطلاق)(٣) .

وفي سبيل تقريره أن الأصل في اشتقاق النبوة وإطلاق الرسالة إنما هو بإضافتها إلى الله تعالىٰ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

(ولفظ النبي كلفظ الرسول هو في الأصل إنما قيل مضافا إلى الله فيقال : رسول الله . ثم عرف باللام فكانت اللام تعاقب الإضافة كقوله :

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾(٥) .

وكذلك اسم النبي يقال النبي يقال : نبي الله كما قال :

---

(١) سورة الشورىٰ ، آية (٥١) .
(٢) سورة الحج ، آية (٧٥) .
(٣) النبوات ٢٥٧ـ٢٥٩ .
(٤) سورة المزمل ، آية (١٥ ، ١٦) .
(٥) سورة النور ، آية (٦٣) .

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] .

وقيل لهم : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[2] . فتقولون : يا محمد ، بل قولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله .

ورسول : فعول بمعنىٰ مفعول أي مرسل ، فرسول الله الذي أرسله الله ، فكذلك نبي الله هو بمعنىٰ مفعول أي منبأ الله الذي نبأه الله ، وهٰذا أجود من أن يقال :

إنه بمعنىٰ فاعل أي منبى ، فإنه إذا نبأه الله فهو نبي الله ، سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه ، فالذي صار به النبي نبيا أن ينبئه الله .

وهٰذا مما يبين ما امتاز به عن غيره ، فإنه إذا كان الذي ينبئه الله كما أن الرسول هو الذي يرسله الله ، فما نبأ الله حق وصدق . .)[3] .

إن شيخ الإسلام ابن تيمية ينطلق من الكتاب السنة ودلائل اللغة العربية في مفهومه للنبوة والرسالة والعلاقة بينهما ، وهٰذا واضح من نصوصه التي عرضناها ويتضح أكثر عندما نستكمل دراسة النصوص الآتية إن شاء الله تعالىٰ .

إن الله تبارك وتعالىٰ هو الذي خلق الخلق بقدرته وركب فيهم وسائل تمكنهم من التلقي عنه والفهم عن رسله وأنبيائه وجعلهم بلطفه ورحمته وعظيم حكمته يتفاهمون فيما بينهم ويتعلمون ما ينفعهم ويفهمون ما يضرهم ، وجعل النبوة فيهم من فجر الخليقة ، لذا فالناس يدركون وجودها ، ويعلمون إمكانها ولا ينكر وقوعها إلا مكابر ، أو معاند ، إذ هي من الضروريات من جهات عديدة ، فالرحمة تقتضيها ، والحكمة تدل عليها ، والقدرة والأمر المطلق لله تعالىٰ . إذاً فكل الأسباب والدواعي والدلائل تمكن منها وتستدعيها .

ومن هنا يبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية ليبرهن علىٰ أن الذي يرسل الملائكة

---

(١) سورة البقرة ، آية (٩١) .

(٢) سورة النور ، آية (٦٣) .

(٣) النبوات ٢٤٥ .

والرسل من البشر هو الله جل جلاله الذي له القدرة والأمر والخلق والتدبير ، وأن البشرية منذ أبينا آدم عليه السلام ورعاية الله تعالىٰ تشملها بالتعليم والهداية إذ كان آدم نبيا مكلماً ، وفي أولاده من بعده أنبياء منهم من قص الله علينا أخباره ، ومنهم من لم يقصص علينا عنه خبرا ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(١) .

وأنه لما ظهر الشرك بعد عشرة قرون من التوحيد بعد آدم عليه السلام بعث الله لخلقه رسولا مكث في مهمة الدعوة إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عام . ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾(٢) ، ثم أرسل الله بعد ذلك رسله تترىٰ كما قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾(٣) ، ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾(٤) .

فهـٰذه أمور معروفة من تاريخ البشرية إذ ما ظهر انحراف في البشرية إلا وجاء من قبل الله تعالىٰ عبد من عباده ينادي في أهل المكان أو الزمان الذين حدد له من جهة الله تعالىٰ دعوتهم وإعلامهم أنه رسول الله إليهم ليتمسكوا بالتوحيد الخالص أو يرجعوا إليه إن كانوا قد ارتكبوا ما يخالفه من الشرك الأعظم .

إذا فهمنا ذلك من منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في مسلكه لتقرير أن الله قادر آمر ، له الخلق والأمر ، وأن من له هـٰذه الصفات التي لا مطمع لأحد فيها سواه مع العدل والحكمة والرحمة علمنا بما ركب فينا أن هـٰذه تقتضي رعايته لخلقه وتعليمهم وهدايتهم إذ لم يجعل لعقولهم الاستقلال العلمي والهدي العملي عن تعليمه وهدايته .

يضاف إلىٰ ذلك ما شرحناه من المعلوم من سنته جل جلاله من بعثة الرسل

---

(١) سورة فاطر ، آية (٢٤) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٢١٣) .

(٣) سورة المؤمنون ، آية (٤٤) .

(٤) سورة النساء ، آية (١٦٣) .

والأنبياء حتىٰ علم ذلك لبني آدم علىٰ جميع أجناسهم وطبقاتهم .

وعليه فالنبوة هبة من الله تعالىٰ لا تنال بكسب ولا تحصل بعلم وفكر بل هي اصطفاء خالص من الله تعالىٰ لعبد من عباده قد هيأه لتحملها ووطنه على القيام بأعبائها ، وعزله عن اختيار المكان والزمان ولم يجعل له أن يستخدم فكره أو ينظم أمرا من أمور النبوة بعقله أو يخضع شيئا منها لتجاربه .

وليس له أن يطلب أن يعطىٰ كتابا إن لم يخصه الله به أو يبعث إلىٰ قوم معينين أهل شرك أو أهل انحرافات في الشريعة دون درجة الكفر والشرك .

إذا علمنا ذلك فإن لشيخ الإسلام ابن تيمية في العلاقة بين النبوة والرسالة والفرق بين النبي والرسول رأيا حسنا برز به من بين العلماء . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد نبذة من الرد على المتفلسفة في خصائص النبوة وترتيبات العقول عندهم :

(والمقصود هنا : الكلام على النبوة ، فالنبي هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبىء بما أنبأه الله به .

فإن أرسل مع ذلك إلىٰ من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه ، فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو إلىٰ أحد يبلغه عن الله رسالة ، فهو نبي ، وليس برسول .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[1] .

وقوله : ﴿ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ : فذكر إرسالا يعم النوعين . وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فإن هـٰذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلىٰ من خالف الله كنوح ـ عليه السلام) .

---

(١) سورة الحج ، آية (٥٢) .

ويضيف شارحا قائلاً :

(فقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ دليل علىٰ أن النبي مرسل ، ولا يسمىٰ رسولا عند الإطلاق ، لأنه لم يرسل إلىٰ قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم .

ولهٰذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء)[1] .

وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإن يوسف عليه السلام كان رسولا ، وكان علىٰ ملة إبراهيم ، وداوود وسليمان كانا رسولين ، وكانا علىٰ شريعة التوراة .

قال تعالىٰ عن مؤمن آل فرعون :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[3] .

ويريد أن يوضح لنا فرقا دقيقاً بين النبي والرسول فيقول : (وقد ثبت في الصحيح[4] أنه ـ يعني نوحا ـ أول رسول بعث إلىٰ أهل الأرض ، وقد كان قبله

---

(١) سنن أبي داوود ، كتاب العلم ، باب الحث علىٰ طلب العلم ، ٥٧/٤ ، ٥٨ رقم (٣٦٤١) .

(٢) سورة غافر ، آية (٣٤) .

(٣) سورة النساء ، آية (١٦٢ ، ١٦٤) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [سورة هود ، آية (٢٥)] وانظر فتح الباري ٣٧١/٦ ، الحديث رقم (٣٣٤٠) . وفيه : (يا نوح أنت أول الرسل إلىٰ أهل الأرض . .) .

أنبياء كشيث[١] وإدريس[٢] عليهما السلام ، وقبلهما آدم كان نبيا مكلما[٣] .

قال ابن عباس : (كان بين آدم ونوح ، عشرة قرون كلهم على الإسلام)[٤] ، فأولـٰئك الأنبياء يأتيهم الوحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين ، الذين عندهم ، لكونهم مؤمنين بهم ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول ، وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة ، وقد يوحي إلىٰ أحدهم وحي خاص في قصة معينة ، ولـٰكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنىٰ يطابق القرآن ، كما فهم الله سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداوود ، فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره ، وهم ينبئون المؤمنين بما أنبأهم الله به من الخبر ، والأمر والنهي ، فإن أرسلوا إلىٰ كفار يدعونهم إلىٰ توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له)[٥] ، (فهم رسل الله على الإطلاق وإلا فهم أنبياء فقط)[٦] والأنبياء قد لا يكذبون لأنهم علىٰ ما تقدم يخاطبون أقواما يؤمنون بما يدعونهم إليه ولـٰكن الفسوق والفجور والعصيان والطغيان ، واتباع الهوىٰ ، والخلود إلى الدنيا وغير ذلك من مساوىء الأخلاق جعلهم في مرتبة من الانحراف ودرجة من الظلم والجور تقتضي أن يكون بين ظهرانيهم نبي يسوسهم من قبل الله تعالىٰ رحمة بهم ولطفا من المولىٰ جل جلاله ، إذ الأنبياء

---

(١) انظر البداية والنهاية ، تأليف : أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، تحقيق : الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الريان للتراث ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، ١/ ٩١ .

(٢) السابق ٩٢ .

(٣) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ، ط دار المعرفة ، ٦/ ٣٧٢ .

(٤) السابق .

(٥) النبوات ٢٥٥-٢٥٧ .

(٦) زدت جواب هـٰذا الشرط لسقوطه من المطبوعات التي وقفت عليها ولم نجد من قدر مثل ما ذكرت فهو اجتهاد ضروري لاستقامة الكلام . والله أعلم .

تجب طاعتهم على الإطلاق ولا يخشىٰ عليهم الزيغ والضلال لعصمة الله تعالىٰ لهم ، والعلماء وإن كانوا ورثة للأنبياء فلا تؤمن عليهم الفتنة والتكاسل عن الدعوة إلى الله تعالىٰ حفاظاً علىٰ دمائهم ومراتبهم ومناصبهم .

لذا كثر من بني إسرائيل قتل الأنبياء كما قال تعالىٰ :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[1] .

وقد حكم الله تعالىٰ أن : (الذين يحادون الله ورسله هم الأذلون ، وأنه هو القوي العزيز الغالب الناصر لرسله .

فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2] .

ومن هنا قال شيخ الإسلام بن تيمية :

(ولابد أن يكذِّب الرسلَ قوم . قال تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[3] .

وقال : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴾[4] .

فالرسل ترسل إلىٰ مخالفين ، فيكذبهم بعضهم ، وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة ، آية (٨٧) .
(٢) سورة المجادلة ، آية (٢٠ـ ٢١) .
(٣) سورة الذاريات ، آية (٥٢) .
(٤) سورة فصلت ، آية (٤٣) .
(٥) سورة يوسف ، آية (١٠٩ـ ١١٠) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[1] .

فحقيقة النبوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ ما فهمناه من نصوصه هٰذه تتلخص فيما يأتي :

١ـ إن الله جل جلاله هو الذي ينبىء من شاء من عباده ، فله التدبير والخلق والأمر يفعل ما يشاء ويختار ، ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[2] ، ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3] .

٢ـ النبوات قديمة قدم النوع البشري لا يملك أحد إنكار ذلك إلا جحودا لكثرة الأدلة علىٰ ذلك .

٣ـ من نبأه الله تعالىٰ بالوحي علىٰ أي صفة كان مناما أو يقظة بالملك أو بالنفث في الروع فهو نبي الله لا يلتبس أمره بغيره من معارف الناس المحدودة وتجاربهم المعروفة .

٤ـ إذا نبأ هٰذا النبي غيره من الناس ودعاهم إلى الله وعلمهم فهو رسول من الله تعالىٰ لا يشترط في تصديقه في رسالته كتاب ولا معجزة حيث إن دلائل صدق المدعي كثيرة غير محصورة في اشتراطات الناس إذ إن الله تعالىٰ هو خالق الخلق ومعلمهم العلوم وقد أعطاهم من الإدراك ما يدلهم به علىٰ صدق المرسلين فيما بينهم فهو قادر علىٰ تمكين رسوله من بيان صدقه في رسالته بأدلة وبراهين حسية ومعنوية بحيث لا يجحدها إلا مكابر .

٥ـ إذا بعث النبي إلىٰ مخالفين في أصل التوحيد يدعوهم إليه فهٰذا هو الرسول المطلق عند الإطلاق .

---

(١) سورة غافر ، آية (٥١) .
(٢) سورة الأنعام ، آية (١٢٤) .
(٣) سورة الحج ، آية (٧٥) .

٦ـ أما إذا كان النبي يدعو قوما مؤمنين يرتكبون المخالفات دون الشرك فهٰذا نبي وليس برسول على الإطلاق وقد يكون رسولا ولم يأت بكتاب ولا نسخ شيئا من الشريعة التي كانت قبله بل يعمل بها ويدعو إليها ويفهمه الله فيها ، وقد يوحىٰ إليه في حالات وينَصُّ له علىٰ حكم نازلة أو حل معضلة ، كما جاءت الآثار بصحف شيث وغيره ممن كان قبل نوح عليه السلام ، وكما حصل ذلك لبعض أنبياء بني إسرائيل ، علىٰ ما في نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية السابقة في هٰذا المبحث .

٧ـ هٰذا علىٰ أن آية سورة الحج ـ كما فهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ ذكرت إرسالا يعم النوعين ، وقد خُص أحدهما بأنه رسول ، فإن النبي علىٰ هٰذا مرسل بدعوة الناس لاتباع الكتاب الذي قبله ، وإن لم يكن مبلغا أصل التوحيد والأحكام حيث بلّغها من قبله ، وهٰذا مما لاشك فيه نظرا للاستقراء التام ، وما تقتضيه حكمة الإنباء ، وإلا لما تعرض الأنبياء للقتل والأذىٰ في أنفسهم وأتباعهم .

٨ـ سنة الله تعالىٰ ماضية في أن الرسول الذي يبعث إلىٰ مشركين ليدعوهم إلى التوحيد أن يكذبه قوم منهم ، ويردون عليه ما جاءهم به ويرتكبون في سبيل الصد عنه ما يسعهم ، ولٰكن العاقبة الحسنة والنصر لرسل الله تعالىٰ .

٩ـ إذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية يوافق علىٰ أن عقل النبي وحدسه وقوة نفسه من ضمن ما اختصه الله به من الكمالات الكثيرة فإنه لا يوافق الفلاسفة علىٰ حصرهم لخصائص النبوة في هٰذه الثلاث أو جعلها هي مصدر نبوته ، وما يقع تصديقا له من خوارق ومعجزات .

١٠ـ وكذلك يرد عليهم في جعلهم النبوة من قبيل قوة المخيلة وما يقع في النفس من الخواطر مبينا أن الغيب الذي يأتي به النبي وحي من الله تعالىٰ وأن مرائي الأنبياء وحي مقطوع به لا يقاس به ما يحصل لغيرهم من المرائي وإن كانت تصدق أحيانا .

١١ـ وشيخ الإسلام وإن كان ينكر على الذين لا يعتبرون الرياضات الروحية والتصفية بالسلوك من أسباب قوة الحدس وتحصيل العلوم وسرعة الخواطر وغير ذلك ، فإنه يرد على الذين عولوا عليها وأعطوها مكانة لا تنال بها وإنما تنال بواسطة الوحي والعمل بمقتضاه واتباع الأنبياء في الصغير والكبير امتثالاً لأمر الله فذلك في نظره هو المعتبر شرعا وهو الذي ينال صاحبه ولاية الله تعالىٰ ويفوز بمعارف كثيرة في زمن يسير مع صدق الفراسة ونور البصيرة .

١٢ـ يرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية أن الفلاسفة الإسلاميين ومن أخذ بمناهجهم من النظار والمتكلمين علىٰ ما عندهم من الحق وصحة المسالك فإن عندهم من القصور عن منهج السلف الصالح في النبوات مثلا ما لا يمكن معه اعتبار ما حصلوه شيئا مفيدا ونافعا إلا في مجال التشويش على الخصوم ، وكان الواجب عليهم اتباع منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة في البرهان والاستدلال والجدال حتىٰ يبطل ما لدى الخصوم وتقوم الحجة التي يجب اتباعها والتسليم لها .

١٣ـ ويرىٰ كذلك أن الإمام الغزالي قد ضمن كتبه المضنون بها فلسفة مشوبة بإسلام ، الأمر الذي وضع به المتفلسفة الملاحدة من الصوفية سلما تجاوزوا به ميدان النبوة إلىٰ متاهات من الضلالات والمزاعم التي خرجوا بها من الملة حيث اتبعوا إخوان الصفا في رسائلهم الفلسفية ، ففضلوا الحكيم الفيلسوف علىٰ مقام النبوة ، وأحدثوا منصب خاتم الولاية ، وادعوا أنه يأخذ عن الله بلا واسطة ملك ، وغير ذلك من الاستخفاف بالشريعة والتلاعب بها ردا وتأويلا فاسدا .

١٤ـ وينص شيخ الإسلام على الفرق بين النبوة والرسالة بقوله : (فالنبوة داخلة في الرسالة ، والرسالة أعم من جهة نفسها ، وأخص من جهة أهلها ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، فالأنبياء أعم ، والنبوة نفسها جزء من الرسالة ، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها ، بخلاف النبوة فإنها لا تتناول

الرسالة)[1] ، وعليه فالنبوة والرسالة بينهما عموم وخصوص إذ لا رسالة إلا بنبوة ، فيجتمعان في النبي الرسول ، وقد تنفرد النبوة .

١٥ـ ومما سبق يتبين لنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد تجاوز النزاع القائم بين المعتزلة ومن وافقهم في القول بعدم الفرق بين النبي والرسول بحجة عدم وجود النص المفرق بينهما في الأصل .

* * *

(١) مجموع الفتاوىٰ ٧/ ١٠ وانظر فيما تقدم من فقرات هٰذه النتائج : الرد على المنطقيين ، معارف لاهور ط٢ ، ١٣٩٨هـ ٤٨٢ ، وما بعدها ، والصفدية ١/ ٥ـ٧ و٢٢٥ وما بعدها . وشرح الأصفهانية ١٢٢ ، ١٢٣ ، وانظر ما أسلفناه من ملاحظة علىٰ هٰذا النص في ص ٤٣ .

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

إن العلماء لما جزموا بأن لفظ النبوة والرسالة مختلفان في الوضع ، وحكموا بأن النبي والرسول متغايران لفظا ومعنى اعتمادا علىٰ ورود هٰذه الألفاظ في الكتاب والسنة متعاطفات ، والتعاطف يقتضي المغايرة من الناحية البلاغية ، وخصوصا أنهم حريصون علىٰ بيان أن الوحي في قمة الفصاحة والبلاغة . والتكرار بدون فائدة جديدة في الأوصاف من أوضح العيوب في الأساليب العربية والوحي ينزه عن ذلك[1] .

فقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾[2] ، : دليل ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ علىٰ أن النبي مرسل ، ولا يسمىٰ رسولا عند الإطلاق ، لأنه لم يرسل إلىٰ قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم ، ولهٰذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء)[3] .

وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ، فإن يوسف ـ عليه السلام ـ كان رسولا وكان علىٰ ملة إبراهيم ـ عليهم وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام .

وداوود وسليمان كانا رسولين ، وكانا علىٰ شريعة التوراة ، قال (الله) تعالىٰ عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ ﴾[4] ، إلىٰ أن قال أي شيخ الإسلام ابن تيمية : (وموسىٰ وسليمان مثل داوود ويوسف عليهم

---

(١) انظر فتح الباري ١١/ ١١٢ .

(٢) سورة الحج ، آية (٥٢) .

(٣) تقدم تخريجه في ص ٧٣ من البحث .

(٤) سورة غافر ، آية (٣٤) .

السلام وغيرهما مع أن داوود وسليمان ويوسف عليهم السلام هم رسل أيضا دعوا إلىٰ توحيد الله وعبادته ، كما أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر لـٰكن بغير معاداة لمن لم يؤمن ، ولا إظهار مناوأة بالذم والعيب والطعن لما هم عليه)[١] .

إن شيخ الإسلام ابن تيمية يقرر أن النبي له اشتراك عام في الرسالة مع الرسول المطلق لا يشترط له أيضاً أن يأتي بكتاب أو شريعة جديدة ، ويريد أن يجعل ميزة الرسول المطلق عند الإطلاق هو من دعا الناس إلى التوحيد لكونهم على الشرك وهـٰذه الميزة أوضح هو تبعا لما في القرآن الكريم أن من ذكرهم من الأنبياء دعوا إلى التوحيد وعبادة الله تعالىٰ .

ومن أدلة المفرّقين ما يأتي :

أولاً : حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في الدعاء عند النوم وقول البراء : (فقلت كما قال : إلا أني قلت : وبرسولك الذي أرسلت ، فوضع يده في صدري وقال : ونبيك الذي أرسلت)[٢] .

ثانياً : إن العلماء فهموا أيضاً من حديث ختم النبوة : (فلا نبي بعدي)[٣] ، أن ذكر النبوة يكفي عن ذكر الرسالة ؛ إذ لا رسالة إلا بعد حصول النبوة ، فحكموا بالفرق بين النبي والرسول .

ثالثاً : أن النبوة رحمة ، ورحمة الله تعالىٰ إذا كان يختص بها من يشاء من حيث الاختيار لمحلها الذي تنزل عليه انطلاقا من قول الله تعالىٰ : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[٤] ، فإن مضمونها يعم ويشمل جميع المخاطبين بها من

---

(١) النبوات ٢٥٦ ، ٢٥٧ و٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) عمل اليوم والليلة لأحمد بن شعيب ، النسائي ، دراسة وتحقيق الدكتور/ فاروق حماده ، المغرب ، مكتبة المعارف ١٤٠١هـ ، ٤٦٠ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم ١٥/ ١٠٤ وانظر شرح الطحاوية ١٠٨ .

(٤) الأنعام (١٢٤) .

قوم النبي ، فهم وإن بُلغوا قبله فهو يدعوهم ويعلمهم ، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم أنه : كان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة[1] .

والقول بأن النبي من أُوحي إليه وحيا ليعمل به في خاصة نفسه إذا لم يرسل بعد ذلك إلىٰ كفار تحجير لواسع وتضييق لرحمة الله العامة ، والأدلة بخلاف هٰذا القول واضحة منها :

أ ـ حديث أبي حازم قال : قاعدت أبا هريرة رضي الله عنه ـ خمس سنين ، فسمعته يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون .

قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : (فُوا ببيعة الأول فالأول ، أعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم)[2] .

ب ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها ، ولا أحد بنىٰ بيوتاً ولم يرفع سقوفها ، ولا آخر اشترىٰ غنما أو خلِفات وهو ينتظر أولادها . فغزا ، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علينا ، فحبست حتىٰ فتح الله عليهم ، فجمع الغنائم ، فجاءت ـ يعني النار ـ لتأكلها فلم تطعمها ، فقال : إن فيكم غلولا ، فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فلزقت يد رجل بيده فقال : فيكم الغلول ، فليبايعني قبيلتك ، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده ، فقال : فيكم الغلول ، فجاؤوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها ، فجاءت النار فأكلتها . ثم أحل الله لنا الغنائم ، رأىٰ ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا)[3] .

---

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، الحديث (٣) رقم : (٥٢١)
(٢) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل .
(٣) صحيح البخاري ، كتاب فرض الخمس ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أحلت =

فهٰذا نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له يوشع بن نون ، وهو فتىٰ موسى المذكور في سورة الكهف[1] .

وهو مع علمنا أنه خلّفه موسىٰ عليه السلام في بني إسرائيل يقيم فيهم التوراة ، فإننا علمنا نبوته من هٰذا الحديث الذي نص علىٰ أنه يجاهد وينظر في المصالح ويطلب أسباب النصر على الأعداء ، ويكرمه الله بخرق عادة عظيمة هي حبس الشمس عن مغربها حتىٰ كتب الله له النصر والفتح وسبي الغنائم علاوة علىٰ ما جاء فيه من علامات النبوة الأخرى[2] .

فلم يقتصر على العمل بالتوراة في خاصة نفسه وغيره من الأنبياء قد رأينا أنهم كانوا يبلغون عن الله تعالىٰ ويعملون بما أمرهم الله به بلا زيادة ولا نقصان .

جـ ـ قال الحافظ ابن حجر : (ووقع في ذكر عدد الأنبياء حديث أبي ذر رضي الله عنه ، مرفوعا : (أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر) قال : وصححه ابن حبان ، وسكت عليه عدة مرات)[3] .

د ـ قال الحاكم : (قد اختلفت الروايات في عدد المرسلين من الأنبياء وسائر الأنبياء ، والذي أدىٰ إليه الاجتهاد من لدن آدم إلىٰ أن بعث الله نبينا المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم فقد ذكرتهم .

فمن حديث أبي ذر رضي الله عنه (أنه قال : قلت يا رسول الله كم النبيون ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي . قلت : كم المرسلون

= لكم الغنائم ، وقال الله عز وجل : ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ الآية ، وهي للعامة حتىٰ يبينه النبي صلى الله عليه وسلم ، الحديث (٣١٢٤) .

(١) انظر تفسير الطبري ، ٥/ ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) انظر فتح الباري ٦/ ٢٢١ .

(٣) فتح الباري ٦/ ٣٦١ .

منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر . .) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ثمانية آلاف من الأنبياء ، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل) .

وعن أبي سعيد قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إني خاتم ألف نبي أو أكثر)[1] .

وبما أظهرناه من أدلة القائلين بالفرق بين النبوة والرسالة يتضح صواب ما أسلفناه من كون أدلة غير المفرقين محجوجة . وإلىٰ خلاصة هـٰذا المبحث :

إن الإمام الغزالي أراد أن يعطي قاعدة في النبوة والرسالة وأن يشرح حقيقة النبوة بالبرهان ، فكان أن قرر أنها لا تنال بكسب أو تحصل بعقل أو فكر وقوة حدس وإنما هي هبة ربانية لعبد أعده الله لها بطهارة الفطرة ونقاوة السريرة وحسن الأخلاق وسمو الشمائل مع حب الخلوة والتعبد رغبة في تقوية الصلة بالله تبارك وتعالىٰ .

وهـٰذا منه منهج صائب ومرضي عند المحققين من العلماء كما قد بين ذلك آنفاً .

ولـٰكن يؤخذ علىٰ منهج الإمام الغزالي أنه وهو يبين مفهومه لحقيقة النبوة ويشرحها للناس علىٰ وجه الدفاع والتعليم والرد على المنكرين لها أو المتساهلين في الأخذ بمقتضاها وقعت منه أمور نجملها فيما يأتي :

أولاً : أنه لما رأىٰ فتور الناس في أمر النبوة وحز ذلك في نفسه ، وأراد معالجة هـٰذا الأمر الديني الخطير كأنه لم يخطط للمنهج الذي يريد الوصول من خلاله إلىٰ بغيته فنتج عن ذلك :

---

(١) مستدرك الحاكم ٥٩٦/٢ ، ٥٩٧ ، وقد بين الذهبي أن كلا من هـٰذه الأحاديث في سندها ضعيف أو واه ، فهي علىٰ هـٰذا لا تقوم بها حجة .

أ ـ الكلام بمقدمات منطقية وفلسفية عميقة ، وعقيمة أحيانا في تحصيل الهدف المنشود ، وكأنه يريد أن يحل ألغازا ويستكشف أسرارا عميقة يجد الإنسان حرجا من إظهارها فتراه يتناول بطريقة فلسفية نظام الكون وترتيب أجزائه وارتباط بعضه ببعض ليصل من ذلك إلىٰ تقسيم للحركات وأن منها ما هو ضروري ومنها ما هو إرادي . وبعضها خير يجب فعله والآخر شر يجب تركه .

وهٰذه الخيرية وتلك الشرّية لا يعلمها كل الناس ولا يجهلها عموم الناس . (فثبت بهٰذا التقسيم الثاني أصحاب حدود يعرفونها وهم الأنبياء وأصحاب الشرائع عليهم الصلاة والسلام)[١] .

وهو يريد أن يصل إلىٰ أن النبوة ثابتة بالحركات الضرورية الاختيارية التي يجب أن يكون الجاهل لوجه الخير والشر فيها داخلا تحت حكم الأنبياء العالمين بتعليم الله لهم بما فيها من خير وشر .

بـ ـ ثم إن الإمام الغزالي يسهب أيضا في شرح دليل التمانع ووجوب التعاون بين بني آدم في حالة الاجتماع وتضارب المصالح . الأمر الذي (لا يفي بتمهيده علىٰ قانون يشمل مصالح النوع جملة ويخص كل شخص تفصيلا إلا أن يكون عقل مؤيد بالوحي مقيض للرسالة . . .)[٢] .

والغزالي كان في غنىٰ عن هٰذا إذا كان يخاطب المسلمين لأن القرآن الكريم حثهم على النظر والاتعاظ والاعتبار بهٰذا الكون العظيم وقد بين لهم النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا من الحكم والأسرار التي لهم بها وجه تعلق ولها أثر يدرك به الدلالة علىٰ عظمة الخالق وإرادته وتصرفه ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣] .

---

(١) معارج القدس ١٣٣ .
(٢) السابق ١٣٤ .
(٣) سورة الأعراف ، آية (٥٤) .

وإذا كان يخاطب الفلاسفة والعقلانيين فلا يفيدهم هٰذا العرض الاستدلالي لأنهم قد تمرسوا علىٰ مثله في الأمور الغيبية ولم يحصل لهم به إيمان بالنبوة على الوجه الذي يريده الغزالي .

وإن كان يخاطب به عموم الناس فلا يدركه كل الناس ولا يحتاجه جلهم ، وخصوصا أنه قدم أن النبي لا يطالب بإعطاء تعريف وحد لنبوته وإنما على المخاطبين الإيمان به والتصديق بما جاء به ، وإلا توقف الإيمان برسالته علىٰ معرفة حدها ورسمها وخاصتها وهٰذا ليس متوجها عليه وليس في مقدور الناس إدراك ذلك لو أن الرسول شرحه لهم)[١] .

جـ يضاف إلىٰ ما سبق أن الإمام الغزالي مع علمه بهٰذا أخذ يستدل لإثبات النبوة وإظهار حقيقتها على الفلاسفة بتفاوت الناس في قوة الحدس والذكاء وأنه لا مانع من وجود شخص خارج عن المعتاد في ذلك . ثم الرؤيا المنامية والطب والنجوم والطلسمات وغير ذلك من العلوم التي هم يصدقون بوجودها والجهل بخواصها وهٰذا وإن كان يريد به الاستدلال عليهم حتىٰ يقروا بما يكذبون به من أمر النبوة وبما يعلمون أو يجهلون من وجود هٰذه العلوم وخصائصها التي هي فوق عقل الإنسان فإن بعض العلماء رأىٰ أن مسلكه هٰذا نزول في الاستدلال بأمور سافلة لا تعدو كونها من تجارب الإنسان ومعارفه علىٰ أمر هو من أمر الله تعالى الذي لا تحوم حوله العقول ولا التجارب .

وهٰذا ما يقرره الإمام الغزالي إذ يرىٰ أن النبوة مرتبة فوق مرتبة الإنسانية وأن تكليف الإنسان بمعرفة حدها ورسمها وخواصها تكليف بما لا يطاق[٢] .

د- والإمام الغزالي مع قوله : ــ (أن الله تعالىٰ ألقىٰ إلىٰ عباده علىٰ لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقيدة هي الحق علىٰ ما فيه صلاح دينهم

---

(١) انظر معارج القدس ١٣٠ .

(٢) المنقذ ٧٤ وما بعدها وقارن بما في معارج القدس ١٣٠ .

ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار)[1] ـ مجّد علم الكلام ، ورآه صالحا ليكون صائنا لعقيدة أهل السنة من تشويش أهل البدعة مع عدم التزامه هو له بالكلية لا في المعتقد ولا في التأليف لذا جاءتنا مناهجه مضطربة في نظر الباحثين غير مطردة علىٰ نهج واحد ، الأمر الذي لابد أن يوقع القارىء في حيرة لا يجد مخرجا منها إلا إذا أخذ علىٰ هـٰذا الإمام المستدركات السالفة في باب النبوة وحقيقتها ، وأتبعها بما يحمد له في ذلك علىٰ ما سيأتي .

إذا تقرر أن الإمام الغزالي لم يسلك منهجا واحدا في مفهوم حقيقة النبوة فلعل عذره في ذلك هو أثر المعارف في عقله وفكره وتعدد الاختصاصات والطوائف المخاطبة بالمناهج ، التي تناول الرد عليها أو الشرح والبيان لمقاصدها وغاياتها ، وهـٰذا إن لم يكن عذرا في حقه فإنه عذر في حق الباحثين في فكرة ومؤلفاته ، إذ لا يمكنهم الإنصاف في حقه إلا بتوضيح جميع المؤثرات علىٰ فكره وتخصصاته ومنابع معارفه ثم تقرير ما يستدرك عليه ، وإظهار ما يحمد له .

وإني قد أجملت ما رأيت أنه لم يتبع فيه المنهج الذي توصلت إلىٰ أنه هو الأولىٰ بالبحث في مسائل النبوة من غيره لأسجل له أنه أبرز قواعد مهمة في بيانه لحقيقة النبوة تكفي لإبعاده عن مناهج الفلاسفة وجميع العقلانيين المقتصرين علىٰ زبالات العقول القاصرة .

وهيٰ كالآتي باختصار لأنه سبق أن كتبنا نصوصها في مبحث رأيه :

أـ إنه يقرر أن أصل النبوة وركنها الأساسي قائم علىٰ أن الأمر لله تعالىٰ : (ومن لم يعترف به لم يعترف بالنبوة قط)[2] .

بـ وما دام الخلق والأمر لله فله أن يأمر وينهىٰ ويثيب ويعاقب ، (ومن لم يثبت لله عز وجل أمرا يطاع فقد أحال كل هـٰذه الأوامر والنواهي والتذكيرات

---

(١) المنقذ ٣٢ وما بعدها .
(٢) معارج القدس ١٣٤ وانظر المنقذ ٦٦ وما بعدها .

والتنبيهات علىٰ من ادعى النبوة مقصورة عليه غير متعدية عنه . . .)[1] .

جـ ـ أن الله الخالق الآمر الناهي جل جلاله يفعل ما يشاء ، وعليه فلا استحالة في حقه من بعثة من يبلغ خلقه عنه أوامره من جنسهم ، وأن يكون ذلك المبعوث المصطفى المختار المجتبىٰ من خلقه لا كسب له في ذلك ولا جهد فـ (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[2] .

دـ أن من نبأه الله بالوحي وأرسله إلىٰ خلقه لم يتوقف التصديق به والإيمان بما جاء به علىٰ تحصيل خواص رسالته وماهيتها أو إبراز حدها بجنسها وفصلها ، بل : (يجب عليه ـ المدعو ـ التصديق في الحال سواء عرف حد الرسالة أو لم يعرف)[3] ، ذلك أن النبوة مرتبة فوق مرتبة الإنسانية .

هـ ـ إن الإمام الغزالي يثبت وسيطا بين الله وأنبيائه وهـٰذا الوسيط هو الملك الموكل بالوحي ولا يعتقد أن الوحي للأنبياء فيض من العقول أو العقل الفعال بل يقرر أن جبريل عليه السلام ملك منفصل عن النبي الذي يخاطبه بوحي الله تعالىٰ[4] .

وـ وبهـٰذا نعلم أن الإمام الغزالي يفهم أن حقيقة النبوة وحي من الله تعالىٰ لعبد اصطفاه من خلقه ليبلغ عنه شرعه إلىٰ عباده الذين يجب عليهم الإيمان به والعمل بما جاء به إذ سعادتهم في الدنيا والآخرة مرهونة بذلك[5] .

وإذا كان البحث أوصلنا مع الإمام الغزالي إلىٰ أنه دخل في أمور كثيرة في ميدان تناوله لحقيقة النبوة والرسالة والعلاقة بينهما فإن تلك النتيجة هي التي يصل إليها الباحث مع شيخ الإسلام ابن تيمية حيث إنه هو الآخر درس مفاهيم

---

(١) السابق ١٣٥ .
(٢) السابق ١٣١ ويقارن بما في الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) معارج القدس ١٣٠ .
(٤) انظر كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء مع الإحياء ، ط مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٣٨٧هـ ٥/٤٦ـ٤٨ .
(٥) انظر المنقذ ٧٧ـ٨١ .

الناس للنبوة والرسالة رادا ومعقبا ومسلما ومصححا ومستصوبا ومبطلا ومفندا .

وانطلاقا من قول الله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1] .

الأمر الذي ينفي العصمة عن قول أحد من الناس دون الأنبياء فيما أنزل عليهم وما أمروا بتبليغه من وحي الله تعالىٰ ، علىٰ ما يفهم من الآية وما أثر عن الإمام مالك بن أنس من قوله : كل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وانطلاقاً من ذلك وما تبين بالبحث فإن الدارس لمفهوم النبوة وحقيقتها عند شيخ الإسلام ابن تيمية لابد أن يسجل عليه ملاحظات في المنهج ، ويسطر له مقاصد حسنة برز فيها تبرهن علىٰ جدارة علمية واهتمام منقطع النظير بأمر النبوة وما كتب عنها . ومما يسجل عليه :

أـ عدم تحديد مسائل الخلاف التي جرد قلمه للرد عليها في محاورته وردوده على المتكلمين الأمر الذي تمخض عنه اضطراب في المنهج وعدم استقامة في الأسلوب حتىٰ إن القارىء ليقع في الحيرة من كثرة الاستطرادات والردود الجانبية وتكرير لنصوص وعبارات في صفحات متتالية ، وهـٰذا بلا شك يذهب بقوة التركيز ومتانة الأسلوب ووضوح الفكرة المردودة ، والأدلة والحجج المردود بها ، وهـٰذا أمر يتجلىٰ في أهم كتاب خصصه شيخ الإسلام ابن تيمية لمخاطبة من يؤمن بالنبوات من المسلمين[3] .

بـ إنه نتيجة لهـٰذا المنهج المذكور أثار قضايا ليس فيها نزاع أصلا بين أهل القبلة ولم يكن الحوار يدور حولها فبذكرها هناك يتشوش ذهن القارىء ويحتار

---

(١) سورة النساء ، آية (٨٢) .
(٢) بحثت عن تخريج هـٰذا القول السائر فلم يتيسر لي ، ولعل شهرته تغني عن مصدر له .
(٣) انظر النبوات ٢٤٤ و٢٤٨ ، ٢٤٩ .

من وجود خلاف فيها فيكتشف بالتتبع أنها إنما ذكرت عرضا أو تبعاً لأمور أخرىٰ لمناسبة تجمع بينها ، وهـٰذا بلا شك يميع الحق ويتعب القارىء[1] .

جـ ـ إدخال الردود على المتفلسفة ومن اتبعهم من أصحاب الحلول والاتحاد العام ، أو تقويم مناهج المتكلمين وترتيب الفقهاء علىٰ درجات وأئمة علم الكلام علىٰ درجات أخرىٰ في المكانة العلمية والتفوق في معرفة مقالات المخالفين ، وهـٰذا يجعل الباحث لا يستطيع استكمال الفكرة الواحدة إلا بعناء وتتبع[2] .

د ـ المنهج المتردد في الحكم بل المتباين الأحكام أحيانا إذ يذكر مناهج المتكلمين في النبوات من إثبات الأمر والقدرة لله ومقتضيات الرحمة والعدل واشتراط التحدي لظهور المعجزة وغير ذلك ويحكم بأنها طرق صحيحة سليمة ثم يستدرك اشتراط المعجزة ومقارنة التحدي لذلك . ثم يعقب بعد بحث أن لازم مذاهبهم أن الله لم يجعل علامة علىٰ صدق أنبيائه ، وأن حقيقة مذاهبهم لا يثبت بها وجود الله تعالىٰ ولا النبوات وأن مؤدىٰ كلامهم خير منه كلام الفلاسفة والصابئة دع اليهود والنصارىٰ ، وهـٰذا كان بالإمكان تجنبه لو قصر الكلام على المسائل المتنازع فيها بعد حصرها ، فيسلم المنهج من الخلل المذكور ويصل الدارس إلىٰ نتائج مثمرة فيعرف أين الحق وأين الخطأ أو الباطل فيحدد موقفه علىٰ بينة[3] .

وإذا كانت هـٰذه الملاحظات المنهجية واقعية فإن عذر شيخ الإسلام فيها واضح لمن عرف موسوعيته وحرصه علىٰ إيداع كل معلومة تفيد في الموضوع الذي يتناوله أو تتصل به من أي حيثية أو مناسبة لذا فلا يمكن تصنيف فتاواه الموجودة الآن علىٰ هـٰذا الوضع الذي طبعت عليه ، ذلك أنك لا تستطيع أن

---

(١) انظر السابق ٢٢٠ـ٢٢٢ .

(٢) انظر السابق ٦٦ .

(٣) انظر النبوات ١١٧ـ١٢١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ والصفدية ١/ ٢١٨ وما بعدها والرد على المنطقين ٣٣١ ، ٤٨٠ .

تحكم على المجلد الأول مثلا أنه في العقائد دون فقه الأحكام واللغة والأصول والتفسير ، زد علىٰ ذلك أنه كان يشعر بأنه يرد علىٰ مخالفين متفاوتين في درجات الخلاف والمنازعة ويريد أن يبين للجميع الحق الذي يراه علىٰ ضوء الكتاب والسنة ويشرح للناس ما وقعوا فيه من مخالفة أو مجانبة لذلك الحق الذي يراه ، والكلام إذا طال وتشعبت سبله كان من الصعوبة بمكان ضبط مخارجه ومداخله وما تقدم منه وما لم يذكر ، ومن لم يكن عنده وقت للمراجعة والتنقيح والحذف والإضافة يكفيك منه أنه لم يأت بما يخالف هدفه ولم يقع فيما يناقض مقاصده وأهدافه[1] ، علما أن الأمر في النبوات شائك .

إذا تقرر عذر شيخ الإسلام بن تيمية في تلك الملاحظات المنهجية فإن حقيقة النبوة والرسالة كان يفهمها علىٰ ضوء الكتاب والسنة ومنهج الصالحين من سلف الأمة ، وتوضيح ذلك يكون على النحو الآتي :

أ- إنه بناء علىٰ أن شيخ الإسلام ابن تيمية يفضل دائماً التعبير عن المعاني الشرعية بالألفاظ القرآنية عمد إلىٰ مباحث النبوة متفهما لها من خلال نصوص الوحي فعرفها لغة واصطلاحاً وناقش الخلافات الواقعة في ذلك ورجح بالنص أو القراءات أو الحديث النبوي ما يراه صوابا .

ب- درس مفهوم النبوة والرسالة والخلاف الواقع بين العلماء في الترادف أو الفروق فرجح أن بينهما عموم وخصوص مطلق ، وأن الرسول المطلق هو من أُرسل إلىٰ قوم مشركين ، علىٰ أن ضمن نصوصه ما يُفهم القول بالعموم والخصوص الوجهي ـ كما سبق التنبيه عليه .

جـ- ولما قرر شيخ الإسلام ذلك تناول المذاهب الغالطة في أمر النبوة من حيث أصلها وحقيقتها فبين أن النبوة هبة من الله تعالىٰ ومن أفعاله التي أوجبها

---

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ ١٢/١ و٢٠ و١١٠ و١٣١-١٣٧ ، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث ١٤٠١هـ ، ١٢٥ وما بعدها .

علىٰ نفسه وكتبها في سابق علمه ، وأن الرحمة والعدل والعناية الربانية من مقتضياتها .

د ـ وأوضح بأن الله إذا اختار عبداً لحمل رسالته إلىٰ خلقه أدبه وشرح صدره وأعلىٰ قدره ونبأه بواسطة ملك كريم هو جبريل عليه السلام وإذا قال أحد من الأنبياء : إني رسول الله إليكم فإن علامات صدقه كثيرة لا يمكن حصرها ، تكون بالمعجزة القاهرة والآية الباهرة وبالنظر فيما جاء به وما يأمر به وما ينهىٰ عنه أو في حاله وواقعه مقارنة بما دعا إليه من قبله إذ جنس النبوة قديم مذ آدم عليه السلام .

هـ ـ وبالعناصر الآنفة نعلم أنه فنَّد مذاهب الفلاسفة ومن قلدهم ، وتعقب كثيراً من حجج المتكلمين ومن شايعهم وبين وجه الخطإ عندهم وأملى الصواب علىٰ ضوء السنة والكتاب حتى اتضح أنه يريد أن تفهم النبوة علىٰ أنها من أمر الله الذي يتلقىٰ ويطاع طاعة مطلقة . والله أعلم .

* * *

الفصل الثاني

الوحــــي وطرقــه

مـدخـل :

عرضنا في الفصل السابق إلىٰ تعريف النبي والرسول والنبوة والرسالة لغة واصطلاحا حيث ناقشنا أصول اشتقاق كل كلمة حسب آراء علماء اللغة واستدلالاتهم علىٰ تلك الآراء ، ورجحنا من ذلك ما أيده الدليل والتعليل ، وتناولنا بعد ذلك حقيقة النبوة والرسالة ومفهوم العلاقة بينهما عند الإمام الغزالي ، وشيخ الإسلام بن تيمية من خلال نصوصهم في كتبهم المشهورة ، وعقبنا على النصوص المعروضة بما يتضح به المراد منها وما يمكن أن يعقب به عليها .

ثم كان المبحث الثالث بمثابة تعقيب علىٰ ضوء الكتاب والسنة يتلمس فيه الباحث أهم جوانب الصواب في جهود العلماء السالفين الذين بحثوا في حقيقة النبوة محاولين بيان مفهومها والعلاقة بين النبوة والرسالة وما يمكن أن يجعل فروقا بين النبي والرسول .

وفي استدراك الباحث الذي ختم به ذلك المبحث ما يدل علىٰ أن ميدان البحث في مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما كان واسعا بحيث تشعبت المناهج والمفاهيم وراء نتائج نهائية فيه بل إن أغلب العلماء كان ناقلا مقلدا لأقوال من سبقه سواء في ذلك القائلون بأن هناك فروقا ، أو الذاهبون إلىٰ أنه لا فرق بين النبي أو الرسول فكل نبي رسول وكل رسول نبي كما هو بدهي لذا كان على الباحث أن يعتمد نصوص الوحي في ذلك ويرجح ما دلت عليه بعد

غربلة المناهج والمذاهب المذكورة حتىٰ يتبين أنه لا يمكن أن يسلم منها عند الفحص إلا القليل المرتكز على الكتاب والسنة ولئن كان مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما من المباحث الأصيلة في بيان حقيقة النبوة فإن معنى الوحي وطرق تكليم الله تعالىٰ للبشر لأكثر أصالة إذ لا نبوة ولا رسالة إلا بالوحي ، فما معنى الوحي وما هي طرق تكليم الله تعالىٰ للبشر ؟

هٰذا ما سيتضح بإذن الله تعالىٰ في هٰذا الفصل .

معنى الوحي لغة :

الوحي في اللغة العربية هو : الإعلام في الخفاء علىٰ وجه السرعة بحيث لا يكاد يفهمه أو يدركه إلا المعني به .

ويكون بأمور متصلة أو منفصلة إذ يكون بالإشارة ، والكتابة وما يدل على المعنى المقصود ، هٰذا بين البشر .

ويكون بالوحي الإلهامي والهداية والإرشاد والتسخير بالنسبة لما يكون من الله تعالىٰ لعباده .

قال في القاموس المحيط : (الوحي : الإشارة ، والكتابة ، والمكتوب ، والرسالة ، والإلهام ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقيته إلىٰ غيرك ، والصوت يكون في الناس وغيرهم. . .)[1] .

ويتفق معه الجوهري في الصحاح ويضيف :

(. . يقال : وحيت إليه الكلام وأوحيت ، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه. . . وأوحى الله إلىٰ أنبيائه)[2] .

وأصل الوحي عند الراغب : الإشارة السريعة. . وذلك يكون بالكلام علىٰ

---

(١) ٤/٤٩٩ .
(٢) ٦/٢٥١٩ ، ٢٥٢٠ .

سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح ، وبالكتابة . . .)[1] .

فالوحي على هـٰذا تفهيم أو قذف في القلب بالإلهام والهداية أو الأمر بواسطة أو بغير واسطة ولله تعالىٰ أن يوحي لمن شاء بأي طريقة يشاء فالأمر أمره والخلق خلقه . ونذكر باختصار دلائل كلام أهل اللغة من كتاب الله تعالىٰ إذ هو مصدرهم ، ومرجعنا أيضاً في اللغويات وغيرها .

فمن وحي الله تعالىٰ لغير الملائكة والبشر قوله :

﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾[2] ، وقوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ . . . ﴾[4] الآية .

ووحي الله إلى الملائكة ثابت بالكتاب والسنة إذ هم المنفذون لأمره الكوني والشرعي ولا علم لهم إلا ما علمهم الله وأطلعهم به علىٰ خزائن غيبه المكنون في اللوح المحفوظ .

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ . . ﴾[5] .

وإذا كان الله تعالىٰ أوحىٰ بعلمه وهدايته وإرشاده إلىٰ سمواته وأرضه وبعض مخلوقاته كالنحلة والملائكة الكرام فإنه أوحىٰ إلى البشر صغارا وكبارا ذكورا وإناثا .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[6]

---

(١) مفردات القرآن ٨٥٨ ، وقارن بما في مشارق الأنوار للقاضي عياض ٢ / ٢٨١ ، ٢٨٢ .
(٢) سورة فصلت ، آية (١٢) .
(٣) سورة الزلزلة ، آية (٥) .
(٤) سورة النحل ، آية (٦٨) .
(٥) سورة الأنفال ، آية (١٢) .
(٦) سورة مريم ، آية (١٢) .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾(٤) .

فالوحي إلى الحواريين وحي بواسطة عيسىٰ عليه السلام ، وقيل ألهموا ذلك في قلوبهم فصدقوه وآمنوا .

والوحي إلى الأمم بواسطة الأنبياء الذين يوحي الله إليهم بالأحكام والتكاليف . وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٥) .

وقال تعالىٰ في مريم وابنها عيسىٰ عليهما السلام :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾(٦) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٧) .

ومما دل عليه الكتاب العزيز أيضاً وحي الصالحين إلىٰ أوليائهم من البشر بالإشارة ووحي الشياطين إلىٰ أوليائهم بالوسوسة ، قال الله تعالىٰ عن زكريا

---

(١) سورة مريم ، آية (٢٩، ٣٠) .
(٢) سورة يوسف ، آية (١٥) .
(٣) سورة المائدة ، آية (١١١) .
(٤) سورة الأنبياء ، آية (٧٣) .
(٥) سورة القصص ، آية (٧)
(٦) سورة آل عمران ، آية (٤٥) .
(٧) سورة آل عمران ، آية (٤٦) .

عليه السلام : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[1] وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾[3] .

وبهـٰذا نعلم أن الوحي منه ما هو عام ومنه ما هو خاص ، أما العام فهو الذي شرحنا دلائل اللغة عليه وبرهنا من الكتاب العزيز عليه .

معنى الوحي في الاصطلاح :

وأما الخاص فهو الذي يحتاج إلىٰ تعريف اصطلاحي لأنه وإن كان يدخل في الوحي العام من وجوه فإنه ينفرد عنه بوجوه أخرىٰ ذلك أنه تكليف بنبوة ورسالة لها غايات وأهداف سامية من الله تعالىٰ إلىٰ رسله وأنبيائه من بني آدم ليدعو عباد الله تعالىٰ إلىٰ توحيد الله واتباع شرع الله فكانت بذلك وحدتهم لوحدة الوحي إليهم ووحدة الغاية والمصدر الموحي إليهم[4] .

قال الشهرستاني : (ونحن معاشر الحنفاء أثبتنا أشخاصا ربانية مفطورة بوضع الخلقة على اصطفاء من الجواهر واجتباء من العنصر مناسبة لتلك الجواهر الروحانية مناسبة النور للنور والظل للظل ، وللنبي عليه السلام طرفان بشرية ورسالية : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[5] وبطرف يؤدي الرسالة .

والوحي هو إلقاء الشيء إلى الشيء بسرعة فكل صورة علمية يقبلها بطرفه الروحاني عن الملائكة الذين هم رسل ربهم إليه دفعة واحدة كوقوع الصورة في المرآة فهو وحي)[6] .

---

(١) سورة مريم ، آية (١١) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (١١٢) .

(٣) سورة الأنعام ، آية (١٢١) .

(٤) انظر مجلة الجامعة الإسلامية العدد الأول عام ١٤٠٠هـ ٣١ـ٣٣ .

(٥) سورة الإسراء ، آية (٩٣) .

(٦) كتاب نهاية الإقدام في علم الكلام ٤٦٥ ، وانظر معارج القدس ١٣٤ .

فهٰذا تعريف يشرح صفة النبي الموحىٰ إليه وصلته بالملائكة من جهة صفاء النفس وطهارة الفطرة والاستعداد للتلقي والتبليغ إلا أن فيه ما هو أوجز منه وأوضح عبارة علىٰ ما يطلب في التعريفات فيقول الحافظ ابن حجر بعد أن عرف الوحي لغة بأنه الإعلام في خفاء وأنه قيل بأن أصله التفهيم قال : (وشرعا : الإعلام بالشرع) ، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أي الموحىٰ ، وهو كلام الله المنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني أيّ نبي ـ)[1] .

وهو عند محمد عبد الكريم الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القرآن من حيث معناه في لسان الشرع هو : (أن يعلم الله تعالىٰ من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولٰكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر)[2] .

فالتعريف اللغوي للوحي يعطي صفة الوحي على العموم ، والتعريف الاصطلاحي يدل علىٰ بيان فروق أساسية بين وحي الله تعالىٰ لأنبيائه وغيره من أنواع الوحي العام ، إذ في تحديد مصدر الوحي وواسطته في حالة نزول الملك ، وتعيين شخص واحد هو الذي يتلقىٰ دون الحاضرين في مجلسه وعظم الموحَىٰ به وسمو غاياته ما يوضح أنه وحي خاص المصدر والواسطة والمحل الذي هو النبي الموحىٰ إليه[3] .

وبهٰذا نكون قد بينا معنى الوحي لغة واصطلاحا فلندخل في مباحث هٰذا الفصل لنوضح من خلالها إمكانه وطرقه .

---

(١) فتح الباري ١/ ٩ .

(٢) المصدر المذكور ط٣ دار الفكر ١/ ٦٣ .

(٣) انظر الوحي المحمدي ، تأليف محمد رشيد رضا ط١٠ المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ ، ص١١١ـ١٤٤ . والنبأ العظيم ، نظرات جديدة في القرآن ، تأليف : الدكتور محمد عبد الله دراز ، ط إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر ١٤٠٥هـ ١٩ وما بعدها . والظاهرة القرآنية تأليف : مالك بن نبي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ط٤ ، ١٤٠٧هـ ، ٨٣ وما بعدها .

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي في إمكان الوحي وطرقه

يتناول الإمام الغزالي معنى الوحي وطرق تكليم الله تعالىٰ للبشر في عدة كتب من مؤلفاته لأهداف ومقاصد متنوعة ، فتارة بقصد بيان مصادر المعرفة الإنسانية ، وتارة لبيان وجوب الإيمان بالنبوة وما تثمره من علم وعمل فوق طاقة العقل ، ومدارك البشر ، وتارة للاستدلال علىٰ أن الإلهام والكشف والرؤيا وما يشبه ذلك من أجزاء النبوة والوحي إلى الأنبياء وأن الأولياء ـ ويريد الصوفية طبعا ـ تبع لهم في ذلك ، وتارة للرد على الفلاسفة والاستدلال عليهم بالرؤيا المنامية التي يشترك فيها المؤمن والكافر وهي برهان علىٰ إمكان الوحي بما يتلقىٰ فيها الرائي من أمثلة مضروبة غيبية مستقبلية أو بعيدة والإمام الغزالي في تناوله لهٰذه العناصر يتحدث عن استعداد الإنسان بفطرته لاستقبال الأمور المغيبة عندما يزيح عن قلبه وروحه الحجب المانعة من مقابلته للمعلومات المنقوشة في اللوح المحفوظ ، ويقرر في هٰذا الصدد أنه لا خفاء في الأمور المغيبة من جهتها هي إذ الله تعالىٰ جواد كريم باذل للمعارف والعلوم والخير ، ولٰكن الحواجب من جهتنا نحن وهي عديدة بكثرة أسبابها التي من أكبرها الإعراض عن جنبة الخير العليا والهبوط إلىٰ جهة المادة السفلىٰ ، علاوة على الموانع المكتسبة للإنسان حيث يقترف الإنسان الذنوب والمعاصي حتىٰ يدنس فطرته وتمرض روحه ويتغلف قلبه ، ويستدرك الإمام الغزالي في هٰذا المضمار أرواحا لا تسلط لهٰذه الأمراض والمحجبات عليها بل هي باقية علىٰ طهارة الفطرة الأصلية ومستعدة بما فطرت عليه من الميل إلى الجنبة العليا للتلقي عن داالأرواح الطيبة الطاهرة وجاهزة في أي لحظة لمقابلة اللوح المحفوظ لتنتقش فيها المعلومات الموجودة فيه إما كلا وإما بعضا . وهٰذه أرواح الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين[1] .

---

(١) انظر معارج القدس ١٠٠ـ١٠٤ .

وهٰذه أمور لا يراها منا فيه لما قرره من أن أمر النبوة ليس جزافا يناله كل من هب ودرج ولا مكتسبا يحصله كل من فكر وأدلج ، فإرادة الله تعالىٰ وأمره نافذان في خلقه (فكما لا يتصور في سنة الفطرة الإلهية أن يكون من نطفة كل حيوان إنسان ، كذلك لا يتصور في سنة الفطرة أن يكون من نطفة كل إنسان نبي)[1] فالله تبارك وتعالىٰ هو الذي يخلق ويختار ويصطفي ويوحي : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[2] .

فنفوس الأنبياء وحركاتهم الفكرية والقولية والفعلية متميزة عن البشرية والإنسانية . هٰذا ما يؤكد عليه الإمام الغزالي ليعلم أن لكل مخلوق حداً يقف عنده ومدركات خاصة به وأمور يتميز بها عن غيره إذ حكمة الله تعالىٰ في خلقه تقتضي ذلك وتدل عليه من حيث إنه تعالىٰ خلق حياة الخلق من البشر قائمة علىٰ حركات اختيارية وهي :

(فكرية ، وقولية ، وعملية ، والحركة الفكرية يدخلها الحق والباطل ، والقولية يدخلها الصدق والكذب ، والعملية يدخلها الخير والشر . . . ولا يشك في أنها علىٰ تضادها واختلافها ليست واجبة الفعل بجملتها واجبة التحصيل . . . فظهر من هٰذا أن بعضها واجب الترك وبعضها واجب الفعل .

وإذا ثبت هٰذا فقد ثبت حدود في الحركات حتىٰ كان بعضها خيرا واجب الفعل وبعضها شرا واجب الترك .

فالتمييز بين حركة وحركة بالحدود ، ولا يخلو إما أن يعرفه كل واحد أو لا يعرفه أحد أو يعرفه بعض دون بعض ، وظاهر أنه لا يعرفه كل واحد ، وباطل أنه يعرفه كل أحد . فظهر أنه يعرفه أحد دون أحد ، فثبت بالتقسيم الأول حدود في الحركات ، وثبت بالتقسيم الثاني أصحاب حدود يعرفونها

---

(١) معارج القدس ١٣٢ .

(٢) سورة الكهف ، آية (١١٠) .

وهم الأنبياء وأصحاب الشرائع عليهم الصلاة والسلام)[1] .

فالذي يريد الإمام الغزالي أن يصل إليه ليجعل الوحي إلى الأنبياء خاصة دون غيرهم من الناس هو أن الإنسان تميز عن سائر الحيوانات بنفس ناطقة هي فوقها بالفضيلة العقلية . . وأن (نفوس الأنبياء عليهم السلام تميزت عن نفوس الناس بعقل هاد مهدي هو فوق العقول كلها بالفضيلة الربانية المدبرة لها ، والمالكة عليها ، والمتصرفة فيها . . . وكما تميز النبي عن الناس بعقله المناسب للعقول المقارنة والعقل الأول كذلك تميز بنفسه المشاكلة لنفوس السموات والنفس الفلكية ، وكذلك تميز بطبعه ومزاجه المستعد لقبول مثل هٰذا العقل والنفس بالفعل . . فالنبي إذا شارك الناس في ا لبشرية والإنسانية من حيث الصورة فقد باينهم من حيث المعنىٰ ، إذ بشريته فوق بشرية الناس ، لاستعداد بشريته لقبول الوحي : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ .

أشار إلىٰ طرف المشابهة من حيث الصورة . ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[2] .

أشار إلىٰ طرف المباينة من حيث المعنى)[3] .

وما دام الإمام الغزالي قد وضح مكانة النبوة واستعداد البشر لقبول العلم والمعارف والأوامر والنواهي عن الله تعالىٰ فإن الأنبياء عنده هم الوسطاء في ذلك بين الله تعالىٰ وخلقه : (فإن النبي متوسط الأمر كما أن الملك متوسط الخلق والأمر . وكما وجب الإيمان بالله من الخلق والأمر وجب الإيمان بالله وبمتوسط الخلق والأمر ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[4] .

(. . وكما أوحىٰ ـ الله ـ في كل سماء أمرها بواسطة ملك ، كذلك أوحىٰ في كل زمان أمره بواسطة نبي ، فذلك هو التقدير وهٰذا هو التكليف . . فلله الخلق

---

(١) معارج القدس ١٣٣ .
(٢) سورة الكهف ، آية (١١٠) .
(٣) معارج القدس ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٤) سورة البقرة ، آية (٢٨٥) .

كله ملكا وملكا إذ هو المبدع الملك المطاع : (ولكل ملك في سلطانه أمر ونهي وترغيب وترهيب ووعد ووعيد ، ولا يجوز أن يكون أمره محدثا مخلوقا ، فإن المخلوق من حيث هو مخلوق لا يدل إلا علىٰ خالق ، فليس له دلالة على الأمر بمعنى الاقتضاء والطلب والتكليف .

والتعريف والحث والزجر والترغيب والترهيب . ومن لم يثبت لله عز وجل أمراً يطاع فقد أحال كل هـٰذه الأوامر والنواهي والتذكيرات والتنبيهات علىٰ من ادعى النبوة مقصورة عليه غير متعدية عنه ، وما يضيفه إلى الله تعالىٰ من : قال الله : وذكر الله . وأمر الله . ونهى الله . ووعد الله . وأوعد الله . يكون مجازاً لا حقيقة ، وترويجا للكلام على العامة لا تحقيقاً :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾[١] .

فقد نسبوا النبي الذي في أعلىٰ درجات الإنسان إلىٰ أشد الظلم الذي هو أسفل الدرجات والخيانة التي هي أخبث السيئات ، جل منصب النبوة عن ذلك)[٢] .

فالإمام الغزالي وهو يشرح معنى الوحي وطرق تكليم الله تعالىٰ للبشر والأنبياء خاصة ليبين إمكان الوحي وأن الموحي هو الله تعالى الآمر الناهي ، وأنه تعالىٰ كما خلق فإنه يملك والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وأنه جعل من خلقه وسطاء خير يبلغون عباده ما يريده منهم لما يترتب علىٰ ذلك من سعادة وشقاوة ، فإنه في تحصيل هـٰذه المقاصد لا ينصرف مباشرة إلى الهدف المنشود ليحدده من نقطة البداية ويبرهن عليه من الكتاب والسنة كما هي عادة علماء أهل السنة في مصنفاتهم في العلوم الشرعية بل يحاول التدرج في الدخول إلى الموضوع بالإتيان بمقدمات يبين من خلالها أصول المسألة المدروسة وما يندرج تحتها أو يشابهها أو يباينها .

---

(١) سورة الأنعام ، آية (٩٣) .
(٢) معارج القدس ١٣٥ ، ١٣٦ .

ومادام يتنكب غالبا منهج العلماء المشار إليهم في الاقتصار على النصوص فإنه بلا شك يسلك منهجا عقليا ليبرهن من خلاله علىٰ مراده سواء احتاج إلىٰ جلب النصوص الشرعية في النهاية أو اكتفىٰ بتلك البراهين .

ولما كانت العقول البشرية متفاوتة في القوى الغريزية والمعارف المكتسبة فلا يستغرب استحسان طائفة من العلماء لهـٰذا المنهج دون الآخر ، ولا يستهجن كذلك نفور طائفة أخرىٰ عنه .

وبدون حكم مسبق هنا بالاستحسان أو الاستهجان فإن الإمام الغزالي جمع في منهجه في إثبات الوحي ومعناه ووسائله ومبناه ، ما قد يستحسنه ناس وينفر منه آخرون ، وهـٰذا ما يمكن أن يستخلص من نصوصه السابقة واللاحقة .

فالإمام الغزالي عندما أثبت مكانة النبي العالية وبين نقاوة فطرته وسلامة روحه واستعداده للأخذ عن الملائكة والتلقي عن الله تعالىٰ ، فإنه مع ذلك كان عليه أن يشرح كيفية حصول المعارف ونزول الوحي للنبي حتىٰ يوضح طبقات النبوة ودرجات الوحي وأقسامه وأضربه المختلفة التي كانت للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وإنا لنجده يبدأ في شرح ذلك بالحديث عن أمور مشتركة بين الناس مع تفاوتهم فيها ، فقوة التخيل والعقل العملي أو النظري وقوة النفس وأثرها أمور يتفاوت الناس فيها تفاوتاً لا يحتاج إلىٰ برهان خارجي ، والنبي قد قدم هو أنه وإن كان يشارك الناس في البشرية فإنه يفارقهم في المعنىٰ والاستعداد وغير ذلك .

وكذا حديثه عن الأمر الكلي والجزئي والحركات الاختيارية أو اللزومية أو الاتفاقية فهـٰذه أمور كان عندي أنه من غير المناسب أن تكون مدخلا لبيان الوحي ودرجاته إذ حاصل ما انتهىٰ إليه : (أن الصور العقلية التي في الجواهر المفارقة غير محتجبة عن أنفسنا بحجاب البتة من جهتها ، إنما الحجاب هو في قبولنا إما لضعفنا أو لاشتغالنا بغير الجهة التي عندها يكون الوصول إليها

والاتصال بها . وأما إذا لم يكن أحد المعنيين فإن الاتصال بها مبذول ، وليست مما تحتاج أنفسنا في إدراكها إلىٰ شيء غير الاتصال بها ومطالعتها)[١] .

ويتحدث الإمام الغزالي عن القوى المخيلة وتفاوت الناس فيها من حيث أصل الخلقة الغريزية وأنها سريعة الانتقال من صورة إلىٰ صورة أخرىٰ مشابهة أو مضادة أو مناسبة بحيث إن المتخيل اليقظان قد ينسى الصورة الأولى التي عرضت له ، فيبدأ يتذكر بعملية عكسية حتىٰ يصل بذلك إلى الصورة التي عرضت له أولا .

ومراد الإمام الغزالي من عرض هٰذه العملية التخيلية وكيفية تحليلها هو بيان أن الأنفس في ذلك التخيل والاستثبات طبقات متفاوتة وأن هٰذا شبيه بالرؤيا المنامية التي تحتاج إلىٰ تعبير ، أولا تحتاج إليه لقوة النفس المتخيلة وصفاء وقوع الصور الغيبية المشاهدة لها ، حتىٰ إن بعض الأنفس لقوتها وشدة تهيئها ومفارقتها لسيطرة الحس عليها قد تشاهد في حال اليقظة : (صورا إلهية عجيبة مرئية ، وأقاويل إلهية مسموعة ، هي مثل تلك المدركات الوحيية ، وهٰذه أدون درجات المعنى المسمىٰ بالنبوة)[٢] .

ثم يذكر طبقات أخرىٰ من حصول المعلومات في المخيلة وانطباعها واستثباتها علىٰ هيئتها بمساعدة العقل العملي والوهم مع استمرار المخيلة في عملها الذي تحاكي فيه الصور التي ثبتت فيها (بصورة عجيبة مسموعة ومبصرة ، ويؤدي كل واحد منهما ـ يعني العقل العملي والوهم ـ علىٰ وجهه . وهٰذه طبقات النبوة المتعلقة بالقوى العقلية العملية والخياليـــة) .

ويعتبر الإمام الغزالي أن قصص القرآن تأدت للنبي صلى الله عليه وسلم من هٰذا الطريق فيقول :

(وانظر قصص القرآن كيف أتت علىٰ جزئياتها كأنه شاهدها وحضرها ،

---

(١) السابق ١٣٦ .

(٢) معارج القدس ١٣٩ـ١٤١ .

وكأنها كانـــت بمرأىٰ من النبي ومسمع ، وكيف صدقت بحيث لم ينكرها أحد من منكري النبـــوة)[١] .

فالإمام الغزالي لم يذكر في هـٰذه الأمور واسطة ملك فيها ولا الفرق بين النبي وغيره في حصولها بل يقرر أن المجانين قد يشاهدون ما يتخيلون ، وقد يعرض للممرورين أن يخبروا بالأمور الكائنة فيصدقون في كثير ، فعند أحوال الصرع والغشي والخوف الشديد الذي يزول معه العقل والحس ينطلق العنان للقوى المتخيلة فتصور ما توهمته كأنه مشاهد محسوس أو صوت صحيح مسموع ذلك أن القوى المتخيلة كما يرى الإمام الغزالي موضوع بين قوتين عالية هي العقل ، وسافلة هي الحس (فاجتماع هاتين القوتين على استعمالها يحول بينها وبين التمكن من إصدار أفعالها الخاصة على التمام)[٢] .

ففي حالة النوم تتخلص من جاذبية الحس ولا تلتفت إلى العقل فتمعن في فعلها فتستحضر الصور كالمشاهدة .

وفي حالة فساد آلة العقل كما في حالة الجنون تستعصي على الحس فينطبع فيها من الصور ما يكون كالمشاهد لانطباعه في الحس ففي هـٰذه الحالات يكون ما يخبر به أصحاب الجن والكهنة والعرافين وبعض المجانين من أخبار الغيب فيصدقون .

ولـٰكن الإمام الغزالي أحس بأن هـٰذا المنهج في توسيع نطاق حصول الغيب يبطل خاصية النبوة التي يريد أن يقررها فقال :

(والآن فيجب أن نختم هـٰذا البيان فقد أدينا فيه نكت الأسرار المكتومة والله الموفق)[٣] .

ولم يجب عن المطعن المشار إليه إلا بالإحالة إلىٰ أن الحكماء عظموا أمر

---

(١) معارج القدس ١٣٩ـ١٤١ .
(٢) السابق ١٤٠ .
(٣) السابق ١٤١ .

الخيال حتىٰ حكموا بأن للنفوس البشرية أن تنتقش من عالم الغيب والأنفس المدبرة لفلك القمر الواهب للصور كل حسب استعداده عند زوال الموانع : (وتكون كالمرآة المقابلة للنفس الفلكي حتىٰ يقع فيها جميع ما في النفس الفلكي ، وإلىٰ هـٰذا الحد عظموا أمر الخيال)[١] .

وإذا كانت القوى العقلية والوهمية الخيالية علىٰ درجات بحيث يتفاوت الناس فيها على النحو الذي شرحناه في حالة الصحة والمرض والنوم واليقظة ، فإن الناس أشد تفاوتا في القوى النظرية بحيث يصل الغباء بأقوام إلىٰ حد لا يكون لأحدهم حدس ولا فطنة ولا نصيب من الذكاء تتحرك فيه الفكرة وتستعمل فيه النفس طاقاتها لإدراك قياس أو حد يستنبط منه الذهن مجهولا .

وإذا كان ذلك واقع في جانب النقص فإنه في طرف الزيادة بين ، (فأيقن أن جانب الزيادة يمكن أن ينتهي إلىٰ حد يستغني في أكثر أحواله عن التعلم والتفكر ، فيحصل له العلوم دفعة ، ويحصل معه الوسائط والدلائل ، فيمكن إذا أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس لشدة الصفاء وكمال الاتصال بالمبادىء العقلية إلىٰ أن يشتعل حدسا في كل شيء ، فيرتسم فيه الصورة التي في العقل الفعال إما دفعة وإما قريبا من دفعة ؛ ارتساما لا تقليديا بل يقينيا مع الحدود الوسطىٰ والبراهين اللائحة والدلائل الواضحة)[٢] .

فإذا علمنا ذلك فإن هـٰذه المعارف قد ترتسم بعد طلب وإعمال فكر من العلم بالعلة وطلب المعلول أو العلم بالدليل وطلب المدلول :

(وقد يكون من غير طلب واشتياق ، بأن تكون نفسا شريفة قوية مستضيئة في نفسها ، فيحصل له العلوم ابتداء كأنه ما تخلىٰ إلى اختياره ، يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة ولو لم تمسسه نار الفكرة)[٣] .

وهنا يجد الإمام الغزالي أن الحديث عن القوى النظرية وتفاوت العقول فيه

---

(١) السابق ١٤١ ، ١٤٢ .
(٢) السابق ١٤٣ .
(٣) السابق ١٤٣ ، ١٤٤ .

كما وكيفا يدخل غير النبي معه ممن لهم قوة عقل واكتساب وإلهام وحدس ، فبم يفارق الوحي غيره ، وما الذي يتميز به من يوحىٰ إليه عن غيره ؟

فهٰذه الأسئلة وجيهة جداً ذلك أن النبي إذا كان غيره من الناس يشاركه في قوة الحدس فإنه إما أن يكون فوق الناس جميعا بحيث يكون هو عقلا بالفعل فلا يحتجب عنه شيء من عالم الغيب والشهادة ، وفي هٰذه الحالة لا يحتاج إلىٰ حدس والواقع أنهم أثبتوا له الحدس ، وما دام ليس بعقل حسب تعبيرهم ويحتاج إلىٰ وسط وله حدس فليست بعض المسائل بأولىٰ من بعض ، فما هي خاصيته وفي أي مرتبة يتميز بها عن غيره ؟

ويجيب الغزالي عن ذلك بجوابين ، أحدهما : عن تضاد العقول وتراتبها ، والآخر : عن بيان مصدر العلم بالنسبة للنبي وغيره .

أما الأول فإنه لابد من إثبات التضاد والترتيب بين العقول الإنسانية إذ لا تستقيم خاصية إلا بذلك .

(أما التضاد فعقل النبي وعقل الكاهن . . . والمتضادان خصمان يحتاجان إلىٰ حاكم ليس فوقه حاكم) .

(وأما الترتيب كعقل النبي وعقل الصديق . . والمترتبان ينتهيان بعقل ليس فوقه عقل) .

(وعلى الوجهين جميعا عقل النبي فوق العقول كلها ، وحاكم عليها ، ومتصرف فيها ، ومخرجها من القوة إلى الفعل ، ومكملها بالتكليف إلىٰ أقصىٰ غايات الكمال اللائق بكل واحد منها . . .)[(١)] .

أما الآخر فإن الغزالي يبين به فروقا بين العلم المكتسب وغيره فيقول بأنه (لا يفارق طريق الإلهام والحدس طريق الاكتساب والفكر في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ؛ لأن محل العلم النفس .

---

(١) السابق ، ١٤٤ .

وسبب العلم العقل الفعال ، أو الملك المقرب ، ولكن يفارقه في جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ، ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم)[١] .

فهٰذه خطوات الإمام الغزالي في دراسته لإمكان الوحي وإثباته له ، ومع أنه يستبعد أن تكون ظنونا عقليه لا شاهد عليها إلا من العقل ، فإنه ما أحال في بحثه لها إلا على التجارب ووقائع الأحوال والذوقيات التي يرىٰ أنها تدل علىٰ أسباب الأشياء ، (فإنه إذا اقترن العلم بالذوق كان ذلك من أحسن الفوائد وأعظم العوائد) .

فالذي يعول عليه الإمام الغزالي في نصوصه السابقة ويختم به القاعدة التي كتبها في النبوة والرسالة في هٰذا الكتاب الذي اعتمد عليه الكثيرون في بيان منهج الغزالي في هٰذه المسائل الشائكة[٢] ، والتي يلاحظ أن الأسلوب العقلي الفلسفي تسلل إلىٰ فكره فيها وانساب به قلمه فأظهره للعلماء الذين كان يظن به عن كثير منهم إذ لا يراهم أهلا لهٰذه الأسرار فلا يستحقون لذلك أن تكشف لهم ـ هو :

(أن أفضل النوع البشري من أوتي الكمال في حدس القوة النظرية حتى استغنىٰ عن المعلم البشري أصلا ، وأوتي للقوة المتخيلة استقامة وهمة لا يلتفت إلى العالم المحسوس بما فيه حتىٰ يشاهد العالم النفساني بما فيه من أحوال العالم ويستثبتها في اليقظة ، فيصير العالم وما يجري فيه متمثلا لها ومنتقشا بها ، ويكون لقوته النفسانية أن تؤثر في عالم الطبيعة حتىٰ ينتهي إلىٰ درجة النفوس السماوية)[٣] .

فإذا كان الإمام الغزالي يفضّل هٰذا الذي يتصف بهٰذه الصفات معتقدا أن له

---

(١) السابق .
(٢) انظر الحقيقة في نظر الغزالي ٣٧٧ وما بعدها .
(٣) معارج القدس ١٤٦ ، وانظر معراج السالكين ٩٩ ، ومشكاة الأنوار ١٦٥ ، ١٦٦ .

الكمال على غيره وأن هذه هي خصائص من ينبأ من الله بالوحي فإنه قد شابه الأساليب الفلسفية في وصف الأنبياء ومن يستحق الوحي من الله تعالى ، وعليه فلا يستغرب من باحث أن يصنفه في صف الفلاسفة ويصمه بتقليدهم ، ولكن في نظري أن للإمام الغزالي نصوصا أخرى صريحة في اتباعه لمنهج علماء أهل السنة في شرح الوحي وطرقه ، فلا ينبغي لباحث أن يحكم على منهج الغزالي في النبوة والوحي وطرقه إلا بعد جمعها ودراستها فإذا قام بذلك وجد أن الإمام الغزالي يقرر فيها إلى جانب هذه النصوص السالفة ونصوص أخرى مماثلة أن الوحي إلى الأنبياء يأتيهم على أنحاء عديدة بيّنها الكتاب والسنة ، وأن الإيمان بذلك واجب إذ هو من الغيب الذي لا نحيط بحقيقته علما لكن نصدق به إيمانا : (كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ، ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي)[١] .

(. . . فالروح القدسي النبوي الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء وفيه تتجلى لوائح الغيب ، وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التي يقصر دونها الروح العقلي والفكري[٢] ، وإليه الإشارة بقول الله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] .

(ثم ما يحصل إلى الرسول إما بواسطة أشخاص الملائكة بأن يتمثل له بشرا سويا أو على صورة ما ، وإما بغير واسطة بأن ينقش الله تعالى ذلك نقشا في الحاسة المتخيلة وقد قال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾[٤] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١١ وقارن بما في ميزان العمل ٢٢ .

(٢) انظر مشكاة الأنوار ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٣) سورة الشورى ، آية (٥٢) .

(٤) سورة الشورى ، آية (٥١) .

وهو ما يحصل في قوته الخيالية وهو المعروف بالإلهام ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾[1] .

أو من وراء حجاب ، أو بواسطة ملك من الملائكة وهو الحجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه من يشاء)[2] .

(فالواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلىٰ ما لا يدري العبد كيف حصل له ومن أين حصل ؟ .

وإلىٰ ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب .

الأول : يسمىٰ إلهاما ونفثا في الروع .

الثاني : يسمىٰ وحيا وتختص به الأنبياء)[3] .

(وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ، ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه)[4] .

(فالكلام إما أن يسمعه نبي أو ملك من الله تعالىٰ أو يسمعه نبي أو ولي من ملك أو تسمعه الأمة من النبي)[5] .

ويرى الإمام الغزالي أن الخيال الذي يسميه لسان الحال :

(يصير مشاهدا محسوسا علىٰ سبيل التمثل ، وهـٰذه خاصية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، كما أن لسان الحال يتمثل في المنام لغير الأنبياء ويسمعون صوتا وكلاما . . . فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرون ذلك

---

(١) سورة القصص ، آية (٧) .
(٢) معراج السالكين ١٣٩ .
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٢١ .
(٤) السابق ١/ ١٠٦ .
(٥) المستصفىٰ ١/ ٣٧٧ .

في اليقظة وتخاطبهم هـٰذه الأشياء في اليقظة . . . والإيمان بهـٰذه الأقسام كلها وأجمعها واجب)[1] .

فالملائكة والجن والشياطين عند الإمام الغزالي هي :

(جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافا يكون بين الأنواع . . . ويمكن أن نشاهد هـٰذه الجواهر أعنىٰ جواهر الملائكة وإن كانت غير محسوسة ، وهـٰذه المشاهدة علىٰ ضربين : إما علىٰ سبيل التمثيل كقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[2] .

وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرىٰ جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي[3] .

والقسم الثاني : أن يكون لبعض الملائكة بدن محسوس ، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها ، فكذلك بعض الملائكة ، وربما كان هـٰذا البدن المحسوس موقوفا علىٰ إشراق نور النبوة . . .)[4] .

وهـٰذا من المغيبات التي لا تدرك بالعقل : (ولا سيما علىٰ سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع بل أقروا ـ يعني العقلاء ـ بجملتهم أن ذلك لا يدرك إلا بنور النبوة وهي قوة وراء قوة العقل يدرك بها من أمر الغيب في الماضي والمستقبل أمور لا علىٰ طريق التعرف بالأسباب العقلية ، وهـٰذا مما أتفق عليه الأوائل من الحكماء فضلا عن الأولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقرين بقصور كل قوة سوىٰ هـٰذه القوة)[5] .

---

(١) المضنون به علىٰ غير أهله ١٤٦ـ١٤٨ .
(٢) سورة مريم ، آية (١٧) .
(٣) انظر الحديث في سنن النسائي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ٨/ ١٠٣ وسيأتي إن شاء الله .
(٤) المضنون به علىٰ غير أهله ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٥) إلجام العوام عن علم الكلام ٩٢ .

وفي حديث الإمام الغزالي عن درجات التحصيل ومراتب المعارف وأسبابها ومصادر حصولها في النفس العالمة قال : بأن لها تعلقا : (بالجنبة التي فوقها لتنفعل وتستفيد منها أعني بالجنبة الملائكة الموكلة بالنفوس الإنسانية لإفاضة العلوم عليها فإن العلوم إنما تحصل فيها من الله تعالىٰ بواسطة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾[1] .

والإمام الغزالي وهو يشرح درجات حصول المعلومات في القوى النظرية وأنها ثلاث مراتب كما في حال الطفولة ، والتمييز وأن المرتبة الثالثة هي حصول المعقولات الكسبية كلها بالفعل وتكون كالمخزونة عنده ، : (ولـٰكن هـٰذه الرتبة درجات لا تحصىٰ تختلف بكثرة المعلومات وبقلتها ، وبشرف المعلومات وخستها ، وبطريق تحصيلها ، وأنها تحصل بالإلهام الإلهي ، وبتعلم واكتساب ، وأنه سريع الحصول أو بطيء الحصول ، وفي هـٰذا تتباين منازل العلماء والحكماء والأولياء والأنبياء وبحسب التفاوت فيه تتفاوت مناصبهم ، ودرجات الرقي غير محدودة ولا محصورة ، وأقصى الرتب درجة النبي الذي ينكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بل بكشف إلهي في أسرع وقت وهـٰذه هي السعادة التي للإنسان فتقربه إلى الله تعالىٰ تقريبا لا بالمكان والمسافة ولـٰكن بالمعنىٰ والحقيقة . . . فلا يعرف عاقل ما انفتح لأولياء الله وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[2] ، فهـٰذه الرحمة مبذولة بحكم الجود الإلهي غير مضنون بها علىٰ أحد ولـٰكن لابد من الاستعداد للقبول بتزكية النفس وتطهيرها عن الخبث والكدورة)[3] .

---

(١) سورة الشورىٰ ، آية (٥١) .

(٢) سورة فاطر ، آية (٢) .

(٣) ميزان العمل ٢١ ، ٢٢ ، وانظر النص نفسه في الإحياء ٣/ ١١ .

وكثيراً ما يشرح الإمام الغزالي هـٰذه الوجودات الذاتي والحسي ، والخيالي والعقلي والشبهي ليبين ما بينها من علاقة قد تسبب لبسا وخلطا يصعب معه التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل والموجود وجودا حقيقيا والذي لا وجود له إلا في حاسة أو خيال من يدعيه : (فيكون موجودا في الحس ويختص به الحاس ، ولا يشاركه غيره ، وذلك كما يشاهده النائم ، بل كما يشاهده المريض المتيقظ إذ قد تتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتىٰ يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسه ، بل قد تتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة ، وينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها ، فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[1] .

وكما أنه عليه الصلاة والسلام رأىٰ جبريل عليه السلام كثيرا ، ولـٰكن ما رآه في صورته إلا مرتين ، وكما يراه في صور مختلفة يتمثل بها ، وكما يرىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (من رآني في النوم فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي)[2] ، ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة إلىٰ موضع النائم ، بل هي علىٰ سبيل وجود صورته في الحس النائم فقط . .)[3] .

ويلخص الإمام الغزالي طرق التعليم الرباني علىٰ وجهين :

(الأول : إلقاء الوحي وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس

---

(١) سورة مريم ، آية (١٧) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، باب من رأى النبي (في المنام ، حديث (٦٩٩٤) ، وصحيح مسلم ، كتاب الرؤيا ، وصحيح مسلم ، كتاب الرؤيا ، وانظر جمع الإمام النووي بين روايات هـٰذا الحديث ١٥/ ٢٠ ، ٢١

(٣) فيصل التفرقة ١٢١ ، ١٢٢ وانظر منه ١٢٣ ، ١٢٤ . وقارن بما في فتح المنعم علىٰ زاد المسلم ٣/ ١٨٣ .

الطبيعة ودرن الحرص والآمال الفانية وتقبل بوجهها علىٰ بارئها ومنشئها وتتمسك بجود مبدعها ، وتعتمد علىٰ إفادته وفيض نوره ، والله تعالىٰ بحسن عنايته يقبل علىٰ تلك النفس إقبالا كليا . وينظر إليها نظرا إلهيا ويتخذ منها لوحا ، ومن النفس الكلي قلما وينقش فيها جميع علومه ، ويصير العقل الكلي كالمعلم ، والنفس القدسية كالمتعلم ، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر ومصداق هـٰذا قوله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾[1] .

فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق لأن محصوله عن الله تعالىٰ بلا واسطة ووسيلة . . فتقرر الأمر عند العقلاء أن العلم الغيببي المتولد عن الوحي أقوىٰ وأكمل من العلوم المكتسبة ، وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل ، وأغلق باب الوحي من عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) . . . ولما فرغ من إيراد الأمثلة على الوجه الأول قال :

(الوجه الثاني : هو الإلهام ، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية علىٰ قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها ، والإلهام أثر الوحي ، فإن الوحي تصريح الأمر الغيبي والإلهام هو تعريضه ، والعلم الحاصل عن الوحي يسمىٰ علما نبويا ، والذي يحصل عن الإلهام يسمىٰ علما لدنيا ، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع في قلب صاف فارغ لطيف . . فمن إفاضة العقل الكلي يتولد الإلهام ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام ، فالوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء . فأما علم الوحي فكما أن النفس دون العقل فالولي دون النبي فكذلك الإلهام دون الوحي فهو ضعيف بنسبة الوحي قوي بإضافة الرؤيا والعلم علم الأنبياء والأولياء .

فأما علم الوحي فخاص بالرسل موقوف عليهم كما كان لآدم وموسىٰ

---

(١) سورة النساء ، آية (١١٣) .

عليهما السلام وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم وغيرهم من الرسل ، وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة قبول النفس القدسية حقائق المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والقابلين ، وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ولا يتأتىٰ لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب ، والعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية .

واعلم أن الوحي إذا انقطع ، وباب الرسالة إذا انسد واستغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] .

وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة فأما باب الإلهام فلا ينسد ، ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلىٰ تأكيد وتجديد وتذكير ، وكما أن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم في هٰذه الوساوس وانهماكهم في هٰذه الشهوات فالله تعالىٰ أغلق باب الوحي وهو آية العباد وفتح باب الإلهام رحمة وهيأ الأمور ، ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب)[2] .

هٰذا مجمل نصوص الإمام الغزالي التي استطعنا العثور عليها في مظانها من كتبه ورسائله العديدة . وفضلنا عرضها بهٰذا الشكل المركب تركيبا يعطي تصورا عن فهم صاحبها لإمكان الوحي وثبوته ودرجاته ومميزاته وتدل علىٰ أمور أخرىٰ كثيرة فهمها العلماء من نصوص مفردة وأصدروا من خلالها أحكاما علىٰ منهج الإمام الغزالي في النبوات قد لا يصل إليه من جمع هٰذه النصوص وعرضها بتفهم بعد ختمها بهٰذا النص الذي يعتبر بمثابة تلخيص لها من أوثق كتب المصنف نفسه إذ يقول : (ومن ظن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة المائدة ، آية (٣) .

(٢) الرسالة اللدنية ١٠٣-١٠٥ .

مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ، ولما انقسموا إلىٰ بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم ، وإلىٰ ذكي يفهم بأدنىٰ رمز وإشارة ، وإلىٰ كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم كما قال تعالىٰ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾(1) .

وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام ، وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : (إن روح القدس نفث في روعي : أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به)(2) .

وهٰذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ، ومشاهدة الملك بحاسة البصر . ولذلك أخبر عن هٰذا بالنفث في الروع .

ودرجات الوحي كثيرة ، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة .

ولا تظنن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ، ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خاليا عنها . فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا ولا كل من عرف التقوىٰ والورع ودقائقه كان تقيا)(3) .

إن قراءة النصوص والتعبير عنها بعد فهم مقاصدها بأسلوب أسهل وأوجز

---

(1) سورة النور ، آية (٣٥) .

(2) عزاه العراقي للطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وقال : (وكلاهما ضعيف) المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الآثار ط مع الإحياء ١/ ٨٤ .

(3) الإحياء ١/ ٨٤ .

يكون مفيدا في حالات عديدة لكنه قد يكون في حالات حجابا ومانعاً دون الفائدة الحقيقية التي قد تتضح أكثر في حالة جلب النصوص بألفاظ أصحابها وقد يكون ذلك من الضروريات عندما تكون تلك النصوص لعالم واحد تعارضت نصوصه وتباينت مواقفه وخصوصا في أمر شائك كالنبوات مثلا .

وإن ذلك العالم هو الإمام الغزالي الذي قرأ كثيرا وألف في مجالات عديدة ونسب علىٰ ضوء كتاباته إلى اتجاهات مختلفة ، فلذلك تغاضينا عن الإطالة الحاصلة بنقل نصوصه لما في ذلك من الفائدة التي لا يقوم مقامها التعبير عن معطياتها ، علىٰ أن الجمع بين الحسنيين ممكن في ذلك .

إن المستنطق لنصوص الإمام الغزالي في الوحي وطرقه يجدها تنطق بأمور واضحة الدلالة علىٰ أن صاحبها أحد علماء أهل السنة الذين عاشوا في حقبة من الزمن انتشرت فيها علوم ومذاهب وافدة على الملة الإسلامية زاحمت العقيدة الإسلامية في عقول الناس ومعارفهم وشوشت صفاءها وأظلمت ضياءها وكدرت من جوه عديدة علىٰ أهل الأثر والنظر علىٰ حد سواء ولذلك أسباب عديدة ليس من مقاصد هـٰذا المبحث توضيحها ، وإنما المرجو منه إبراز رأي الإمام الغزالي في الوحي وطرقه وبيان ذلك كالآتي :

أـ إن الإمام الغزالي وضح إمكان الوحي بشرح طويل لما يقع في نفوس بني آدم من معارف لا يعرفون سببها ولا مصدرها إذ لا كسب لهم فيها ولا يملكون دفعها ولا يستطيعون أيضا إنكارها .

بـ وتوضيح الإمام الغزالي لرأيه في مصدر تلك المعارف اقتضىٰ منه أن يدرس النفس الإنسانية وما يصيبها من علل تفسد فطرتها وتكدر صفوها ، وكذلك ما يرتبط بها ويؤثر فيها من عقل وبدن إذ بين أنها تقع بين ضوابط العقل ومتطلبات البدن وشهواته وهي من عالم العلو لذا تريد اللحوق به والتلقي عنه وبإمكانها ذلك وأن لها المقدرة على اختزان ما تلقته في مخيلتها لتعرضه على العقل الذي يحكم لها علىٰ صلاح أو فساد ما استثبتته في ذاكرتها وبرهان ذلك عنده أن النفس عند فساد العقل بالجنون مثلا تطغى المخيلة حتىٰ تصور ما فيها

أمام الحواس كأنه مشاهد محسوس مع أنه لا وجود له في الخارج ، كما أنه عند فساد المخيلة في حالة المرض والصرع يحتجب العقل بسلطانه على النفس فيتمثل للحواس ما يعرض للمخيلة وما يقع في النفس فإذا هـٰذىٰ به المريض الممرور أو المجنون والكاهن وصدق في المستقبل فإن النفس تكون عند تجردها تلقفته من الأرواح العلوية علىٰ كيفية ما . . .

جـ ـ وإذا كانت النفوس البشرية مقتبسة من أرواح خفية لما خلقت عليه من استعداد لذلك فإن ذلك أمر مشترك بين الناس جميعا فما الذي يميز الوحي عن غيره من الإيحاءات الأخرىٰ ؟

د ـ يدل كلام الإمام الغزالي في الجواب عن ذلك أن ما كان من ذلك في حالة المرض والجنون والكهانة لا خير فيه ولا يعد وحياً بالمعنى الذي نريده إذ ما كان بسبب تلف أو فساد في الأمزجة فإن مصدره في الغالب تخيلات وأوهام لا حقيقة لها في الخارج ، وما كان سبيله الكهانة وما يلحق بها فمصدره الجن والشياطين وما كان مصدره خبيثا ، فإنه يكون وحيا إلىٰ خبيث ، والخبيث الشرير في نفسه يغلب عليه الكذب والطيش ولا يستقيم له أمر ولا يخفىٰ على الناس حتىٰ لا يميزوه من غيره لكثرة قرائن الأحوال وأدلة التمييز العديدة .

هـ ـ وإذا كانت تلك أمور مشتركة بين النفوس والأرواح البشرية وأمكن إدراك الفروق بينها فإن الله تعالىٰ أعطىٰ عباده ـ رحمة منه ولطفا ـ أنموذجا مشتركا بينهم تتم به مشاركتهم للنبي الذي يوحي إليه في التلقي من عالم الغيب في حالة ركود عقولهم وحواسهم وتجرد أرواحهم وتحررها من سيطرة العقل وما توره الحواس عليها من عالم الشهادة ، وإذا كان الناس مؤمنهم وكافرهم يجدون ذلك ولا يملكون إنكاره لأنه ضرورة فإنه لا يبعد أن تتجرد نفس كامل خير الروح والتوجه والإرادة في حال يقظته فيتلقىٰ عن الملائكة والأرواح الطيبة وكل علىٰ حسب استعداده وما قدر له ومنح له من الخالق الذي له الأمر والتصرف المطلق .

وإذا ثبت إمكان ذلك وتواتر وقوعه فإن طرقه إلى الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام عديدة وتفاضلهم فيه معلوم بالكتاب والسنة وجملة طرقه علىٰ ضوء النصوص السابقة هي :

أولاً : الرؤيا المنامية وهي للأنبياء وحي تقوم به الحجة ويجب العمل بمقتضاها في حقهم وحق غيرهم ، والوحي بها علىٰ ضربين :

أـ كلام الله تعالىٰ لنبي من أنبيائه بأمر من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالىٰ .

ب ـ ضرب مثال بواسطة ملك من الملائكة يحتاج النبي إلىٰ تعبيره وفهم مضمونه . وكلا الضربين يجد النبي معه أو به علما ضروريا أنه من الله تعالىٰ لا من غيره ولا تخييل فيه إذا لا تسلط للشيطان على الأنبياء فيما يخص الوحي ، (ولما سبق في علم الباري سبحانه وإرادته وحكمته بمصير الخلق إلىٰ دار غير هـٰذه الدار ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به علىٰ أحكام تلك الدار ، بل كمل لهم سبحانه هـٰذا النور الذي وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم ، فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته ، فمدهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه ، فكانت أنوار ما جاء به الوحي من عند الله بالنسبة إلىٰ نور العقل كالشمس بالإضافة إلىٰ نور النجم)[(١)] .

(ثم إن الله تبارك وتعالىٰ منّ على الإنسان بأن خصه برؤيا يراها في منامه أو في عينه كشبه المنام يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه ، وهي مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه ، كل ذلك مواهب وكرامات من جود الله سبحانه ، وجعل استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سببا لصدقها في غالب الأمر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها ، وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها وأطلع علىٰ بعض الأمور منها من شاء)[(٢)] .

ثانياً : الوحي في اليقظة بلا واسطة حيث يسمع النبي كلام الرب تبارك

---

(١) الحكمة من خلق المخلوقات ٤٤ .

(٢) السابق ٤٤ .

وتعالىٰ ويجعل الله تعالىٰ في قلبه علما ضروريا أن الذي يكلمه هو الله تبارك وتعالىٰ . وهٰذا عند الإمام الغزالي أنه وقع لآدم وإبراهيم وموسىٰ ومحمد صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : الوحي في اليقظة بواسطة ملك من الملائكة يسمع النبي كلامه ويراه وغيره من الناس لا يرونه ولا يسمعون حقيقة كلامه وإن سمعوا صوتا أو أصواتا لا يفقهون منها شيئا إذ الوحي إعلام خاص في خفاء عن غير الموحىٰ إليه .

وهٰذا الضرب من الوحي يحصل بطريقتين للنبي مع الملك الموحي إليه فمرة يكاد النبي ينسلخ من بشريته ليصير من جنس الروحانيات وفي هٰذا مشقة تلاحظ على النبي معاناة منها ولولا أن الله تعالىٰ أقدره علىٰ تحمل ثقلها لهلك .

ومرة أخرىٰ يتمثل له الملك رجلا يكلمه ويخاطبه بالوحي فيعي عنه ويحفظ ما أنزل به من عند الله تعالىٰ .

رابعاً : النفث في الروع ، وهو ما يجده النبي من عرفان ضروري يعلم أن مصدره من قبل الله تعالىٰ وأن ملكا في ملائكة الله تعالىٰ كروح القدس الذي هو جبريل عليه السلام قذفه في قلب النبي فيبلغه ويعمل بمقتضاه لأنه وإن كان علىٰ سبيل الإلهام فإنه قسم من أقسام الوحي الذي لا مراء فيه ولا شك عند النبي في مصدره ودلالته .

ولذا قال الإمام الغزالي ليقرب صفة أخذ النفس الروحاني من الملائكة الروحانيين : (فإذا عرفت هٰذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية ، والباطنية العقلية ، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج ، وأن السراج هو الروح النبوي القدسي ، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النور ، وأن العلويات بعضها مقتبسة من البعض . . .

(ولما كانت ـ النفوس ـ روحانية قبلت من الروحاني وتأثرت عنه فلولا

العقول المعبر عنها بالملائكة الممدة للنفوس من خارج لما عقلت معقولات البتة فإن النفس عالمة بالقوة فقط والملائكة تخرج ما في القوة إلى الفعل حتىٰ يصيرها عالمة بالفعل فأعلىٰ طبقة في الاستمداد الأنبياء صلى الله عليهم وسلم)[١] .

وإذا كان الباحث يأخذ من منطوق نصوص الإمام الغزالي السالفة ومفهومها ما يندرج به في سلك علماء أهل السنة في مباحث الوحي وطرقه ويفارق به الفلاسفة علىٰ لازم مذهبهم في النبوة والوحي وما يتصل بحقائق الملائكة ـ فإنه أي الباحث يأخذ من نفس النصوص ـ منطوقا ومفهوما ـ ما يمكن أن يدخل به صاحبها في مناهج الفلاسفة في مناهجهم في أصل النبوة والوحي وطرقه وبقدر ذلك يحكم علىٰ منهجه قربا وبعدا من منهج أهل السنة والجماعة ، وتوضيح ذلك يكون على النحو الآتي :

أولاً : نجد أن الإمام الغزالي أثبت أولا أن خاصية النبوة هي الاطلاع علىٰ غيب الله تعالىٰ علىٰ وجه مخصوص حسب أمر الله وإرادته ، ثم نجده يفتح الباب واسعا لمن أراد أن يكشف له الغطاء ويرفع عنه الحجاب بين اللوح المحفوظ ومرآة قلبه حتىٰ تنتقش فيه جميع المعلومات أو بعضها ، ويبرهن علىٰ ذلك باستعداد النفس البشرية في فطرتها إلى الارتقاء إلى الجنبة الأعلىٰ منها والاقتباس منها علىٰ سبيل فيض كفيضان نور السراج منه ، وذلك عنده أنها بالمجاهدة والعكوف على التهذيب تقترب من الجنبة العليا حتىٰ تصير كالمرآة ، فإذا محقت عنها العلائق أو ضعفت حوذي بها نحو النظر في الحقائق الإلهية ففاضت عليها من جهة الله تعالىٰ تلك الأمور الشريفة كما فاضت على الأولياء والأنبياء والصديقين[٢] ، وإذا كان هـٰذا لجميع النفوس فما هو الخاص بالأنبياء الذين يعطف هو عليهم دائماً الأولياء ؟

---

(١) مشكاة الأنوار ١٠٤ و١٤٣ .

(٢) انظر سراج السالكين ، ١٠٤ وميزان العمل ٢٩ .

وإذا كان هـٰذا الفيض المذكور يحصل كما مثله كفيضان النور من السراج الذي لا إرادة له في ذلك فأين ما أثبته أولا من أن الأمر في النبوة والوحي تابع لإرادة الله وأمره ، وأنه يهيىء من شاء من عباده ليكون محلا لاصطفائه واختياره وإكرامه بالنبوة والوحي ؟ إن ذلك من الغزالي يعتبر خلطا في المنهج أفضىٰ به إلىٰ أن تضاربت آراؤه فتكدر صفو الصافي منها ولم يخف على النقاد أن سبب ذلك هو صراع الأفكار والآراء والمعارف في ذهنه مع تقلب أحواله الذي أفصح عنه في (المنقذ من الضلال) ، وإن ذلك الصنيع في منهج الإمام الغزالي في الوحي وطرقه ليزيد من صعوبة مهمة الباحث حتىٰ يتحير في أمره ويتردد في أحكامه ، إذ إنه إذا حكم على المنهج حسب نصوص وأدلة عديدة وقرائن كثيرة أنه منهج حسن يلتزم أصول أهل السنة ويأخذ بأدلتهم ، فإنه يجد ضمن ذلك عقلية إشراقية ومسلكا صوفيا لا يختفي إلا ليظهر ولا يطلق حكماً إلا ليندرج تحته ، ولا تستبعد فكرة أو يستدرك منها إلا من أجل تقريره وتحسينه .

ثانياً : يقرر الإمام الغزالي أن الوحي خاص بالأنبياء وأنهم يشاهدون الملائكة دون الحاضرين ، فما يلبث أن يفتح عن طريق باب الكشف بابا من الوحي لسالكي طريق الصوفية في مبادىء أحوالهم حتىٰ يشاهدوا الملائكة ويسمعوا أصواتهم ويقتبسوا منهم(١) .

وهـٰذا باب يدخل منه الصالح والطالح ولا يمكن ضبطه ولا يعتمد علىٰ ما حصل عن طريقه إذ قصارىٰ أمره أن يكون من الإلهام الذي لا يعتد به لغير الأنبياء علىٰ ما سيأتي إن شاء الله في الفرق بين النبوة والولاية وعليه فيكون الإمام الغزالي قد كدر علينا ما صفيناه من نصوصه في الوحي وطرقه بما خلطه بها من علوم الأولياء ، والمكاشفين من المريدين والسالكين .

ولا يمنع من تأكيد هـٰذه الحقيقة ما صرحت به نصوصه من أن علوم الأنبياء

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ١/ ١٩ ، ٢٠ .

يقينية ربانية لا يرتقي إليها علم من سواهم من أصحاب الإلهامات[١] .

ثالثاً : نجد الإمام الغزالي يقرر وجود الملائكة وتوسطهم بين الله تعالىٰ والأنبياء في الوحي ومشاهدة الأنبياء لهم مع تكليف الله تعالىٰ لهم بأعمال لا يعلم قدرها ولا كيفيتها إلا الله تعالىٰ إذ هم من جنوده وما يعلم جنود ربك إلا هو ـ ثم إننا نجده يذكر العقول والعقل الفعال المعبر عنه بالملك المقرب ويتحدث عن الفيض وإمكان تفجير المعارف من القلب بالتخلية والتصفية والتحلية وهـٰذا يتعارض مع ما احتج به على الفلاسفة في أن تفاصيل العلوم ومعرفة خصائصها لا يدرك إلا بنور النبوة وتعليم الأنبياء الذين اطلعوا بالوحي علىٰ خصائص الأشياء ودقائق الأسرار وبقدر تعارضه مع حججه عليهم يدخله في زمرة المتأثرين بمناهجهم وأساليبهم ، وبذلك يكون التناقض الذي لا يستقيم معه منهج ولا تصح معه حجة ولا برهان . وبالتالي يصدق الحكم علىٰ منهج هـٰذا الإمام في الوحي وطرقه أنه فيه إسلام وإيمان وفيه فلسفة إشراقية وأمور أخرىٰ مختلطة ، هـٰذا مع بلائه الحسن في الرد علىٰ هـٰؤلاء وأذنابهم وتنفير الناس من زبالة عقولهم وما يلزم علىٰ مذاهبهم[٢] .

وبهـٰذا نكون قد وقفنا علىٰ أهم العناصر التي تناولها الإمام الغزالي في الوحي وطرقه ، وقد ألفيناه قدم لإمكانه ووقوعه بمداخل متشعبة شملت بيان قدرة الله تعالىٰ وأنه فعال لما يريد وأن له وحده الخلق والأمر وأنه بذلك لا يعجزه أن يعلم عباده بواسطة أحدهم يوحي إليه بواسطة أو بغير واسطة . وأنه كان من براهينه علىٰ إمكان الوحي ووجود الملائكة تواتر الناس علىٰ ذلك تواترا يحصل به العلم الضروري ، ومن ذلك أن الروح إذا تجردت بالنوم من

---

(١) انظر الرسالة اللدنية ١٠٥ .

(٢) انظر القسطاس المستقيم ٦ ، ٧ والمنقذ من الضلال ٣٥ ، ٣٦ و٣٧ ، ٣٨ و٧١ـ٧٨ وقارن بما في : أبو حامد الغزالي والتصوف ، تأليف عبد الرحمن محمد سعيد دمشقية ط٢ دار طيبة الرياض ١٤٠٩هـ ١٥٣ وما بعدها ومقارنة بين الغزالي وابن تيمية محمد رشاد سالم ٥٨ وما بعدها .

سلطان العقل والبدن وتجلت لها مغيبات علىٰ حسب استعدادها وما قدر لها في شكل مرائي تكون في الغالب صادقة إذا كانت الروح طاهرة والمخيلة التي تضرب فيها الأمثال ثابتة وسليمة .

بالإضافة إلىٰ ما علم وقوعه لغير النائم في حالات كالأمراض العضوية والعقلية حيث إن المصروع والمجنون قد يقع لهم ما يتكلمون به من المغيبات التي تصدق غالباً . وأنه إذا جاز ذلك في الجنس في حال التجرد بالنوم والمرض جاز ذلك في الصحة واليقظة ، مع الفارق الكبير بين روحانيات الأنبياء وغيره ؛ حيث إن فطرهم سليمة وعقولهم مستقيمة ؛ إذ أعدهم الله تبارك وتعالىٰ ليكونوا محلا لتنزل وحيه والتلقي عنه بواسطة ملائكته وتعليمهم من لدنه بلا واسطة .

ولما أوقفنا الإمام الغزالي من خلال هـٰذه المداخل علىٰ إمكان الوحي وإثباته ووقوعه ، رأينا أنه سلك مسالك أخرىٰ لشرح طرقه وأقسامه وأدنىٰ درجاته وأعلاها وما يشترك فيه الذين ألهمهم الله وكانوا من المحدَّثين وما اختص به أنبياءه ورسله . .

وعلىٰ نحو هـٰذه المقاصد نود أن نرىٰ رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في الوحي وطرقه .

* * *

المبحث الثاني

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

إن المتفحص لنصوص شيخ الإسلام ابن تيمية في النبوات يجد أنها تغطي بالإضافة إلىٰ توضيح إمكان الوحي وإثباته وشرح طرقه وأقسامه وأنواع الإيحاء إلى الأنبياء تغطي ردودا على الفلاسفة ومن قلدهم وأخذ بأصولهم الفاسدة من المتصوفة المتفلسفة في الإسلام[1] .

وإذا اقتصرنا في توضيح رأيه على المقاصد الآتية كفانا ذلك عن الاستطرادات الطويلة والردود الكثيرة ، وهي :

- إمكان الوحي بالبحث في تجرد الروح من العقل والبدن في حالة التوفي بالموت أو النوم أو المرض ونحو ذلك .
- وجود الملائكة والجن وما لذلك الوجود من أثر متواتر .
- وقوع الوحي إلى الأنبياء بواسطة الملائكة .
- طرق الوحي وأقسامه .

المقصد الأول : في إمكان الوحي بتجرد الروح ، فأما الروح فإن البدن لا شك يشغلها عن التوجه لمصادر المعرفة والتلقي من الروحانيات كالملائكة ، ذلك أن الحواس تورد عليها مدركاتها وإحساساتها من حاجة وألم ولذة ومرض وغير ذلك فتظل الروح قاصرة اهتماماتها وتوجهاتها على الحواس ومدركاتها فإذا نام الإنسان وركدت مدركاته الحسية وقع للروح نوع تجرد فيحصل لها من العلم ما يلقيه الله إليها بواسطة ملك الرؤيا أو غير ذلك . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[2] .

---

(١) انظر الصفدية ١/ ١٩٣ـ٢٠٩ .

(٢) سورة الزمر ، آية (٤٢) .

فأخبر سبحانه أنه يتوفى الأنفس حين النوم وحين الموت وأن ما يتوفاه حين النوم منه ما يقضي عليه الموت في نومه ومنه ما يرسله ، وبسبب تجردها ـ أي النفس ـ عن البدن يحصل لها من العلم ما يلقيه الله إليها ، إما بواسطة الملك الذي يريها ويحدثها من الرؤيا ، وإما بغير ذلك . قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا . . . ﴾[1] .

ومن هنا يأخذ شيخ الإسلام مستنده في إبطال نفي الفلاسفة الصائبة لوجود الملائكة والجن إذ يقول إنه :

(ليس معهم ما ينفي وجود ما يمكن أن يختص برؤيته بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن بل ولا معهم ما ينفي تمثل هٰذه الأرواح أجساما حتىٰ ترىٰ بالحس الظاهر ولا معهم ما ينفي أن النفس قد ترىٰ غير ما هو من أحوالها ، مثل أن ترىٰ عند الموت أمورا لم تكن تراها وهي متعلقة بالبدن)[2] .

وعليه فإن النفس الناطقة هي الرائية عند التجرد من البدن عند الموت وبعده ، والنوم الذي يحصل به نوع تجرد لها ترىٰ فيه ما قدر لها واستعدت لرؤيته بواسطة أو بغير واسطة ، ثم إن التواتر قاطع بوجود الجن ودخولهم في المصروع وكلامهم علىٰ لسانه وكذا تخديم أهل السحر والطلسمات لهم في تحصيل أمور عجيبة كل ذلك من الأمور المتواترة التي لا يمكن لأحد دفعها ولا إنكارها وعظماء الفلاسفة مقرون بذلك معترفون بـه[3] .

وإذا كان ذلك واقعا في الجن بالتواتر المشهور ، فإن تواتره في الملائكة أشهر ، وذلك هو :

المقصد الثاني في وجود الملائكة : (فما الظن بالملائكة الكرام الذين يراهم الأنبياء صلوات الله عليهم ـ يرونهم بباطنهم وظاهرهم . ذلك أنه من

---

(١) سورة الشورىٰ ، آية (٥١) . الرد على المنطقيين ٤٧٠ ، ٤٧١ ، وانظر الصفدية ١/ ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ٤٦٩ .

(٣) انظر منه ٤٧١ وما بعدها وقارنه بما في الصفدية ١/ ٢٤١ـ٢٤٣ .

المتواتر أيضاً عن الأنبياء أن الملائكة أحياء ناطقون يأتونهم عن الله بما يخبر به ويأمر به تارة ، وينصرونهم ويقاتلون معهم تارة .

وكانت الملائكة أحياناً تأتيهم في صورة البشر والحاضرون يرونهم)[١] .

ثم إن الفلاسفة : (معترفون بالحسيات الظاهرة وبالحسيات الباطنة التي يحس بها الإنسان ما في نفسه كإحساسه بجوعه وعطشه ، ولذته وألمه ، وشهوته وغضبه ، وفرحه وغمه ، وكذلك ما يتخيله في نفسه من أمثلة الحسيات التي أحسها فإنه يتخيل ذلك في نفسه)[٢] .

وبهٰذا لابد أن يعلم أن لهٰذه الأمور أسباباً وعللاً جعلتها تقع ورجحت بعضها علىٰ بعض إذ هي في الأصل متساوية عند العقل والقلب والروح : (والمقصود هنا أنه إذا علم أن ما يحدث في النفوس ليس سببه مجرد حركة الفلك مع أنه لابد له من سبب دل ذلك علىٰ وجود الملائكة والجن وهٰذا قول سلف الأمة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين فإنهم يقولون : إن الشياطين توسوس في نفوس بني آدم بالعقائد الفاسدة والأمر باتباع الهوىٰ ، وإن الملائكة بالعكس إنما تقذف في القلوب الصدق والعدل)[٣] ، فالواقع في القلوب عند من لا ينكر الأسباب من المتكلمين ـ (إن كان له سبب أمكن أن يكون ذلك هو ملائكة تعلمهم بذلك ، أو جن تعلم بعض الناس) ، وما دام الفلاسفة ليس عندهم حجة تمنع من ذلك فإننا نقول : (بل يجب أن يكون ذلك من الملائكة إذا كان له سبب) بناء علىٰ أنه من النظار والفلاسفة من أثبت وجود الملائكة بناء علىٰ ما يجده الإنسان في نفسه من أمور لا قصد له فيها . فخلو القلب من وجود الضدين أو ترجح أحدهما على الآخر وحصول علوم وخواطر وإرادات من غير قصد يدل علىٰ أن الله أحدثها إذ هو الخالق لكل شيء[٤] .

---

(١) السابق ٤٨٩ ، ٤٩٠ .

(٢) الرد على المنطقيين ٤٦٩ .

(٣) السابق ٥٠٥ وقارن بما في النبوات ٤١٦ .

(٤) انظر منه ٥٠١ .

(والذي عليه السلف والأئمة أن الله جعل للحوادث أسباباً وحكما ، وهـٰذه الحوادث قد تحدث بأسباب من الملائكة والجن وما يحصل في القلب من العلم والقوة ونحو ذلك قد يجعله الله بواسطة فعل الملائكة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ . . . ﴾[2] ، الآية . أما الفلاسفة الذين يسميهم شيخ الإسلام بالصابئة المحضة : (فإن النبي عندهم من جنس غيره من الأذكياء الزهاد لـٰكنه قد يكون أفضل ، والنبوة عندهم جزء من الفلسفة ، وهـٰذا هو الضلال العظيم ذلك أنهم يقولون إن الله لا يعلم الجزئيات . . .)[3] .

(وهـٰؤلاء الصابئة المحضة من المتفلسفة يقولون إن الله ليس له كلام في الحقيقة لـٰكن كلامه ـ عند من أظهر الإقرار بالرسل منهم ـ ما يفيض علىٰ نفوس الأنبياء ، وهو أنه محدث في نفوسهم من غير أن يكون في الخارج عن نفوسهم لله عندهم كلام ـ إلىٰ أن قال : (وتقول الصابئة المحضة ـ الذين آمنوا في الظاهر وآمنوا في الباطن ببعض الكتاب ـ كلام الله اسم ما يفيض علىٰ قلب النبي من ـ العقل الفعال . أو غيره ـ وملائكة الله ـ اسم لما يتشكل في نفسه من الصور النورانية وقد يقولون : إن جبريل هو : العقل الفعال ـ أو هو ما يتمثل في نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم . . . وعندهم ليس خارجا عن نفس النبي كلام ولا ملك)[4] .

والمتكلمون عند شيخ الإسلام لا يوافقون الفلاسفة في هـٰذا الكلام ولا في

---

(١) سورة الأنفال ، آية (١٢) .
(٢) سورة المجادلة ، آية (٢٢) .
(٣) الرد على المنطقيين ٥١٢ .
(٤) مجموع الفتاوىٰ ١٢/ ٣٥١ـ٣٥٣ .

حصر طرق العلم : (بل المتكلمون متفقون علىٰ أن النبي يعلمه الله بما لا يعلم به غيره بمشيئته وقدرته ، فإنهم متفقون علىٰ أن الله يفعل بمشيئته وقدرته ، وأنه يرسل ملكا إلى النبي وهو يعلم الملك ويعلم ما يقول وما يقوله للنبي) .

وإذا حصر المتكلمون طرق العلم فإنهم : (لم يقصدوا أن يذكروا الطريق التي بها يعلم النبي ما يوحىٰ إليه ، بل هـٰذه الطريق خارجة عما يقدرون عليه هم وأمثالهم من الطرق ، وليست من جنسها عندهم. . .)[1] ، (فإن الأنبياء والأولياء لهم من علم الوحي والإلهام ما هو خارج عن قياسهم - يعني الفلاسفة ومن قلدهم - الذي ذكروه ، بل الفراسة أيضا وأمثالها)[2] .

ولما أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية أن الأرواح البشرية عندها قابلية للتلقي عن الله تعالىٰ علوما ومعارف بناء علىٰ قدرة الله تعالىٰ وتصرفه في خلقه وما فطر عليه بعض عباده من الاستعداد للتحمل والأخذ عمن فوقه في الدرجة العلمية والروحانية سواء أكان ملكا كريما أم غيره - أراد بعد شيء من التنزل مع الخصوم في سرد منابع المعارف عندهم وعرض تصورهم لما يقع في القلوب من العلوم التي يجهلون علىٰ وجه الحقيقة مصادرها أن يبرهن علىٰ أن ما يقع في النفوس والقلوب لابد له من سبب يقدره الله تعالىٰ لحكمة بالغة ، ولابد للنفس المتلقية عن الملائكة أن تكون مع الفطرة السليمة قد أعدها الله الإعداد الذي يتناسب مع عظمة من يعلمها ويلقنها ويقذف في قلبها العلوم والأوامر والأحكام وغير ذلك مما لا يستقر إلا في نفس قد تولى الله تعالىٰ تسويتها .

وعليه فالملائكة أحياء ناطقون منفصلون عن بني آدم والجن كذلك خلق آخر له القدرة على التشكل والتمثل والأرواح البشرية هي الأخرىٰ كذلك واقعة بين الخير والشر مستعدة للتلقي عن الله تعالىٰ بلا واسطة ملك ، ومهيئة للتعامل مع وساوس الجن وما يوحيه الشيطان من شر وكفر وعصيان[3] .

---

(١) الرد على المنطقيين ٥١٢ ، ٥١٣ .

(٢) السابق ٤٣٧ .

(٣) انظر النبوات ٢٥١ ، ٢٥٢ .

ولٰكن هناك في النفوس البشرية أرواح طاهرة بالفطرة مقدسة بالجبلة لا تقبل التوجه إلا إلىٰ بارئها ولا التلقي إلا من جهته تعالىٰ بواسطة أو بغير واسطة ذلك أن الله عصمها وقصرها على الخير فلا تسلط للشياطين عليها . وهـٰذه هي أرواح الأنبياء التي إن اشتركت مع أرواح بني جنسها من بني آدم في أمور فإنها تتميز عنهم في أمور كثيرة أعظمها أن الله حجبها عن مصادر الشر وعلوم الأشرار وتولى اختيارها واصطفاءها وجعلها محلا لتنزل ملائكته ووعاء مفتوحا لإستقبال وحيه وحفظ كلامه وتبليغ رسالاته : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾(١) .

المقصد الثالث : وقوع الوحي ، ولما كانت الرسالة معتبر فيها مرسل ومرسل ومرسل إليهم ومضمون يشتمل علىٰ أوامر ونواهي وتعليمات يطلب الإيمان بها وتطبيقها كان الوحي علىٰ نحو خاص ومن خاص إلىٰ خاص بحيث عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية أنه : (الإعلام السريع الخفي : إما في اليقظة ، أو في المنام ، فإن رؤيا الأنبياء وحي ورؤيا المؤمنين جزءاً من ستة وأربعين جزء من النبوة)(٢) .

وعليه : فليس كل من أوحي إليه الوحي العام يكون نبيا ، فإنه قد يوحي إلىٰ غير الناس قال تعالىٰ :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ عن يوسف عليه السلام ـ وهو صغير :

---

(١) سورة الأنعام ، آية (١٢٤) . انظر مجموع الفتاوىٰ ٤/١١٩ وما بعدها ، والنبوات ٤٢٢ـ٤٣٢ ، والصفدية ١/٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١٢/٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٣) سورة النحل ، آية (٦٨) .

(٤) سورة فصلت ، آية (١٢) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾(٤) .

فهٰذه آيات من كتاب الله تعالىٰ أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض بيانه للوحي العام والخاص والتكليم الخاص والعام وليقول إنه : (يتناول وحي الأنبياء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم)(٥) .

وكما قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : (رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه)(٦) .

فهٰؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحىٰ إليهم هٰذا الحديث الذي هو لهم خطاب والهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم ، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الرب بل من إيحاء الشيطان ، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء ، فهم الذين يفرقون بين

---

(١) سورة يوسف ، آية (١٥) .

(٢) سورة القصص ، آية (٧) .

(٣) سورة المائدة ، آية (١١١) .

(٤) سورة الشورىٰ ، آية (٥١) .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وصحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة الحديث (٣٦٨٩) .

(٦) انظره في نوادر الأصول للحكيم الترمذي ، الأصل الثامن والسبعين ، قال الحافظ ابن حجر هو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر وهو واه . انظر : فتح الباري ١٢/ ٣٥٤ .

وحي الرحمن ووحي الشيطان ، فإن الشياطين أعداؤهم وهم يوحون بخلاف وحي الأنبياء .

قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾(٢) .

فالله جل جلاله يوحي إلى الملائكة وإلى الإنس وإلىٰ من شاء من مخلوقاته الحي منها والجماد ، ويشمل معنىٰ ذلك الإلهام والرؤيا المنامية والقذف في الروع والتسخير والتقدير . . . كما سبق في أول الفصل .

والذي نقصده الآن بالبيان هو الوحي الذي يكون من الله تعالىٰ لأنبيائه الكرام الذين يفرق بينهم وبين سائر من يوحي إليهم بأن الوحي إليهم له غاية تتعداهم وهـٰذه الغاية من أجلها خلقت السماوات والأرض ومن فيهن ، ألا وهي عبادة الله وحده لا شريك له .

المقصد الرابع طرق الوحي : وفي بيان شيخ الإسلام ابن تيمية لهـٰذا الوحي الخاص وطرقه نجده يمهد له بمدخل يثبت فيه أن جماهير أهل السنة والنظر وأئمة السنة والحديث على القول بأن الله تعالىٰ يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق فيقول :

(وأما السلف والأئمة فقالوا : إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإن كان مع ذلك قديم النوع ـ بمعنىٰ أنه لم يزل متكلما إذا شاء ، فإن الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن

---

(١) سورة الأنعام ، آية (١١٢) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (١٢١) . النبوات ٢٤٦ـ٢٤٨ ، وانظره في مجموع الفتاوىٰ ٣٩٨/١٢ .

لا يكون متكلما بمشيئته وقدرته ، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعا منه ، أو قدر أن ذلك ممكن. . . وقد علم أن الله تعالىٰ موصوف بغاية صفات الكمال ، وأن الرسل قد أثبتوا أنه متكلم بالكلام الكامل التام في غاية الكمال. .)[١] .

فأصل النزاع بين أهل الأرض ومنشأ الخلاف عند ـ شيخ الإسلام ابن تيمية يعود في هٰذا الباب إلىٰ أصلين :

هما : مسألة ـ تكلم الله بالقرآن وسائر كلامه .

ومسألة ـ تكلم العباد بكلام الله .

وفي شرحه للمسألة الأولى التي هي موضوعنا يقول :

(وسبب ذلك أن التكلم والتكليم له مراتب ودرجات . . .

وقد بين الله في كتابه وسنة رسوله ذلك فقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[٣] .

وقال : ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾[٤] .

ففي هٰذه الآية خص بالتكليم بعضهم ، وقد صرح في الآية الأخرىٰ بأنه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٢/ ٣٧٢ و٤٠٦ .

(٢) سورة الشورىٰ ، آية (٥١) .

(٣) سورة النساء ، آية (١٦٣ـ١٦٤) .

(٤) سورة البقرة ، آية (٢٥٣) .

كلم موسىٰ تكليما ، واستفاضت الآثار بتخصيص موسىٰ بالتكليم ، فهٰذا التكليم الذي خص به موسىٰ علىٰ نوح وعيسىٰ ونحوهما ليس هو التكليم العام الذي قال فيه :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾(١) .

فإن هٰذه الآية قد جمع فيها جميع درجات التكليم ، كما ذكر ذلك السلف . . قال ابن شهاب :

نزلت هٰذه الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر .

فكلام الله الذي كلم به موسىٰ من وراء حجاب ، والوحي ما يوحي الله إلى النبي من أنبيائه عليهم السلام ، ليثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه في قلب ا لنبي ، ويكتبه ، وهو كلام الله ، ووحيه ، ومنه ما يكون بين الله وبين رسله ، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ، ولا يأمرون بكتابته ، ولٰكنهم يحدثون به الناس حديثا ، ويبينونه لهم ، لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ويبلغوهم إياه ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به أنبياءه من الناس ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحيا في قلب من يشاء من رسله) .

إلىٰ أن قال بعد عرض أدلة من الكتاب والسنة على الوحي العام المشترك سقناه عنه آنفا : (فهٰذا الوحي لغير الأنبياء ، ويكون يقظة ، ومناما . وقد يكون بصوت هاتف ، يكون الصوت في نفس الإنسان ، ليس خارجا عن نفسه يقظة ومناما ، كما قد يكون النور الذي يراه أيضاً في نفسه .

فهٰذه الدرجة من الوحي التي تكون في نفسه من غير أن يسمع صوت ملك في أدنى المراتب وآخرها . . .

---

(١) سورة الشورىٰ ، آية (٥١) .

وقد يكون الصوت الذي يسمعه خارجا عن نفسه من جهة الحق تعالىٰ علىٰ لسان ملك من ملائكته أو غير ملك .

فهٰذا القسم الثاني من أقسام الوحي الذي هو قسيم التكليم بالرسول حيث قال تعالىٰ : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ ، فهٰذا إيحاء الرسول ، وهو غير الوحي الأول من الله الذي هو أحد أقسام التكليم العام .

والقسم الثالث : التكليم من وراء حجاب ، كما كلم موسىٰ عليه السلام ، ولهٰذا سمى الله هٰذا ـ نداء ونجاء .

فقال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾[2] .

وهٰذا التكليم مختص ببعض الرسل ، كما قال تعالىٰ :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾[4] .

وقال بعد ذكر إيحائه إلى الأنبياء : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[5] .

وقد دل كتاب الله علىٰ أن اسم الوحي والكلام في كتاب الله فيهما عموم وخصوص . فإذا كان أحدهما عاما اندرج فيه الآخر ، كما اندرج الوحي في التكليم العام في هٰذه الآية[6] ، واندرج التكليم في الوحي العام حيث قال : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ .

---

(١) سورة مريم ، آية (٥٢) .
(٢) سورة طه ، آية (١٣) .
(٣) سورة البقرة ، آية (٢٥٣) .
(٤) سورة الأعراف ، آية (١٤٣) .
(٥) سورة النساء ، آية (١٦٤) .
(٦) طه (١٣) .

وأما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفي الذي يشترك فيه الأنبياء وغيرهم ، كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل. .)[1] .

وبهٰذا يتضح أن رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في الوحي وطرقه : هو اتباع منهج السلف وما دلت عليه نصوص الوحي وأجمع عليه الأئمة والمحققون من أهل الحديث والنظر ، علاوة علىٰ أنه من أقوى المدافعين عن هٰذا المنهج لمقدرته العلمية ، واطلاعه علىٰ مكايد أهل الزيغ والانحراف ، وما كان منهم من التلاعب بالألفاظ وإنكار ما لم تبلغه عقولهم ، أو يخالف ما التزموا في أصولهم الفاسدة .

وباختصار فإن شيخ الإسلام من رأيه في الوحي وطرقه ما يأتي :

أ ـ الرؤيا المنامية دليل واضح لا ينكره أحد في أن الروح إذا تجردت من الشواغل الأرضية كانت بالمكان الذي تتمكن فيه من التلقي عن الروحانيات والأخذ عن الله بواسطة ملك أو مثال مضروب يحتاج إلىٰ تعبير .

والرؤيا وتجرد الروح ـ وإن كان دليلا علىٰ إمكان الوحي وإثباته علىٰ من ينكره ليست هي النبوة ولا هي عمدة الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ذلك أنها أمر مشترك بين كل من له مخيلة تستقبل الصور والأمثلة المضروبة في المنام واليقظة . ثم هي من الوحي الداخلي والإلهام الباطني الذي لا تقوم به حجة إلا إذا كان صاحبه نبيا معصوما من إيحاء الجن والشياطين فالعلم المأخوذ بواسطتها والصوت المسموع فيها والمشاهدات الحاصلة فيها لا يميز بين الحق فيها أو الباطل منها إلا بعلوم الأنبياء وخبرهم الذي لا تسلط للشيطان عليه فمن آمن بالرؤيا التي هي أدون درجات الوحي وكذب بما بعدها فهو بذلك : (مؤمن ببعض الرسالة كافر ببعضها. . وهي التي أدركتها عقول

---

(١) مجموع الفتاوىٰ بتصرف ١٢/ ٣٩٥ـ٤٠٢ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠٠ وما بعدها .

الإلهيين من فلاسفة الإسلام الذين فيهم إسلام وصبوء)[1] .

بـ ومن رأيه في الوحي وطرقه أن الملائكة الكرام وسائط بين الله وعباده في توصيل العلوم والمعارف يقظة للأنبياء ومناما لمن أراد الله وقدر له شيئا من الإلهام والقذف في القلب والنفث في الروع يقظة أيضا ومناما .

جـ وإذا كان ذلك مما يعد من الأمور المشتركة فإن الأنبياء فيه هم الأعلون المعصومون مع أن لهم ما يختصون به ويتميزون عن غيرهم به بحيث لا يشاركهم فيه أحد ، وهم في ذلك أيضا علىٰ درجات إذ يكلمهم الله تعالىٰ من وراء حجاب ويكلمهم بواسطة ملائكته الذين يرسلهم لهم بوحيه وكلامه .

ولما أدركت الجهمية من المعتزلة ونحوهم أن الصوت الذي يسمعه النبي خارجا عن نفسه وأنه من جهة الحق تبارك وتعالىٰ بواسطة ملك من ملائكة أو غيره (اعتقدوا أنه ليس لله تكليم إلا ذلك)[2] .

ولذا سرد شيخ الإسلام ابن تيمية أقسام الوحي مبينا ـ كما سبق ـ لكل قسم موضحا درجته ، وهل يصح الاشتراك فيه أو هو خاص بالأنبياء ؟ ، ومما أكد عليه في هٰذا القسم الذي هو الثالث عنده وهو التكليم من وراء حجاب أن بعض المتفلسفة جعله من جنس الوحي الأول الذي هو سماع صوت وكلام داخل النفس لا خارجا عنها ـ فاعتبر ذلك من الضلال العظيم الذي يخالف الكتاب والسنة والإجماع وصريح المعقول ذلك أنهم جعلوا مرتبة النداء والمناجاة والتكليم الخاص الكامل التام هي درجة الإلهام والكلام العام المشترك[3] .

(وإنما المقصود أن نعرف أن ما يفسرون به الملائكة والوحي مما يعلم

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٢/ ٣٩٦و٣٩٨ وقارن : الرد على المنطقيين ٤٨٢ـ٤٨٥ .
(٢) السابق ١٢/ ٤٠٠ .
(٣) انظر النبوات ٢٤٨ـ٢٥٢ ومجموع الفتاوىٰ ١٢/ ٤٠١ـ٤٠٣ .

بالاضطرار من دين الرسول أنه مناقض لما جاء به)[1] .

والموافق له علىٰ ما شرح هو أن الله يوحي وحيا عاما مشتركاً بين الناس ، ووحيا خاصا بواسطة رسله من الملائكة ، ويكلم من خاصة رسله من أخبر أنه كلمه من وراء حجاب كموسىٰ عليه السلام . والله أعلم .

وإلى المبحث الثالث حيث نرىٰ فيه الوحي وطرقه من خلال نصوص الوحي نفسه كتابا وسنة .

* * *

---

(١) الرد على المنطقيين ٥٠٠ .

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

في المبحثين السابقين رأينا ما شرحه هٰذين الشيخين من الوحي وطرقه وما صوراه من طرق تكليم الله تعالىٰ للبشر علاوة علىٰ ما تحدثنا عنه من أسباب حصول الخواطر والإرادات والمعارف والمعلومات التي لا يعلم المرء لها سببا وباعثا إلا إن آمن أن هناك ملائكة كراما تعلم الخيرين من بني آدم حسب أمر الله وإرادته . وأن هناك جنا وشياطين توسوس في صدور بعض الناس وتلم بهم بما تزين لهم من الكفر والشرك والعدوان وتحزنهم في اليقظة والمنام بما تقلق به نفوسهم الأمارة بالسوء من إيعاد بالفقر والهلاك والأمر بالفحشاء والمنكر .

هٰذا بالإضافة إلىٰ ما تناولاه من عرض أمور متواترة بين الناس من استعداد بعض الأنفس عند تجردها من الحواس والمدركات العقلية إلىٰ تلقي المعلومات في الأرواح العلوية ويقع من ذلك للنفوس الطيبة التي أعدها الله وسواها لتكون محلا لتنزل رحماته وقبول العلوم النافعة لعباده .

وقد كانت لهما رحمة الله عليهما جهودا ملموسة في رد وإبطال الآراء الفلسفية التي تنكر المحسوس وترد الضروري المتواتر .

وفي هٰذا المبحث نود أن نعقب بالقول أنه قبل ورود الكتاب والسنة بما شرحاه وبحثاه لا يكون شيء من ذلك محلا للحجة وموضعا للثقة مهما كان تواتره وضرورة حصوله لبعض الناس ذلك أن تجرد الأرواح وما يمثل لها من المرائي أمر غيبي نسبي لا يتميز به خير من شر حتىٰ يعلم أن هٰذه الرؤيا من الله تعالىٰ ولمة ملك روحاني كريم أو فساد مزاج وتسلط شيطان رجيم ، ومادام الأمر في ذلك نسبيا ولا مميز لخيره من شره من حيث المصدر والسبب الباعث والمحصل فلا حجة فيه لأحد علىٰ أحد إذ قد يحصل لهٰذا ولا يقع لذاك فينكره ويرده .

وعليه فإنه حتىٰ وجود الملائكة والجن علىٰ تواتر ذلك بين الخلائق ونسبة الآثار والأفعال والخير والشر إليهم لا يعد ذلك أمرا يقطع به عند كل أحد لتعارض التواتر في ذلك فكما تواتر القول بالوجود والآثار وجد تواتر بوجود أشياء أخرىٰ هي من الخرافات والأباطيل التي يرد وجودها حقيقة تواتر آخر . لذا فإن الخلق مع إقرارهم بربوبية الله تعالى التي فطرهم عليها لا يمكن لأعقلهم وأذكاهم ولا لأقواهم حدسا وأصوبهم فراسة أن يعلم عنه علما يعتمد عليه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أمره ونهيه وما يرضيه وما يسخطه وهل عنده ثواب أو جزاء بالعقاب وهل له دار غير هـٰذه الدنيا وما هي إن كانت عنده وغير ذلك من الأمور التي لا تنال بسلامة الفطرة ولا قوة الفكرة ولا طول العبرة ، وإنما لابد أن يكون العلم بها بتعليم من الله جل جلاله . وقد رأينا أنه اقتضت حكمته أن لا يعلمها لكل الناس ولا يمنعها جميع الناس ولـٰكن يصطفىٰ لهم معلمين من كرام ملائكته ويبعث لهم رسلا من خيرة عباده قد أعدهم في سابق علمه وأزل أمره لهـٰذه المهمة الشريفة ، ولـٰكنا لا نعلم شيئا عن ذلك إلا بتعليمهم هم لنا وإيمانهم هم بما يبينوه لنا حتىٰ يكونوا في ذلك كله قدوة وأسوة ، وإنه مع تواتر وجود هـٰذا الجنس من الأخبار وما كان لهم من حسن الأثر وعظيم الأخبار قد ظهر الفساد في البر والبحر قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وغير أهل الملل مللهم وحرفوا الدين وتعددت في الباري نحلهم ، فعم الشرك أهل الكتاب وغيرهم وعبد الحجر والشجر وما هو أصغر فطال الأمد وقست القلوب ، وتسلطت الشياطين على الخلق فعبدوهم للهوىٰ والشهوات حتىٰ لم ينجح من ذلك عاقل أو قس أو حبر أو راهب إلا أفراد قلائل لا حيلة لهم ولا تدبير ولا علم لهم يعصمهم أو يبعثهم على الإصلاح والأمر والنهي ، ولـٰكن كانوا يعيشون في مجتمعاتهم الخاسرة في حيرة من أمرهم مع علمهم التام بفساد حال الناس وحاجتهم إلىٰ منقذ رباني يخلصهم من الشرك والهوىٰ وعبادة الشيطان .

وكان علم الله بتلك الحاجة محيط بعلمهم ومقته لهم أشد من مقتهم

لأنفسهم إذ نظر إليهم فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب الذين أسلفنا أنه لا حول لهم ولا قوة .

ولـٰكن اقتضت حكمة الله تعالىٰ أنه لا يترك عباده الذين لم يخلقهم عبثا يعيثون في الأرض فساداً دون أن يقيم عليهم الحجة ويوضح لهم المحجة فرحمهم ببعثه محمد صلى الله عليه وسلم فأنزل عليه الكتاب وآتاه من لدنه الحكمة وفصل الخطاب فكان تبيانا لكل شيء إذ لم يفرط المولىٰ فيه من شيء ، وكان من أعظم ما فيه بيانه للوحي وطرقه إذ لا يعلم ذلك إلا منه وبه .

كما أنه لا حجة في قول أحد ما لم يحتج به ويستند إليه بعد الإيمان به والاعتماد عليه .

إن النبي صلى الله عليه وسلم بعد تلقيه للوحي وإيمانه به واطلاعه علىٰ طرقه وأنواعه كان هو المرجع في ذلك والحجة فيه .

قال الله تعالىٰ علىٰ لسانه : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾(1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ . . . ﴾(2) .

وقد روى ابن جرير(3) والحاكم(4) أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هـٰذه الآية عليه قال : (ويحق له أن يؤمن) أو : (أحق له أن يؤمن) .

ولا شك أن هـٰذا كان بعد أول حديث له في الوحي حيث يقول فيه لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها : (لقد خشيت علىٰ نفسي)(5) ، ومهما كانت احتمالات الخشية عند العلماء في هـٰذا الحديث فإن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) سورة الأنعام ، آية (١٩) .
(2) سورة البقرة ، آية (٢٨٥) .
(3) تفسير الطبري ٦/ ١٢٤ .
(4) المستدرك ٢/ ٢٨٧ قال الذهبي بعد قول الحاكم : صحيح . . . قلت : منقطع .
(5) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي الباب ٣/ الحديث ٣ .

آمن بالله وبوحيه وبدأ يعانيه ويتلقاه علىٰ تعدد أحواله وأنواعه[1] .

وبما أن العلماء رحمهم الله تعالىٰ تتبعوا نصوص الوحي وبينوا ما يعد منها صفة للوحي وما يعتبر صفة لحامله ، وأنواع إيحائه حسب الحالات التي يأتي بها للنبي صلى الله عليه وسلم وما يترتب علىٰ ذلك من آثار تظهر على النبي صلى الله عليه وسلم ـ فإنني أنطلق من خلال نصوص الكتاب والسنة لبيان الأمور الآتية :

١ـ تكلم الله تعالىٰ بالوحي ، وصفة الملائكة الكرام حال الوحي .

٢ـ الوحي إلى الأنبياء ووحدته وأقسامه ويشمل ذلك :

أ ـ الرؤيا .

ب ـ النفث في الروع .

ج ـ الوحي من وراء حجاب يقظة ومناما .

د ـ الوحي بواسطة الملك كيفيته وأنواعه .

وتوضيح ذلك من خلال الكتاب والسنة يكون بما يأتي :

١ــ إن الله تبارك وتعالىٰ قادر علىٰ أن يخلق العلم في قلوب من شاء من عباده وقادر علىٰ أن يعلمهم بطرق أخرىٰ كثيرة لا نعلم منها إلا ما علّمنا إياه[2] .

وإن من طرق تعليمه أنه يتكلم بكلام هو صفة له تعالىٰ يعلم به من شاء من عباده ويرسل به من شاء إلىٰ من يشاء من خلقه وإن كلام الله تعالىٰ بالوحي غالبا ما يتلقاه عنه جبريل عليه السلام خاصة إذ هو ناموس الخير وسفير رب العالمين إلىٰ رسله المصطفين مع أن الملائكة الكرام يعلمون بأن الله تعالىٰ تكلم فيفزعون رغبا ورهبا وخوفا وطمعا لأنهم يعلمون عظمة من يتكلم ويخضعون لمقتضيات كلامه ويسرعون لتنفيذ أوامره .

---

(١) انظر فتح الباري ١٢/ ٣٦٠ .

(٢) انظر الشفا ٢/ ٧٢٣ ، ٧٢٤ .

قال الإمام البخاري باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[١] .

وساق بسنده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال :

(إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة علىٰ صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هٰكذا بعضه فوق بعضه ـ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلىٰ من تحته ، ثم يلقيها علىٰ لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء)[٢] .

وعند الطبراني مرفوعا من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه :

(إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله فإذا سمع أهل السماء بذلك صعقوا وخروا سجدا ، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهي به على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله أهله ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق فينتهي به حيث أمر)[٣] .

ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند ابن مردويه يرفعه : (إذا تكلم الله بالوحي يسمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون ، ويرون أنه من أمر الساعة . وقرأ : حتىٰ إذا فزع الآية)[٤] .

---

(١) سورة سبأ ، آية (٢٣) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة سبأ ، الباب المذكور . الحديث (٤٨٠٠) .

(٣) فتح الباري ٨/ ٥٣٨ .

(٤) المرجع السابق ، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

فمن هٰذه النصوص نعلم أمورا مهمة في بيان الوحي وطرقه ومنها :

أـ أن الله تعالىٰ يتكلم بالوحي وهي مسألة كما تقدم عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنها أصل عظيم كثر فيه النزاع واضطرب فيها العلماء .

بـ أن لكلامه بالوحي أثراً عظيما علىٰ أهل سمواته من الملائكة الكرام لما يصيبهم من الفزع والخوف وما هم عليه من الطاعة وحب العلم الذي تلكم الله به . وهٰذه أمور لا تحصل إلا لحي ناطق منفصل عن أخيلة الناس .

جـ أن جبريل عليه السلام يتلقى الوحي عن الله ويهبط به إلىٰ حيث أمر لا يتجاوز ذلك ولا يعلم به أحدا غيره حتى الملائكة .

دـ وفي مقابل هٰذه الأرواح الطيبة العلوية توجد أرواح خبيثة سفلية تتجسس على الملائكة المكلفين بأمر الله فيسترقون السمع وقد ينالون كلمة من الحق فيقذفونها لمخدومهم من سحرة وكهنة الإنس فيبني عليها الخبيث من الكذب ما يضل به من عباد الله تعالىٰ من شاء الله إغواءه[١] .

وبهٰذا يتأكد ما ذهب إليه الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية من وجود الملائكة وتكليم الله لهم وتكليمهم للبشر ، ووجود الجن والشياطين وما لهم من أثر في نفوس خلق الله تعالىٰ علىٰ حسب إرادة الله تعالىٰ وعلمه المحيط بكل شيء .

هـ ـ ومن آثار وجود الملائكة والجن أن الله تعالىٰ يحدث بواسطتهم في نفوس بني آدم ما يريد من الإرادات والمعارف والتوجهات قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير .

قال الإمام مسلم في سياق سند آخر لهٰذا الحديث : (غير أن في حديث سفيان : وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة)[٢] .

---

(١) انظر أعلام النبوة للماوردي ١٨٨ـ١٩١ .

(٢) حيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة =

ويوضحه أكثر لفظ حديث الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن للشيطان لـمّة بابن آدم وللملك لـمّة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرىٰ فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[1] الآية[2] .

قال الترمذي : هٰذا حديث غريب ، وهو حديث أبي الأحوص ، لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث أبي الأحوص[3] .

وبهٰذا يثبت بالكتاب والسنة ما للملائكة والشياطين من أثر حسن أو سيىء علىٰ مقتضىٰ أمر الله تعالىٰ وقدره .

٢ـ وإذا كان لكل أحد قرين حتى الأنبياء فلنقتصر على الوحي إلى الأنبياء حتىٰ لا تتشعب بنا السبل إذ في الكتاب والسنة بيان ذلك فلا نحتاج إلى الاستنباطات البعيدة .

فنقول وبالله التوفيق والسداد : إن الوحي إلى الأنبياء جاء علىٰ أنحاء مختلفة وجاء في الكتاب والسنة أن له أحوالا متعددة وأن الأنبياء في ذلك سواء حيث يقول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ . . . ﴾[4] .

وجاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان من الأنبياء من يسمع الصوت ، فيكون به نبيا ، وكان منهم من

= الناس ، وأن مع كل إنسان قرينا .

(١) سورة البقرة ، آية (٢٦٨) .

(٢) جامع الترمذي ، أبواب التفسير ، الحديث (٣١٧٣) .

(٣) قال في تحفة الأحوذي : (قوله : هٰذا حديث حسن غريب) ، وأخرجه النسائي وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم ، انظر ٨/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٤) سورة النساء ، آية (١٦٣) .

يرىٰ في المنـــام ، فيكون بذلك نبيا ، وكان منهم من ينفث في أذنه وقلبه فيكون بذلك نبيا ، وإن جبريل يأتيني فيكلمني كما يكلم أحدكم صاحبه)[١] .

قال أبو عمر : هٰذا علىٰ أنه يكلمه جبريل كثيرا بالوحي في الأغلب من أمره)[٢] .

فهٰذا الحديث وإن كان في سنده من لا يحتج به ، فلنستأنس به ونعتبره من بيان السنة للقرآن حيث ذكر الله تعالىٰ أن وحيه إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل بل الوحي بالنبوة كان من الله تعالىٰ إلىٰ هٰؤلاء الأنبياء المذكورين وغيرهم فهم علىٰ هٰذا في أصل النبوة ووقوع الوحي سواء ولٰكن يتفاضلون في مراتب الوحي بعد ذلك إذ منهم من كلم الله ، ومنهم من علمه بلا واسطة ومنهم من نفث الملك في أذنه أو قلبه ، ومنهم من كان يسمع الصوت ولا يرى الملك ، ومنهم من كان الوحي إليه في المنام غالباً .

٣ـ فالرؤيا التي هي أنموذج عام لكل من له مخيلة تنطبع فيها صور الأشياء اشترك فيها الناس ، الأنبياء والمؤمنون والكافرون والصغار والكبار والذكور والإناث وذلك لتدلهم علىٰ أن النفس إذا تجردت من البدن بالنوم أو بالموت صارت لها أحوال أخرىٰ فشاهدت أمورا كانت محجوبة عنها وهي في اليقظة أو الحياة . فيستدلون بذلك علىٰ وجود المغيبات التي لا تنال بالحس أو العقل فصدقوا بالنبوة والوحي وبالبعث والنشور والجنة والنار وغير ذلك مما لا يملكون دليلا علىٰ إنكاره لجوازه عقلا وإخبار الأنبياء الذين عندهم لهم مشاركة في الاطلاع على الغيب من خلال المرائي المنامية وما أسلفناه من أثر لمة الملك أو الشيطان ببني الإنسان .

وما دامت الرؤيا عامة والنبوة خاصة فإنه لابد فيها من التفصيل والتمييز

---

(١) ساقه الحافظ ابن عبد البر بسنده في التمهيد ، ولم يحكم عليه بشيء ١/ ٢٨٤ ، وانظر دراسة عن رجال هٰذا السند في : النبي والرسول ، هامش ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق .

وذلك ما تولى الكتاب والسنة توضيحه إذ جعل رؤيا الأنبياء من الوحي المعصوم ورؤيا المؤمن الصادق جزء من خصال النبوة ورؤيا من دون ذلك قد تكون من فساد مزاج الرائي وما يعانيه في حياته فتكون من أضغاث الأحلام وتحزين الشيطان وتلاعبه بمن لم يكن معتصما منه بالرحمن ، ومن هنا قال المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم : (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة والرؤيا ثلاثة فرؤيا الصالحة بشرىٰ من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه . . .)[١] .

فهٰذه أقسام الرؤيا بوجه عام وبيان حال رؤيا المسلم الصادق في حديثه وخصوصا في آخر الزمان وبيان أن خصال النبوة تتجزأ دون أصلها وحسب حال المسلم المتبع .

أما رؤيا الأنبياء فإنها وحي لما استقر من عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من تحزين الشيطان وتخييله .

قال الحافظ ابن حجر : (وذكر ابن القيم حديثا مرفوعا غير معزو : (إن رؤيا المؤمن كلام يكلم به العبد ربه في المنام) ، ووجد الحديث المذكور في نوادر الأصول للترمذي من حديث عبادة أخرجه في الأصل الثامن والسبعين وهو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر ، وهو واه في سنده جنيد)[٢] .

وإذا لم يصح الحديث فإن الرؤيا مما اتفق علىٰ أنها من أبواب إطلاع الله تعالىٰ لعباده علىٰ ما أراد من غيبه المكنون ، وكذلك إذا كان حديث ابن عباس رضي الله عنهما الآتي ليس في شيء من الكتب الستة من هٰذا الوجه كما قال ابن كثير فإن علماء الأمة منطلقين في إثبات معناه من القرآن الكريم ـ والحديث

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الرؤيا ، وانظر جمع النووي بين روايات الرؤيا وعدد أجزائها بالنسبة للمؤمن والمسلم الرجل الصالح ١٥/ ٢٠ ، ٢١ .

(٢) فتح الباري ١٢/ ٣٥٤ .

المشار إليه هو : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رؤيا الأنبياء في المنام وحي)[1] .

وأدل شيء علىٰ أن رؤيا الأنبياء وحي ما ذكره الله تعالىٰ من ذبح إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل عليه السلام قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ ﴾[2] .

فالرؤيا وإن اشترك مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ فيها البر والفاجر فإن الله تعالى اختصهم بالعصمة فيها وكذا حديث النفس الذي يحدث الرجل به نفسه في النهار ثم يراه إذا نام .

ومن هنا تكررت الأحاديث الشريفة في أن الرؤيا هي أول بشائر الوحي إلى الأنبياء وكان النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخذ الله تعالىٰ أنه أوحىٰ له كما أوحىٰ إلى الأنبياء أول ما بدىء به الرؤيا الصالحة والصادقة .

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : (أول ما بُدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءته مثل فلق الصبح)[3] .

٤ـ والذي بعد الرؤيا في الدرجة ما كان يعلمه الله تعالىٰ لأنبيائه في قلوبهم بالنفث في الروع بواسطة روح القدس كما جاء في حديث الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا قد أمرتكم به ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد

---

(١) ابن كثير ٤/ ١٥ .

(٢) سورة الصافات ، آية (١٠٢ـ١٠٥) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، الباب الثالث ، وكتاب التعبير الباب الأول وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نهيتكم عنه لا يستبطئن أحد منكم رزقه إن جبريل عليه السلام ألقىٰ في روعي إن أحدا منكم لن يخرج من الدنيا حتىٰ يستكمل رزقه فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله فإن الله لا ينال فضله بمعصيته)[1] .

٥ـ ومن وحي الله تعالىٰ إلىٰ أنبيائه أن يكلمهم بلا واسطة من وراء حجاب يقظة ومناما كما كلم موسىٰ عليه السلام تكليما وكما أوحىٰ إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سموات يقظة .

وقد ذكر بعضهم أنه كلمه كفاحا بلا واسطة ولا حجاب[2] ، ويشمل ذلك جميعا آية الشورىٰ : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[3] .

قال الحافظ ابن حجر معقبا علىٰ محاولة القاضي عياض والقرطبي وغيرهما لاستقصاء طرق الوحي : (قلت : والذي نحاه القاضي سبقه إليه الحليمي ، فقرأت في مختصر للشيخ علاء الدين القونوي بخطه ما نصه : ثم إن الأنبياء يختصون بآيات يؤيدون بها ليتميزوا بها عمن ليس مثلهم ، كما تميزوا بالعلم الذي أوتوه ، فيكون لهم الخصوص من وجهين :

فما هو في حيز التعليم هو النبوة ، وما هو في حيز التأييد هو حجة النبوة ـ إلىٰ أن قال : ـ فتكون الرؤيا واحدا من تلك الوجوه ، فأعلاها تكليم الله بغير واسطة ، ثانيها : الإلهام بلا كلام بل يجد علم شيء في نفسه من غير تقدم ما يوصل إليه بحس أو استدلال ، ثالثها : الوحي علىٰ لسان ملك يراه فيكلمه . رابعها : نفث الملك في روعه وهو الوحي الذي يخص به القلب دون

---

(١) ٢/ ٤ وسكت عليه الذهبي ، وانظر تخريج طرقه في هامش زاد المعاد بتحقيق شعيب الأرنؤوط ١/ ٧٩ حيث صححه .

(٢) انظر مجموع الفتاوىٰ ١٢/ ٩٦ وما بعدها وفتح الباري ١٢/ ٣٦٦ و٨/ ٦٠٨ ، والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية ١/ ٢٠٧٠ .

(٣) سورة الشورى ، آية (٥١) .

السمع)[1] ، وقد رأينا بيان الأقسام المذكورة إلا الوحي بواسطة ملك يكلم النبي ويراه .

٦ـ وبيان ذلك أن الله تعالىٰ قال في آية الشورى الآنفة :

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[3] .

فهٰذه الآيات تدل علىٰ أن الله تعالىٰ يرسل إلىٰ أنبيائه رسولا أمينا علىٰ وحيه يوحيه إليهم بإذن الله ومشيئته ، وكون هـٰذا الرسول هو جبريل عليه السلام هو الأغلب وهو الواقع بالنسبة للقرآن الكريم ، لذا قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[4] .

والروح الأمين هو ملك الوحي إلى الأنبياء حيث اختصه الله تعالىٰ بالسفارة في الأغلب بينه وبين من اصطفاهم من خلقه بالنبوة والرسالة وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم أحوال مجيئه إليه بالوحي في أحاديث عديدة منها علىٰ سبيل المثال :

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو

---

(١) فتح الباري ١٢/٣٦٦ .
(٢) سورة الشورىٰ ، آية (٥١) .
(٣) سورة النجم ، آية (٤ـ١٤) .
(٤) سورة الشعراء ، آية (١٩٢ـ١٩٥) .

أشدّه علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول)[١] .

وهٰذا ما شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله : (والنبي صلى الله عليه وسلم بُدىء بالرؤيا الصادقة فإن رؤيا الأنبياء وحي معصوم كما قال ابن عباس وعبيد بن عمير وغيرهما . . . ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم نقل من درجة إلىٰ درجة ثم بعد هٰذا جاءه الملك فخاطبه بالكلام فأحيانا يأتيه في الباطن فيكلمه ، وأحيانا يتمثل له في صورة رجل فيكلمه ، ثم عرج به إلىٰ ربه ليلة الإسراء)[٢] .

وقوله عرج به إلىٰ ربه إشارة إلىٰ ما قيل من مخاطبة الله تعالىٰ له كفاحا[٣] ، أو يريد ما هو أعم من ذلك وهو سماع وحي الله تعالىٰ وكلامه من وراء حجاب كما دلت عليه نصوص عديدة[٤] .

وقد أطال الحافظ ابن حجر النفس في شرحه لأحاديث كتاب التعبير من الجامع الصحيح ، ونقل نصوص العلماء في أنواع الوحي ودرجات الأنبياء فيه ، وأحوال الوحي عموما ، وما يدخل في صفات حامل الوحي وغير ذلك فنحيل عليه مختصرين علىٰ ما جلبناه من النصوص في هٰذا الفصل بمباحثه الثلاثة حيث اتضح بها أن الله قادر وله الخلق والأمر يعلم عباده بواسطة وبغير واسطة . وأن من أسباب حصول العلم في نفوس العباد وقلوبهم تجرد أرواحهم من أبدانهم مع ما يمن الله تعالىٰ به عليهم من الإعداد والتسوية لتحمل العلم وتلقيه .

وأن الملائكة الكرام ذوات ناطقون خارجون عن عقول بني آدم ومخيلاتهم وأنهم مدبرون لأمر الله تعالىٰ حسب علمه وقدرته وتدبيره ومشيئته .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي الباب الثاني الحديث الثاني .
(٢) الرد على المنطقين ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، وقارن بما في الروض الأنف للسهيلي ١/ ٢٦٨ ، ٢٧٠ .
(٣) انظر زاد المعاد ١/ ٨٠ ، وبه قارن ما في المواهب اللدنية ١/ ٢٠٧ .
(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٢١٤ .

وأن لهم التصرف والتشكل والتمثل في صورة البشر علىٰ مقتضىٰ أمر الله تعالىٰ وقدره .

وأن منهم حملة علم الله ووحيه بالتوفيق والهداية والسداد والهام الخير والطاعة . وأن أعظمهم في ذلك جبريل عليه السلام الذي ينزل بالوحي علىٰ أنبياء الله يقظة أو مناما وأن الله قد ينزل غيره من الملائكة بالوحي علىٰ من شاء من رسله إذ كلهم رسله وجنوده .

وأن لكل إنسان قرينه من الملائكة والجن وأن الجن خلق من خلق الله الذين منحهم صفة التشكل والتمثل والوسوسة في النفوس والصدور ولا عصمة لأحد منهم إلا بالاستعاذة بالله تعالىٰ وأن المؤمن بالوحي المعتقد لما دل عليه الكتاب والسنة ينتفع بدلائل نصوصهما في هٰذه المباحث ، وأن غير المؤمن بالوحي أصلا أو بالكتاب والسنة خاصة لا يفيد معه كثيرا تلك الشروح والأمثلة الكثيرة التي ساقها هٰذين الإمامين ـ الغزالي وابن تيمية ـ .

إذ كل منهما أطنب في الردود على المناطقة والفلاسفة ومن دون هاتين الطائفتين في الضلال وذلك الإطناب والبحث أوقع كلا منهما في نوع من إيضاح أدلة الخصم وتبسيطها وتفهيم القارىء مرادهم من صور الجدل التي عرضوها وجادلوا بها .

وكان في ذلك علىٰ ما فيه من الفائدة لفئة قليلة من العلماء ضياع جهد كبير منهما وخلط ظاهر بين الحقائق التي دل عليها العلم النافع الصحيح من كتاب وسنة وعقل صريح وأمور أخرىٰ هي من تجارب الناس ونتاج أفكارهم وثمار عقولهم المدنسة بالكفر والتمسك بالمحسوسات مع الخوض في المغيبات التي لا تدرك أو تعرف بتلك المحسوسات القاصرة .

وإن الباحث وهو يسجل ذلك ليدرك أن جهدهما ذلك إنما كان مقصدهما من ورائه إيضاح دلائل الكتاب والسنة وإبطال كل رأي أو معتقد يخالفهما . وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية لقوة ارتباطه بالوحي ، وذوده عن حياضه وتفهمه

لجداله لخصومه في ذلك سبق ظاهر لا يخفىٰ على المتفهم لتسلسل أفكاره علىٰ حسن بلاء الإمام الغزالي في ذلك لمن تمعن مقاصده وتدبر عباراته ومحترزاته . والله أعلم .

وبالله التوفيق والهداية . وبهٰذه الخلاصة يختتم هٰذا الفصل الذي استعرضنا فيه الوحي وطرقه لنصله بفصل نتحدث فيه عن صفات الأنبياء الذين يوحىٰ إليهم لما في ذلك من الترابط الظاهر .

* * *

الفصل الثالث

صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي

تقديم :

تناولنا بالبحث والدراسة فيما مضى النبوة والرسالة وشرحنا مفهوم كل منهما وحقيقة النبوة وأنها هبة ربانية لا مجال للعقل والفكر وقوة الحدس والرياضة فيها ، وأوضحنا أنها ليست صفة ذات للنبي وإنما هي عبارة عما كان به النبي نبيا وذلك بالوحي إليه بعد إعداد الله تعالىٰ له إعدادا يتناسب وعظم المسئولية وخطر الأمانة ، وبذلك نعلم أن الوحي هو لب النبوة وحقيقتها . وقد تبين أن عقل النبي وفكرة وقوة نفسه وتجاربه معزولة عن الوحي بحيث لا يستخدم منها إلا ما هيأه الله تعالىٰ كأسباب لابد منها لتحمل نصوص الوحي وحفظه وتفهم مضامينه وتبليغها لمن كانت النبوة موجهة إليهم علىٰ مقتضىٰ أمر الله وقدره .

وإن الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تضمن وصف الله تبارك وتعالىٰ لهٰذه الكوكبة من المصطفين الأخيار بصفات عديدة تدل علىٰ رفعة الموصوفين عند الله تعالىٰ وشرف مكانتهم وعلو منزلتهم وقربهم من الله وحبهم له تبارك وتعالىٰ وحب المولىٰ جل جلاله لهم ، الأمر الذي يقتضي أن الله تعالىٰ رباهم علىٰ عينه واصطنعهم لنفسه وكملهم بالعلم والأمانة وأدبهم بالأدب الرباني وزكاهم بالخلق الإيماني .

فكانوا علىٰ ذلك مولودين علىٰ فطرة الله التامة التي لا تتبدل ولا تتغير بل تنمو وتزكو وتطهر وتظهر من الصغر إلى الكهولة والشيخوخة والكبر[١] .

وهٰكذا عرف الأنبياء بين أقوامهم بالإيمان والأمانة والصدق والديانة والقوة في تبليغ أمر الله وشرعه مع العقل التام والفطنة النادرة ، حتىٰ صار من المستحيل عند الناس في حقهم الكذب أو الكفر والخيانة أو الجحود والكتمان أو الغفلة والبلادة مع كثرتهم واستقرار بشريتهم وجواز الأعراض والأمراض عليهم بما لا يعد منفراً منهم ولا مقعدا لهم عن أداء مهمتهم[٢] .

تلك أهم صفات الأنبياء الضرورية عقلا وشرعا في أداء الوحي وتلقيه والقوة في العمل به والدعوة إليه ، فبها وأمثالها تميزوا عن غيرهم وإن شابهوا بني آدم في البشرية والصورة الخلقية .

وإن الإمام الغزالي يتحدث عن صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بصفة عامة ويشرح ما امتازوا به عن غيرهم من أعلام البشر وكملة بني آدم حيث تناول سلامة فطرتهم وطهارة نشأتهم ونظافة سلوكهم وقوة عقولهم وأبدانهم وسعة صدورهم ونقاوة قلوبهم وحبهم للخير وحرصهم علىٰ هداية الخلق ودوامهم علىٰ طاعة الرب مع التواضع الجم والجد في التبليغ والسعي إلىٰ هداية الناس شفقة بهم ورحمة وأداء للأمانة : (فنفوس الأنبياء عليهم السلام تميزت عن نفوس الناس بعقل هاد مهدي هو فوق العقول كلها بالفضيلة الربانية المدبرة لها والمالكة عليها والمتصرفة فيها . . فجميع حركات النبي معجزات للإنسان ، فليس إنسان يتحرك مثل حركته الفكرية والقولية والفعلية ـ بل ـ تميز النبي عن الناس بعقله المناسب للعقول المفارقة والعقل الأول ـ وكذلك تميز بنفسه المشاكلة لنفوس السموات والنفس الفلكية ، وكذلك تميز بطبعه ومزاجه المستعد لقبول مثل هٰذا العقل والنفس بالفعل)[٣] .

---

(١) انظر شرح أم البراهين ٤٩ وما بعدها .

(٢) انظر نهاية الإقدام ٤٦٢ـ٤٦٤ .

(٣) معارج القدس ١٣٢ .

فالناس علىٰ هـٰذا متفاوتون في قوة النفوس والعقول : (وكذلك جميع القوىٰ والصفات ، ومن أنكر تفاوت الناس في هـٰذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل ، ومن ظن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم ـ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية ، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ، ولما انقسموا إلىٰ بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم ، وإلىٰ ذكي يفهم بأدنىٰ رمز وإشارة وإلىٰ كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ ﴾[1] .

وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم من بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام . . .)[2] .

وبناء علىٰ تفاوت النفوس ومراتب العقول فإن منها ما تعترضه آفات وعلل تفسده أو تعوقه عن الاستعمال أو تمنعه من الاستفادة والانتفاع ولم يسلم من ذلك إلا نفوس الأنبياء فإنها تبقىٰ على الصحة الأصلية بلا مرض أو فساد فطرة ، (والنفوس الصحيحة هي النفوس النبوية القابلة للوحي والتأييد القادرة علىٰ إظهار المعجزة والتصرف في عالم الكون والفساد ، فإن تلك النفوس باقية على الصحة الأصلية ، وما تغيرت أمزجتها بفساد الأمراض وعلل الأعراض ، فصار الأنبياء أطباء النفوس ودعاة الخلق إلىٰ صحة الفطرة)[3] .

(فكما لا يتصور في سنة الفطرة أن يكون من نطفة كل حيـــوان إنسان ، كذلك لا يتصـــور في الفطرة أن يكون من نطفة كل إنسان نبي ، الله يخلق ما يشاء ويجتبـــي ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾[4] .

---

(١) سورة النور ، آية (٣٥) .
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٨٣ ، ٨٤ .
(٣) الرسالة اللدنية ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٤) سورة الحج ، آية (٧٥) .

فهو المختار في طبعه ومزاجه المصطفىٰ بنفسه وعقله لا يشاركه فيها أحد من الناس .

ومن وجه آخر : فالنبي إذا شارك الناس في البشرية والإنسانية من حيث الصورة فقد باينهم من حيث المعنىٰ ، إذ بشريته فوق بشرية الناس ، لاستعداد بشريته لقبول الوحي . ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[1] ، أشار إلىٰ طرف المشابهة من حيث الصورة ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أشار إلىٰ طرف المباينة من حيث المعنى)[2] .

فأصل المباينة عند الإمام الغزالي بين النبي في الصفات وغيرها هو (أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره)[3] .

وبيان هٰذه المفارقة في الصفات يأتي به الإمام الغزالي في سياق الاستدلال به علىٰ أن الأمور الغيبية التي جاءت النسبة فيها في النصوص متفاوتة لا يعلم حقيقة ذلك التفاوت إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[4] إذ لهم أنواع من الخواص يختصون بها :

أحدهما : أن ـ النبي ـ يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف .

والثاني : أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالىٰ .

والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمىٰ حتىٰ يدرك بها المبصرات .

---

(١) سورة الكهف ، آية (١١٠) .

(٢) معارج القدس ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ١٨٢ .

(٤) انظر السابق .

والرابع : أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرىٰ ما فيه من الغيب ، فهٰذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلىٰ أقسام .

فتعيين قسم واحد أو طريق معين منها : (ليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف علىٰ ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به . . وإنما المقصود مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها)[١] .

وإذا كانت تلك الخصائص والصفات السالفة الذكر من الأمور التي تفضل الله بها على الأنبياء ولا كسب لهم فيها وإنما هي من تعليم الله تعالىٰ وتكميله لهم فإن الإمام الغزالي يضيف لنا في النصوص التالية من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جملة أخرىٰ لا يمكن اكتساب الكثير منها ولا تعقل النبوة إلا بها ، وبعضها وإن كان يدخله الاكتساب والتخلق فإن الأنبياء فاقوا فيها جميع العقلاء والعظماء والمفكرين والمصلحين مما دل علىٰ أنها كانت من الأمور الفارقه لهم عن الناس وذلك يعني أنها من الله تعالىٰ إذ ما عجز البشر والخلق عموما عن إدراكه وتحصيله كان ذلك برهانا علىٰ أنه من تفضل الله تعالىٰ علىٰ من يشاء من عباده[٢] .

فأمور النبوة وما يأتي من الوحي عن طريقها وإن كان العقل يتفهمه ، ويتعلمه ويستحسنه ، ويتبعه فإنه كان في غفلة عنه ابتداءً وإن شعر ببصيص منه فإنه لا يدركه علىٰ وجهه الصحيح ، ولا يدرك له علة ولا يفقه له منفعة أو مضرة وعليه فلابد أن يتلقاه من جهة الله تعالىٰ بواسطة من يبلغه عن الله تعالىٰ بأمانة تامة وشفقة خالصة وعند ذلك يسلم العقل لما جاء به الشرع ويقتنع بأن من جاء بهٰذه الأمور العظيمة من العلم والعمل لابد أن يكون متحليا بصفات عظيمة جليلة[٣] .

---

(١) السابق١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) انظر المنقذ ٧٢ .

(٣) انظر الرسالة اللدنية ١٠٤ـ١٠٨ .

يقول الإمام الغزالي : (الأصل الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم أفاض إلى الخلق ما أوحي إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم ، وأنه ما كتم شيئا من الوحي وأخفاه وطواه عن الخلق ، فإنه لم يبعث إلا لذلك ، ولذا كان رحمة للعالمين ، فلم يكن متهما فيه ، وعرف ذلك علما ضروريا من قرائن أحواله في حرصه علىٰ إصلاح الخلق ، وشغفه بإرشادهم إلىٰ صلاح معاشهم ومعادهم ، فما ترك شيئا مما يقرب الخلق إلى الجنة ورضاء الخالق إلا دلهم عليه وأمرهم به وحثهم عليه .

ولا شيئا مما يقربهم إلى النار وإلىٰ سخط الله سبحانه وتعالىٰ إلا حذرهم منه ونهاهم عنه ، وذلك في العلم والعمل جميعا)[1] .

ويشرح الإمام الغزالي بعض صفات الأنبياء منطلقا من كون النبوة مرتبة فوق مرتبة الإنسانية وأن خواصها والعمل بموجبها من لوازمها : (علىٰ أنها أحوال عرضية وأعراض طارئة على النوعية بنوع استيجاب واستحقاق من كمال تركيب المزاج ، وحسن الصورة ، وتمام الاعتدال ، وطهارة النشو والتربة ، وطيب الأعراق ، ومكارم الأخلاق ، والسمت الصالح ، والأناة والوقار ولين الجانب ، وخفض الجناح ، والرحمة والرأفة بالأولياء ، والشدة والبأس على الأعداء ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والصون عن جميع الرذائل ، والتحلي بأنواع الفضائل ، وزكاة العرض عن جميع الدنيات ، والعفو عمن ظلمه والإحسان إلىٰ من أساء إليه ، وصلة الرحم ، وحفظ الغيب ، وحسن الجوار ، وإعانة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وحب المعروف ، وبغض المنكر ، وغير ذلك : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[2] في هـٰذا العالم .

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[3] في ذلك العالم .

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام ٩٨ .
(٢) سورة النجم ، آية (٢) .
(٣) سورة النجم ، آية (١٧) .

تعنو لنفسه نفوس العالمين طوعا وكرها ، وهو غير متكبر ولا جبار ولا فظ ولا غليظ . يهاب إذا سكت ولا يعاب إذا نطق ، لطيف الشمائل إذا تحرك وسكن ، قد نهض باحتمال أعباء ما حمل من الرسالة فأداها ، وأفاض رحمته على العالمين فوفاها ، صلى الله عليه وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين)[1] .

ويُكفِّر الإمام الغزالي الفلاسفة الإلهيين الذين قالوا بأن الأنبياء خاطبوا الجمهور بما فيه صلاحهم بما لا حقيقة له وأنه : (جاز للرسول أن يفهمهم ذلك وليس بكاذب من أصلح غيره ، فقال ما فيه صلاحه وإن لم يكن كما قاله ـ ، وهٰذا القول باطل قطعا لأنه تصريح بالتكذيب ، ثم طلب عذرا في أنه لم يكذب ويجب إجلال منصب النبوة عن هٰذه الرذيلة ، ففي الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب)[2] .

بهٰذا العرض نكون قد اطلعنا علىٰ أهم نصوص الإمام الغزالي التي عرض فيها لصفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن خلالها تتجلىٰ لنا الأمور الآتية :

أـ أن الإمام الغزالي لا يشتغل في كتبه بتصنيف صفات الأنبياء كما فعله كثير من المتأخرين[3] ، وإنما يسردها سردا وينوع العبارات في التعبير عنها . وقد نفهم من تكراره لبعض الصفات أنه يعطيها مزيد عناية واهتمام ، فبدلا من أن يقول إنه يجب في حق الأنبياء الصفات الآتية :

الصدق والأمانة والتبليغ والعقل والفطانة ، ويستحيل عليهم أضدادها من الكذب والخيانة والكتمان والغفلة والبلادة أو يجوز عليهم الأعراض البشرية التي لا تنفر الناس منهم ـ وأنهم كالبشر في سائر الاحتياجات والضرورات ـ لا يصنف مثل هٰذا التصنيف وإنما يذكر الصفة التي يريد أن يؤكد عليها في

---

(١) معارج القدس (١٣١ ، ١٣٢) وقارن بالإحياء ٢/ ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٢) فيصل التفرقة ٨١ ، وانظر الاقتصاد في الاعتقاد (١٢٣ـ١٢٥) .

(٣) انظر أصول الدين للبغدادي ، ١٦٧ ، ١٦٨ والدر الثمين على ابن عاشر ، ٤٠ ، ٤٤ .

عموم نصوصه أو عندما تأتي مناسبة تقتضي الإعلان عنها وبيان لزومها أو استحالة ضدها أو بيان جواز وقوعها حتىٰ يأتي على الأقسام المذكورة بأوجه مختلفة[1] ، فلو نظَّمها وتكلم على الصفات الأساسية فيها لكان له السبق في ذلك .

ب ـ لا نجد الإمام الغزالي يستدل بالكتاب والسنة علىٰ ثبوت هـٰذه الصفات التي يسردها وإن كنا ندرك أنه لا يتم له حصر مجموع ما ذكره إلا باستقراء الوحي وتتبع الأخبار المروية في سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما كانوا عليه من جميل الصفات وطيب الشمائل[2] ، وما دام العقل لا يستقل بتحصيلها والحكم بالوجوب أو الاستحالة فيها كان من حقه أن يعتمد في ذكرها وتوضيحها على الجانب العلمي فيها وهو الكتاب والسنة وذلك بإيراد الأدلة المصرحة بها والمؤكدة علىٰ لزومها للنبوة[3] .

جـ ـ ومع تنزلنا مع الإمام الغزالي وقبول قوله : (إن الاصطلاحات لا مشاحة فيها)[4] ، فإنه كان من حقه أن يتجنب المصطلحات الفلسفية في الحديث عن أمور لا تعرف إلا بالوحي وخصوصا أنه يحذر من التغلغل بالمعتقدات في المعقولات[5] . وهـٰذا التحذير نجده قد خالفه في فقرات عديدة من نصوصه السالفة[6] .

وهـٰذا المأخذ وإن كان الباحث قد يتجاوزه في مقام الحديث مع العقلانيين والفلاسفة فلا يحسن به أن يمرره والحال أن الإمام الغزالي يشرح صفات

---

(١) انظر المستصفىٰ ١/ ١٢٩ وقارنه بما في العقائد العضدية ٢/ ٢٧٨ وما بعدها .
(٢) انظر النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، للندوي ٣١ .
(٣) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٣ـ١٣٥ وجواهر القرآن ٢٥ وما بعدها وإحياء علوم الدين ٢/ ٣٢٨ وما بعدها .
(٤) الاقتصاد في الاعتقاد ١١٩ .
(٥) السابق ١٣٥ .
(٦) انظر من هـٰذا البحث .

ضرورية لمقام النبوة ولوازم أدائها علىٰ وجهها وواقع حال الأنبياء في حياتهم العلمية والنفسية والعقلية والنظرية[١] لذا لزم التنبيه علىٰ أن هـٰذا الإمام لا يكاد ينفك عن استعمال مصطلحات فلسفية وتصوير أمور ورد الوحي بها علىٰ أنها أمور عقلية صرفة وعندي أن هـٰذا إن لم يكن قصوراً فتقصير أضر بمنهج هـٰذا الإمام وجهوده حتى اتهم بمتابعة الفلاسفة وآرائهم في النبوات[٢] .

د ـ إن نصوص الإمام الغزالي السالفة في هـٰذا المبحث تبين رأيه في صفات الأنبياء وتدل علىٰ أنه يصفهم بأنهم بشر يوحىٰ إليهم وأن الله تعالىٰ هيأهم لذلك واصطفاهم ورفعهم وشرفهم حتىٰ جعل حركاتهم وسكناتهم معجزات لبني جنسهم . وهـٰذه أمور تبعده عن تقليد الفلاسفة[٣] ، وتمنع من الحكم عليه بأنه كان بأسلوبه مدخلا سهلا لمتفلسفة الصوفية[٤] ؛ ذلك أن الإمام الغزالي وإن اقتصر في خواص النبوة في معارج القدس[٥] على الخواص الثلاث التي اقتصر عليها الفلاسفة فإنه قد تبين بما أوردناه أنه لا يقتصر عليها حقيقة ، وقد يعيب الفلاسفة علىٰ ذلك المسلك في مواضع أخرى[٦] ، وإذا ثبت أنه لا يقلد آراء الفلاسفة في صفات الأنبياء وخواصهم انتفىٰ كونه سهل لغلاة فلاسفة المتصوفة ارتكاب مقام النبوة وما خاضوا فيه من محاولة اعتلائها أو الغض من مكانة من أكرموا بها[٧] .

---

(١) انظر معارج القدس ١٣١ ، ١٣٣ .

(٢) انظر مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ٦٩ والفلسفة النورانية القرآنية عند الغزالي ، رؤية نقدية لفكر الغزالي وفلسفته ، تأليف الدكتور/ زكريا بشير إمام ، ط١ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٤٠٩هـ ، ٤٥ـ٦٣ و٣٠٥ـ٣١٦ .

(٣) انظر المنقذ ٦٦ـ٨١ وقارن بمشكاة الأنوار ١٦٠ـ١٦٢ .

(٤) انظر التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ، تأليف الدكتور/ إبراهيم هلال ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ١٨٤ وما بعدها .

(٥) انظر منه ١٣٦ـ١٤١ وقارن بما في الحقيقة في نظر الغزالي ٣٧٧ وما بعدها .

(٦) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١٥٧ وقارن بما في كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء ٤٦ـ٤٩ .

(٧) انظر شرح العقيدة الأصفهانية ١٤٢ وما بعدها و١٥٦ـ١٦٤ .

وهٰكذا تبين لنا أن الإمام الغزالي لم يلتزم منهجا محددا في تصنيف صفات الأنبياء ، وإنما عرضها عرضا ونثرها نثرا حسب المناسبات التي تعن له دون تمييز بين الصفات التي اعتبرها العلماء لازمة للنبوة والرسالة وأوجبوا توفرها في كل نبي إذ لا تعقل النبوة إلا بها .

وكذلك لم يعتن ببيان خاص للصفات التي قال العلماء بأنه يستحيل وقوع نبوة معها . ومن باب أولىٰ ، القول بأنه لم يشتغل بالصفات الجائزة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقد نوهنا أنه لو سلك في تصنيفها والكلام علىٰ لوازمها ووجه وجوبها وبيان أضدادها المستحيلة وما يترتب عليها من المنافاة لمقاصد النبوة لكان له قصب السبق في ذلك المضمار ، وحيث فاته ذلك فقد عرضنا نصوصه كما أوردها وشرحنا حسب الإمكان مقاصده ، وما فهمناه من اهتمام زائد ببعض الصفات دون بعض ودلائل ذلك .

وحيث عرفنا رأي الإمام الغزالي في صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبينا ما امتاز به ، وما أخذ عليه ، وما يمكن استدراكه علىٰ منهجه ، ووجه الصواب أو عدم الدقة أو المطالبة المتوجهة عليه ـ فنواصل حديثنا عن صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لنقف علىٰ رأي شيخ الإسلام ابن تيمية فيها من خلال المبحث الثاني من هٰذا الفصل الثالث .

* * *

المبحث الثاني

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

في هٰذا المبحث نتعرف علىٰ رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ بذلك تتبين المقارنة والمقابلة وتتضح أوجه التطابق والتوافق أو التعارض والتفاوت والاختلاف .

وفي سبيل تحصيل ذلك نقول إن دراسة نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية في وصفه لصفات الأنبياء تعطي أنه هو الآخر عرض لها عرضاً مجملا حسب الأجوبة والمسائل الواردة عليه والمناسبات والموضوعات المبحوثة إلا أننا نجده في تلك المباحث التي تناول فيها صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يولي الصفات الآتية عناية خاصة من ذكر الأدلة ومناقشتها وتحليل دلائلها وربط ذلك ببيان مقاصد النبوة والرسالة وأوجه كون هٰذه الصفات من ضرورياتها أو كون أضدادها ظاهرة في منافاتها ، وهٰذه الصفات هي : الصدق في أصل ادعاء النبوة وما بعد ذلك ، واستحالة الكذب على الله تعالىٰ ممن يدعي النبوة صادقا .

وأن العلماء رحمهم الله تعالىٰ نقلوا في كتب الحديث النبوي وكتب السير والتفسير والتاريخ خصالا حميدة للأنبياء قبل نبوتهم لبيان أحوالهم الحسنة قبلها ليستدلوا من ذلك علىٰ أن من كان في عموم أحواله متمسكا بأصول الأخلاق الفاضلة من صدق وأمانة وكرم ووفاء وسخاء وتفضل ونبل وشهامة وعزة نفس وشرف أصل وطيب منشأ وطهارة مظهر ومخبر لا تزيده النبوة إلا صدقا وأمانة وقوة في الحق والخير ، وعصمة في العقل والعلم والتبليغ ذلك أن من كان متميزا علىٰ عمالقة أقرانه في ذلك قبل النبوة لا يستغرب ممن شرفه بها أن يجعل أحواله وصفاته معجزة لغيره بحيث تكون من أوضح الدلائل علىٰ صدق مدعاه

في النبوة مع إذعان من حوله من الناس بأصالته في معالي الأمور[(١)] .

فشيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ ما في نصوصه من إجمال في صفات الأنبياء وعدم التزام منهج معين في التصنيف والشرح ركز على الصفات الأساسية في النبوة حسب مفهوم العلماء السابقين له .

فالصدق والأمانة والتبليغ والعصمة فيه ، وقوة النفس والعقل والذكاء والفطانة أمور اختص الله بها من يصطفيه لرسالاته ويبعثه لهداية عباده بوحيه .

وعنده أن ذلك علىٰ شهرته وتواتره يقتضيه عدل الله ورحمته وقدرته ومشيئته وحكمته ، علاوة علىٰ ما نصبه من أدلة جعلية أراد الله تبارك وتعالىٰ بها أن تكون دليلا علىٰ صدق أنبيائه وهي كثيرة لا تدخل تحت حصر[(٢)] . علىٰ أن الناس كما يقول : (تنازعوا : هل النبوة هي مجرد صفة قائمة بنفس النبي ، كما يقوله من يقوله من أهل الكلام والفلسفة ، أو مجرد تعلق خطاب الله بالنبي ، كما يقوله من يقوله من أهل الكلام الأشعرية ونحوهم ، أو هي مجموع الأمرين كما يقوله الجمهور علىٰ ثلاثة أقوال)[(٣)] .

وكون النبي لا يأتي بما يخالف خبر الله تعالىٰ ، وأن ما جاء به مطابق للحق وصدق لا خطأ فيه ولا كذب يلحقه عمدا هو :

(معنىٰ قول من قال : هم معصومون فيما يبلغون عن الله ، لـٰكن لفظ الصادق ، وأن النبي صادق مصدوق نطق به القرآن وهو مدلول الآيات والبراهين ، ولفظ العصمة في القرآن جاء في قوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[(٤)] ، أي من أذاهم ، فمعنىٰ هـٰذا اللفظ في القرآن هو : الذي

---

(١) انظر النبوات ٣٣٨ـ٣٤٠ و٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٢) السابق ٣٦٩ـ٣٧١ وقارن بما في شرح الأصفهانية ١٣٨ ، ١٣٩ و١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) الصفدية ١/ ٢٢٥ وانظره في النبوات ٣٨٩ وقارن بأصول الدين للبغدادي ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤) سورة المائدة ، آية (٦٧) .

يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمدا ، والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولىٰ من التعبير عنها بغيرها ، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها ، وهي تنزيل من حكيم حميد ، والأمة متفقة عليها ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم ، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه ، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع ، ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجرده ، وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق ، وقد يضطرب في معناه ، وهٰذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس ، فالاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والإسلام كما قال تعالىٰ :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[1] ، ومتىٰ ذكرت ألفاظ القرآن والحديث ، وبين معناها بيانا شافيا ، فإنها تنظم جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة ، وفيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الناس وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2] ، . . . وقد يكون معصوما علىٰ لغة القرآن بمعنىٰ أن الله عصمه من الشياطين ، شياطين الإنس والجن وأن يغيروا ما بعث به ، أو يمنعوه عن تبليغه ، فلا يكتم ولا يكذب كما قال تعالىٰ :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾[3] .

فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه ، وهٰذا في معنىٰ عصمته من الناس ، فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن حتىٰ يبلغ رسالات ربه كما أمر ، فلا يكون فيها كذب ولا كتمان)[4] (فإنهم ـ أي العلماء ـ

---

(١) سورة آل عمران ، آية (١٠٣) .
(٢) سورة الحجر ، آية (٩) .
(٣) سورة الجن ، آية (٢٦ـ٢٨) .
(٤) النبوات ٣٣٣ـ٣٣٥ .

متفقون علىٰ أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالىٰ ، وهٰذا هو مقصود الرسالة ، فإن الرسول هو الذي يبلغ عن الله أمره ونهيه وخبره ، وهم معصومون في تبليغ الرسالة باتفاق المسلمين بحيث لا يجوز أن يستقر في ذلك شيء من الخطأ .

وتنازعوا هل يجوز أن يسبق علىٰ لسانه ما يستدركه الله تعالىٰ ويبينه له بحيث لا يقره على الخطأ)[١] .

ذلك أن : (الأقوال نوعان :

أقوال ثابتة عن الأنبياء ، فهي معصومة ، يجب أن يكون معناها حقا ، عرفه من عرفه وجهله من جهله ، والبحث عنها إنما هو عما أرادته الأنبياء .

والنوع الثاني : ما ليس منقولا عن الأنبياء ، فمن سواهم ليس معصوما ، فلا يقبل كلامه ولا يرد إلا بعد تصور مراده ، ومعرفة صلاحه من فساده[٢] ، وحتىٰ لو لم ننظر في أساس صدق النبي ووجوب ذلك في حقه لكفانا تواتر أخبار الأنبياء وما وصف من تطابق أحوالهم وتصديق بعضهم لبعض مع تباعد أزمانهم وأماكنهم وتوضيح ذلك : (أن الأنبياء عدد كثيرون وهم بإجماع العقلاء في غاية صفات الكمال من العقل ، والعلم ، والعدل ، والصدق ، والأخلاق الحسنة .

وكل منهم لم ير الآخر ولم يسمع منه ، لا سيما محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يكن بمكة علىٰ عهده أحد يعرف شيئا من كتب الأنبياء البتة ، وكل منهم يخبر عما رأىٰ وسمع أخبارا يصدق بعضها بعضا . فلو لم تثبت عصمة الأنبياء وصدقهم ، بل كان المخبر بمثل هٰذا مجهولا ، لوجب تواتر جنس ما رأوه . .)[٣] ، يعني فكيف وقد ثبتت عصمتهم .

---

(١) منهاج السنة النبوية ١/ ٤٧١ .

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٤/ ١٩١ .

(٣) الرد على المنطقيين ٤٩٩ .

وهنا يبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية في مناقشة مجموعة من الأسئلة بعضها طرح عليه ، وبعضها الآخر مما يدور بين العلماء ويختلفون فيه من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيقول : (وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع ، هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع ؟ ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر ، أو من بعضها ، أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها ؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط ؟

وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا ؟)[1] ، ثم قال في أجوبة له علىٰ هـٰذه التساؤلات :

(فإن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف . . . وعامة ما ينقل عن جمهور العلماء أنهم غير معصومين عن الإقرار على الصغائر ولا يُقَرّون عليها ولا يقولون إنها لا تقع بحال . . .)[2] .

(والله تعالىٰ لم يذكر في القرآن شيئا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار)[3] .

ثم استدل علىٰ ذلك بما ورد في كتاب الله تعالىٰ عن آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وداوود عليهم وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام إلىٰ أن قال : (وأما يوسف الصديق عليه السلام ـ فلم يذكر الله عنه ذنبا فلهـٰذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار)[4] .

وأما ذو النون : (فكانت حاله بعد قوله : ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[5] . أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان ، والاعتبار

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩٣ .
(٢) نفسه ٤/ ٣١٩ ، ٣٢٠ .
(٣) مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩٦ـ٢٩٩ وانظره في ١٥/ ٥١ و١٤٨ وما بعدها .
(٤) نفسه .
(٥) سورة الأنبياء ، آية (٨٧) .

بكمال النهاية لا بما جرىٰ في البداية ، والأعمال بخواتيمها)[1] .

(وبهٰذا يظهر جواب شبهة من يقول : إن الله لا يبعث نبيا إلا من كان معصوما قبل النبوة . كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم ، وكذلك من قال : إنه لا يبعث نبيا إلا من كان مؤمنا قبل النبوة ، فإن هٰؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصا وإن تاب التائب منها ، وهٰذا منشأ غلطهم ، من ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصا فهو غالط غلطا عظيما ، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلا . . والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ، ويسابقون إليها ، لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك)[2] .

فالآثار الواردة عن السلف مصرحة بأن الله تعالىٰ يبتلي عبده بالذنب فيتوب العبد منه توبة نصوحاً يرفعه الله بها أعظم مما كان ولا مخرج للأنبياء من ذلك علىٰ مقتضىٰ نصوص الوحي المعصوم ، ومن تأول النصوص الواردة في ذلك تأويلا شابه به تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لم ينتفع بالعصمة المتفق عليها ولم تفده العصمة التي يدعيها لو كانت ثابتة[3] .

وتوضيح ذلك من كلامه قوله : (ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع ، وهي العصمة في التبليغ لم ينتفعوا بها . . والعصمة التي كانوا ادعوها لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها . . . إذ الواجب عليهم تصديق الأنبياء وطاعتهم وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ الآية[4] ، . . . (والله تعالىٰ خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا ثم علمه فنقله من

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٠/٢٩٩ .
(٢) نفسه ٣٠٩ .
(٣) انظر مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩٣ ، ٢٩٤ وقارن بما في ٣١٣ ، ٣١٤ .
(٤) نفسه ٢٩٥ والآية (٥٤) النور .

حال النقص إلىٰ حال الكمال ، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال كماله ، ـ وقد تبين ـ أن يونس صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم أكمل الأحوال . .)[١] .

وأما في الأحوال التي قبل أحوال الكمال الذي يتم بنقل الله تعالىٰ لعبده فلا قدح فيه ولا نقص يلحق صاحبه ، وإلا لما قال الله تعالىٰ حكاية عن قوم شعيب لشعيب عليه السلام : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[٢] ، الآية وما في معناها .

(والتحقيق : عند شيخ الإسلام ابن تيمية : أن الله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتىٰ في النسب ، كما في حديث هرقل[٣] . ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان علىٰ مثل دينهم ، إذا كان معروفا بالصدق والأمانة ، وفعل ما يعرفون وجوبه وترك ما يعرفون قبحه . قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٤] .

فلم يكن هٰؤلاء مستوجبين العذاب ، وليس فيها ما ينفر عن القبول منهم ، ولهٰذا لم يذكره أحد من المشركين قادحا)[٥] ، ثم إن العلماء : (قد اتفقوا علىٰ جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرائع ، وإن لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلا عن أن تقر به) ذلك أن التوحيد والمعاد والنبوات إنما عرفتها الأنبياء بالوحي : (وما ذكر أنه صلى الله عليه وسلم بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي ، فإنه سيد ولد آدم والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم

---

(١) نفسه ٢٩٩ .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٨) .

(٣) انظره في صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة .

(٤) سورة الإسراء ، آية (١٥) .

(٥) مجموع الفتاوىٰ ١٥/ ٣٠ .

يكون أكمل من غيره ، من جهة تأييد الله له بالعلم والهدىٰ ، وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام)[١] .

(واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة علىٰ طرفي نقيض ، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه :

قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب ، حتىٰ حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ، ومغفرة الله لهم ، ورفع درجاتهم بذلك .

وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن علىٰ براءتهم منه ، وأضافوا إليهم ذنوبا وعيوبا نزههم الله عنها .

وهٰؤلاء مخالفون للقرآن وهٰؤلاء مخالفون للقرآن . ومن اتبع القرآن علىٰ ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط ، مهتديا إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)[٢] .

(والقول الذي عليه جمهور الناس ـ وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف ـ إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقا)[٣] . . . وبيان القول في ذلك :

(أن يقال : إن الله سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ ما تقدم طرف منه ـ لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر توبته منه ، ولهٰذا كان الناس في عصمة الأنبياء علىٰ قولين :

إما أن يقولوا بالعصمة من فعلها ، وإما أن يقولوا بالعصمة من الإقرار عليها . لاسيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة فإن الأمة متفقة علىٰ أن ذلك معصوم

---

(١) نفسه ٣٠ ، ٣١ .
(٢) السابق ١٥٠ .
(٣) السابق ١٠/ ٢٩٣ .

أن يقر فيه علىٰ خطأ ، فإن ذلك يناقض مقصود الرسالة ، ومدلول المعجزة)[١] .

(وهٰذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة ، فإن النبي هو المنبأ عن الله ، والرسول هو الذي أرسله الله تعالىٰ ، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين ـ ولهٰذا وجب الإيمان بكل ما أتوه كما قال تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾[٢] الآية .

وقال : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[٣] ، وقال : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية[٤] ، ولذا فمقتضى العصمة أنه : (لا يجوز أن يصدر منه خبران متناقضان في الحقيقة ، ولا أمران متناقضان في الحقيقة إلا وأحدهما ناسخ والآخر منسوخ . . .)[٥] .

ويدخل في ذلك علاوة على القرآن الكريم : (الحديث النبوي ـ الذي ـ هو عند الإطلاق ينصرف إلىٰ ما حدث به عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد النبوة : من قوله وفعله وإقراره ، فإن سنته ثبتت من هٰذه الوجوه الثلاثة ، فما قاله إن كان خبرا وجب تصديقه به . وإن كان تشريعا إيجابا أو تحريما أو إباحة وجب اتباعه فيه .

فإن الآيات الدالة علىٰ نبوة الأنبياء دلت علىٰ أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل ، فلا يكون خبرهم إلا حقا ، وهٰذا معنى النبوة ، وهو

---

(١) السابق ، ١٥ / ١٤٧ ، ١٤٨ وقارن بما في الصفدية ١/ ٢٥٣ وما بعدها .
(٢) سورة البقرة ، آية (١٣٦) .
(٣) سورة البقرة ، آية (١٧٧) .
(٤) سورة البقرة ، آية (٢٨٥) . مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩٠ وانظر ٣٥/ ١٢٠ـ١٢٣ .
(٥) السابق ٤/ ١٦٨ .

يتضمن أن الله ينبئه بالغيب ، وأنه ينبىء الناس بالغيب ، والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالة ربه)[١] .

وبهٰذه النصوص وما صاحبها من بيان نكون قد اطلعنا علىٰ رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ولبابه باختصار هو :

أ ـ يرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية أن الواجب في الأمور المتعلقة بالنبوات مما يجب أو يستحيل أو يجوز للأنبياء ـ التزام ألفاظ القرآن والحديث وبيان المراد منها دون ما أحدثه الناس من عبارات . . .[٢] .

ب ـ وعند الرجوع للكتاب والسنة وجدنا أن الله تبارك وتعالىٰ يصطفي للنبوة والرسالة من يشاء من عباده في بيئات كافرة مشركة في الغالب وسنته التي أخبر عنها في كتابه وعلىٰ لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهي المشاهدة في الواقع أنه يخلق عباده حنفاء على الفطرة ويخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، والأنبياء في الأصل داخلون في ذلك ولا مخرج لهم من نص صحيح صريح ولٰكنهم بتأييد الله وتوفيقه يكونون أكمل أهل زمانهم ومكانهم .

جـ ـ ثم إن الله تعالىٰ يربيهم وينقلهم من حال النقص إلىٰ أحوال الكمال حتىٰ يكون الواحد منهم في نهاية حاله وخاتمة أمره في غاية الرفعة والكمال ، وهم في سبيل الوصول إلىٰ تلك الغاية وبلوغ تلك الخاتمة لا نقص عليهم ولا عيب يلحقهم إذا ذكر الله عنهم توبة من ذنب أو استغفاراً من خطيئة إذ هم في منتهى العبودية لله تعالىٰ وأعظم مظاهر العبودية التوبة والإنابة والاعتراف بالذنب وإعلان التقصير وبذلك يزداد العبد قربا من الله تعالىٰ وتدوم له المودة والمحبة . وعليه فمن قال إن الأنبياء في مقام القدوة والأسوة وأن الذنوب

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٨/ ٦ ، ٧ وقارن بما في النبوات ٣٣٦ ، ٣٣٧ . والجواب الصحيح ٢/ ٨٣ ، ٨٤ و٣١٦ .

(٢) ا السابق .

توجب التنفير منهم لأنها تنافي الكمال أو أن الذنوب ممن عظمت عليه النعمة أقبح أو غير ذلك من الحجج العقلية التي لا يعارض بها النص أو توجب تأويله تأويلا يعتبر من باب تحريف الكلم عن مواضعه ويلحق مرتكبه بطوائف من أهل الزيغ والضلال الذين أرادوا الإيمان بالأنبياء ، فخرجوا إلى الكفر والزندقة ، وطلبوا تصديق الأنبياء فكذبوهم . فلم يفدهم ما وصلوا إليه لخروجهم عما طلب منهم فدعواه صحيحة في الأصل ، وماذكرناه من قبح صنيعه أيضاً صحيح ، (ومن المعلوم أن التأسي بالأنبياء إنما هو مشروع فيما أُقروا عليه دون ما نُهوا عنه ورجعوا عنه)[1] ، والتأسي بالأنبياء مشروع في الأفعال ، ومن الأفعال ما هو ذنوب يتاب منها أو يرجع عنها ، أو تنسخ[2] .

د ـ وأما العصمة في التبليغ فهي محل اتفاق المسلمين وإجماعهم بحيث لا يجوِّزون أن يقع في تلك المهمة كذب أو خطأ أو تعمد لما ينافيها من كتمان أو غفلة أو بلادة أو تسلط من الشيطان على النبي فيما يتعلق بالوحي وتبليغه عدا أن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[3] .

فهٰذا واضح في أنه وقع في حال التلاوة ما يستدركه الله تعالىٰ على النبي من إلقاء الشيطان لما ذكر في الآيات من الحكم الإلهية .

وظاهر أنه كان أمرا مسموعا من النبي صلى الله عليه وسلم لا في نفسه فقط ، ولا علىٰ ألسنة الكفار فقط .

ولا داعي أيضا لهٰذه الأقوال لوضوح النص القرآني في ذلك مع بيانه للحكم في ذلك وعدم إقرار ما ألقاه الشيطان وإحكام الله تعالىٰ لآياته وهو

---

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩٣ وقارن بما في ١٥/ ١٤٨ .
(٢) نفسه .
(٣) سورة الحج ، آية (٥٢ـ٥٣) .

العليم الحكيم بل : (إن هـٰذا النوع أدل علىٰ صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده عن الهوىٰ من ذلك النوع ، فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك ، فإذا قال عن نفسه إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ وأن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق . . فبيان الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان هو أدل علىٰ تحريه للصدق وبراءته من الكذب ، وهـٰذا هو المقصود بالرسالة فإنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم تسليما . ولهـٰذا كان تكذيبه كفرا محضا بلا ريب)[1] .

هـ - ويرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية أن الفلاسفة ومن نحا نحوهم في صفات الأنبياء وما اختصهم الله تعالىٰ به من الخصائص والفضائل قد أصابوا في أشياء وأخطأوا في أساسيات كانت سببا لتكفيرهم لما كذبوا به من الحق ، ولمساواتهم للأنبياء بمن دونهم من الناس في أصل النبوة والعلم والعقل والقوى الإدراكية في السمع والبصر والنفس القدسية ومما أصابوا فيه من الحق : (ما وصفوا به الأنبياء من أن لهم خصائص في العلم والقدرة والسمع والبصر امتازوا بها - فهـٰذا - حق ، لـٰكن دعواهم أن منتهىٰ خصائصهم ما ذكروه باطل .

فنحن لا ننكر أن الله تعالىٰ يخص النبي بقوة قدسية يعلم بها ما لا يعلم غيره ، ولا ننكر أيضا ما يمثله الله له إما في اليقظة وإما في المنام من الأمور الصادقة المطابقة للحقائق ، ولا ننكر أيضاً أن الله قد يجعل في النفوس قوىٰ يحصل بها تأثير في الوجود)[2] .

تلك كانت أهم معطيات نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية المبينة لرأيه في صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩١ ، ٢٩٢ وقارن بما في منهاج السنة النبوية ١/ ٤٧١ .

(٢) الصفدية ١/ ١٣٤ ، ١٣٥ ويعتبر بما في ٢٢٨ وينظر ٧ و٢/ ٢٢٨ وما بعدها .

وقد تبين أنه ينطلق فيها من الفهم الذاتي النصي للوحي المنزل دون تقليد لأحد أو تسليم بمنهج فيه تبديل للنصوص أو تأويل لها بما لا دليل عليه منها[1] .

ولا يخفىٰ أن تمسكه بهـٰذا المنهج الذي سلكه في بيان أحوال الأنبياء قبل النبوة وعزله ـنوعا ما ـ عن أحوالهم بعدها أكسب آراءه جرأة تمكن بها من إظهار فهمه لآيات عديدة من كتاب الله تعالىٰ .

ولئن كان من العلماء من يخالفه في تجويز الذنوب المتاب منها على الأنبياء فإنه تمسك فيما ذهب إليه بواضح الكتاب والسنة في ذلك وفي القول بوقوع ما استدركه الله تعالىٰ على الأنبياء من إلقاء الشيطان مع اعتصامه بأن مقاصد الرسالة ودلائل المعجزة محمية مصانة ولا ضير على الأنبياء وهم بشر فيما دون ذلك إذ أعلم الله عنهم به .

وختاما لا يسع الباحث إلا أن يحكم بأن آراءه هنا كانت صائبة وراجحة علىٰ من خالفه مع ملاحظة ما أسلفناه عن منهجيته في التكرار والاستطراد والردود الجانبية والاحترازات من أمور متوهمة أو لم يتقدم لها ذكر ، وهـٰذه أمور مشوشة للخاطر وتضيف عناء للباحث حتىٰ يظل غير واثق من استكمال المعلومة حتىٰ يقف علىٰ محتوى النصوص الأخرى المشار إليها أو المتفرعة عنها . ومع وضوح هـٰذه الملاحظة فإن هـٰذا حال كل عالم موسوعي ترد عليه الأسئلة من كل وجه ويحرص علىٰ بيان الحق في كل وجه . فلنختم هـٰذا التوجه ونتوجه بإذن الله تعالىٰ إلى المبحث الثالث من هـٰذا الفصل الثالث وهو :

* * *

(١) انظر منهاج السنة النبوية ١/ ٤٧١ وما بعدها .

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

رأينا في المبحثين السابقين أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بشر يخرجهم الله تعالىٰ من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، وينشئهم جل وعلا في بيئاتهم على الفطرة السليمة ، ويربِّيهم علىٰ عينه ، ويعُدهم لما خلقهم لأجله من تحمل أمانة دعوة الخلق إلى التوحيد والعمل الصالح ، ولما كانوا بشرا فإنهم في العموم يتصفون بصفات البشر ، فمنهم من أوتي كمالا في القوة والرجولة ، ومنهم من أعطي شطر الحسن والجمال في الصورة الخلقية . وكذلك فإنهم متفاوتون في الصفات المكتسبة من قوة التحمل والصبر ، وسرعة الغضب والبطش بالفعل والعلم والعمل ، إلا أنهم في اختلافهم ذلك وتفاوتهم في الدرجات علىٰ أكمل وصف للبشرية .

ولا يلحقهم نقص من إتيانهم لما يأتيه البشر من الأكل والشرب والنكاح والرغبة والرهبة والكسب والسعي والتجارة والعمل بالأجرة وغير ذلك مما زاولوه ؛ ليكونوا بذلك قدوة صالحة لغيرهم من البشر ، وحجة دامغة لمن أنكر بشريتهم أو أنكر رسالتهم ونبوتهم تمسكا بالتقليد الأعمىٰ وجحودا أن يكون رسول من البشر : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1] .

هٰذا بالإضافة إلىٰ ما يواجَهون به من الأذىٰ وما يصيبهم من أنواع الأمراض والابتلاءات التي تثير الحزن والأسىٰ والبكاء والألم فهم في ذلك كله عباد لله خاضعون لقضائه وقدره شاكرون لآلائه وجلبه ودفعه معترفون بالتقصير عن الوفاء بحمده جل جلاله .

---

(١) سورة الأنعام ، آية (٩) .

وبما أن هٰذه الأعراض لا تؤثر في مهمة الرسل التي هي تلقي الوحي وتبليغه ومحاجة الخلق ومجادلتهم ووعظهم وإرشادهم فإن العلماء في ميدان بيان صفات الأنبياء يركزون على الصفات الضرورية من الناحية العقلية والشرعية لتحمل أمانة الرسالة وأدائها وما يعتبر من لوازمها(١) .

وانطلاقا من ذلك فإننا في ضوء الكتاب والسنة سوف نتناول الصفات الآتية :

ـ العقل والفطانة .

ـ الصدق .

ـ الأمانة أو العصمة .

ـ والتبليغ . وبضدها تتميز الأشياء ، إذ من الواضح أن هٰذه الصفات الواجبة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستحيل عليهم الاتصاف بأضدادها ، علىٰ ما سيتضح إن شاء الله تعالىٰ من خلال النصوص والمناقشة والبيان .

إن الأنبياء مكلفون من الله تبارك وتعالىٰ بهداية الخلق بالبيان الواضح وإقامة الحجة الدامغة ومقارعة الخصوم المستكبرين الجاحدين ، ومجادلة الضالين المضلين ، وتعليم من آمن بهم حتىٰ يتمكن من الطاعة بعد الفهم ، والإتيان بما طلبه الشارع منه علىٰ وجهه الصحيح . وواضح من الناحية العقلية أن من يتصدىٰ لهٰذه المواقف التي تكون فيها مواجهة بين الحق والباطل لابد أن يكون علىٰ مستوى الخصوم في العقل والدراية والذكاء والفطنة علاوة علىٰ علم سابق بما عليه المجادلون حتىٰ يتمكن من فهم شبههم ودفع حججهم وإبطال أدلتهم ،

---

(١) انظر النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم لأبي الحسن علي الحسني الندوي ، ط٦ ، دار القلم دمشق ١٤١٤هـ ، ٨٦ وما بعدها . وصحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ـ الأحاديث من (٣٣٥٤ ـ ٣٣٥٦) وصحيح مسلم ، كتاب المناقب أبواب فضائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والفتح الرباني ، كتاب أحاديث الأنبياء ٢٠/ ٣٥ وما بعدها .

وإذا كان العقل قاضيا بضرورة اتصاف من يتصدىٰ لهٰذه المواقف بالعقل الذكي والفطنة الثقابة فلأن يقضي بوجوب ذلك للأنبياء أولىٰ وأحرىٰ ، وخصوصا إذا علمنا من خلال أصدق سجل وأوسعه أنهم كانوا بعد الإنذار والوعظ والتخويف البليغ يقيمون الحجج العقلية علىٰ صحة ما جاؤوا به ويدحضون شبه الخصم علىٰ وجه من البداهة حتىٰ يبهت وينقطع فيؤمن أو يُسلِّم ، فيهزم في ميدان البيان فيخلي بينهم وبين الناس أو يسلك مسالك أخرىٰ كاستعمال القوة وغير ذلك من الأساليب الواضحة في استيلاء الانهزامية علىٰ عقله وفكره .

قال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) . هٰذا بعد حكاية القرآن الكريم لذلك المسلك الظاهر في قوة العقل والفطانة والبيان والاستدلال الإقناعي الذي جر به أباه وقومه إلى المحاجة التي تلزمهم وتقطع حجتهم(٣) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾(٤) .

فهٰذه الآية نص في أن الله تبارك وتعالىٰ أعطىٰ خليله إبراهيم عقلا راجحا وفطانة راشدة ، وحواره وصنيعه مع قومه فيما جاء بعد هٰذه الآية الكريمة من الآيات برهان ظاهر علىٰ ذلك(٥) .

وقال تعالىٰ في يحيىٰ عليه السلام : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ

(١) سورة البقرة ، آية (٢٥٨) .
(٢) سورة الأنعام ، آية (٨٣) . وانظر فتح الباري ٦/ ٣٩١ ، ٣٩٢ .
(٣) اقرأ الآيات من سورة الأنعام (٧٤ـ٨٣) .
(٤) سورة الأنبياء ، آية (٥١) .
(٥) الآيات (٥٢ـ٦٧) .

﴿صَبِيًّا﴾[1] . فالأنبياء وإن كان أساس دعوتهم تبليغ الوحي كما أنزل فقوة العقل من أعظم العون علىٰ ذلك ، لذا آتاهم الله تعالىٰ من رجاحة العقل وذكاء الفؤاد ما أعجز ألد العقلاء الجاحدين والخصماء الماكرين حيث يردون على المجادل بما يسكته ، ويأخذون الحجة لصدق ما جاؤوا به وبطلان غيره من ثنايا ما يورده المعارض لهم وذلك لما أيدهم الله به من الفطنة النادرة والفهم الثاقب والبيان الواضح .

ومن استعرض القرآن الكريم والسنة المطهرة بحثا عن مظاهر قوة العقل وإصابة الفطنة بالنسبة للأنبياء يجد من خلال مناظراتهم للملأ من قومهم وتفهيمهم لمن خالفهم أو وافقهم أن الله تبارك وتعالىٰ أيدهم من عنده بعقول معجزة وفطانة قوية يدركون بها مداخل الكلام ومخارجه وأوجه الحق والصواب فيه وجوانب البطلان أو الضلال .

فلا يجوز في صريح العقل ولا صحيح النقل إلا أنهم متصفون بصفة العقل والفطنة في الرخاء والشدة في السلم والحرب مع أدب في الحوار والمناظرة ، وقوة في الحجة والمجادلة ووضوح في البيان . وإلا لما قال الله تعالىٰ : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2] .

فبعزته وحكمته جعلهم حجة على الخلق بما آتاهم من الوحي والعقل والفطانة والفهم .

ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

(لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله عز وجل : قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[3] وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[4] .

---

(١) سورة مريم ، آية (١٢) . وانظر القرطبي ١١/ ٨٧ و٢٩٦ وما بعدها .

(٢) سورة النساء ، آية (١٦٥) .

(٣) سورة الصافات ، آية (٨٨ ، ٨٩) .

(٤) سورة الأنبياء ، آية (٦٣) .

والثالثة : إخباره للجبار عندما سأله عن زوجه سارة يريد اغتصابها منه : (قال : أختي) ، وبين عليه السلام مراده من ذلك لسارة بقوله لها : (يا سارة ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هـٰذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني)[1] .

قال ابن حجر : (وقد وقع في رواية هشام بن حسان المذكورة :

(إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله) ، وفي حديث ابن عباس عند أحمد : (والله إن جادل بهن إلا عن دين الله)[2] .

قال الحافظ ابن حجر ، قال ابن عقيل : (دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب علىٰ إبراهيم ، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به ليعلم صدق ما جاء به عن الله ، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه ، فكيف مع وجود الكذب منه ، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع ، وعلىٰ تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام ـ يعني إطلاق الكذب علىٰ ذلك ـ إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه ، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز ، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعا لأعظمهما ، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تذم ، فإن الكذب وإن كان قبيحا مخلا لـٰكنه قد يحسن في مواضع وهـٰذا منها)[3] .

وإذا تقرر أن العقل من الصفات الواجبة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن الصدق من الصفات الضرورية الواجب اتصافهم بها عقلا وشرعا . ذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نبئوا من الله تعالىٰ وخبره تعالىٰ صادق ومن صدقه الله تعالىٰ كان من الصادقين الذين يستحيل في خبرهم الكذب : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالىٰ : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ .
(٢) الفتح الرباني ٢٠/ ٥٠ .
(٣) فتح الباري ٦/ ٣٩٢ .
(٤) سورة النساء ، آية (١٢٢) .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[1] ، ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾[2] ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3] .

فعلىٰ هـٰذا يجب اعتقاد صدق من صدقه الصادق الذي يستحيل عليه الكذب عقلا وشرعا .

وقد صدق الله تعالىٰ أنبياءه قولا وفعلا مع ما غرسه في نفوس عباده من حب الصادق وتمييزه عن الكاذب بأمارات ودلائل وتجارب حتىٰ يكون الإقرار بصدقه من ضروريات العلم[4] .

ومن دلائل تصديق الله تعالىٰ لأنبيائه أنه مهما ابتلاهم وقدّر عليهم من أذىٰ أقوامهم بالقول والفعل يجعل العاقبة لهم بالنصر والتأييد والثبات والتمكين ، ثم تكون دائرة السوء علىٰ من خالفهم ، حتىٰ لا يهلك هالك إلا وقد علم صدقهم ، ولا يأتي لاحق إلا ووجد العبر الدالة علىٰ صدقهم[5] .

فالعاقل من الناس لا ينبغي تجويز الكذب عليه بحضرة ملك قادر عليه قدرة نسبية أدناها أن يتنصل مما نسبه إليه هـٰذا المفتري عليه إن افترىٰ عليه كذبا .

فكيف بالأنبياء الذين يعلمون أن الله تعالىٰ قادر عليهم من كل وجه ورقيب عليهم في كل حال ، فإن خشي ذلك الماثل أمام الملك أن يفتضح بين الناس بتكذيب الملك له وانتفائه مما نسبه إليه وإنزال العقوبة الدنيوية به فلأن يخشى الله الأنبياء في ذلك أولىٰ وأحرىٰ .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

(١) سورة النساء ، آية (٨٧) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (٩٥) .

(٣) سورة الأنعام ، آية (١١٥) .

(٤) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٣ـ١٢٥ .

(٥) النبوات ٢٥١ .

يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ (٢) .

وقال تعالىٰ في حق موسىٰ عليه السلام مع فرعون عليه لعنة الله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (٣) .

وقد أثنى الله تعالىٰ في كتابه علىٰ أقوام من الأنبياء بالصديقية التي هي لزوم الصدق ظاهرا وباطنا .

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ .

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ .

وقال تعالىٰ عن إسحاق ويعقوب : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (٤) .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٥) .

---

(١) سورة يونس ، آية (١٥ـ١٧) .

(٢) سورة الحاقة ، آية (٤٤ـ٤٧) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٠٤ـ١٠٦) .

(٤) الآيات من سورة مريم (٤١ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦) وانظر ابن كثير في تفسير الآيات وكونها نصا في المراد من الاستدلال بها ٣/ ١٢٣ـ١٢٥ .

(٥) سورة الأحزاب ، آية (٢١ ، ٢٢) .

إن العقل والصدق من الصفات الحميدة التي تكون غريزة في الإنسان ينميها ويكتسب لها التجارب ويوطن نفسه علىٰ لزومها والعمل علىٰ مقتضاها حتىٰ تصير له سجية وفطرة مغروسة لا يملك مخالفتها ولا الانفكاك من ربقتها)[١] .

ومع ذلك فإن ميدان العقل فيما يدركه وما يمكن تعقله ولا طاقة له فيما وراء مدركاته لذا فهو يحجز صاحبه عن الدخول في متاهات مجهولة إلا بمدخل واضح من المعلومات التي تدخل في حيز طاقته ومعلوماته .

وعليه فلابد من أصل العقل في تلقي المعلومات وحفظها وفهمها ومعرفة حدود المطلوب منها وكيفية تبليغها وإقناع الآخرين بها وهٰذا هو الذي يجب أن يتصف به الأنبياء إذ لا تعقل مهمتهم وما تشتمل عليه من مضامين إلا بذلك كما تقدمت الإشارة إليه علىٰ ضوء النصوص[٢] .

ولا يكون العقل مهما كمل في قوة الذكاء والفطنة أصلا للوحي والعلوم الغيبيـة[٣] .

وكذلك الصدق فإنه وإن كان الناس علموا فضله وما يجلب لصاحبه من الثقة به وتصديقه في أخباره وأقواله وأعماله فإنه لا يجلب لصاحبه معرفة المغيبات ولا الاطلاع على الأحكام وأسرارها والمحاسن والقبائح من الأقوال والأعمال والعادات بل إن الناس لا يميزون بين صالح الأعمال وطالحها وسيىء الأخلاق أو فضائلها ومعالي الأمور من سفاسفها إلا بتعليم الله لهم بواسطة ما أوحاه إلىٰ أنبيائه الكرام فبذلك تميزت خصال الفطرة وعرفت الأخلاق الفاضلة والعادات الحسنة وعلم شعار أهل الإيمان وتبين الكفر والفسوق والفجور وما يلحق بذلك من الرذائل والانحرافات ، وقبل ذلك : (لا فرق بينهما ، إلا أن الأول ـ بعد النبوات ـ كان شعارا للأنبياء ومن عاداتهم

---

(١) انظر روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم محمد بن حبان البستي ، المكتبة التجارية ١٤١٤هـ ، وما بعدها .

(٢) انظر إحياء علوم الدين ١/ ٧٩ـ٨٣ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/ ٤ و٨٧ وما بعدها .

واختيارهم ، وفيه تشبه بهم ، والثاني : شعار لأهل الكفر وعادة من عادات الجاهلية . ومن أوضاع الشيطان وأتباعه وتشبه بهم. . .)[1] .

وهٰذا الذي تتميز به هٰذه الهيئات والصفات يجب عقلا وشرعا أن يكون النبي فيه معصوما في التحمل متصفا بالأمانة والنصح في التبليغ ولا يجوز تجويز ضد واحدة من هٰذه لما يترتب علىٰ ذلك من هدم أساس النبوة الذي هو الوثوق التام بسلامة المصدر وصحة المعلومة .

قال الله تعالىٰ عن نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ عن هود عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ عن صالح عليه السلام : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[4] .

وقال تعالىٰ عن شعيب عليه السلام : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾[5] .

فهٰؤلاء الرسل الأمناء الناصحون المبلغون عن الله تعالىٰ وحيه كما أنزل عليهم لا يسألون علىٰ ذلك أجرا ولا يطلبون من أحد من الناس جزاء ولا شكورا علىٰ ذلك . وهٰذه أقوامهم قد كذبتهم جحودا وعنادا فأهلكهم الله وأظهر أنه لا دليل لهم على التكذيب الذي تمشدقوا به إلا الطغيان والتكبر على الحق .

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن لأبي الحسن الندوي ٩٦ .
(٢) سورة الأعراف ، آية (٦١ـ٦٢) .
(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٧ـ٦٨) .
(٤) سورة الأعراف ، آية (٧٩) .
(٥) سورة الأعراف ، آية (٩٣) .

قال الله تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٥) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٦) ، وقال تعالىٰ في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٧) .

---

(١) سورة الشعراء ، آية (١٠٥ـ١٠٩) .
(٢) سورة الشعراء ، آية (١٢٣ـ١٢٧) .
(٣) سورة الشعراء ، آية (١٤١ـ١٤٥) .
(٤) سورة الشعراء ، آية (١٦٠ـ١٦٤) .
(٥) سورة الشعراء ، آية (١٧٦ـ١٨٠) .
(٦) سورة يس ، آية (٢٠ـ٢١) .
(٧) سورة الدخان ، آية (١٨) .

فهٰذه الصفات يستوي فيها الأنبياء وهي تشمل العصمة في التحمل بمعنىٰ أنهم لا يحتاجون لبذل جهد عقلي ولا فكري من أنفسهم لضمان حفظ هٰذا الوحي ، وإنما الله تعالىٰ يتولىٰ تحفيظهم ، وتثبيته في صدورهم وبيانه لهم وعصمتهم في مهمة التبليغ بحيث لا ينسون شيئا مما أوحي إليهم مهما تقدم السن والعمر بأحدهم ومهما أصابه من أمراض وابتلاءات .

قال الله تعالىٰ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[٥] .

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام علىٰ تنوع الوحي إليهم كانوا يحفظون ما أوحي إليهم دون نقص أو زيادة سواء في ذلك في حالة تلبس الملك بأحدهم

---

(١) سورة الأعلىٰ ، آية (٦ـ٧) .

(٢) سورة القيامة ، آية (١٦ـ١٩) . وانظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما في صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي الباب (٤) وتفسير بن كثير ٤/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(٣) سورة الحاقة ، آية (٤٣ـ٤٧) .

(٤) سورة المائدة ، آية (٦٧) .

(٥) سورة يونس ، آية (١٥ـ١٧) .

بالموحىٰ إليه حالة الوحي أو تمثله له أو في الحالات الأخرى[1] .

لذا قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . . . ﴾[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم لقوم نقموا من تقسيم غنائم هوازن يوم حنين :

(ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء)[3] .

وقال عليه الصلاة والسلام : (أيأمنني الله علىٰ أهل الأرض ولا تأمنوني)[4] .

وخرج البخاري رحمه الله تعالىٰ في باب قول الله تعالىٰ :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ عن الزهري رحمه الله أنه قال :

(من الله عز وجل الرسالة وعلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ وعلينا التسليم) .

وأن معنى الآية : (وإن لم تفعل لم تبلغ ، أي بلغ كما أنزل .

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي عنها :

(من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحي فلا تصدقه ، إن الله تعالىٰ يقول : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية[5] .

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ١٨ـ٢٧ .

(٢) سورة النجم ، آية (٣ـ٥) .

(٣) صحيح البخاري ، باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع ، وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف علىٰ إيمانه .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالىٰ : ﴿وإلىٰ عاد أخاهم هودا﴾ .

(٥) وانظر ما ذكر ، فتح الباري ١٣/ ٥٠٤ وما بعدها .

وعن أنس رضي الله قال : جاء زيد بن حارثه يشكو ـ ما يكون بينه وزينب ـ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (اتق الله وأمسك عليك زوجك) .

قال أنس : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا لكتم هٰذه)[١] .

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما قال :

(كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه . فنهتني قريش ، فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب . فأمسكت عن الكتاب . فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق) .

وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : (لا أقول إلا حقا) فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول الله ؟ فقال : (إني لا أقول إلا حقا)[٢] .

وانطلاقا من كون الأنبياء يبلغون ما أنزل إليهم كما أنزل وكما أمروا سواء عندهم في ذلك أكان الأمر المنزل المبلغ يتعلق بالأمور الشخصية والعلاقات الأسرية أو موقفا معينا أو تصحيحا لاجتهاد سابق أو تصرف متميز أو إبطال لعادات جاهلية أو حالة اعتاد الناس الخوف من إظهارها حياء وخشية من الظنون والقول ، فذلك كله لا وزن له ما دام الأمر من الله . وكذلك لا أثر للغضب أو الرضا أو القرابة أو العداوة في حال تبليغ الدعوة وبيان الوحي إذ الأنبياء عليهم

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء . وانظر سنن الترمذي ، أبواب التفسير سورة الأحزاب الأحاديث (٣٤٢٤ـ٣٤٢٥) ٩ / ٥٠ ، ٥١ .

(٢) الفتح الرباني ٢٢/ ٣٠٤ ، ٣٠٥ وسنن الترمذي ، كتاب العلم ، باب في كتاب العلم الحديث (٣٦٤٦) ٤/ ٦٠ ، ٦١ .

الصلاة والسلام وإن كانوا بشرا يتأثرون بما يتأثر به بنو جنسهم فإنهم باتفاق معصومون في جانب الوحي تلقيا وتبليغا[1] .

وهـٰذا ما يقتضيه الاصطفاء الذي تفضل الله تعالىٰ به عليهم وذكره في كتابه امتنانا عليهم وتنويها بقدرهم العظيم عنده .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[5] .

والذي يعلن الله تعالىٰ علىٰ عباده في محكم كتابه أو علىٰ لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بلغه هـٰذه المنزلة العالية من الاصطفاء والاختيار بالنبوة والرسالة إنما يريد تعالىٰ أن يبين للناس أنه محل للأسوة الحسنة والقدوة الصالحة ومن كان كذلك وجب تصديقه لأنه صادق وائتمانه لأنه أمين واتباعه لأنه معصوم .

قال الله تعالىٰ مثنيا علىٰ كوكبه من الأنبياء بما آتاهم من الهداية والعلم

---

(١) انظر شرح الفقه الأكبر ٩٣ ، ٩٤ وخلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٤٠٤ هـ ، ٧٧ وما بعدها ومجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٩٢ وفتح الباري ١٣/ ٥٠٧ .

(٢) سورة ص ، آية (٤٥ـ٤٧) .

(٣) سورة البقرة ، آية (١٣٠) .

(٤) سورة آل عمران ، آية (٣٣) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (١٤٤) .

والحجة التي يرتفع بها المحاج علىٰ قومه لما فيها من قوة العقل والبيان والعلم النافع ذاكرا أسماءهم وأنهم ذرية بعضها من بعض كلهم من الصالحين المفضلين على العالمين : ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾(1) .

ولما كانوا عند الله تعالىٰ بهـٰذه المنزلة أمر خاتمهم بالاقتداء بهم في هديهم وقال موجبا اتباعه علىٰ عباده :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(2) .

وقال لأقوام ادعوا محبته صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(3) .

ومعلوم أن هـٰذا الاتباع المشروط للإيمان ومحبة الله تعالىٰ وغفرانه لا يكون إلا في الإيمان والعمل الصالح الذي أمر الله به وأحبه ورضيه لعباده دون الشرك والفواحش الظاهرة والباطنة وأنواع المعاصي الكبيرة والصغيرة .

وعليه فمن أمر الله بطاعته على العموم واتباعه على الإطلاق لا يتصور عقلا ولا يكون شرعا متلبسا بشيء من القاذورات الحسية أو المعنوية ، وإلا لكان الأمر بطاعته واتباعه مع تجويز كونه محلا للفواحش أمرا بها ممن أمر بطاعته المطلقة .

---

(1) سورة الأنعام ، آية (٨٧ـ٩٠) .
(2) سورة النساء ، آية (٦٤) .
(3) سورة آل عمران ، آية (٣١ـ٣٢) .

ونسبة ذلك للمولىٰ جل وعلا من المحال الذي نفاه الله تعالىٰ وأبطله عندما أدعاه مقلدون لا يتورعون عن الفاحشة والكذب على الله تعالىٰ عندما ينهون عنها .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ . . ﴾[1] .

فهٰؤلاء الذين قلدوا الآباء وكذبوا على الله من أولياء الشياطين ، والأنبياء من أولياء الله الذين لا يأمرون إلا بأمره ، والله لا يأمر بالفحشاء ، وأعظم الفحشاء الكذب على الله تعالىٰ والشرك به ومخالفة أمره عمدا لما في ذلك من العصيان والصد عن سبيل الله ، وخيانته مع العلم بعظمته وقدرته المطلقة .

وقد علمنا أن هٰذه أمور منافية للنبوة وما رأيناه من الصفات الواجبة والمستحيلة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[2] .

وعلىٰ ضوء ذلك فإن ما جاء في الكتاب والسنة من توبة بعض الأنبياء من معصية أو زلة لا ينافي ما أسلفناه من جعل الله تعالىٰ لهم مكان القدوة والأسوة والعقل والأمانة والصدق والعصمة ، وذلك لما سلف ولما يأتي :

أـ الأنبياء قبل البعثة ليسوا موضع قدوة ولا اتباع لانتفاء مناط التكليف عنهم وعن غيرهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[3] .

ذلك أن ما يعذب عليه أو يثاب علىٰ فعله إنما يعرف من جهة الرسل ولٰكن الأنبياء وإن كانوا في هٰذه المرحلة كغيرهم من أصحاب الفطر السليمة والعقول النيرة فإنهم داخلون في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا

---

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٨ـ٢٩) .

(٢) انظر تبسيط العقائد الإسلامية ، تأليف حسن أيوب ، دار البحوث العلمية الكويت ط٤ ١٣٩٩هـ ، ١٢٣ وما بعدها ، وقارن بما في النبوة والأنبياء ، تأليف : محمد علي الصابوني ٤٠ـ٤٨ .

(٣) سورة الإسراء ، آية (١٥) .

﴿ تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1] . فلا عصيان ولا نقص يلحقهم في هٰذه الحالة وعلىٰ هٰذه الصفة .

ب ـ ومع ذلك فالأنبياء في نشأتهم بين أقوام مشركين كفرة جهال لم يسجل علىٰ أحد منهم ما يخدش العرض والمروءة عند العقلاء بوجه صحيح صيانة من الله وإعداداً حسنا ، ولو كان شيء من ذلك لعيّرهم به أقوامهم ولدفعوا به في نحور دعوتهم وشنّعوا به عليهم ، وتذرعوا به للتنفير عنهم والاحتجاج به عليهم .

ومن ذلك قول فرعون لموسىٰ عليه السلام : ﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[2] .

وقول قوم شعيب لشعيب عليه السلام :

﴿ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ . . . ﴾[3] .

فلنشأتهم معهم وسكوتهم عن دينهم قبل النبوة اعتبره الكفار موافقة عليه ، واحتجوا عليهم بذلك وبما كان من عدم العلم الجديد بالنبوة فتنصل الأنبياء من ذلك ونفوا الحالة السابقة وما كان يصاحبها من جهل بتفاصيل الأحكام وردوا علىٰ خصومهم بمقتضى النبوة[4] .

جـ ـ وبعد النبوة فإن الله تعالىٰ بين في كتابه وعلىٰ لسان رسوله محمد

---

(١) سورة النحل ، آية (٧٨) .
(٢) سورة الشعراء ، آية (١٨ـ٢٠) .
(٣) سورة الأعراف ، آية (٨٨ـ٨٩) .
(٤) انظر المحرر الوجيز ٦/ ١ـ٣ والقرطبي ١٣/ ٩٤ ، ٩٥ وقارن بمجموع الفتاوىٰ ١٥/ ٣٠ .

صلى الله عليه وسلم أنه يحب التوابين ويبدل سيئاتهم حسنات . وبما أن محبة الله تعالىٰ للتائبين درجات بالنظر إلىٰ منزلة التائب عنده جل وعلا وكذلك بالنظر إلىٰ عظم الذنب والجرم والمعصية وحال التائب وصدق توبته وحيائه من ربه وعظم عصيانه في نفسه وأثر الندم علىٰ قلبه وسلوكه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] . ومعلوم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم أحب التائبين والمتطهرين إلى الله ، كما أنهم أقرب عباده إليه . وقد أثنىٰ جل وعلا علىٰ عباده لاتصافهم بصفات العبودية والطاعة واجتناب المخالفات أو التقصير في أداء الواجبات وغير ذلك مما يجلب الإثم الذي يضاعف العذاب المهين الخالد لمن لم يتب منه .

أما من تاب تاب الله عليه ورفعه الدرجات العلىٰ بحيث لا يجوز أن يعير بالذنب التائب منه ، ولا يلحقه منه عار ولا ينزله درجة لقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2] . وهذا واقع يؤيده أن الله تعالىٰ قال في آدم عليه السلام : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[3] ، فلما سارع بالتوبة والندم والاعتراف هو وزوجه أمنا حواء عليهما السلام تلقاهم التواب الرحيم بالتوبة والمغفرة والاجتباء والهداية والاصطفاء والرحمة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة ، آية (٢٢٢) .
(٢) سورة الفرقان ، آية (٧٠) واقرأ ما قبلها وما بعدها (٦٣ـ٧٦) .
(٣) سورة طه ، آية (١٢١) .
(٤) سورة البقرة ، آية (٣٧) .
(٥) سورة الأعراف ، آية (٢٣) .

فكانت الثمرة : ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾[1] .

وهٰكذا يقال في كل ما نسبه الله تعالىٰ لنبي من أنبيائه مما يتاب منه أو يعتذر به لأن مقتضى الربوبية التوبة على التائب ومقتضى العبودية التوبة علىٰ كل حال لأن ابن آدم خطاء وعلاج الخطأ إعلان الرجوع عنه والاعتذار خوفا من آثاره .

ومصداق ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أنس رضي الله عنه : (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[2] .

وفي لفظ موقوفا على ابن عمر رضي الله عنهما : (كل ابن آدم خطاء إلا من رحم الله)[3] . ولا شك أن الأنبياء من بني آدم وأكثر بنيه توبة ، وأقربهم إلىٰ رحمة الله . وبهٰذا يتحصل ما يأتي :

١ـ إن الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية يتفقان علىٰ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يولدون على الفطرة ويبقون عليها طاهرة نقية بحيث يعرفون بين أقوامهم بالصدق والأمانة وتجنب الكذب والخيانة[4] .

٢ـ وأنهم عليهم الصلاة والسلام قبل النبوة لا علم عندهم عن الغيب وتفاصيل الأحكام وما يجب وما يحرم وما يحسن أو يقبح إلا أنهم أعظم الناس عقولا وأقواهم ذكاء وفطنة .[5]

٣ـ وأنهم بعد النبوة التي يصطفيهم الله تبارك وتعالىٰ لها يكتسبون علما جديدا بتعليم الله لهم بوحيه وإلهامه ويزدادون قوة وثباتا في الصفات السابقة مع العصمة في التبليغ وعدم الإقرار على الخطأ في الرأي والاجتهاد .

---

(١) سورة طه ، آية (١٢٢) .

(٢) شعب الإيمان ٥/ ٤٢٠ وانظر في سنن ابن ماجه ، باب ذكر التوبة ٢/ ٥٦٢ .

(٣) السابق ١/ ٢٥٤ وقارن بما في بغية المرتاد ٥٠١ وما بعدها .

(٤) انظر المنقذ من الضلال ٦٦ وما بعدها . ومعارج القدس ١٣١ ومجموع الفتاوىٰ ١٥/ ٣٠ و١٠/ ٢٩٢ .

(٥) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٠ـ١٢٣ ، وشرح العقيدة الأصفهانية ١٩٥ ، والنبوات ١٤٥ـ١٤٧ .

٤ـ يتميز منهج الإمام الغزالي في هٰذا الموطن بأنه وصفي سردي لا يذكر الأدلة أو مدارك الاستنباط ولا يعتني بالتعليل إلا نادرا ، ولذلك تميز منهج شيخ الإسلام ابن تيمية بذكر أدلة الصفات التي سئل عنها ، أو تعرض لها حتىٰ رجحنا مسلكه ذلك علىٰ غيره ، وخصوصا في دعوته للالتزام بمنهج الكتاب والسنة في الخوض في صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ إذ لا عصمة من الإفراط أو التفريط إلا بذلك[١] .

وقد تجلىٰ في هٰذا المبحث التعقيبي صدق ما دعا إليه من خلال عرض نصوص الكتاب والسنة وما ذكر علىٰ ضوئهما . وبالله التوفيق .

* * *

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ ١٥/١٤٧ ، ١٤٨ ، وقارن بما في عصمة الأنبياء للرازي ، مصدر سابق ٢ـ٤ .

الفصل الرابع

النبوة والولاية

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي

عرفنا النبوة ، فلنعرف الولاية .

الولاية لغة : كما في القاموس والصحاح مأخوذة من القرب والدنو والمحبة والصداقة والنصرة[1] ، قال الفيروزبادي :

(وتولاه اتخذه وليا ، وتوالىٰ تتابع)[2] . قال الجوهري :

(والولي ضد العدو ، يقال منه تولاه . والولاية : النصرة)[3] .

وفي الفروق اللغوية للعسكري : (أن العداوة البعاد من حال النصرة ، وأن نقيضها الولاية وهي القرب من حال النصرة)[4] .

والمقصود هنا ولاية الله تعالىٰ لعبد من عباده بما دون النبوة والرسالة أو تولي عبد من عباد الله تعالىٰ لله تبارك وتعالىٰ في الطاعة والعمل والقصد والإرادة .

---

(١) انظر المصدران المذكوران ٤/ ٤٠١ ، ٤٠٢ والآخر ٦/ ٢٥٢٨ .

(٢) السابق .

(٣) السابق .

(٤) المذكور ١٠٦ و١٥٦ .

قال القشيري معرفا الولاية : (الولي له معنيان :

أحدهما : فعيل بمعنىٰ مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1] .

فلا يكله إلىٰ نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته . والثاني : فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذي يتولىٰ عبادة الله وطاعته ، فعبادته تجري على التوالي ، من غير أن يتخللها عصيان)[2] .

ومعلوم أننا لا نبحث في استطلاع رأي الإمام الغزالي عن الولي شرعا فقط ، وإنما نريد معرفة رأيه في الولي عرفا عند الصوفية أيضا الذين قال ابن عطية أن لبعضهم فيه إلحادا ، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[3] .

قال : (وأولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة ، وهـٰذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقىٰ فهو داخل في أولياء الله وهـٰذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي ، وإنما نبهنا هـٰذا التنبيه حذرا من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الولي)[4] .

فمن كان على الوصف المذكور في الآية الكريمة فهو ولي لله تعالىٰ ، والله ولي المتقين والصالحين والمؤمنين ، الذين يواظبون على الطاعات ويجتنبون المحرمات ويتوبون من الذنوب ولا يصرّون علىٰ صغيرة ولا كبيرة)[5] .

أما من يجعل للولاية سُلّما غير هـٰذا المنهج الشرعي ويرتب عليها مراتب

---

(١) سورة الأعراف ، آية (١٩٦) .
(٢) المصدر المذكور ٢/ ٥٢٠ .
(٣) سورة يونس ، آية (٦٣) . وقارن بما في المقصد الأسنىٰ ١١٥ .
(٤) المحرر الوجيز ٧/ ١٧٤ ، ١٧٥ .
(٥) انظر تفسير الطبري ١٥/ ١١٨ـ١٢٣ وروح المعاني ١١ ، ١٢/ ١٤٦ و١٧٩ .

ودرجات وتفاضلا يخالف الولاية بمفهومها الشرعي المشار إليه ، فهٰذا الذي لا يتلاءم والولاية إلا ولاية الشيطان لا ولاية الرحمن[1] .

وإذا عرفنا النبوة والولاية لغة وشرعا فنقول : إن الإمام الغزالي اتضح من رأيه فيما سبق من نصوصه أن النبوة عنده هبة ربانية وحظوة إلهية لا تنال بكسب ولا تحصل بجهد وعقل وفكر[2] .

وأن النبي ينزل عليه بأمر الله تعالىٰ وعلمه ملك كريم بوحي معلوم يتضمن الشرائع والأحكام وما أراد الله تعالىٰ من ذلك وغيره من العلوم والمعارف التي لا تنال بكد ولا تطلب بحس ولا عقل أو فراسة وحدس[3] .

وبهٰذه العلوم والمعارف التي اختص الله بها النبي بواسطة الملك وغيره كان النبي فوق درجة البشر في جميع النواحي وإن وافقهم في البشرية ولوازمها[4] .

ومن هنا كان معجزا في معارفه وعلومه التي امتاز بها لأن النبوة لا درجة تطلب بعدها ولا شرف يتشوف إليه حيالها إذ لا مطمع لأحد في الوصول إلىٰ ذلك المقام مهما بلغ من جهد واجتهاد ورياضة وتعبد لأن الله هو الذي يعد لها من أراده لهٰذا المنصب حتىٰ إذا أهله لذلك أعلمه وكلفه وعندها يلزمه الاستعداد لمهامه وبذل الطاقة في العمل شكرا وعرفانا ودعوة وتبليغا . والله تعالىٰ بلطفه يعلمه ويعصمه ويحفظه ويسدده ويعينه ويرشده .

فلا ينسىٰ شيئا من الوحي ولا يكتم منه قليلا ولا كثيرا ولا يزيد ولا ينقص ولا يخاف في التبليغ ولا يستحي من الحق .

وبذلك كان صادقا لا يكذب وأمينا معصوما لا يجبن وفطنا عاقلا

---

(١) انظر مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ٦٦ـ٦٨ .
(٢) انظر معارج القدس ١٣١ .
(٣) انظر المنقذ ٧٨ و٨١ .
(٤) انظر معارج القدس ١٣١ .

لا يتردد ، ومجادلا بالحق والبيان الواضح لا يغلب إلىٰ غير ذلك من الصفات الحميدة والخصال المجيدة(١) .

ولئن كانت هـٰذه معطيات ما تمكنا من تصفيته من نصوص الإمام الغزالي في مفهومه للنبوة ورأيه في النبي وما امتاز به فإن له بجانب ذلك نصوصا أخرىٰ وعبارات موهمة في هـٰذا الميدان الشائك(٢) .

وذلك الإيهام الذي نريد استكشاف حقيقته وما يؤول إليه يشمل جوانب كثيرة يهمنا منها هنا ما يوهم مخالفة المعطيات السابقة وما أسلفناه من دراسة عن رأيه في النبوة والوحي وصفات الأنبياء ، لأن أي نص يخالف ذلك يعتبر عندنا في أقل درجاته تناقضا واختلافا في الرؤية ، واضطرابا في المنهج من إمام راجت كتبه وسرت بين الناس أفكاره ، والخطورة في ذلك بمكان حيث إن الباحث لا يتمكن من تكوين وجهة نظر أو يظن أنه توصل إلىٰ حقيقة بالاستقراء والتتبع والعرض والنقد والتحليل إلا ظهر له ما يخالفها أو يناقضها ، وعندها لا يسعه إلا أن يعلن تحسره علىٰ جهده الذي خولف ونوقض . وهل إن أعلن حسرته علىٰ جهده الضائع بنافع له ذلك ؟

وإني أقول إن لم ينفعه ذلك في تحصيل منهج مستقيم يمكن الحكم عليه كان ذلك سلوة له واعترافا بأنه لم يدخر جهدا حتى اتضح أنه اكتشف الواقع وأعلنه ، وهو أنه وقف علىٰ نصوص صالحة لهـٰذا الحق وأخرىٰ تخالفه أو تناقضه ، فما حيلته إلا معارضة هـٰذه بهـٰذه فما تمكن من تصفيته وتجليته قام بواجبه نحوه وما اختلط أمره تساقط الاستدلال به وتوقف فيه بعد بيانه لواقعة(٣) .

وإن الإمام الغزالي في تناوله للولاية بالمعنى الصوفي الخاص جعل لها

---

(١) انظر السابق ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) انظر السابق ١٣٦ وما بعدها .

(٣) قارن بما في نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ١٠٤ـ١١٧ .

سلما يرتقى إليها به ، ومنهجا علميا وفكريا تنال به ، وجهدا بدنيا تحصل به[1] .

وهو وإن كان في هـٰذه يعزلها عن النبوة ، ويقرر ما للنبوة من خصائص وميزات ، فإنه بما نورده من نصوص في هـٰذا المبحث يفتح الأبواب للولاية لتزاحم النبوة في المعارف ، ومصدرها والعصمة وما يترتب عليها والمكانة وما يلزم لها فيقول :

(ولما كانت ـ النفس ـ روحانية قبلت عن الروحاني وتأثرت عنه ، فلولا العقول المعبر عنها بالملائكة الممدة للنفوس من خارج لما عقلت معقولا البتة ، فإن النفس عالمة بالقوة فقط والملائكة تخرج ما في القوة إلى الفعل حتىٰ يصيرها عالمة بالفعل ، فأعلىٰ طبقة في الاستمداد الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، ثم من يليهم ، وذلك بحسب تهذيب النفس والعكوف علىٰ هـٰذه الجنبة ، وهـٰذا هو المعنىٰ بقوله تعالىٰ :

﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[2] ، وقال تعالىٰ في الأولياء : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[3] .

وهـٰذا النفس الذي يستمد هنا في هـٰذا النص من روحانيات الملائكة هو المعبر عنه عنده في مشكاة الأنوار : (بالروح القدسي النبوي : المنسوب إلى الأولياء إذا كان في غاية الشروق والصفاء وكانت الروح المفكرة منقسمة إلىٰ ما يحتاج إلىٰ تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتىٰ يستمر في أنواع المعارف ، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبه بنفسه من غير مدد من خارج ، فبالحري أن يعبر عن الصافي البالغ الاستعداد بأنه : يكاد زيته يضى ، ولو لم تمسسه نار إذ في الأولياء من يكاد يشرق نوره حتىٰ يكاد يستغني عن مدد

---

(١) انظر الإحياء ٣/ ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) سورة المائدة ، آية (١١٠) .

(٣) سورة المجادلة ، آية (٢٢) . سراج السالكين ١٠٤ .

الأنبياء ، وفي الأنبياء من يكاد ضوؤه يستغني عن مدد الملائكة)[(١)] .

(فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض علىٰ صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالىٰ فمن كان لله كان الله له)[(٢)] .

(والواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلىٰ ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؟

وإلىٰ ما يطلع معه العبد على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب .

والأول : يسمىٰ إلهاما ونفثا في الروع . والثاني : يسمىٰ وحياً وتختص به الأنبياء .

والأول : يختص به الأولياء ، والأصفياء .

والذي قبله ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء)[(٣)] .

ويوضح الإمام الغزالي مراده بهٰذا العلم الذي لا يطلع العبد معه على السبب الذي منه استفاده فيقول : (اعلم بأن العلم اللدني وهو : سريان نور الإلهام يكون بالتسوية كما قال تعالىٰ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[(٤)] .

(والإلهام أثر الوحي ، فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي والإلهام تعريضه ، والعلم الحاصل عن الوحي يسمىٰ علما نبويا ، والذي يحصل عن الإلهام يسمىٰ علما لدنيا ، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين

---

(١) السابق ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) الإحياء ٣/ ٢١ .

(٣) السابق .

(٤) سورة الشمس ، آية (٧) .

النفس وبين الباري ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع علىٰ قلب صاف فارغ لطيف)[1] .

وبعد تقرير الإمام الغزالي أن العلم الإنساني يحصل من طريقين : أحدهما : التعلم الإنساني . والثاني : التعلم الرباني . يقول :

(وأما التعلم الرباني فيكون علىٰ وجهين ، أحدهما : من خارج وهو التحصيل بالتعلم ، والآخر : من داخل وهو الاشتغال بالتفكر ، والتفكر من الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر . . . إلىٰ أن قال بعد ضرب أمثلة للمعلم والمتعلم .

(الطريق الثاني : وهو التعليم الرباني علىٰ وجهين :

الأول : إلقاء الوحي وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والآمال الفانية .

وتقبل بوجهها علىٰ بارئها ومنشئها وتتمسك بجود مبدعها وتعتمد علىٰ إفادته وفيض نوره ، والله تعالىٰ بحسن عنايته يقبل علىٰ تلك النفس إقبالا كليا . وينظر إليها نظرا إلهيا ويتخذ منها لوحاً . ومن النفس الكلي قلما وينقش فيها جميع علومه ، ويصير العقل الكلي كالمعلم ، والنفس القدسية كالمتعلم فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر ، ومصداق هٰذا قوله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾[2] إلىٰ أن قال :

(الوجه الثاني : هو الإلهام ، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية علىٰ قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها . . فمن إفاضة العقل الكلي يتولد الإلهام ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام ، فالوحي حلية الأنبياء ، والإلهام زينة الأولياء . . . فالعلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية كما كان

---

(١) الرسالة اللدنية ١٠٥ و١١٠ ، ١١١ .

(٢) سورة النساء ، آية (١١٣) .

للخضر عليه السلام حيث أخبر تعالىٰ عنه، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1]..

فإذا أراد الله تعالىٰ بعبد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس التي هي اللوح، فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات وانتقش فيها معاني تلك المكنونات فتعبر النفس عنها كما تشاء لمن تشاء من عباده، وحقيقة الحكمة تنال بالعلم اللدني وما لم يبلغ الإنسان هٰذه المرتبة لا يكون حكيما لأن الحكمة من مواهب الله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

وذلك لأن الواصلين إلىٰ مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيرا ويتعبون يسيرا ويستريحون طويلا)[3].

ويعتبر الإمام الغزالي القلب محلا للعلم فلذلك عول كثيرا علىٰ تجليته وصقله ليكون كالمرآة التي تتجلىٰ فيها الصور عند المقابلة، واهتم كثيرا بإزالة الحجب التي تمنع من الفيض والكشف والإلهام واعتنىٰ بضرب الأمثلة وشرحها كل ذلك ليقنع القارىء بأن القلب وعاء صالح لأن تتفجر فيه أنهار العلوم من الداخل عند تنقيته وتطهيره كما هو صالح أيضاً لاستقبالها من الخارج وأن أولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها فقط، وأن العلماء يعملون على اكتساب العلوم واجتلابها إلى القلب)[4].

قال: (فاعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة علىٰ سبيل الإلهام بأن يخطر لهم علىٰ سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون، وتارة علىٰ سبيل الرؤيا الصادقة وتارة في اليقظة علىٰ سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة ـ كما يكون في المنام ـ وهٰذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة

(١) سورة الكهف، آية (٦٥).
(٢) سورة البقرة، آية (٢٦٩).
(٣) الرسالة اللدنية ١٠٢ـ١٠٧.
(٤) انظر الإحياء ٣/ ١٥ وما بعدها.

العالية ، كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . فإياك أن يكون حظك من هٰذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم المعقول ، فالجهل خير من عقل يدعو إلىٰ إنكار مثل هٰذه الأمور لأولياء الله تعالىٰ ، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجا عن الدين بالكلية)[1] .

(فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولٰكن يفارقه من جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ، ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[2] .

فمن هٰذه النصوص تتضح لنا الأمور الآتية :

أـ الإمام الغزالي صوفي متمسك بنظرية المعرفة الفيضية والكشف والإلهام الباطني الحاصل عن التصفية الرياضية والمجاهدات الصوفية الذين هم عنده : (السابقون لطريق الله تعالىٰ خاصة . . . ومن أول الطريقة تبتدىء المشاهدات والمكاشفات ، حتىٰ إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال إلىٰ مشاهدة الصور والأمثال إلىٰ درجات يضيق عنها نطاق النطق . . .)[3] .

وعلىٰ هٰذا فما الفرق بين أنبياء الله تعالىٰ ورسله وأولياء الصوفية ؟ إن الباحث لا يجد فرقا واضحا يمكن أن يميز به الوحي عن هٰذه المشاهدات

---

(١) السابق ١/ ٧٨ .

(٢) سورة الشورى ، آية (٥١) . السابق ٣/ ٢٠ وما بعدها ٢٢ـ٢٨ .

(٣) المنقذ ٦٢ ، ٦٣ .

والمكاشفات والسماع للأصوات واقتباس الفوائد إلا أن الغزالي في بعض نصوصه السابقة يقرر أن الإلهام يفارق الوحي في مشاهدة النبي للملك ومخاطبته له ويؤكد في أقواله الآتية أن النبوة والوحي لا يرقىٰ إلىٰ درجتهما الأولياء وإلهاماتهم : (فأما علم الوحي فكما أن النفس دون العقل فالولي دون النبي ، فكذلك الإلهام دون الوحي فهو ضعيف بنسبة الوحي قوي بإضافة الرؤيا والعلم علم الأنبياء والأولياء)[1] ، (ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة)[2] .

وفي تحصيل العلوم واكتسابها وتفاضل المعارف في ذاتها يقرر الإمام الغزالي أنها : تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي علىٰ سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضهم بتعلم واكتساب ، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول ، وفي هٰذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقي فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها .

وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف إلهي في أسرع وقت)[3] .

وإذا قلنا بأن الإمام الغزالي في هٰذه النصوص يفرق بين النبوة والولاية في درجة تحصيل أو حصول المعارف في القلب أو النفس من حيث قوة الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمشاهدة الملك وسرعة التحصيل بلا مجهود يبذل ودرجة الانكشاف مما يترتب عليه أن النبوة والأنبياء لا درجة فوقها ولا شرف يدانيها فإنه كان لا ينبغي له أن يلتزم الملازمة بين الأنبياء والأولياء في

---

(١) الرسالة اللدنية ١٠٥ .
(٢) الإحياء ١/ ١٢ ، ١٣ .
(٣) الإحياء ٣/ ١١ وانظره في ميزان العمل ٢٠ـ٢٢ .

نصوصه وخصوصا عند الحديث عن علوم الأنبياء والوحي ودرجاته وكذلك من غير المستساغ في هٰذا المجال مقارنتهم في العلم اللدني إذ لا مقارنة بين علم إلهي ورباني معصوم من الشيطان والناس وبين ما يقع من واردات وخواطر وإلهامات من غير برهان عليها بل هي ومن صدرت عنه عرضة لفساد القلب والمزاج وتلاعب الشيطان فالعلم اللدني رباني وشيطاني ولا عصمة إلا لمن عصمه الله تعالى[(١)] .

ب ـ وندرك من خلال نصوص الإمام الغزالي أن الولاية عنده لها مكانة عالية رفيعة وأن للأولياء كرامات كما لهم علوم وإلهامات .

ولٰكنه ليس كغيره من غلاة الصوفية الذين ألحدوا في الولي ، ورفعوه فوق درجته حتىٰ عطلوه بذلك من الولاية أصلا[(٢)] .

ولئن فارق هٰؤلاء فقد فارق الأصول التي أخذوا منها تفضيل العارف أو الفيلسوف الكامل على النبي ، كما جانب طريق الرافضة القائلين بالعصمة وختم الولاية[(٣)] .

جـ ـ يجتهد الإمام الغزالي في حشد ما يمكنه من شواهد النقل أو تيسر له من التجارب والمشاهدات والحكايات ليقنع الناس بأن المجاهدات الصوفية والرياضات العملية والعكوف في الخلوة أسباب ظاهرة لتحصيل الولاية التي ينفتح لصاحبها أبواب الغيب ويفتح له باب في داخل قلبه تنبعث منه العلوم والمعارف بدون تعلم[(٤)] .

---

(١) انظر الصوفية في نظر الإسلام ٤٠٢ ، ٤٠٣ وأبو حامد الغزالي والتصوف ١٧٢ .
(٢) انظر الإحياء ١/ ١٢ والقسطاس المستقيم ٦ ، ٧ ومجموعة الرسائل ١٠٧ وقارن بما في التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٣٣ وما بعده .
(٣) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٥ و١٤٤ و١٥٢ و١٥٧ وما بعدها . والمنقذ ٨٢ والقسطاس المستقيم ٤٢ـ٤٦ وكتاب الإملاء في إشكالات الإحياء ٣٩ و٤٤ و٤٦ و٤٧ .
(٤) انظر الرسالة اللدنية ١١٠ ، ١١١ والإحياء ٣/ ٢٥ وما بعدها .

ومن يجحد ذلك في نظره كالجاحد لأصل النبوة إلا أن الدليل القاطع كما يقول ـ الذي لا يقدر أحد علىٰ جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة . . .

والثاني : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهـٰذا لا يسمىٰ نبيا بل يسمىٰ وليا ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان :

باب إلىٰ خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فإذا أقر بهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيل إليه)[1] .

فهـٰذا الولي المكاشف الذي لقلبه باب داخل تنفجر منه العلوم ولا يشتغل بإصلاح الخلق أمره محير لأن الحقائق الذي كوشف بها إما أن تكون فهماً في كتاب الله تعالىٰ أو سنة رسوله فهـٰذا عالم عليه أن يعمل لإصلاح عباد الله ونشر ما فتح الله به عليه طلبا للثواب ورهبا من العقاب وعلىٰ كل فالعمل هنا بالوحي المعصوم لا بالإلهامات والوساوس والخطرات .

وإما أن يكون ما يكاشف به من الحقائق فيه مخالفة أو زيادة أو نقص على الوحي المعصوم فهـٰذا لا يلحق صاحبه في معارفه وأحواله بالأنبياء والأولياء بل هو من إخوان الشياطين الذين أخبر الله تعالىٰ بتنزل الشياطين عليهم قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾[2] .

---

(١) الإحياء ٣/ ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء ، آية (٢٢١ـ٢٢٣) .

ولعل الإمام الغزالي أحس بما في نصه السابق من محذور فأتبعه بالحديث عن تسلط الشيطان على القلب الأمر الذي يجعل الباحث ينظر إلىٰ نصوص الإمام الغزالي بأن أحكامه فيها نسبية أو متعارضة ويمنعه من الجزم بالتعارض ما فيها من نسبية مع الحذر الواضح في العبارات[1] .

والخلاصة باختصار هي :

١ـ أن الإمام الغزالي يرفع درجة أولياء الصوفية إلىٰ ما يقارب مقام النبوة في المعارف والعلوم والاطلاع على الغيب ومشاهدة الملائكة وأرواح الأنبياء[2] .

هـٰذا مع تأكيده علىٰ أن الوحي قطعي يقيني يختص به الأنبياء وأنه لا مقام ولا شرف بعد النبوة .

٢ـ يكثر الإمام الغزالي من عجائب القلب ليبرهن من خلالها علىٰ أنه بالمجاهدة يصير المريد السالك ولياً لله عارفا صاحب فيوضات ربانية وإلهامات[3] .

وفي سبيل ذلك استدل بالآيات والأحاديث والتجارب والحكايات . ثم يعود بعد ذلك لينبه علىٰ أن الشيطان مسلط علىٰ بني الإنسان إلا من عصمه الله تعالىٰ منه ، ولا عصمة إلا للأنبياء فيبقىٰ ما أتعب نفسه في إثباته عديم الفائدة إذ لم يكن محل ثقة مهما ادعي لصاحبه الحفظ وكما يقول : ولا عصمة[4] .

٣ـ استخدم الإمام الغزالي في مباحث الولاية المصطلحات الفلسفية ووظف النظرية الإشراقية إلا أن ذلك في نظري وإن اعتبرناه مخالفا لمنهج أهل السنة وتأثراً بالمناهج المنحرفة فلا يصل بنا إلى الحكم الجازم بأن الإمام الغزالي قلد

---

(١) انظر مثلا معراج السالكين ١٠٤ ومشكاة الأنوار ١٧٠ ، ١٧١ والإحياء ٣/ ٢١ والرسالة اللدنية ١٠٥ وقارن بما في الفلسفة النورانية القرآنية ١٤٥ وما بعدها .

(٢) الرسالة اللدنية ١٠٦ ، ٧٠٧ والإحياء ٣/ ١١ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ٢٠ـ٢٨ . ومشكاة الأنوار ١٣٧ـ١٤١ .

(٤) المنقذ ٦٢ـ٦٤ و٨١ ، ٨٢ والاقتصاد في الاعتقاد ١٥٢ .

الفلاسفة في المصطلحات على الإطلاق أو اتبعهم في ظاهر الاعتقاد بل الظاهر أنه حاول أن يستفيد من طريقتهم في البحث والاستخراج والتنقيب عن الحقائق والوقوف على الأسرار ليكون منهجاً إسلاميا خاصا به فوقع فيما يستدرك عليه لوضوح المناهج الإسلامية وسلامتها ومهارة العلماء فيما يعد انحرافا عنها أو ميلا عنها أو حتىٰ خلطا فيها أو بها[١] .

٤ـ ومن هنا لم يتضح لي أن فلاسفة المتصوفة وزنادقتهم بعد الإمام الغزالي اعتمدوا عليه في شيء لأمور :

أـ أن النظريات الإشراقية والمصطلحات الفلسفية كانت قبل كتب الإمام الغزالي ولها مروجون وأتباع مارقون[٢] .

ب ـ أن الإمام الغزالي ظل متمسكا في جميع أطوار حياته بوجوب اتباع الشريعة وتحكيمها علىٰ جميع الناس فلاسفة وحكماء وعلماء وعوام[٣] .

جـ ـ أن بحث الإمام الغزالي في الولاية والوصول إليها ظل في نطاق الشريعة الإسلامية بدليل البحث لكل خطوة عن شاهد من الكتاب أو السنة أو حكاية عن مشهور بالصلاح[٤] .

دـ يشنع الإمام الغزالي علىٰ أهل الشطح والطامات والاتحاد والحلول ووحدة الوجود وإخوان الصفا وزنادقة الفلاسفة وأهل السحر والشعوذة والطلسمات[٥] . وهٰذا علىٰ ما في منهجه من أمور غير مرضية وعبارات غير مستساغة وتكلفات وتمحلات لوجهة النظر ومبالغات يردها السمع والبصر .

والله أعلم .

---

(١) انظر مشكاة الأنوار ١٥١ـ١٥٩ و١٦٥ـ١٧١ وانظر القسطاس المستقيم ١٢ـ٣٠ .

(٢) انظر التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ٧٤ـ١٠١ وقارن بما في ١٩٥ـ٢٢٠ منه .

(٣) انظر مشكاة الأنوار ١٦٠ـ١٦٢ وقارن بما في كتاب الإملاء عن إشكالات الإحياء ٤٦ـ٤٧ والمنقذ ٧٧ ، ٧٨ و٨١ ، ٨٢ وانظر نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ١١٢ .

(٤) انظر الإحياء ٣/ ٢٠ وما بعدها وقانون التأويل ١٢٦ـ١٢٨ .

(٥) انظر الإحياء ١/ ٣٨ـ٤١ والمنقذ ٢٣ و٣١ وما بعدها . والمقصد الأسنىٰ ١٣٤ـ١٣٩ .

المبحث الثاني
رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

إن الباحث المطلع علىٰ كتب شيخ الإسلام بن تيمية في العقيدة والتصوف والفلسفة والمنطق ليجد أن الولاية وما يهدم عن طريقها أو باسمها من أصول الدين أمر شغل باله وأخذ حيزا واسعاً من اهتماماته حتىٰ لا يمنعه طول الاستطراد من العودة لها ، ولا قصر المسألة المطروحة عليها من تطويلها حتىٰ تنالها الأمر الذي وسع على الباحث الفكرة وشعب عليه النظرة مع أن المباحث الأصلية يمكن حصرها فيما يأتي :

أ ـ ما هي الولاية في اللغة والشرع ؟

ب ـ وما الذي دسه فلاسفة المتصوفة في الإسلام عن طريقها ؟

جـ ـ وما الأسلوب الذي اتبعه شيخ الإسلام لبيان فضائحهم وكشف مصادرهم ومقاصدهم ؟

فلندخل في أعماق شيخ الإسلام ابن تيمية بحثا عن إجابة شافية علىٰ هٰذه الأسئلة .

أ ـ قال في تعريف الولاية لغة : (والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد ، وقد قيل : إن الولي سمي وليا من موالاته للطاعات أي متابعته لها ، والأول أصح .

والولي القريب ، فيقال : هٰذا يلي هٰذا أي يقرب منه)[1] .

هٰذا في اللغة ، أما في الاصطلاح الشرعي فإن : (أولياء الله عنده في الشرع هم المؤمنون المتقون ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله

---

(1) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ١٦٠ ، ١٦١ وانظر الفرق بين الولاية والولاية في درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٢٨ ، ٢٩ .

تعالىٰ ، فمن كان أكمل إيمانا وتقوىٰ كان أكمل ولاية لله تعالىٰ ، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوىٰ .

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهىٰ عنه كان المعادي لوليه معاديا له . . .)[1] .

(والولي المطلق : هو من مات علىٰ ذلك)[2] ، وهـٰذا أمر لا يعلمه الخلق فإن تعين تحسين الظن بالمؤمن التقي المتبع للكتاب والسنة تعينت إساءة الظن بالكافر والفاسق لما قام به في الحال من أسباب غضب الله تعالىٰ .

وهـٰذا هو الموقف الوسط الذي ارتضاه شيخ الإسلام عند مناقشته لأقوال الصوفية وغيرهم في مسألة الحكم بولاية المعين من المسلمين إذ يقول : إن للعلماء والصوفية فيها قولين ، وأن الأولىٰ بالتحقيق الجمع بين القولين : فيحكم لمن قام به الإيمان والعمل الصالح بالولاية لله تعالىٰ لمحبة الله تعالىٰ لما قام به من الخير ، وإن كان في علم الله أنه يوافي كافرا مرتدا .

كما أنه يحكم لمن قام به الكفر والفسوق بعدم الولاية لله تعالىٰ لبغض الله تعالىٰ لما قام به ، وإن كان في علم الله أنه يوافي مؤمنا . وأن من كوشف بعاقبته من المكاشفين أو عاقبة غيره لا يجوز له القطع علىٰ ذلك .

(لأن كثيرا ممن يظن به أنه حصل له هـٰذا الكشف يكون ظانا في ذلك ظنا لا يغني من الحق شيئا)[3] .

(فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد صلى الله عليه وسلم . . فيؤيدهم بملائكته وروح منه ، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره ، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين ، وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم صلى الله عليه وسلم كذلك . . .

---

(١) السابق ١١/ ١٦١ و١٧٥ وقارن بدرء التعارض ٧/ ٣٠ .

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١/ ٢٦ وانظر ٦١ منه .

(٣) السابق ١١/ ٦٥ وانظر القرطبي ١/ ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم)[1] .

ويقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الإيمان بالأنبياء يقتضي الإيمان بالولاية وما يكرم الله تعالىٰ به أولياءه فيقول :

(ومن أصول أهل السنة والجماعة : التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجري الله علىٰ أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها)[2] .

ويصرح باستبعاد قول المتكلمين ومن نفىٰ كرامات الأولياء ودلالتها علىٰ صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك ثم قال : (القول الثاني وهو الصحيح : أن آيات الأولياء هي من جملة آيات الأنبياء فإنها مستلزمة لنبوتهم ، ولصدق الخبر بنبوتهم ، فإنه لولا ذلك لما كان هٰؤلاء أولياء ، ولم تكن لهم كرامات لٰكن يحتاج أن يفرق بين كرامات الأولياء وبين خوارق السحرة والكهان ، وما يكون للكفار والفساق وأهل الضلال والغي بإعانة الشياطين لهم ، كما يفرق بين ذلك وبين آيات الأنبياء والفروق بين ذلك كثيرة)[3] .

(فآيات الأنبياء مستلزمة لصدقهم ، وصدق من صدقهم ، وشهد لهم بالنبوة ، والآيات التي يبعث الله بها أنبياءه قد يكون لأنبياء أخر ، مثل إحياء الموتىٰ ، فقد يكون لغير واحد من الأنبياء ، كما قد وقع لطائفة من هٰذه الأمة ومن أتباع عيسىٰ ، فإن هٰؤلاء يقولون نحن إنما أحيا الله الموتىٰ علىٰ أيدينا لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم أو المسيح عليه السلام ، فبإيماننا بهم وتصديقنا لهم أحيا الله الموتىٰ علىٰ أيدينا ، فكان إحياء الموتىٰ مستلزما لتصديقه عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لم يكن قط مع تكذيبهما ،

---

(١) السابق ٢٧٤ .

(٢) السابق ٣/ ١٥٦ وقارن بما في النبوات ٣٠٧ .

(٣) النبوات ٣٠٧ .

فصار آية لنبوتهم وهو أيضاً آية لنبوة موسىٰ وغيره من أنبياء بني إسرائيل الذين أحيا الله الموتىٰ علىٰ أيديهم)[1] .

(وأيضا فإن كرامات الأولياء معتادة من الصالحين ، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك ، فانشقاق القمر والإتيان بالقرآن ، وانقلاب العصا حية وخروج الدابة من صخرة لم يكن مثله للأولياء ، وكذلك خلق الطير من الطين ، ولـٰكن آياتهم صغار وكبار كما قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[2] .

فلله تعالىٰ آية كبيرة وصغيرة ، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[3] .

وأما الآيات الصغرىٰ فقد تكون للصالحين مثل تكثير الطعام ، فهـٰذا قد وجد لغير واحد من الصالحين ، لـٰكن لم يوجد كما وجد للنبي صلى الله عليه وسلم أنه أطعم الجيش من شيء يسير ، فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم ، لـٰكن لا يماثلون في قدره ، فهم مختصون إما بجنس الآيات فلا يكون لمثلهم كالإتيان بالقرآن وانشقاق القمر وقلب العصا حية ، وانفلاق البحر ، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير . وإما بقدرها وكيفيتها)[4] .

ويؤكد هـٰذا النص بنصوص أخرىٰ توضحه أكثر فيقول :

(ثم الكرامات يخص ـ الله ـ بها المؤمنين من الطائعين ، وأما آيات الأنبياء التي بها تثبت نبوتهم ، وبها وجب على الناس الإيمان بهم ، فهي أمر يخص الأنبياء لا يكون للأولياء ولا لغيرهم . . . وأما مصدقوهم فهم معترفون بأن ما يأتون به هو من آيات الأنبياء مع أنه لا تصل آيات الأتباع إلىٰ مثل آيات المتبوع مطلقا)[5] .

---

(١) السابق ٢٩٨ .

(٢) سورة النازعات ، آية (٢٠) .

(٣) سورة النجم ، آية (١٨) .

(٤) النبوات ٢٩٦ .

(٥) السابق ٣٢٨ ، ٣٢٩ وقارنه بما في الاقتصاد في الاعتقاد .

ذلك أنه : (قد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالىٰ علىٰ أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين لبسوا بأنبياء ، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[1] .

ومن الفروق المهمة أيضاً عند شيخ الإسلام بن تيمية بين الأنبياء والأولياء : أن النبي معصوم من إيحاء الشيطان لأن الله تعالىٰ هو الذي ينبئه ولا يقبل أمر غير الله ولا إيحاءه ولذا :

(فإذا أخبر بما أنبأ الله وجب الإيمان به ، فإنه صادق مصدوق ، ليس في شيء مما أنبأه الله به شيء من وحي الشيطان ، وهـٰذا بخلاف غير النبي فإنه ، وإن كان قد يلهم ويحدث ويوحي إليه أشياء من الله ويكون حقا ، فقد يلقي الشيطان إليه أشياء ، ويشتبه هـٰذا بهـٰذا ، فإنه ليس نبيا لله ، كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول ، وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله فقد يغلط ، ويأمر بغير طاعة الله ، بخلاف الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله قال تعالىٰ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[3] .

(وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطىء . . بل يجوز أن يخفىٰ عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين . . . وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يجعل ـ الولي ـ معصوما ولا مأثوما إذا كان مجتهدا مخطئا ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده)[4] .

---

(١) سورة النساء ، آية (٦٩) . مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٢١ .

(٢) سورة النساء ، آية (٨٠) .

(٣) سورة النساء ، آية (٦٤) .

(٤) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٠١ و٢٠٤ وقارن بما في : درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٢٠٩ وبغية المرتاد ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، و٥٠١ وما بعدها والرد على المنطقيين ٥١٤ وما بعدها .

والغالب في المتبع للكتاب والسنة مع العلم بهما أن يورثه ذلك نورا إيمانيا وفراسة صائبة كما يدل علىٰ ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

(فمن كان بهٰذه المثابة فرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لأن الله قد قذف في قلبه من نوره[3] .

ولذا كان عمر رضي الله عنه يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلىٰ لهم أمور صادقة .

وهٰذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلىٰ للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم .

فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات ، فأفضل هٰؤلاء في هٰذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

فإن خير هٰذه الأمة بعد نبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبو بكر ثم عمر ـ رضي الله عنهما)[4] .

فأبو بكر صديق لا يأخذ إلا عن النبي المعصوم وعمر محدث قد يلهم ويجري علىٰ قلبه ولسانه الحق ولٰكن يجب عليه أن يعرض ما يقع له على الكتاب والسنة إذ لا عصمة من الخطأ والضلال إلا باتباعهما ، وهٰذا ما كان عليه عمر رضي الله عنه : (فلو كان غير الرسول معصوما فيما يأمر به وينهىٰ عنه

---

(١) سورة الحديد ، آية (٢٨) .

(٢) سورة الشورىٰ ، آية (٥٢) .

(٣) مجموع الفتاوىٰ ١١/٢١٧ .

(٤) السابق ٢٠٥ و٢٠٧ وانظر درء تعارض العقل والنقل ٨/ ١٣٥ .

لكان حكمه في ذلك حكم الرسول والنبي المبعوث إلى الخلق ورسول إليهم ، بخلاف من لم يبعث إليهم . . . فإن العصمة في ذلك ليست لغير الأنبياء عليهم السلام بل كان من سوى الأنبياء يؤخذ من قوله ويترك ، ولا تجب طاعة من سوى الأنبياء والرسل في كل ما يقول ـ لذا أمر الله عند ـ التنازع بالرد إلى الله وإلى الرسول ، إذ المعصوم لا يقول إلا حقا ، ومن علم أنه قال الحق في موارد النزاع وجب اتباعه ، كما لو ذكر آية من كتاب الله تعالىٰ ، أو حديثا ثابتا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد به قطع النزاع .

أما وجوب اتباع القائل في كل ما يقوله من غير ذكر دليل يدل علىٰ صحة ما يقول فليس بصحيح ، بل هٰذه المرتبة هي مرتبة الرسول التي لا تصلح إلا له . .)[1] .

(وكل من ليس بنبي ، فليس برسول الله وليس بمعصوم وإن كان له خوارق عادات كأولياء الله من المسلمين وغيرهم ، فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق ، فليسوا معصومين من الخطأ ، والخوارق التي تجري علىٰ يدي غير الأنبياء لا تدل علىٰ أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء فضلا عن كونهم معصومين ، فإن ولي الله من يموت على الإيمان)[2] .

وبهٰذا نكون قد عرفنا من صريح نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية :

ما هي الولاية لغة وشرعا ؟

وفهمنا من منطوقها ما يأتي :

١ـ أن الولاية بمعناها الصحيح هي القرب والمحبة ، وأن العبد المؤمن إذا تقرب إلى الله تعالىٰ بالطاعات أحبه الله وقربه .

٢ـ لا ولاية إلا عن طريق رسل الله والتزام أوامر الله ونواهيه .

٣ـ فمن التزم شرع الله ووالىٰ طاعة الله تعالىٰ يقذف الله في قلبه من نوره

---

(١) السابق ٣٥/ ١٢٠ـ١٢٣ وانظر الرد على المنطقيين ٥٨٧ .

(٢) الجواب الصحيح ٢/ ٨٣ ، ٨٤ وانظر منه ٣١٦ وقارن بما في الرد على المنطقيين ٥١٠ .

وتكون له إلهامات ومكاشفات وفراسة صائبة ، ولٰكن عليه أن لا يعمل بشيء من ذلك إلا بعد اعتباره بالكتاب والسنة .

٤ـ لا عصمة لأحد من الناس في الأقوال والأعمال والإلهامات سوى الأنبياء ، لذا لا تجب طاعة أحد سواهم في كل ما يقوله أو يدعو إليه إلا بعد معرفة دليله من الكتاب والسنة .

٥ـ الكرامات والخوارق التي يجعلها الله لأوليائه من دلائل صدق رسله وبراهينه علىٰ معجزاتهم ، لذلك لا تكون إلا للمتبع للأنبياء حقا ، وهي كذلك من المعجزات والآيات الصغرى التي لا تبلغ في عظمها أو مثلها إلىٰ آيات النبوة كما هو ظاهر من الوقائع والأمثلة المعروفة في كتب أهل العلم .

الولاية وختمها :

٦ـ ضل في مسألة الولاية وما تثمره طوائف من الأمة ، فطائفة نفتها وكذبت بالكرامات ، وطائفة غلت فيها وبالغت في الادعاءات حتىٰ ألحقت الأولياء بالأنبياء ، أو رفعت من هو من أعداء الله إلىٰ ما فوق مقام النبوة والرسالة ، الأمر الذي فتح الباب أمام زنادقة المتفلسفة والصوفية والشيعة للدس في الإسلام باسم ولاية الله تعالىٰ حتىٰ تعدوا علىٰ مقام النبوة وحطوا منه ليرفعوا من أنفسهم بالافتراءات المضادة للولاية رأسا :

(ونجد كثيرا من هٰؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله انه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة. . . وكرامات أولياء الله تعالىٰ أعظم من هٰذه الأمور)[1] .

(وتارة يدعي أحدهم أنه خاتم الأولياء ظانا أن خاتم الأولياء أفضلهم ، قياسا علىٰ خاتم الأنبياء ، ثم يدعون لخاتم الأولياء ما هو أعظم من النبوة والرسالة .

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١١/١١٣ ، ١١٤ .

وخاتم الأولياء كلمة لا حقيقة لفضلها ومرتبتها ، وإنما تكلم أبو عبد الله الترمذي[1] بشيء من ذلك غلطا لم يسبق إليه ولم يتابع عليه ، ولم يستند فيه إلىٰ شيء .

ومسمىٰ هٰذا اللفظ هو : آخر مؤمن يبقىٰ ، ويكون بذلك خاتم الأولياء ، وليس ذلك بأفضل الأولياء باتفاق المسلمين . . .)[2] .

وفي نصوص أخرىٰ يحدد شيخ الإسلام ابن تيمية هٰذه الطائفة التي صدرت عنها هٰذه المعتقدات الفاسدة والادعاءات الكفرية الباطلة فيقول : (ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء ، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء افضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته كما يزعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب : الفتوحات المكية ، وكتاب : الفصوص . فخالف الشرع والعقل مع مخالفته جميع أنبياء الله تعالىٰ وأوليائه)[3] .

وغالبا ما يربط شيخ الإسلام ابن تيمية بين معتقدات هٰؤلاء الملاحدة وبين معتقدات إخوانهم من ملاحدة المتفلسفة الصابئة وزنادقة المتصوفة الأوائل ليبرهن علىٰ أن مصادرهم في كفرهم واحدة ، ومشاربهم ــ وإن تنوعت عباراتهم ــ متحدة .

وهٰذا المسلك هو الذي تمكن به من فضحهم وكشف زندقتهم وإعلان كفرهم وسعيهم في هدم أصول الإسلام التي بني عليها[4] .

---

(١) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر ، أبو عبد الله الحكيم الترمذي الصوفي ، انظر الطبقات الشافعية ، للسبكي ٢/ ٢٠ وما بعدها .

(٢) بغية المرتاد ٣٩٢ ، ٣٩٣ وقارن بالنبوات ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٣) الفتاوىٰ ١١/ ٢٢٣ وانظر شرح العقيدة الأصفهانية ١٥٧ـ١٥٩ و١٧٣ـ١٧٥ . بغية المرتاد ٣٩٢ ، ٣٩٣ وقارن بالنبوات ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٤) انظر بغية المرتاد ٢٢٨ ٤٩٢ ، ٤٩٣ وقارن بما في كتاب : التنبيه والرد علىٰ أهل الأهواء والبدع ، تأليف محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي ط١ بغداد ٩٣ـ٩٥ .

قال : (والمقصود هنا الكلام على النبوة ، فهٰؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها ، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم ، وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم ، فإنهم اعتقدوا مذهبهم وتصوفوا عليه ، ولهٰذا يقول ابن عربي .

إن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وأن الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأولياء علم التوحيد ، وأنه هو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ، الذي يوحي به إلى الرسول ، فإن الملك عنده هو الخيال الذي في النفس ، وهو جبريل عليه السلام عندهم ، وذلك الخيال تابع للعقل ، فالنبي عندهم يأخذ عن هٰذا الخيال ما يسمعه من الصوت في نفسه)(١) ، (ومنهم من يقول ـ أن النبي ـ ما كان يعلم الحق كما يعلمه نظار الفلاسفة وأمثالهم . وهٰؤلاء يفضلون الفيلسوف الكامل على النبي ، ويفضلون الولي الكامل الذي له هٰذا المشهد على النبي ، كما يفضل ابن عربي الطائي خاتم الأولياء ـ في زعمه ـ على الأنبياء)(٢) .

وبهٰذا يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن طوائف من المنتمين للتصوف والإسلام اعتقدوا مذاهب الصائبة التي لا دين لها ، وتصوفوا على الجرأة على التلاعب بالدين ، والإتيان بما يخالف الشرع والعقل والإجماع والحس .

وبذلك تقرر عند العلماء تكفيرهم والسعي الدائم في محاربتهم وكشف باطلهم ومنع الناس من قراءة أضاليلهم إذ إن من يقول :

(إن العارف قد يطلع على اللوح المحفوظ ، وأنه يعلم أسماء مريديه من اللوح المحفوظ ، أو أنه يعلم كل ولي كان ويكون لله من اللوح المحفوظ ـ فإن ـ هٰذا باطل مخالف لدين المسلمين وغيرهم من أتباع الرسل)(٣) ، وكذلك

---

(١) النبوات ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٩ ، ١٠ وانظر ٨/ ٥٩ وقارن بما في ٥/ ٢٣ و٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٣) الرد على المنطقيين ٤٧٥ .

كل من يدعي الولاية ويقول مع ذلك إن الرسول : (مرسل إلىٰ عامة الخلق وإن لله أولياء خاصة لم يرسله إليهم ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته كما كان للخضر مع موسىٰ ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها ، وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها ، أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته . . . فهـٰؤلاء كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله . . .)(1) ، (فمن اعتقد أن في أولياء الله من لا يجب عليه اتباع المرسلين وطاعتهم فهو كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل)(2)

فحال هـٰؤلاء الملاحدة عن شيخ الإسلام ابن تيمية كحال من قال :

(فخر عليهم السقف من تحتهم) ، فقيل له : (لا عقل ولا قرآن ، فإن المتأخر يستفيد من المتقدم دون العكس ، والأنبياء أفضل من غيرهم ، فخالفوا الحس والعقل مع كفرهم بالشرع)(3) .

وبهـٰذا نكون قد أجبنا على السؤال الذي انطلقنا منه في بداية هـٰذا المبحث وهو : ما هي مصادر هـٰؤلاء الخائضين في مباحث الولاية وختمها ، المقارنين بين معارف الأنبياء وأولياء الرحمن وبين معارف أولياء الشيطان من ملاحدة الفلاسفة وزنادقة المتصوفة ؟

ثم ما هي مقاصدهم ؟ وما هو المنهج الذي سلكه شيخ الإسلام ابن تيمية لهدم باطلهم ، وبيان مقاصدهم وفضح حيلهم ودجلهم ؟

وبيان ذلك فيما يأتي :

أنه قرأ لأسلافهم من الفلاسفة والمناطقة وتصور مبادئهم ثم طبقها علىٰ

---

(1) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ١٦٥ وانظر معها ١٦٨ ، ١٦٩ وقارن بالرد على المنطقيين ٥١٦ .

(2) المرجع السابق ٤/ ٣١٨ واعتبره بما في ١٧٣ وانظر درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠٤ ، ٢٠٥ ومجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(3) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٤ وقارن بما في الصفدية ١/ ٢٤٤ و٢٤٧ وانظر منها ٢٦٥ .

كلامهم وواقع صالحهم فكانت النتيجة التي توصل إليها بهٰذا الاستقراء أن هٰؤلاء امتداد لأولٰئك وبالتالي : (فلا يوجد للنبوة عندهم ما تستحقه من التصديق والاحترام ، ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبري ، وهي الإنباء بالغيب وهي خاصة النبوة)[١] .

وأمر النبوة أعظم من هٰذا القدر الذي صوروها به واعتقدوها عليه ، ذلك أنهم اتبعوا أقواما لا يثبتون لله تبارك وتعالى العلم والإرادة فكان ذلك هو منشأ ضلالهم في النبوات وما يتصل بها من ولاية وغيرها مما له تعلق بالعلم الغيب[٢] .

ومن أوضح الدلائل عند شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ أن هٰؤلاء الملاحدة وأسلافهم لا يعرفون للنبوة قدرها أنهم يتطاولون لنيلها ويرون أن ختمها تحجير من النبي صلى الله عليه وسلم .

والقدر الذي يثبتونه للنبي من الخصائص والقوى القدسية والنفسانية حق لا ينكر لأن الأنبياء بلا شك امتازوا في هٰذه الأمور عن غيرهم ، (لٰكن ـ هٰؤلاء ـ كفرهم فيما كذبوا به من الحق) ؛ إذ دعواهم أن هٰذا هو منتهىٰ خصائص الأنبياء بل إن ما أثبتوه للأنبياء :

(قد يحصل للرجل الصالح العالم ، والمخاطبات والمكاشفات التي يثبتونها للأنبياء تحصل لكثير من عوام الصالحين . . .)[٣] .

ومن ظن أنه فيه طريقا إلىٰ ولاية الله غير طريق الأنبياء فهو غالط غلطا عظيما يجره إلىٰ ما جر هٰؤلاء إليه من الكفر ومخالفة العقل والحس والشرع وإجماع أهل الملل كلها[٤] .

ولا سلف لهٰؤلاء في الكلام في ختم الولاية من المشايخ المتقدمين إلا

---

(١) النبوات ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
(٢) انظر الصفدية ١/ ٢٦٧ و٢٨٢ ، ٢٨٣ وقارنه بالنبوات ٣١٢ ، ٣١٣ و٣٦٤ .
(٣) الصفدية ١/ ١٣٤ ، ١٣٥ وانظر النبوات ٢٩٦ و٢٩٨ و٣٠٧ .
(٤) انظر النبوات ٣١٢ والرد على المنطقين ٥٨٧ .

ما أسلفناه عن محمد بن علي الحكيم الترمذي وقد رد عليه وطرد من بلده بسبب أغلاطه في هٰذه الكتب وما ضمنها من أمور لم يسبق إليها ولم يتابع عليها بل رمي بسببها بالضلال[١] .

أما من بنىٰ من متفلسفة الصوفية معارفه علىٰ نظرية الكشف والفيض والأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي إلى النبي ، فهٰؤلاء قد اتضح أنهم تابعون في هٰذا المذهب إلى الفلاسفة القائلين بنظرية العقول العشرة[٢] .

وهٰذه نظرية باطلة وما بني على الباطل فهو باطل ، وبالتالي يكون قياسهم فضل خاتم الأولياء علىٰ خاتم الأنبياء قياس باطل ، إذ علمنا أن مرادهم لا حقيقة له ومسماهم لا وجود له بل حقيقة أمرهم القول بأن (وجود المخلوق هو وجود الله)[٣] .

وعليه فهٰؤلاء من الذين يدعون أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلىٰ محمد صلى الله عليه والسلام وصاحب هٰذه الدعوىٰ : (كافر ملحد)[٤] .

وإذا بطل الأساس الذي بنوا عليه نظريتهم وتبين فساد قياسهم بالإضافة إلىٰ وجود النص المانع منه ـ علمنا أن : (أفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلى الله عليه وسلم)[٥] .

وبما تقدم يكون شيخ الإسلام ابن تيمية امتاز علىٰ من سبقه من العلماء في

---

(١) انظر الصفدية ١/٢٤٨ وانظر الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية الدكتور/ عبد الفتاح عبد الله بركه ط مجمع البحوث الإسلامية ٢/ ١٤٠ وما بعدها .

(٢) انظر مجموع الفتاوىٰ ١١/٢٢٦ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٤ و١٠/ ٢٠٤ و٢٠٥ .

(٤) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٢٥ وانظر درء التعارض ٧/ ٥٨ ، ٥٩ .

(٥) السابق ١١/ ١٦١ وقارن بما في ٣٥/ ١٢٢ ، ١٢٣ و١٢٦ وما بعدها .

التصدي لهٰذه المسألة التي حاول هٰؤلاء الملاحدة عن طريقها تعطيل النبوة من أصلها وبالتالي إبطال الشرائع من أساسها .

كما كان له قصب السبق في الرد على الذين روجوا لها من ملاحدة المتصوفة حتىٰ لم يترك لهم منفذا يخرجون منه إلا أبواب الزندقة والإلحاد التي فتحوها علىٰ أنفسهم ، ومن شهد لهم بخلاف ذلك : (فهو جاهل أو زنديق)[1] .

ونحن نعوذ بالله من الجهل والزندقة ونعتصم به من الدجل والمخرقة ونفر من ذلك إلى الكتاب والسنة .

* * *

(١) السابق ٣٥/١٢٦ .

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

رأينا في الفصول السابقة من هٰذا الباب أن مفهوم النبوة وحقيقتها عند الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية يتفقان في أصولها الأساسية والتي هي باختصار :

أ ـ أن النبي هو من نبأه الله بوحيه حتىٰ صار متميزا علىٰ غيره من الناس إذا صارت له خاصية الاطلاع على الغيب علىٰ مقتضىٰ أمر الله تعالىٰ وقدره جل وعلا .

وبذلك لا يكون النبي بعد أن نبأه الله قابلا لوحي غير الله وعليه فما يأتي به حق وصدق يجب الإيمان به والانقياد له ، إذ كان محل ثقة تامة وأنه بالتالي لا تسلط لشياطين الإنس والجن عليه .

ب ـ أن الرسول هو من أرسله الله بما نبأه به ليبلغه لمن أمر بإبلاغهم ، فإن كانوا مشركين فهو رسول مطلق ، وإن كانوا علىٰ دينه ولٰكن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وصار كثير منهم فاسقون فهو نبي رسول إذ جمع الله له بين أصل النبوة وهو الإنباء وبين الرسالة التي هي الأمر والتكليف بالدعوة إلى التوحيد والإبلاغ . وبهٰذا يتضح أن كلا منهما يفرق بين النبوة والرسالة بدرجة ما .

جـ ـ أن النبي الرسول يأتيه وحي خاص به من الله تعالىٰ لا يشاركه فيه سواه ، وهٰذا الوحي علىٰ أنحاء فيشمل الرؤيا المنامية ، والقذف في القلب بالإلهام ، والملك الموكل بالوحي إلى الأنبياء وهٰذا تارة يأتي علىٰ صورته الملائكية ويكون ذلك أشد على النبي ، ويأتي تارة علىٰ صورة رجل حسن الهيئة بهي الطلعة فيقع به الأنس ، وتارة يخاطب الله تعالىٰ عبده ورسوله من وراء حجاب تكليما ، أو يوحي إليه الأوامر والنواهي كفاحا علىٰ ما بيناه من خلاف في ذلك للنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

د ـ وتستوجب النبوة والرسالة في النبي صفات كريمة تقتضيها مهمته عقلا وشرعا ومن أبرزها :

ـ العصمة من المعاصي والذنوب الصغيرة علىٰ خلاف والكبيرة على اتفاق بعد النبوة .

ـ وجوب الأمانة على الإطلاق واستحالة ضدها وهي الخيانة .

ـ وجوب الصدق علىٰ كل حال واستحالة ضده وهو الكذب .

ـ وجوب التبليغ واستحالة الكتمان .

ـ وجوب العصمة في حال التلقي للوحي وحال تبليغه واستحالة الإقرار فيه علىٰ خطأ أو نسيان مع استحالة الغفلة والبلادة .

ـ وجوب رجاحة العقل وقوة البيان وشدة الفطنة والذكاء .

هـٰذا مع إعجازه لغيره في أصول الأخلاق الأخرىٰ .

هـ ـ وبهـٰذا يتضح أن الولاية عندهما هي للتابع للنبي المستقيم علىٰ شرعه الطائع لأوامره المجتنب لنواهيه المكثر من القرب والنوافل مع الإخلاص التام لله تعالىٰ في ذلك .

ومن كان هـٰذا حاله نال ولاية الله تعالىٰ بحيث يوضع له القبول في الأرض ويكون الله تعالىٰ عدوا لمن عاداه وحرباً لمن حاربه .

وبالتالي يكون مسددا موفقا محفوظا بحفظ الله في غالب أحواله من الدنايا والبلايا والذنوب والمعاصي والرزايا .

فإذا طلب العلم أعين عليه من الله تعالىٰ وقذف في قلبه نور يتم له به من التحصيل والحفظ ما لا يناله من دونه .

وإذا توجه إلى العبادة فتح له فيها . وزاده الله هدىٰ وإيماناً حتىٰ يجد لمناجاة ربه تبارك وتعالىٰ لذة وطمأنينة وانشراحا حتىٰ يكون بالحالة التي جاءت في الكتاب والسنة مثل قوله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[2] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[3] .

وقوله تعالىٰ فيمن والاه وحاد أعداءه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ . . . ﴾[4] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[5] .

فمن سوىٰ نفسه ألهمه الله بقدر ذلك معرفة بالدين والفقه فيه والإتباع له وآتاه الله من رحمته وجعل له نورا يمشي[6] به كما قال تعالىٰ : ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[7] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[8] .

فأولياء الله وصفهم الله في كتابه بقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[9] . فهذا غاية وصفهم وصفتهم .

---

(١) سورة الأنفال ، آية (٢٩) وانظر تفسيرها في القرطبي ٧/ ٣٩٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية (٢٨٢) وانظر تفسيرها في الطبري ٦/ ٩٣ والقرطبي ٣/ ٤٠٦ .

(٣) سورة الحديد ، آية (٢٨) .

(٤) سورة المجادلة ، آية (٢٢) .

(٥) سورة البقرة ، آية (٢٦٩) وانظر في تفسير الطبري ٥/ ٥٧٦ـ٥٧٨ .

(٦) انظر الطبري ٥/ ٥٧٨ .

(٧) سورة الشمس ، آية (٧ـ١٠) .

(٨) سورة النور ، آية (٤٠) .

(٩) سورة يونس ، آية (٦٢ـ٦٤) .

وقد وضحت السنة المطهرة مدىٰ هٰذه الأوصاف وما تثمره من ثمار حسنة في الدنيا والأخرىٰ حيث قسم النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل ـ أولياء الله تعالىٰ إلىٰ من يؤدي الفرائض وأن ذلك أحب ما تقرب به العبد إلى الله عز وجل .

ومنهم من يزيد على الفرائض بالمواظبة على التقرب بالنوافل إلى الله تعالىٰ حتىٰ ينال بذل محبة الله الخاصة التي تورث خيري الدنيا والآخرة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قال : من عادىٰ لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقربَ إليّ عبدي بشيء أحب إلىٰ مما افترضته عليه .

وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته)[١] .

فهٰذا الحديث القدسي الذي جزم شيخ الإسلام ابن تيمية أنه أشرف حديث روي في صفة الأولياء[٢] ، يوضح أن أولياء الله عباد متبعون لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم بذلك الاتباع نالوا قرب الله وحبه ثم هدايته وتوفيقه وإجابته لدعائهم عند المسألة والاستعاذة به وبذلك كان حربا علىٰ من عاداهم[٣] .

وبذلك قذف في قلوبهم الإيمان وسهل عليهم العلم ويسر عليهم العمل

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب التواضع ، الحديث (٦٥٠٢) .
(٢) انظر مجموع الفتاوىٰ ١٨/ ١٢٩ .
(٣) انظر جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، تأليف عبد الرحمن بن شهاب الدين ، زين الدين أبي الفرج الشهير بابن رجب ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس ط٢ ، مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ ٢/ ٣٣٠ وما بعدها .

حتى استحقوا بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند الترمذي[1] : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ ـ النبي صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ الآية ، وقد جاء في بيان تفسيرها أن المتوسمين هم المتفرسون الناظرون ببصائرهم الصافية والمعتبرون بأفكارهم الثاقبة[2] .

فهٰذه الأحاديث وما في معناها مصداق لحديث وكيع بن الجراح الذي خرجه في تفسيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : (من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه ، غير أنه لا يوحىٰ إليه)[3] .

فهٰذا النعت الذي شرحناه علىٰ ضوء الكتاب والسنة مما يتفق عليه الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية . ويبقىٰ في التعقيب الأمور الآتية :

أ ـ أن الإمام الغزالي قد جمع إلىٰ ما سبق من الأمور الصحيحة الموافقة للكتاب والسنة في بيان منزلة الولاية من النبوة أقوالا ونصوصا أخرىٰ شوشت على الباحثين منهجه في مسألة الولاية من الناحية العلمية إذ قال بأقوال فلاسفة الباطنية المقلدين الفلاسفة الهرمسية[4] في نظرية المعرفة والمذهب العرفاني علىٰ ما سبق عنه في بيان رأيه والتعليق عليه في حينه[5] .

---

(١) المذكور ، أبواب التفسير ، سورة الحجر آية (٧٥) .

(٢) وانظر تحفة الأحوذي عند الحديث (٣٣٣٤) ٨/ ٤٤٠ ، ٤٤١ وقارن بما في كتاب الفراسة للإمام فخر الدين الرازي ، تحقيق مصطفىٰ عاشور ، مكتبة القرآن ، الفصل الثاني ٢٨ وما بعدها .

(٣) ابن كثير ١/ ٣٢٢ ، وفيه راو لم يسم ، وانظر الطبري ٥/ ٥٧٦ وما بعدها .

(٤) الهرمسية نسبة إلىٰ هرمس : إله الحكمة المزعوم عند قدماء المصريين واليونان ، ويسمىٰ هرمس الهرامس ، والهرمسية ديانة فلسفية سرية ، وكانت سائدة في الشرق الأوسط قبل ظهور الإسلام . انظر : الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، تأليف الدكتور/ ناجي التكريتي ، دار الشئون الثقافية العامة ط٣ ١٩٨٨م ، ١٤٧ وما بعدها .

(٥) انظر كيمياء السعادة ٢٣ ـ ٢٧ والرسالة اللدنية ١٠٦ ، ١٠٧ وقارن بما في كتاب : بنية العقل العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية للدكتور/ محمد عابد =

بـ وأنه علاوة علىٰ أن الإمام الغزالي يشرح نظرية المعرفة والمذهب العرفاني بمصطلحات فلسفية يقلد فيها ابن سينا[1] ، فإنه يتدرج في كلامه حتىٰ يصل إلىٰ درجة يصرح فيها بأن ما قاله يوهم اتحادا أو حلولا وأن العبارة تضيق عن النطق بما يريد أن يبوح به[2] .

فهٰذا المسلك مما أُخذ على الإمام الغزالي واتهم بسببه بأمرين :

الأول : أنه قلد الفلاسفة الإشراقيين في نظرية الفيض والاستمداد من العقول وتصوير النفس في التلقي عن العقل الكلي بالمرآة وما يقابلها من اللوح المحفوظ بالمرآة الصافية أيضا وأنه ينقش فيها العلم المسطور فيه إما كليا وإما جزئيا .

وهٰذا ما تقدم بيان وجه بطلانه وأنه من الدعاوى العريضة التي لا دليل عليها ولا بينه تدعمها بل إن الواقع يبطلها مهما كانت النفس مرتاضة والقلب صافيا[3] .

ومن هنا قال العلماء بأن الإمام الغزالي بهٰذا المنهج الذي دخل فيه بمداخل متعددة قد أتىٰ بما يخدش في أصل النبوة وأن كثيرا من كلامه في هٰذه المسألة ينتهي إلىٰ لا شيء حيث يتابعه القارىء ليصل إلىٰ تقرير نهائي يعتمد عليه ويحكم به حكما موافقا لما عليه علماء السلف أو نظار المتكلمين من أهل السنة فلا يجد بعد العناء إلا خليطا يمتزج فيه الإسلام بأفكار الصابئة ونتائج عقول الفلاسفة وخيالات المتصوفة[4] .

= الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ط٤ ١٩٩٢م ، ٢٥١ وما بعدها .

(١) انظر له أحوال النفس ١١٤ وما بعدها وإثبات النبوات ٤١ ما بعدها .

(٢) انظر الإحياء ١/ ٧٨ و١١٢ و٣/ ٢١ـ٢٨ ومشكاة الأنوار ١٣٧ـ١٤١ والمنقذ ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) انظر قانون التأويل ٣٤٢ـ٣٤٨ والمعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة) ناجي حسين جوده ، دار الجيل بيروت ط١ ، ١٤١٢هـ ١٩٨ـ٢٠١ و٢٢٢ وما بعدها . والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية عرضا ونقدا ، تأليف صادق سليم صادق ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، ٣٨١ وما بعدها .

(٤) انظر الرد على المنطقيين ٥١٤ ٥٢٤ والنبوات ١١٧ـ١٢١ وبغية المرتاد ١٨٤ـ١٩٩ والصفدية=

الثاني : اعتُبر الإمام الغزالي بذلك قد فتح الأبواب أمام غلاة فلاسفة المتصوفة ومهد الطريق بفكره الفلسفي الإشراقي الصوفي ليعبر منه ابن سبعين وابن عربي لهدم الإسلام من الداخل بالترويج لعقيدة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود المطلقة وبالتالي تعطيل أصل النبوات واختصاص الأنبياء بالوحي ، وهٰذا رجوع من الإيمان إلى الكفر وردة عن الإسلام باسم الولاية والمعارف الإشراقية الفلسفية الهرمسية التي كانت شائعة قبل الإسلام بعهود طويلة[١] .

ويكون هٰذين الاتهامين مقبولان إلىٰ حد كبير لما كتب الإمام الغزالي مما يؤيد توجيههما إلىٰ منهجه الذي أسلفنا اضطرابه من خلال ما عرضناه من نصوصه التي كتبها في مراحل متباعدة من حياته العلمية والعملية .

ولٰكن لابد من القول بأن قبول مضمون ذينك الاتهامين الكبيرين لا يتم إلا علىٰ ضوء الملاحظات الآتية بناء علىٰ ما يجب في البحوث العلمية من إنصاف وتفصيل في الأحكام .

والملاحظات هي باختصار :

١ـ أن الإمام الغزالي يفضل النبي علىٰ غيره من كبار الأولياء والحكماء والفلاسفة . وهٰذا جلي في نصوصه التي أسلفناها .

٢ـ أنه يرىٰ أن العقلاء مجمعون علىٰ أنه لا يجوز أن ترقىٰ كرامة ولي إلىٰ درجة معجزة نبي ، ولا عصمة إلا للأنبياء ولا تردد عنده في تكفير من يحاول فتح باب ختم النبوة بالنبوة المحمدية[٢] .

= ٢٣٧/١ ، ٢٣٨ و٢٤٧ـ٢٥٢ و٢٦٧ وقارن بما في كتاب تكوين العقل العربي للدكتور/ محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ط٥ ، ١٩٩١م ، ٢٨١ـ٢٩٠ .

(١) انظر الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ٤٥٨ وقارنه بالفلسفة النورانية القرآنية عند الغزالي ٢٦٩ وما بعدها و٣٠٥ وما بعدها . واعتبره بما في كتاب التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ١٨٣ وما بعدها .

(٢) انظر مثلا : الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٣ و١٤٤ و١٥٦ ، ١٥٧ـ١٥٩ .

٣ـ ولا يعتمد في شيء من الأحكام علىٰ غير الكتاب والسنة وأدلة ذلك ظاهرة من كثرة حثه على الاعتصام بالوحي وأنه هو المعصوم[١] .

٤ـ ولا يتردد في وجوب تكفير من كذب الرسول وقتل من قال بمذهب الإباحة أو عطل الشريعة واعتمد في عمله علىٰ مقتضىٰ عقله وفلسفته[٢] ؛ لذا أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن الملاحدة لما رأوا أن الإمام الغزالي لا يوافقهم في ادعاءاتهم (استضعفوه ونسبوه إلىٰ أنه مقيد بالشرع والعقل . . .)[٣] .

وبهٰذه الملاحظات وما تقدم في هٰذا المبحث التعقيبي نكون قد أوضحنا ما للإمام الغزالي وما عليه في مفهوم النبوة والولاية .

٥ـ ويبقىٰ أن نقرر حقيقة تعم هٰذا الفصل وما سبقه من فصول هٰذا الباب وهي : أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان مرتبطا بالكتاب والسنة غير مهمل لمصادر المعرفة الأخرىٰ .

وقد رأيناه جند طاقاته لبيان مفهوم النبوة وحقيقتها من خلال نصوص الوحي ودلالات العقول وتجارب الحياة العلمية للبشرية ، لذا كان ملتزما بمنهج علماء السلف وما عهد عنهم من الحرص علىٰ حماية أصول الدين والذب عنها بكل الوسائل المشروعة التي توصل إلىٰ بيان الحق ودحض الباطل .

وعليه فكان مسلكه مستقيما لم تخالطه المناهج الأخرى التي دخل فيها ليرد علىٰ خصوم الملة وأذنابهم من ملاحدة وحدة الوجود وأهل الأهواء والبدع ،

---

(١) انظر القسطاس المستقيم ٤٢ وما بعدها . وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ١٣٢ـ١٣٣ ، وقارن بما في فضائح الباطنية ٤٠ ، ٤١ واعتبره بما في مهرجان الغزالي ، أبو حامد الغزالي ، مصدر المعرفة عند الإمام الغزالي ، محمد جواد مغنية ٥١٤ـ٥٢١ .

(٢) انظر فيصل التفرقة ١٣٦ ، ١٣٧ والمنقذ ٧٣ ، ٧٤ ، ومشكاة الأنوار ١٦٠ ، ١٦١ والمقصد الأسنىٰ ١٣٤ وما بعدها .

(٣) النبوات ١١٨ وقارنه بما في إحياء علوم الدين ٣/ ٣٧٩ـ٣٨١ ، وفيصل التفرقة ٨٨ ، ٨٩ .

وبذلك حفظه الله تعالىٰ مما وقع فيه غيره لتعمقه في الكتاب والسنة وتمسكه بعقيدة السلف الصالح[1] . فتلك حقيقة رأينا من الواجب إبرازها حرصا علىٰ ما يجب في البحوث العلمية من الإنصاف والموضوعية . والله أعلم . .

* * *

(١) انظر مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ، مصدر سابق ٤٩ وما بعدها ، و٧٥ وما بعدها .

الباب الثاني

حاجة الناس للنبوة
وحكم إرسال الرسل

الفصل الأول

حاجة الناس للنبوة

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي

تولى الباب الأول بفصوله الأربعة بيان حقيقة النبوة والرسالة حتى اتضح أن خاصيتهما هي الاطلاع على الغيب الذي لا يكون في الفطرة تفصيله ولا يدرك بالعقل تحصيله لأنه لا ينال إلا بوحي خاص من الله تعالىٰ لعبد خاص من عباده الذين اصطفاهم لذلك ، واختارهم علىٰ علم منه وإرادة ، فعلمهم من علمه وأمرهم بأمره وبعثهم هداة لخلقه ، فميزهم بذلك علىٰ سائر خلقه وشرفهم بأنواع من الكمالات وحلاهم بأحسن الصفات وزكاهم بأجمل الشمائل والخلاق السنيات .

وما دام هـٰذا العلم الذي أتوا به غير محصّل في الفطر السليمة ولا مدرك له بالنظر والتفكر في العقول المستقيمة فإنه لا يتعلم إلا عن طريقهم ولا يفهم إلا بتفهيمهم لأنهم خصوا به وكلفوا بتعليمه وتبليغه مع العمل به .

وهـٰذا فعلا ما قاموا به حتىٰ تعلم الناس منهم علوما كثيرة لا تنال السعادة والحياة الكريمة إلا بها ولا تدرك الشقاوة إلا من كفر بها وأهمل العمل بموجبها .

وعليه فالناس بحاجة إلىٰ ما يجلب لهم السعادة ويجنبهم الشقاوة ويبصرهم بما ليس في فطرهم ولا تصل إليه فكرهم مما تصلح به حياتهم الفانية والباقية .

ومن خلال تفهمي لرأي الإمام الغزالي في وجه حاجة الناس للنبوة والرسالة في المبحث الأول من هٰذا الباب ألفيته يسلك في بيان ذلك الوجه مسالك متعددة ويوضحه بمداخل كثيرة إذ يقرر : (أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة خلق خاليا ساذجا لا خبر معه عن عوالم الله تعالىٰ . والعوالم ـ كما يقول ـ كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالىٰ . . . وإنما خبره عن العوالم بواسطة الإدراك)[1] .

ويريد الإمام الغزالي بالعوالم الموجودات المحسوسة التي يطلع عليها الإنسان بالسمع والبصر والذوق واللمس بالتدرج حسب نموه المتطور حتىٰ يكون مميزا يدرك أمورا زائدة علىٰ عالم المحسوسات إلىٰ أن : (يخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات المستحيلات)[2] .

وهٰذا العقل الذي كرم الله تعالىٰ به بني آدم من أعظم ما شرفه به إذ به تأهل لمعرفة الله تعالىٰ والفهم عنه ، وهو مع ما ركب فيه من إدراك الأمور التي ضاق عنها نطاق المحسوسات فإنه : (عاجز عن معرفة نفسه إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفة وهيئة أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذي وصفه للعلم به ومقر بالجهل بنفسه)[3] .

فدله جهله بنفسه مع ما فيه من إدراك الدقائق والضروريات أنه مخلوق مدبر ومصنوع مصور لا يعلم إلا ما علم ولا يتجاوز الرسم الذي رسم لذا : (فالنبي يرد مخبرا بما لا تشتغل العقول بمعرفته ، ولٰكن تستقل بفهمه إذا عرف ، فإن العقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولا يفرق بين المشقي والمسعد)[4] .

---

(١) المنقذ ٦٦ .
(٢) المرجع السابق ٦٦ .
(٣) الحكمة في مخلوقات الله عز وجل ٤٣ .
(٤) الاقتصاد في الاعتقاد ١٢٣ .

وبهٰذا يتبين وجه حاجة الناس للنبوة والرسالة عند الإمام الغزالي إذ ما دامت الفطرة بما ركز فيها من وجود الله تعالىٰ وربوبيته ، وكان العقل يدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات العقلية فقط ولا يشتغل بما وراء ذلك علمنا أن معرفة الله تعالىٰ بألوهيته وأسمائه وصفاته وما يرضيه وما يسخطه وما يأمر به أو ينهىٰ عنه وما يسعد عنده السعداء أو يشقى الأشقياء وما أعده لعباده المؤمنين من الثواب وما ينتظره الكفار من العذاب والنكال لا يعلم ذلك كله إلا بتعليم من جهته بواسطة رسله وأنبيائه)[١] .

فتحقق بذلك اضطرار الخلق وحاجتهم إلى النبوة والرسالة إذ ليس في فطرهم مهما كانت سليمة ما ينالون به تفاصيل معرفة الله وتوحيده بألوهيته وأسمائه وصفاته ومعرفة ذلك هي أسعد شيء لقلب الإنسان وروحه ، وليس في عقولهم ما يعلمون به على التفصيل أسباب السعادة في الدنيا والأخرىٰ فيأتونها ولا أسباب التعاسة والشقاوة فيجتنبونها[٢] .

ومن مسالك توضيح الإمام الغزالي لوجه حاجة الناس للنبوة أنه نظر إلىٰ واقع الإنسان فوجد حركاته الاختيارية تشمل حركة فكرية يدخلها الحق والباطل ، وقولية يدخلها الصدق والكذب ، وعملية يدخلها الخير والشر ـ : (ولا يشك في أنها علىٰ تضادها واختلافها ليست واجبة الفعل بحملتها واجبة التحصيل . . . فظهر من هٰذا أن بعضها واجب الترك وبعضها واجب الفعل ، وإذا ثبت هٰذا فقد ثبت حدود في الحركات حتىٰ كان بعضها خيرا واجب الفعل ، وبعضها شرا واجب الترك .

فالتمييز بين حركة وحركة بالحدود ، ولا يخلو إما أن يعرفه كل واحد أو لا يعرفه أحد أو يعرفه بعض دون بعض .

---

(١) انظر المنخول ٦٢ والإحياء ١/ ٧٩ ، ٨٤ ، ١٠٥ .

(٢) انظر إلجام العوام عن علم الكلام ٩٧ ، ٩٨ وكيمياء السعادة ضمن مجموعة الرسائل رقم (٥) ١٣٩ وما بعدها .

وظاهر أنه لا يعرفه كل واحد وباطل أنه يعرفه كل أحد ، فظهر أنه يعرفه أحد دون أحد .

فثبت بالتقسيم الأول : حدود في الحركات .

وثبت بالتقسيم الثاني : أصحاب حدود يعرفونها وهم الأنبياء وأصحاب الشرائع عليهم الصلاة والسلام)[١] .

فهٰذه الحركات الاختيارية لا يعرف الحق والصدق والخير منها من أضدادها الباطل والكذب والشر إلا من كان يملك برهانا زائدا علىٰ بني جنسه يميز به بين واجب الفعل منها من واجب الترك ، ولا يملك ذلك المميز الفارق إلا الأنبياء الذين سماهم الإمام الغزالي أصحاب حدود وشرائع ، وأوجب علىٰ من لم يكن عارفا بالحدود أن يكون في حكم أصحاب الحدود[٢] .

والمسلك الثاني هو أن الإمام الغزالي اتضح له أن الإنسان لابد له من ملة وشريعة نظراً لحاجته لإصلاح حاله في تلك الحركات الاختيارية إذ هو محتاج إلى الاجتماع والمعاملات وتبادل المصالح والمنافع وجلب الخير ودفع الشر وتجنب الضر[٣] .

(وبيان ذلك أنه - أي الإنسان - في استبقاء حياته واستحفاظ نوعه وحراسة ماله وحريمه يحتاج إلىٰ تعاون وتمانع .

أما التعاون فلتحصيل ما ليس له ما يحتاج إليه في مطعمه وملبسه ومسكنه . وأما التمانع فلحظ ماله من نفسه وولده وحريمه وماله وكذلك في استحفاظ نوعه يحتاج إلىٰ تعاون في الازدواج والمشاركة . وتمانع يحفظ ذلك علىٰ نفسه)[٤] .

---

(١) معارج القدس ١٣٣ .
(٢) السابق .
(٣) انظر السابق ١٣٤ .
(٤) السابق ١٣٤ .

وهٰذا الذي ذكره الإمام الغزالي من ضروريات وجود الإنسان وبقائه في حالة من الاجتماع والاستقرار الذي يكفل له حياة كريمة بوصفه مخلوقاً مكرما لم يخلق عبثا ولم يترك سدىٰ ، لذا أوضح الإمام الغزالي : أن هٰذا : (التمانع والتعاون يجب أن يكونا علىٰ حد محدود وقضية عادلة وسنة جامعة مانعة .

ومن المعلوم أن كل عقل لا يفي بتمهيد هٰذه السنة علىٰ قانون يشمل مصالح النوع جملة ويخص حال كل شخص تفصيلاً ، إلاأن يكون عقل مؤيد بالوحي مقيض للرسالة. . .)[1] .

وذلك هو النبي الذي يوحىٰ إليه وحياً من الله تعالىٰ يتضمن الأمر والنهي والعقائد والأخلاق وما يحسن من الأعمال والأقوال وما يقبح أو يجمل ، (فيتبع الحق في جميع الأمور ويتبعه الخلق في جميع الحركات ، يكلم الناس علىٰ مقادير عقولهم بعقله الواقف علىٰ تلك المقادير ، ويكلف العباد علىٰ قدر استطاعتهم بقدرته المحيطة بتلك الأقدار)[2] .

وبهٰذا يكون الإمام الغزالي أعطىٰ عناية لبيان وجه حاجة الناس للنبوة في معاشهم حيث برهن علىٰ أن الفطر والعقول مع الصحة والسلامة لا يحصل بها المطلوب فكيف وهي تمرض ويصيبها الوهن والانحراف والخلل ؟

وتقع بسبب الحرص على المنافع ودفع المضار في ألوان من الظلم وعدم الإنصاف .

إذاً فلا بد لها من ملة وشريعة تؤمن بها وتسلم لها زمامها لتحقق لها تلك المصالح وتنظم لها تلك الحركات وتميز لها بين الصالح من الطالح وتدلها علىٰ ما غرز في الفطر من الخير والشر وتبرهن للعقل علىٰ ما يدركه من الواجبات والمستحيلات والجائزات وتفصل له ما يستحسنه ، وتبين له وجه الحسن في الأعمال والأقوال والحركات ليستحث الفطرة على التمسك به ويدفع الطبع

---

(١) السابق ١٣٤ .
(٢) السابق ١٣٤ .

للحرص عليه : (والأصل في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمورا ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالىٰ والأنبياء الذين هم وسائل بين الله وبين عباده)[١] .

ومن تلك الأمور أمور الغيب التي لا تسلط للعقل أصلا علىٰ جهتها وهي علوم كثيرة شريفة لا تطلب إلا من حضرة الأنبياء ، وكل من طلبها من غيرهم فقد أخطأ الطريق : (ومن رحمة الله سبحانه وتعالىٰ لعباده أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي يعلمون الناس. . .)[٢] .

ابتداء من آدم عليه السلام إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لعلمه تعالىٰ بحاجتهم إلىٰ هـٰذه البعثة في دنياهم وأخراهم)[٣] .

وقد رأينا وجه حاجتهم لها في الدنيا فما وجه حاجتهم لها في الأخرى ؟

إن الدار الآخرة هي دار الجزاء من ثواب وعقاب وجنة ونار فلابد لها من علم وعمل ، وقد رأينا أنه لا يتوصل إلى العلم بها ولا العمل لها إلا بواسطة تعليم من الله الذي خلق الدنيا والآخرة وأفضل علوم الغيب التي هي مفتاح العلم بالآخرة وما فيها هو العلم بالله تعالىٰ .

قال الإمام الغزالي : (ولا شك أن أفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها وأجلها هو الله الصانع المبدع الحق الواحد ، فعلمه هو علم التوحيد أفضل العلوم وأجلها وأكملها ، وهـٰذا العلم ضروري واجب تحصيله علىٰ جميع العقلاء. . . فعلماء علم التوحيد بالإطلاق هم الأنبياء وبعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء)[٤] .

فما يجب لله تعالىٰ من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ وما يستحيل في

---

(١) المضنون به علىٰ غير أهله ١٦٤ .

(٢) كيمياء السعادة ٦ ، ٧ ، وتقدم تخريج الحديث في ص١٠٩ من هـٰذا البحث .

(٣) انظر الرسالة اللدنية ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٤) الرسالة اللدنية ٨٩ .

حقه تبارك وتعالىٰ وما يجوز عليه وما يرضيه من الأقوال والأعمال وما يحبه أو يسخطه وما يعذب عليه أو يثيب عليه لا يعلم إلا بتعليمه[1] لذلك علم الأنبياء فصاروا : (أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد بالإضافة إلىٰ حسن المعاد . فإن ما ينتفع به في الآخرة أو يضر لا سبيل إلىٰ معرفته بالتجربة . . . ومن الذي رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة ما نفع وضر وأخبر عنه .

ولا يدرك بقياس العقل ، فإن العقول قاصرة عن ذلك والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدي إلىٰ ما بعد الموت ولا يرشد إلىٰ وجه ضرر المعاصي ونفع الطاعات ، ولا سيما علىٰ سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع . . .)[2] .

ذلك أنه إذا كان العقل المجرد لا يهتدي إلىٰ مقادير العلوم والأخلاق حتىٰ يرتب عليها الجزاء أو العقاب أو يسبغ عليها الحسن أو القبح كانت الحاجة إلى النبوة ضرورية لذا بعثهم الله تعالىٰ لشرح ذلك كله ترغيبا وترهيبا وتشويقا وتخويفا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

(ومن المعلوم أن العلوم مترتبة متفاضلة ، وإنما شرفها بشرف معلوماتها ، ومقادير الشرف فيها مترتبة علىٰ مقادير شرف المعلومات ومقادير السعادة بها ، والجزاء عليها مرتب علىٰ مقادير الشرف فيها وكذلك الأخلاق والأعمال متفاوتة متفاضلة ومتمايزة بالخير والشر والمقادير فيها عملا وجزاء مما لا يهتدي إليه عقل كل عاقل إلا أن يكون مؤيدا من عند الله عز وجل بالوحي والإنباء . .)[3] .

(ولما سبق في علم الباري سبحانه وإرادته وحكمته بمصير الخلق إلىٰ دار غير هٰذه الدار ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به علىٰ أحكام تلك

---

(١) انظر إلجام العوام عن علم الكلام ٤٥ وما بعدها .

(٢) السابق ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) معارج القدس ١٤٧ .

الدار ، بل كمل لهم سبحانه هـٰذا النور الذي وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم ، فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته ، فمدهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه ، فكانت أنوار ما جاء به بالوحي من عند الله بالنسبة إلىٰ نور العقل كالشمس بالإضافة إلىٰ نور النجم ، فدلوا العباد علىٰ مصالح دنياهم فيما لا تستقل بإدراكه عقولهم وأرشدهم إلىٰ مصالح أخراهم التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم . . .)[١] .

إذاً فحاجة الناس للنبوة تفوق حاجتهم إلىٰ أطباء الأبدان ذلك أن النبي هو الذي يعرف أن الكفر سم قاتل ، وأن الإيمان شفاء وسعادة في الدنيا والأخرىٰ ، وأن في الأخلاق والمعاملات ما هو واجب لما فيه من النفع والمصلحة وفيها كذلك ما يحرم لما يترتب عليه من المفاسد الضارة والعاقبة السيئة[٢] .

يقول الإمام الغزالي : (وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة علىٰ خواص الأشياء ، فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل . . وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن يعرفنا ذلك . ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة)[٣] .

وانطلاقا من هـٰذه النصوص التي أوردناها من كتب الإمام الغزالي فإنه

---

(١) الحكمة في مخلوقات الله عز وجل ٤٤ .

(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١١٨ـ١٢١ والإحياء ١/ ١٠٥ .

(٣) المنقذ ٧١ ، ٧٢ وانظر الاقتصاد في الاعتقاد ١١٨ ، ١٢١ والإحياء ١/ ١٠٥ وما بعدها .

يمكننا إبراز أهم المحاور التي حاول من خلالها البرهنة علىٰ حاجة الناس للنبوة فيما يأتي :

أ- أنه مع تعويله علىٰ ما فطر عليه بنو آدم من معرفة ربوبية الله تعالىٰ ، وما تدركه عقولهم من الواجبات والمستحيلات والجائزات العقلية - فإن الإنسان يبقىٰ جاهلا بحقيقة توحيد ألوهية الله وما له من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا ، وذلك الجهل هو رأس كل شر ، كما أن العلم بذلك والإيمان به باب لكل خير .

ب - إنه لا سبيل لمعرفة الغيب علىٰ وجه صحيح يثمر إيماناً وعملاً إلا بواسطة الأنبياء الذين نبأهم الله تعالىٰ وبعثهم معلمين لبني جنسهم فعلموا الناس علوما نافعة تترتب عليها سعادتهم الدنيوية والأخروية .

جـ - وقد شمل ذلك التعليم العقائد والأقوال والأعمال والأخلاق وتفاصيل ما يأمر الله به أو ينهىٰ عنه وما جعله الله سببا لرضاه وما نصبه سببا لسخطه وعذابه .

وكذلك ما يصير الناس إليه بعد الموت من الجزاء والثواب أو العقاب والجنة أو النار وغير ذلك مما لا يدرك بالعقل المجرد وليس في الفطرة ما يناقضه بل العقل يفهم جوازه وما قصد به والفطرة تصدقه إذ هو من الجائزات الداخلة في قدرة الله تعالىٰ .

د - وإنه يأخذ من واقع الإنسان وعجزه عن التمييز بين الخير والشر وتخبطه في العمل في حالتي الجلب والدفع برهانا علىٰ أنه لابد له من ملة وشريعة يؤمن بها ويتحاكم إليها تكون عمدته في حياته يرجع إليها في حالتي التدافع والتمانع صيانة لنفسه وحرمه وماله وولده ودفعا للمفاسد والظلم والجور والتعدي الذي يخافه في حالة الاجتماع وتبادل المصالح والمنافع .

وهٰذا البرهان من أوضح أوجه الحاجة للنبوة إذ يتبين لكل الناس ما يقع فيه بنو آدم من شر وبلاء في الأنفس والأموال عندما يحيدون عن تلك الملة والشريعة التي علم الله اضطرارهم لها فأنزلها إليهم رحمة بهم ورفقا .

هـ ـ ومن رحمته تعالىٰ ورفقه بعباده أنه لا يعذب من لم تقم عليه الحجة والبيان الواضح بما يجب عليه أو يحرم من المعتقدات والأقوال والأعمال والأخلاق وذلك لعلمه أن فطرهم التي فطرهم عليها وعقولهم التي نورهم بها لا تفي في تحصيل ذلك فأمهلهم لعلمه بحاجتهم إلىٰ معلم من عنده يعلمهم ما يعتقدون وما يعبدون وما يأتون وما يذرون وماذا ينتظرون من الثواب والجنة إن آمنوا وأطاعوا وما ينتظرهم من العقاب والنار إن هم كفروا وعصوا .

فالإمام الغزالي بهٰذا يرىٰ أن الناس بحاجة إلى النبوة من عدة جهات وضرورية لهم من أوجه كثيرة أهمها ما ذكرناه عنه .

والواقع أنه صائب في الأمور التي ذكرها إذ الإنسان خلق جهولا ضعيفا هلوعا . وهو مركب من روح وبدن وكل منهما له متطلباته الضرورية .

فالروح بحاجة إلىٰ عقيدة تسموا بها وتعبد الله علىٰ هديها وأخلاق حسنة تتهذب بها وتتعرف من خلالها علىٰ مصيرها بعد الدنيا وكل ذلك مغيب عنها .

والبدن بحاجة غلىٰ جلب المنافع ودفع المضار وليس في العقول البشرية علىٰ تفاوتها وتضادها ما يضمن حصول ذلك علىٰ قانون يكفل العدل والإنصاف ، فاتضحت حاجة الناس للنبوة وضرورة اتباع الملة والشريعة . والله أعلم .

* * *

المبحث الثاني

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

إن حاجة الناس للنبوة تعتمد أساساً علىٰ أن المخلوق يحتاج حاجة ذاتية إلىٰ خالقه ، ويفتقر إليه في حياته ومماته : (ذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج إلىٰ جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة ، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب ، فلابد له من أمرين :

أحدهما : هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به .

والثاني : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه .

وهٰذان هما الشيئان المنفصلان ، الفاعل والغاية ، فهنا أربعة أشياء :

أحدها : أمر هو محبوب مطلوب الوجود .

والثاني : أمر مكروه مبغض مطلوب العدم .

والثالث : الوسيلة إلىٰ حصول المطلوب المحبوب .

والرابع : الوسيلة إلىٰ دفع المكروه .

فهٰذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها)[1] .

والذي يجمع للعبد هٰذه الأمور الأربعة التي لا صلاح ولا فلاح له بدونها هو الله الخالق الرب المعبود الذي يشهد واقع المخلوقات بافتقارها إليه افتقارا ذاتيا وهٰذا الافتقار أمر معلوم بالعقل والفطرة ويؤيده إرادة الإنسان خاصة في

---

(١) الفتاوىٰ ١/ ٢١ ، ٢٢ .

التوجه والقصد لهٰذا الخالق المقصود والإله المعبود والرب المعين على المطلوب ودفع المكروه .

(ولما كان علم النفس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم إلى الإله المعبود ، وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله فطريا من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، ولهٰذا إنما بعثت الرسل تدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له)[1] .

هٰذا مع أن : (حاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال. . . وهٰذا واضح من حيث ـ إن الإنسان خلق محتاجا إلىٰ جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، ونفسه مريدة دائما ، ولابد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به وليس ذلك إلا الله وحده)[2] .

فالأنبياء عند شيخ الإسلام ابن تيمية : (بعثوا لتكميل الفطرة وتقريرها لا تبديلها وتغييرها فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول . فهم موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده ، موافقون للأدلة العقلية لا يناقضونها ، بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم . . وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة. . .)[3] .

ومهما قلنا بأن من خاصة العقل والفطرة استحسان الحسن واستقباح القبيح ، أو أن من أخص صفات العقل أن يعلم به الإنسان ما ينفعه وما يضره . أو أن النفوس مجبولة علىٰ حب ما يلائمها من الخير والعدل والإنصاف

(١) رسالة الفطرة ضمن مجموعة الرسائل الكبرىٰ ٢/ ٣٣٧ .
(٢) الفتاوىٰ ١/ ٤٧ ، ٥٥ .
(٣) النبوات ٤٣٠ وانظر ١٩٠ وقارن بدرء التعارض ١/ ٨٦ـ٩١ .

والصدق وسائر الأخلاق الفاضلة فإن ذلك يظل في حدود البشرية القاصرة التي هي عرضة لفساد الفطرة وخبال العقل .

ومهما قلنا بأنه من لوازم الإنسانية حب العقل والعدل وأهله ، وبغض الباطل والظلم والجور وأهله ، أو أن الإنسان إذا كان تام العقل علم أن العلم والعدل والصدق واتباع ذلك ينفعه ويصلح به نفسه وتلتذ به روحه .

وأن الكذب والظلم قد يضره ويفسد نفسه ويؤلمها ويقلقها فإن ذلك أيضاً كله يظل في نطاق الحياة ومتعها الظاهرة الجسدية والباطنة الروحية[(١)] .

وعليه فإنه : (لا يمتنع في العقل ولا تمنع الحكمة من أن يجعل الأنبياء مذكرين للعقلاء وموقظين لهم ومرشدين إلى الأصلح الذي لا يدرك بالعقل ولا يبلغ كنهه بالرأي والفحص ، وما هـٰذا إلا كما جعل بعض العقلاء حكيما واعظا مذكرا مؤدبا ، وبعضهم يحتاج إلىٰ مذكر ومؤدب ، ولا أحد منع من ذلك فثبت حسن الرسالة بالعقل ولأن الله جل وعز في الأفعال والتروك أسرارا من المصالح التي لا يعلمها العقلاء ولا يدركونها بعقولهم فاحتاجوا إلى النبوات)[(٢)] .

(والذي جاء به الرسول أمران : خبر وأمر .

فأما الخبر ، فإنه أخبر عن الله بأسمائه وصفاته (المغيبة) وهـٰذا أمر يعترفون هم ـ أي الفلاسفة ومن قلدهم ـ أنه لا يعرف ببرهانهم . وما أخبر به الرسول عن ربه عز وجل فهم من أبعد الناس عن معرفته . . .)[(٣)] .

(فتفاصيل الأمر والنهي إنما تعرف من جهة الرسل)[(٤)] ؛ لأن المعرفة وإن كانت تارة تكون فطرية ضرورية في أمور فإن الفطرة قد تفسد فيحتاج الإنسان

---

(١) انظر الرد على المنطقيين ٤٢٩ـ٤٣٥ .
(٢) شرح الأصفهانية ٢٠٥ .
(٣) الرد على المنطقيين ٤٤٥ .
(٤) مجموعة الرسائل الكبرىٰ ٢/ ٣٤٤ .

إلى النظر والاستدلال حتىٰ يحصل المعرفة التي عنده منها أوليات ومبادىء ، أما التي لا تسلط أصلا لعقله عليها أو عنده في مركوز الفطرة ونور العقل القاصر عن تحصيل التفاصيل شيء منها فإنه والحالة هـٰذه لا يمكنه إلا أن ينتظر علما يأتيه عنها بخبر صادق من قبل الله تعالىٰ ، وخصوصا أن عقله يدله علىٰ أن خالقه حكيم عادل رحيم وأن عادته أن يعلم عباده ويبصرهم وينور لهم طريقهم ويدلهم على الخير ويحذرهم من الشر بأنواعه .

فذلك التعليم هو الذي سماه شيخ الإسلام ابن تيمية بالمعرفة التامة ، (وهي معرفته ـ تعالى ـ بصفات الكمال ونعوت الجلال فيما لم يزل ولا يزال ، ومعرفة أسمائه وما أمر به وما نهىٰ عنه وما أخبر به وما أراده من عباده شرعا ، وما كرهه منهم ولم يرضه ولم يرد وقوعه ، فهـٰذا ما يعلم إلا بالسمع من جهة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فعبادة الله تعالىٰ والإيمان به إنما يجب بالسمع ويلزم بالبلاغ)[1] ، (فالرسالة ـ علىٰ هـٰذا ـ ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده ، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة ، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة .

فالإنسان مضطر إلى الشرع . فإنه بين حركتين :

حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضره .

والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره ، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده وحصنه الذي من دخله كان آمنا)[2] .

ولوجه حاجة الناس للنبوة ثلاثة أصول هي :

الأصل الأول : يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر ، وذكر أيام الله في

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرىٰ ٢/ ٣٤٤ وانظر الفتاوىٰ ٩/ ٣٠٥ وما بعدها .
(٢) الفتاوىٰ ١٩/ ٩٩ .

أوليائه وأعدائه ، وهي القصص التي قصها الله علىٰ عباده والأمثال التي ضربها لهم .

والأصل الثاني : يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه .

والأصل الثالث : يتضمن الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب .

وعلىٰ هٰذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر ، والسعادة والفلاح موقوفة عليها ولا سبيل إلىٰ معرفتها إلا من جهة الرسل ، فإن العقل لا يهتدي إلىٰ تفصيلها ومعرفة حقائقها ، وإن كان قد يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه ، ولا يهتدي إلىٰ تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه)[١] .

(ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلىٰ تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد ، فمن أعظم نعم الله علىٰ عباده وأشرف منة عليهم : أن أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبين لهم الصراط المستقيم .

ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالا منها ، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية ، وأسوأ حالا من الكلب والخنزير والحيوان البهيم)[٢] .

(فالنفوس أحوج إلىٰ معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم ـ واتباعه منها إلى الطعام والشراب ، فإن هٰذا إذا فات حصل الموت في الدنيا .

وذاك إذا فات حصل العذاب . فحق علىٰ كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته ، إذ هٰذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم .

---

(١) السابق ١٩/٩٦ .
(٢) السابق ١٠٠ .

بل كما أن نور العين لا يرىٰ إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة)[1] .

وهنا يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية حقيقة تعم الدنيا ومن فيها وهي انها ملعونة ملعون ما فيها مظلمة يعيش أهلها كالأموات وهم أحياء إلا إذا طلعت عليها شمس الرسالة ورحمها الله بالنبوة وما تشتمل عليه من نور يزيل ظلمة الظاهر والباطن ، ويحصل علم النافع من الضار والهدىٰ من الضلال حتىٰ يكون الإنسان بما عمّه من رحمة الرسالة حياً في الدنيا والأخرىٰ بالإيمان والعمل الصالح واتباع هدي الأنبياء والمرسلين فـ(الدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا من أشرقت عليه شمس الرسالة وأسس بنيانه عليها ، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسالة موجودة فيهم ، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرّب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة)[2] .

وإذا كانت الدنيا بدون أن تطلع عليها شمس الرسالة مظلمة ملعونة فـ(كذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وينااله من حياتها وروحها فهو في ظلمة وهو من الأموات .

قال الله تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3] .

فالمؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[4] .

---

(١) السابق ١/ ٥ ، ٦ .
(٢) الفتاوىٰ ١٩/ ١٠١ .
(٣) سورة الأنعام ، آية (١٢٢) .
(٤) سورة الشورى ، آية (٥٢).

(وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب ، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان ، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا ، أو شقي شقاء لا فلاح معها أبداً فلا فلاح إلا بالأنبياء)[1] .

(وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر ، ولا كحاجة الإنسان إلىٰ حياته ، ولا كحاجة العين إلىٰ ضوئها ، والجسم إلى الطعام والشراب ، بل أعظم من ذلك ، وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال . فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه ، وهم السفراء بينه وبين عباده)[2] .

وهنا ترتفع لهجة شيخ الإسلام ابن تيمية أكثر علىٰ ما كان في أسلوبه وتعبيره عن حاجة الناس للنبوة ، ويظل يصعد من تأكيده علىٰ ذلك فيقول : (والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلىٰ كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور) ؟[3] .

وبما أن شيخ الإسلام ابن تيمية يرىٰ أن الأشياء لها صفات ذاتية قد يدرك العقل بها وجه الحسن والقبح فيها[4] ، وأن الإنسان لابد له من حركة يجلب لنفسه بها خيرا أو يدفع عنها ضرا ، أراد أن يوضح أنه لا يقصد بذلك التمييز الذي يشترك فيه الإنسان والحيوان فإن ذلك إحساس فطري لا عقلي ولا شرعي إذ :

= الفتاوىٰ ١٩/ ٩٣ ، ٩٤ .

(١) السابق ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) السابق ١٠١ .

(٣) السابق ٩٣ .

(٤) انظر النبوات ٢٤٠ والرد على المنطقيين ٤٢٩ـ٤٣٥ .

(ليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس ، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم ، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب ، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده ، كنفع الإيمان والتوحيد ، والعدل والبر والصدق والبر والإحسان ، والأمانة والعفة ، والشجاعة والحلم ، والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصلة الأرحام وبر الوالدين ، والإحسان إلى المماليك والجار ، وأداء الحقوق ، وإخلاص العمل لله والتوكل عليه ، والاستعانة به والرضا بمواقع القدر به ، والتسليم لحكمه والانقياد لأمره ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، وخشيته في الغيب والشهادة ، والتقوىٰ إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه ، واحتساب الثواب عنده ، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروه به ، وطاعته في كل ما أمروا به ، مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته ، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته)[1] .

وقد ضرب الله المثل بالماء الذي ينزل به المطر لما فيه من حياة الأرض ونفع ما فيها من المخلوقات إذ به حياة كل شيء .

كما ضرب الله تبارك وتعالىٰ : (الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونورا لها بالماء الذي ينزل من السماء حياة للأرض . وبالنار التي يحصل بها النور . . . فشبه العلم بالماء المنزل من السماء ، لأن به حياة القلوب ، كما أن بالماء حياة الأبدان ، وشبه القلوب بالأودية لأنها محل العلم كما أن الأودية محل الماء . . . قال تعالىٰ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[2] .

(فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم

---

(١) السابق ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) السابق ٩٤ ، ٩٥ .

وما يضرهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعا بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصلة إليه ، وبيان حالهم بعد الوصول إليه)[1] .

وهكذا نكون قد أتينا بأهم نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية في بيانه لوجه حاجة الناس للنبوة ، وقد ركبناها تركيبا تساوقيا لنتمكن من عرضها بهٰذا الشكل من استنطاقها بما يضمن الفائدة المرجوة التي كان يهدف لها شيخ الإسلام من ثنايا نصوصه الكثيرة التي استخرجناها منها .

إن نظرة فاحصة لهٰذه النصوص تعطي الأمور الآتية :

أ- إن شيخ الإسلام ابن تيمية يقرر ان المخلوق على العموم محتاج حاجة ذاتية ، ومفتقر إلىٰ ربه تبارك وتعالىٰ .

والإنسان خاصة فطر علىٰ معرفة خالقه لافتقاره إليه وإحساسه بالتوجه إليه لأنه ربه الذي جبله علىٰ أن يكون له توجه وقصد ورغبة ورهبة ومحبة وخوف وتعبد وتأله وشوق لا يملك إلا أن يحاول تلبية مقتضياته .

ولٰكن هٰذه الفطرة وإن كان فيها نوع من الدلالة والمعرفة للرب الذي فطرها ، فإنها لا تبقىٰ علىٰ حالة واحدة من السلامة والاستقامة إذ تتناوشها الشياطين لإغوائها والآباء والأمهات بحكم التقليد لهم حتىٰ يضلوها .

وعندها تمرض ويصيبها الانحراف والفساد حتىٰ لا يكون فيها الخير الذي فطرت عليه والتوجه الذي خلق فيها .

وإذا طمس عليها أظلمت ونسيت كثيرا ، وحجب عنها كثير من الخير الذي كانت قريبة منه .

ولذا تكون عند فسادها إما غاوية ضالة أو منحرفة متحيرة حتىٰ يأتيها من الله تعالىٰ ما يطهرها ويبصرها ، ويوقظ فيها ما اندرس من الخير فيها .

ب ـ وهٰذه الفطرة إذا وجدت من ينبهها ويبصرها بأصل سلامتها من المعوقات التي حالت بينها ومعرفة الحق الذي جبلت عليه تمكنت من النظر

---

(١) السابق ٩٥ .

والاستدلال على الحق والصواب حتىٰ يستقر فيها الخير وتتشبع به ، ولٰكن في حدود لا تصل إلىٰ حقائق تفاصيل المغيبات .

جـ ـ ويقرر شيخ الإسلام كذلك أن عقل الإنسان له خصائص قد يدرك بها أموراً زائدة على الحواس بدون تفاصيل حتىٰ يجد من يأخذ بيده إلى العلم الصحيح ويفصل له أوجه الحسن والقبح في الأقوال والأعمال والعقائد والأخلاق والمعاملات والعبادات وسائر التكاليف .

فإذا وجد ذلك الدال تمكن من الفهم عنه والتلقي بواسطته أمورا كان شاعرا بها في الأصل وأموراً أخرىٰ كان غافلا عنها لعدم وجود أصل لها في مدركاته أو لأنه لا يتوجه إليه لجهله بجهتها وأسباب الاطلاع عليها . فإذا نبه إليها تنبه وعرف وجه الحق فصدق به واتبعه أو جحده وكفر به لدواعي كثيرة تدفعه إلىٰ ذلك .

د ـ وإذا كان شيخ الإسلام يقرر ما للفطرة والعقل من خصائص وميزات دالة على الخير ومعرفة الحق وطلبه حسب الإمكان فإنه يوضح أن تفاصيل ذلك ليست في مقدورهما لذا :

هـ ـ فإنه يقرر أن الإنسان لابد له من حركة يجلب بها الخير لنفسه وأخرىٰ يدفع عنها بها الضر .

وهٰذه الحركات لا يكفي في تحصيل وجه المصلحة والمنفعة أو المفسدة والمضرة فيها الفطرة والعقل فقط بل لابد من مصدر خارجي يبرهن علىٰ أن هٰذه الحركة دون الأخرىٰ سبيل إلى الخير والسعادة أو العكس ، ومن هنا كان الإنسان بحاجة إلى النبوة فيما يدركه ولا يعلم تفاصيله ، وهي كذلك ضرورية له فيما لا يدركه أصلا ، وخصوصا في الأصول الثلاثة التي لا تعرف إلا من جهة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

والتي هي :

١ ـ المعرفة التامة بأسماء الله وصفاته وإثبات ألوهيته وقدره وحكمته وعدله ورحمته وعادته مع أوليائه وأعدائه .

٢ـ وبيان شرائعه وأناع تكاليفه ومحبوباته وأوامره ونواهيه .

٣ـ والإنذار باليوم الآخر وتفاصيل ما فيه من جزاء بعد البعث والثواب والعقاب والجنة والنار .

فهٰذه الأصول الثلاثة لا يستقل العقل بمعرفتها ولا يهتدي لوجه تفاصيل السعادة والشقاوة في الأعمال والأقوال التي تتضمنها ، لذا فإن إدراك العقل لما في الأشياء من صفات ذاتية ينطلق منها للحكم عليها بالحسن أو القبح أو اللذة أو الألم أو السعادة والحرمان لا يرقىٰ أبدا لإدراك هٰذه الأصول الثلاثة وتفاصيلها ، هٰذا علاوة علىٰ أن مدار الخلق والأمر والسعادة أو الشقاوة عليها وعليه فالنبوة هي النور الذي يزيل ظلمة الدنيا ، والرحمة التي تطرد اللعنة ، والخير الذي يجلب السعادة في العاجل والآجل ، لذا يجب اتباعها والتسليم لها إذ الحاجة إليها فوق الضروريات بل فوق كل ما يخطر بالبال من حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب والطب ونور العين والماء ، ذلك أن الإنسان إذا فقد هٰذه الحاجيات فهلاكه موت في العاجل ، وإذا فقد النبوة فقد اجتمع عليه الهلاك في العاجل والآجل ، وحقت عليه الشقاوة التي لا يرجىٰ له فلاح معها ولا فوز ينتظر له بعدها .

وأخيرا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية قد شرح أوجه الحاجة للنبوة بأمثلة حية واقعية وأوضح الأصول في ذلك ولم يغفل أهمية الفطرة السليمة وما في العقل من خصائص تعينه علىٰ فهم نور النبوة وما تضمنه من سبل السعادة في الدنيا والأخرىٰ .

وبذلك يكون قد اتفق مع الإمام الغزالي فيما ذكره من حدود في الحركات البشرية الاختيارية التي لا يعلم علىٰ وجه الحق والتفصيل الخير أو الشر أو الصدق والكذب أو الباطل والعدل منها إلا الأنبياء . علىٰ أن شيخ الإسلام كان أوضح عبارة وأكثر ارتباطاً بأسلول الوحي في بيانه لدليل التمانع والتدافع وذلك لما صاحب شرحه له من دعوة صادقة لاتباع منهج الأنبياء في ذلك حتىٰ لا يكون

الناس في شقاء دائم يفضي بهم إلىٰ عذاب سرمدي كهـٰذا الكافر الذي يعيش في ظلمات الكفر والشرك كأنه غير حي إذ : (كانت حياته حياة بهيمية ، فهو عادم الحياة الروحية العلوية التي سببها الإيمان وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة)[1] . والله أعلم . . .

* * *

---

(١) الفتاوىٰ ١٩/ ٩٥ .

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

قد وضح من خلال المبحثين السابقين أن ذينك الإمامان يتفقان علىٰ أن الرسالة ضرورية للناس حيث إنهما يقرران أن المخلوقات مفتقرة افتقار ذاتيا للخالق ، وأن من له إرادة منها كالإنسان قد فطره الله علىٰ معرفته تعالىٰ بربوبيته ، وأنه جل وعلا هو الخالق الرازق المحي المميت المدبر وهٰذه المعرفة الفطرية تبعث الإنسان علىٰ محبة الله تعالىٰ والرغبة في التقرب إليه والتوجه إليه بالقصد والإرادة والخوف منه والرجاء فيه . ولٰكنه قبل أن يأتيه علم من الله بواسطة رسله يظل الإنسان في حيرة من أمره لا يعلم كيفية التعبد لله ولا يعرف ما يرضيه مم يسخطه وأحرىٰ ما يأمر به أو ينهىٰ عنه ، وأحرىٰ من ذلك العلم بما بعد الموت .

ومع اتفاقهما علىٰ ما فطر عليه الإنسان من معرفة ربوبية الخالق جل جلاله فإنهما يعتبران العقل نوراً يستضاء به في أمور كثيرة لما جبله الله عليه من إدراك الحسن والقبيح تبعا لما في الأشياء من صفات ذاتية ، هٰذا علاوة علىٰ أن العقل قد هيئه الله تعالىٰ ليكون عونا للإنسان علىٰ تحصيل مستلزمات الحياة المعيشية والتصرف في المادة المتاحة له وتسخيرها وأخذ العلم عنها بالتجارب والمهارات المكتسبة منها .

فالإنسان بعقله يجرب الأشياء والأدوات فيحصل طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ويذلل مركبه ويتقي البرد والحر ويستعمل الدواء ويطلب لنفسه الخير ويدفع عنها الشر عزيزة وجبلة مركبة في أصل خلقته علىٰ قدر عقله وتجاربه ، علىٰ أنه في هٰذه المجالات التي عنده نور من العقل الغريزي لتحصيلها والتعامل معها في حاجة ماسة للنبوة التي تنظم له حدوده وتبين له شؤونه وتأخذ له حقه وتعطي كل ذي حق حقه حتىٰ يؤمن بها الجميع ويخضع لأوامرها

وأحكامها المجموع عقيدة راسخة واطمئنانا تاما .

ومن نور العقل ونظره في هٰذا الكون الواسع المنظم المدهش ينطلق راغبا وراهبا بحثا عن خالقه ومدبره الذي تفضل بتسخيره له ، فهٰذه السماء تظله وتغيثه بالأمطار التي يحتاجها في شرابه وطعامه ، وبمائها حياته وهٰذه الكواكب المضيئة والأعلام الهادية ، وهٰذه الأرض التي جعلت له فراشا ممهدا يمشي في مناكبها ويأكل من خيراتها ويصلح شأنه بما فيها كل ذلك يدعو العقل للتبصر والتدبر والرغبة في خبر صادق عن المدبر الحكيم العليم وماذا يريد من الإنسان وكيف يكون التقرب إليه وكيف تحصل مرضاته وتجتنب مساخطه ؟

ولا يملك العقل أكثر من ذلك إذ نوره محدود لأنه مخلوق يجهل حتىٰ نفسه مع تصرفه في الموجودات وتجاربه ومهاراته الواسعة .

ويرى الإنسان أفراده يموتون ولا يعودون فيتحير عقله في أمرهم وأين ذهب بأرواحهم وما مصيرهم ؟

فالإنسان علىٰ هٰذا له صلة بالسماء يحتاج أن يعلم شيئا عن هٰذه الصلة وكيفيتها .

وله صلة بأخيه الإنسان فيحتاج إلىٰ أن يبين له ما له وما عليه وله تطلع إلىٰ معرفة مصيره بعد الموت فيحتاج إلىٰ من يشرح له أسباب النجاة في ذلك المصير حتىٰ يأتيها وأسباب الهلاك حتىٰ يتجنبها .

وبهٰذا نعلم أن الإنسان يحتاج حاجة ضرورية إلى الرسالة لروحه وبدنه وعاقبة أمره .

(فإذا علمت هٰذا فلعل هناك ضربا من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك ، والله من ورائهم محيط ، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به في اعتقادك وعملك ، فهو أحرص علىٰ سعادتك ، وأعلم بما ينفعك ، لأنه من طور فوق إدراكك ، ومن

نطاق أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في المحال)[1] .

وهٰذا ما يؤيده الكتاب والسنة من اعتبار الفطرة والعقل نورا يفيد في حدوده ولا ينبغي إقحامه فيما وراء طوره لأن ذلك ظلم له وطلب المحال بوسائل لا توصل إليه .

قال الله تعالىٰ ممتنا علىٰ عباده بما خلق لهم من وسائل المعرفة والإدراك :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

ولما اعتمد أقوام على العقل والسمع والبصر فسدت فطرهم وضلت عقلوهم ولم تنفعهم أسماعهم وأبصارهم كما حكى القرآن عنهم في آيات عديدة منها :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ مبينا حد علم أقوام آخرين : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[4] .

ومع هٰذا العقل والعلم الدنيوي قال تعالىٰ عن حال من لم يأخذ بنور النبوة

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢م ، علم الكلام ١/ ٨٢٤ ، ٨٢٥ .

(٢) سورة النحل ، آية (٧٨) .

(٣) سورة الأحقاف ، آية (٢٦) .

(٤) سورة الروم ، آية (٧) .

ويتبع هدي الرسالة : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١) .

ومن هنا ناداهم المولىٰ بهٰذه الحقيقة التي لا مهرب لهم من الإقرار بها :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾(٢) .

ولما كانوا من جنس الفقراء المحتاجين وهو جل جلاله غني جواد متفضل بما يحمد عليه قال لهم علىٰ سبيل التنبيه والاعتبار : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ ممتنا عليهم بما سخر لهم من النعم التي تستحق الشكر والعرفان :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٥) .

فالقرآن الكريم يزود الناس بمعلومات عن الخالق سبحانه وتعالىٰ وعلمه المحيط وما له من صفات الكمال التي تستوجب السمع والطاعة له .

وكذلك يلفت أنظارهم إلى النظر في أنفسهم وما خلقوا منه وإلىٰ هٰذا الكون من حولهم وما لهم فيه من منافع تستوجب هي الأخرى الحمد والشكر .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ

---

(١) سورة الروم ، آية (٤١) .

(٢) سورة فاطر ، آية (١٥) .

(٣) سورة يونس ، آية (٣١) .

(٤) سورة لقمان ، آية (٢٠) .

(٥) سورة القصص ، (٦٨_٧٠) .

يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ

---

(١) سورة الأنعام ، آية (١ـ٣) .
(٢) سورة القصص ، آية (٧١ـ٧٣) .
(٣) سورة الأنعام ، (٩٥ـ٩٨) .
(٤) سورة الحديد ، آية (١ـ٧) .

ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١) .

وبهٰذا يتبين أن الوحي والرسالة من الحاجيات الضرورية للناس من جهات عديدة منها بيان ما في فطرهم من حب الرب الخالق وما وراءه من توجه إلىٰ عبادته جل جلاله .

ومنها بيان الأسئلة المنبعثة من الحيرة عن هٰذا الكون وكيف تكون الاستفادة من خيراته والاحتراز من شروره .

ومنها اكتساب المعرفة والعلم الذي جبل الإنسان على استطلاع مصادره واكتشاف أسبابه واستخدام المدركات المدخرة في الفطرة والعقل بغية تحصيله حتىٰ إن الإنسان يجد في ذلك لذة ومتعة مع ما يلاقيه من عناء أو يتعرض له من مخاطر .

ومنها أن الإنسان كما أسلفنا في مبحث الوحي يقع في نفسه معارف وأمور وخواطر وإرادات لا يعلم مصدرها علىٰ وجه يتحقق منه فيحتاج إلىٰ بيان بالأمثلة المضروبة والمثل المقدسة حتىٰ يكون ذلك جوابا شافيا وأنموذجا يثق به ويقيس عليه ما يقع في نفسه من لمّة الملك أو لمّة الشيطان .

هٰذا بالإضافة إلىٰ ما أسلفناه من أن الله تبارك وتعالىٰ ما تخلىٰ عن تعليم هٰذا الإنسان منذ علم آدم عليه السلام الأسماء كلها .

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢) .

فهٰذه الفطرة زرعت في إنسان ضعيف له أهواء وحاجات نفسية وجسدية ،

---

(١) سورة الحشر ، (٢٢ـ٢٤) .
(٢) سورة الروم ، آية (٣٠) .

وله خواطر وعوالج : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1] أمام الشهوات والرغبات والدفع والجلب وما يحيط به مخلوقات يخافها ولا يعلم كيف يتعامل معها ، وصدق الله العظيم العليم حيث يقول : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2] .

فهٰذه الفطرة يعلم الله ما يحيط بها من دواعي الفساد والإنحراف ولذا لا يتركها حتىٰ يعلمها ويبصرها ويقيم عليها الحجة لأنه رحيم حكيم عادل لا يظلم أحدا : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[3] .

فلما علم الله فساد الفطرة وإغواء الشياطين لها أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان ما فيه صلاح العباد في العاجل والآجل فقال تعالىٰ :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4] .

تلك أسباب الرسالة وبيان ضرورتها للناس إذ لابد لهم من علم بالله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وما يرضيه عنهم وما يجلب سخطه وما هي حدود صلتهم بهٰذا الرب العظيم المنعم عليهم وكيف يشكرونه ليزيدهم ويعبدونه ليرحمهم .

وما هي الأسرار التي أودعها في هٰذا الكون الذي سخره لهم ومكنهم من السعي والكسب فيه . وكيف يعدلون في الحكم في اختلافاتهم ونزاعاتهم ؟

وما الحكمة من خلقهم وخلق هٰذا العالم العلوي والسفلي ولماذا فضل هٰذا علىٰ هٰذا وقوي هٰذا دون هٰذا ؟

---

(١) سورة النساء ، (٢٨) .
(٢) سورة الملك ، (١٤) .
(٣) سورة الإسراء ، آية (١٥) .
(٤) سورة البقرة ، آية (٢١٣) .
انظر تفسيرها في ص٨٥ـ٨٦ من هٰذا البحث لتتضح مناسبة ذكرها ههنا .

وما المصير وإلىٰ أين ؟

كل ذلك وغيره من الأسئلة لا جواب عنها إلا بواسطة الرسل الذين يأتون بما يوافق الفطر والعقول وينور القلوب ويشرح الصدور لأنه من خالقها الذي يعلم الحكمة التي خلقت من أجلها ، والضروريات التي لابد لها من تحصيلها .

قال تعالىٰ : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[1] .

وقال تعالىٰ مقررا علىٰ عباده هٰذه الأصول الثلاثة :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[4] .

وقد علمنا أنه ليس في الفطرة والعقل والذكاء والتجارب ما يوضح مثل هٰذه الأمور الضرورية التي : (تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ـ ببيانها وانفردوا بالعلم النافع وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره ، وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه وفاطر هٰذا الكون ، ومدبر هٰذا العالم ، وصفاته العالية والصلة التي بينه وبين عبده ، وموقف الإنسان في هٰذا العالم وموقفه من ربه ، ومبدأه ومصيره ، وما يرضيه تبارك وتعالىٰ ، وما يسخطه ، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده ، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه ، وجزاءها وما يترتب علىٰ ما يصدر منه من قول

---

(١) سورة النحل ، آية (٢) .
(٢) سورة النحل ، آية (١٧) .
(٣) سورة النحل ، آية (٢٢) .
(٤) سورة غافر ، آية (٣٨) .

واعتقاد وعمل من الثواب والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدىٰ ، وهٰذا هو العلم الذي يستحق أن يسمىٰ « علم النجاة » .

والأنبياء مع سمو مداركهم ، وصفاء حسهم وكونهم على الجانب الأعلىٰ من الذكاء والنبوغ الفطريين لا يتدخلون في العلوم السائدة في عصرهم ، ولا يزعمون لهم فيها كعبا عاليا ولا اليد الطولىٰ . إنما ينقطعون ويتخصصون لما بعثوا له وأمروا به وتوقفت عليه سعادة البشرية ، ويكلون هٰذه العلوم إلىٰ أصحابها)[1] .

ذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بتوسطهم بين الله تبارك وتعالىٰ وبين عباده كما يُقرّبُه الندوي إلى الأذهان كحال مدينة عظيمة فيها مهندسون وعلماء وعمال وحرفيون وغير ذلك من الطوائف العاملة كالجند والشرط ولٰكنهم مع خبراتهم وسعيهم في العمل لا يعلمون عن حاكم المدينة ولا الأنظمة المعمول بها شيئاً .

وإذ لم يجدوا من يدلهم على الحاكم ويعرفهم به ويبصرهم بالأنظمة لما استقام لهم حال ولما نجح لهم عمل ولوقعوا في المخالفات والنزاعات التي تجرهم إلى المتابعة والسجون .

أما إذا وجدوا من يأخذ بأيدهم ويعرفهم على الحاكم وأنظمة البلد أو المدينة فإنهم سوف يسلمون من مخاطر الجهل والمخالفة التي كانوا عرضة لها رغم ما معهم من علم وخبرة للعمل وأدوات للإنتاج .

(وترون الخطب أعظم إذا عرفتم أن الأمر ليس أمر الحاكم والمنظم فقط ، إن الحاكم والمنظم لهٰذا البلد ـ في المثال الذي ضربناه ـ هو خالق هٰذا البلد الذي أخرجه من العدم إلى الوجود ، وأفاض عليه الحياة ورزقه كل ما يحتاج إليه ويصلحه وهو الرازق ، وهو الجواد ، وهو الغفور الودود . . فإذن كانت معرفته بكل العقل ، ومحبته بكل القلب ، وطاعته بكل الجوارح وإجهاد النفس

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، للندوي ، ٣٠ ، ٣١ .

وبذل الوسع في إرضائه ، والتقرب والتودد إليه أهم الواجبات ، وأقدس المهمات ومقتضى الإنسانية والمروءة ، ومطالبة العقل السليم والفطرة المستقيمة .

وهٰذا مركز النبوة والأنبياء ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها ، فهم كالروح بالنسبة إلى الجسد ، وكالعقل بالنسبة إلى العمل ، وكالعين بالنسبة إلى الإنسان .

والدنيا بغيرهم - بعلومها ومدنياتها وصنائعها - ظلام في ظلام - ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[1])[2] .

وبهٰذا يكون قد اضتح جليا أن ما اتفق عليه الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية من تمثل أوجه حاجة الناس للرسالة في الأصول الثلاثة المذكورة هو كذلك ، بالإضافة إلىٰ ما جلبناه من نصوص القرآن التي تزود الإنسان بمعلومات ضرورية له عن نفسه والكون حوله . وكذلك يتضح أكثر أن الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر أمور متلازمة وضرورية فالإيمان بذلك كله موافقة للعقل السليم والفطرة المستقيمة وبيان ذلك بالبشارة والنذارة هو مركز النبوة الذي ظهرت أهميته بالنصوص والأمثلة المضروبة .

ومن الحاجات والأصول الثلاثة المذكورة المتلازمة التعاون والتمانع وهو المراد بالحركات الاختيارية التي يدخلها الصدق والكذب والخير والشر والحق والباطل والعدل والجور وغير ذلك مما لابد من مصدر يميز به بين هٰذا عن هٰذا وهٰذا من هٰذا إذ العقول لا تستوي في الأحكام بذلك ولا تجيز الترجيح بلا مرجح فكان لابد عقلا وشرعا من مرجع فوق العقول في أوامره حتىٰ يسلم له الجميع حيث : (إن حكمة الحكماء ، وعلوم الفلاسفة آراء بشرية ناقصة ، وظنون لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود ومجهول ، وهي عرضة للتخطئة

---

(١) سورة النور ، آية (٤٠) .

(٢) المرجع السابق ٣٩ ، ٤٠ .

والخلاف ، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس ـ وما كل من يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها علىٰ هواه وشهواته ، إذ لا سلطان لها علىٰ وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبد ، لأن النوع البشري يأبىٰ طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته وإن فاقه في علمه وحكمته ، وإنما يدين الإنسان لمن يعتقد أن له سلطاناً غيبياً عليه ، بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس حسب سنة الكون)[1] .

وصاحب هـٰذا السلطان الغيبي قال لعباده :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[2] .

وأمرهم في ذلك التعاون الذي لابد منه أن يكون على القسط والعدل والبر والتقوىٰ ، ولا يكون ذلك إلا بالتمسك بما جاء عن الله تعالىٰ : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[4] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[5] .

---

(١) تبسيط العقائد الإسلامية ١١٨ .

(٢) سورة المائدة ، آية (٢) .

(٣) سورة طه ، آية (١٢٣ـ١٢٤) .

(٤) سورة الشورىٰ ، آية (١٠) .

(٥) سورة المائدة ، آية (٨) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[١] .

فمع أهمية توحيد الله تعالىٰ في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته إلا أن حاجة الناس لهٰذا الأصل الثاني الذي شرحنا أنه لا يهتدي لما فيه من المصالح إلا عقل مؤيد بالوحي[٢] .

إذ : (الله بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فكل ما أمر الله ورسوله فمصلحته راجحة علىٰ مفسدته ومنفعته راجحة على المضرة وإن كرهته النفوس)[٣] .

فجلب المصالح ودرء المفاسد يشمل الدين كله إذ كل الأنبياء جاءوا بضرورة درء المفاسد عن الدين والنفس والعقل والنسب والعرض .

وجاءوا بوجوب جلب الحاجيات التي تعم المصالح المتبادلة بين الناس مع ضرورة التحلي بمكارم الأخلاق والإتيان بخصال الفطرة إذ السعادة والحياة الكريمة لا تحصل إلا بذلك .

وبهٰذا نعلم أن الله تبارك وتعالىٰ علم الإنسان ما لم يعلم مما يحتاجه في عاجله وآجله وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بينوا ذلك لمن أرسلوا إليهم بيانا يفيد العلم ويقيم الحجة ويكفل لمن اتبعه أن لا يضل ولا يشقىٰ ويحق علىٰ من أعرض عنه أنه له معيشة ضنكا في الدنيا وأنه يحشر يوم القيامة أعمىٰ لا نور له إذ لم يتبع النور الذي جاءه من ربه ولتوضيح ذلك قال الإمام الغزالي : (فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به

---

(١) سورة النساء ، آية (٥٩) .
(٢) انظر معارج القدس ١٣٤ .
(٣) الفتاوىٰ ٢٤/٢٧٨ .

آحاد الناس ويستضر به الأكثرون بل أدلة القرآن الكريم كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي . .)[1] .

وهٰذا القرآن وصفه الله تعالىٰ بأوصاف عظيمة تدل علىٰ علو شأنه وضرورة الأخذ به في الحركات الاختيارية والتحاكم إليه عند الإشكال أو التنازع .

قال الله تعالىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[4] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] .

قال الإمام الشافعي : (فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصا واستدلالا ، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه : فاز بالفضيلة في دينه ودنياه ، وانتفت عنه الريب ، ونورت في قلبه الحكمة واستوجب في الدين موضع الإمامة)[6] .

وهٰذا الذي ذكره الإمام الشافعي دل عليه كلام هٰذين الإمامين ونطقت به السنة المبينة للقرآن ، إذ جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) إلجام العوام ٨٩ وقارن بما في شرح الأصفهانية ١٦٧ .

(٢) سورة إبراهيم ، آية (١) .

(٣) سورة الشورىٰ ، آية (٥٢) .

(٤) سورة النحل ، آية (٨٩) .

(٥) سورة النحل ، آية (٤٤) .

(٦) الرسالة للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي ، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار التراث ، ط٢ ١٣٩٩هـ ١٩ وانظر ما بعدها .

(إنما بعثت معلما مبشرا ، وبعثت رحمة مهداة)[١] .

وقوله من قول مالك : (أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق)[٢] . قال الحافظ ابن عبد البر : (وهـٰذا حديث مدني صحيح ، ويدخل في هـٰذا المعنى الصلاح والخير كله ، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، فبذلك بعث ليتممه صلى الله عليه وسلم وقد قالت العلماء : إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله ـ عز وجل : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٣])[٤] .

ومن أراد جلب النصوص الدالة علىٰ بيان حاجة الناس للرسالة في الحكم فيما بينهم والتعبد لله تعالىٰ كما أمرهم سوف يطنب كثيرا ـ وفيما أوردناه غنية عن ذلك الإطناب ـ هـٰذا من جهة ومن جهة أخرىٰ فإن واقع البشرية عبر تاريخها الطويل يشهد بأن الإنسان إذا عبد الله بفطرته وعقله تخبط كثيرا وانحرف انحرافا لا يرجع فيه إلا إلىٰ هواه ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾[٥] .

والله تبارك وتعالىٰ لا يترك الإنسان فترة طويلة في ذلك الغي الذي يفسد الفطرة ويضل العقل ويطمس نوره ، بل لابد أن يتعاهده لطفا منه ورحمة بمن يوضح له السبيل وينير له الطريق ذلك أنه ما خلقه عبثا ولذا لا يتركه سدىٰ وهو جل وعلا يقول : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾[٦] . ويقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٧] .

---

(١) انظره بألفاظ متقاربة في طبقات ابن سعد ١/ ١٥١ والمستدرك ١/ ٣٥ والتمهيد لابن عبد البر ٥/ ١١٨ .

(٢) التمهيد ٢٤/ ٣٣٣ .

(٣) سورة النحل ، آية (٩٠) .

(٤) السابق ٣٣٤ .

(٥) سورة النجم ، آية (٢٣) .

(٦) سورة الأعراف ، آية (٥٤) .

(٧) سورة يوسف ، آية (٤٠) .

ويطنب أكثر من حاول البرهنة من خلال جلب النصوص على أن أحكام الله التي أنزلها على رسله ليحكموا بها بين عباده هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور وتحقن دماءهم وأموالهم وأعراضهم عن ورع وخوف من الله تعالى وأليم عقابه وأن البشرية لا تعرف صونا لهذه الضروريات إلا في ظل ما جاءت به الرسالة هذا مع إطباق جميع العقلاء وأهل الفطر السليمة على استحسان ما جاءت به الرسل من شرائع تأمر بالعدل والإنصاف وتأخذ على يد الظالم ويتقوى بها الضعيف حتى ينال حقه)[١] .

ولئن كان الناس بحاجة ضرورية إلى الرسالة لما تبينه من توحيد الله تعالى وما تدل عليه من علوم وأحكام وحكم فإن الإنسان أحوج إلى معرفة مصيره بعد الموت الذي يشاهده بين أفراده مساء وصباحا .

فلهذه الحاجة المصيرية أنذر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أممهم باليوم الآخر وبينوا لهم ما فيه من ثواب وعقاب بشارة للطائعين وترهيبا للكافرين والفاسقين .

إن الإيمان باليوم الآخر وقيام الساعة وما يكون بعد الموت من الأمور المغيبة التي لابد فيها من الخبر هو الباعث لأهل الإيمان على التنافس في صحة العقيدة وقوة الإيمان وإتقان العمل وموافقته لما جاء عن الله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[٢] .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[٣] .

---

(١) انظر سبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ١٢٣ وما بعدها والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ، دار الشروق جدة ، ط١ ، ١٣٩٧هـ ١-٢١ ومذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ط١ ، ١٤٠٣هـ ، ٢٢٤ وما بعدها . والنبوة والأنبياء في ضوء القرآن للندوي ٨٦ وما بعدها .

(٢) سورة الملك ، آية (٢) .

(٣) سورة آل عمران ، (١١٤) .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١) .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾(٢) .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(٣) . هكذا يبين الله تعالىٰ في كتابه لعباده حوافز تدفعهم للإيمان باليوم الآخر والعمل من أجله .

وقد اهتم الأنبياء ببيان أحوال الناس في ذلك اليوم العظيم كما يدل علىٰ ذلك الآيات الكثيرة في القرآن الكريم من لدن نوح عليه السلام إلىٰ خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي بالغ في شرح ما يكون بعد الموت حتىٰ أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار إذ لا مبين بعده صلى الله عليه وسلم .

قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ عن مثل الدنيا في الآخرة : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(٥) .

---

(١) سورة البقرة ، آية (٤ـ٥) .

(٢) سورة النجم ، آية (٢٩ـ٣١) .

(٣) سورة الأنبياء ، آية (٤٧) .

(٤) سورة يس ، آية (٧٧ـ٧٨) .

(٥) سورة الحديد ، آية (٢٠) .

وعن سهل قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)[1] .

فمن أساسيات دعوة الأنبياء : (التشديد علىٰ جانب الآخرة ، واللهج بها . والإشادة بذكرها ، والتنويه بشأنها تنويها يجعلها من النقاط الأساسية في دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائما نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها)[2] .

وما ذلك إلا لخطرها واعتماد النجاة فيها على العمل الصالح في هٰذه الدار وأن الشقاوة فيها سببها الكفر والجحود والعصيان والفسوق[3] .

فخلاصة هٰذا الفصل هي :

أننا نتفق مع الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية فيما تفقا عليه من ضرورة الرسالة للناس من الناحية العقيدة والتعبدية والحياة العملية الدنيوية والحياة الأخروية .

وهٰذه هي الأصول الثلاثة التي لا تعرف بالفطرة والعقل المجرد ولا تنال بالحس والحدس ذلك أنها أمور غيبية لا تحصل بالنظر والفكر ولا يحصل العلم بها أو تفاصيلها إلا بالخبر الصادق من العليم الخبير .

هٰذا وقد نوهنا في دراستنا لنصوصهما في المبحثين السابقين بالاستدراكات التي تؤخذ علىٰ منهجهما في بحث هٰذه المسألة التي هي حاجة

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق الحديث (٦٤١٥) .

(٢) النبوة والأنبياء للندوي ٦٤ .

(٣) انظر فتح الباري ٣١٩/١١ وما بعدها وقارن بما في كتاب : رحلة الخلود للشيخ حسن أيوب ، دار التراث ط١ ، ١٤٠٦هـ ٩٧ وما بعدها .

الناس للنبوة ، وأخذنا مما لاحظناه على الإمام الغزالي من عدم ذكر الأدلة الكافية مستندا لنا في الإطالة شيئا ما في هٰذا التعقيب طلبا للأدلة من الوحي المعصوم أو التعبير عنها . والله أعلم .

* * *

الفصل الثاني

حكم إرسال الرسل

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي

كان من رأي الإمام الغزالي في الفصول السابقة أن النبوة والرسالة حظوة ربانية وهبة إلهية لا تنال بكسب ولا تحصل بعلم إلا أن الله يجتبي من يشاء من عباده فيسلك به مسالك الاجتهاد في التعبد والنظر والتأمل بالإضافة إلىٰ ما يجعله الله عليه من مكارم الأخلاق وطيب الشمائل وما ينشر له إثر ذلك من القبول في الأرض لطيب معشره وصدق حديثه ووضوح لهجته .

وكان من رأيه كذلك أن النبوة وبعثة الرسل ضرورية للخلق في معاشهم ومعادهم بل هم أحوج إليها من الماء والهواء والغذاء والأطباء إذ وجودهم بدونها مع ما فطرهم الله عليه من نور المعرفة وبصيرة العقل ـ شر محض وشقاء لا يملكون له دفعا لا في العاجل ولا في الآجل .

وفي شرحه لحكم إرسال الرسل الذين أوضح اضطرار الخلق لهم يسلك مسالك عقلية وشرعية ذلك أن بحث هـٰذه المسألة يعد من الأمور المتأخرة نوعا ما حيث لم يعهد عن السلف الصالح الكلام فيها إلا في حدود بيان الآيات المجادلة لمنكري إرسال الرسل من البشر وتلك أمور شرعية قبل أن تكون عقلية[1] .

(١) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ٨ ، ٩ .

ولما خاض المتكلمون في هٰذه المباحث الجديدة ظهر بينهم خلاف في عبارات مشتركة من حيث اللغة فحاول بعضهم قصرها علىٰ معاني محدودة تبناها هو ، واعتقد دلائلها فلم يسلم له الآخرون ما ذهب إليه من كل وجه ، ولم يتمكنوا نهائياً من إبطال ما ذهب إليه في تلك الألفاظ المشتركة لأنه لا مشاحة عندهم في الاصطلاحات ، ولأن له من وجه آخر متمسك فيما ذهب إليه عند إثارة المعاني واستخراج الدلائل . ومن تلك الألفاظ العقل والحسن والقبح والواجب والعبث والأصلح ، فالعقل يطلق بالاشتراك علىٰ معاني عدة فلا ينبغي عند الإمام الغزالي أن يطلب له حد واحد ، ذلك أنه يراد به الغريزة التي يفارق بها الإنسان الحيوان من كونه خلق مستعداً للعلم والتحصيل والكسب والعمل في الحرف والصناعات ، ويراد بالعقل ما يخرج عند التمييز من إدراك الطفل لعلوم ضرورية تقتضي عنده الحكم بالجائزات والواجبات والمستحيلات .

ويراد به أيضاً العلوم والتجارب والمهارات التي يكتسبها الإنسان من طول ممارسته للحياة إذ يطلق الناس علىٰ من علمته الحياة النظر في العواقب أنه عاقل[1] .

فبأي هٰذه العقول نحكم على الأشياء بالحسن أو القبح أو الوجوب. . . ؟

وكيف نحكم عقلا دون آخر في الحكم بوجوب شيء معين والغالب في عقول الناس الحكم على الأشياء بالقبح لما فيها من مخالفة أغراضهم وأهوائهم مع أن العقل الواحد قد يستحسن ما كان يستقبحه إذا وافق رغبته وآل غرضه إليه .

وقد يعمم العقل الحكم على الشيء بالقبح المطلق ويغفل عن حالات نادرة إذا واجهته لا يمكن إلا استحسانها مثل الكذب لإنقاذ معصوم من دم أو مال ، إذ يغرس في الناشيء أن الكذب قبيح فيألف ذلك وينفر منه بأنواعه وحالاته

---

(١) انظر الإحياء ١/ ٨١ .

المختلفة ولا يلتفت إلىٰ حالات المصالح المتعلقة به على الندور ، وعندها يكون الكذب مستحسنا بل واجبا ، والعقل للإلف غافل عن ذلك .

ثم إن الوهم قد يسبق العقل فينفره من شيء معين من الذوات أو الصفات لما علق في الوهم من مقارنتها لما هو فيه مستقبح ، والواقع أن العكس هو الحاصل . فهٰذه مغلطات للعقل ينبغي أن يتنبه لها ولا يحكم علىٰ أن العقل محكم دائماً في الحالات التي له أن يحكم فيها فكيف بالأمور التي لا يشتغل بها كالأمور التي يرد بها الشرع من عالم الغيب (فإن إقدام الخلق وإحجامهم في أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم تابع لمثل هٰذه الحالات . . .)[١] .

ويعطينا الإمام الغزالي مثالا علىٰ ذلك من واقع أصحاب العقائد المتنافرة بالإلف كالأشاعرة والمعتزلة إذ ينفر العوام منهما من العقليات التي يسلم بها ويصدقها إذا قيل له إن القائل بها من أتباع الطائفة التي لا ينتمي إليها فيعود مكذبا نافرا مما صدق به تعبا للإلف والتعصب لا للعقل المجرد .

بل إن علماء الطائفتين لا يشتغلون إلا بالحيلة لنصرة المذهب وما يعتقدونه[٢] ، وهٰكذا يريد الإمام الغزالي أن يخلص من هٰذا إلىٰ أن الاستحسان والتقبيح العقليين مردهما إلى الإلف والتقليد منذ الصغر أو إلى الآباء والأمهات أو إلى المعلمين وما غرسوه في الطالب .

وهٰذا لا يعني أن الإمام الغزالي يسد الباب أمام الأحكام العقلية ، بل إنه يريد أن ينبه إلىٰ تلك المغلطات للعقل المجرد ، ثم يقول : (قلنا : نحن لا ننكر أن العاقل يستحثه طبعه عن الاحتراز من الضرر موهوما ومعلوما ، فلا يمنع من إطلاق اسم الإيجاب علىٰ هٰذا الاستحثاث فإن الاصطلاحات لا مشاحة فيها)[٣] .

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ١٠٧ وانظر المستصفىٰ ١/ ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ١٠٥-١٠٧ .
(٣) السابق ١١٩ .

فالواجب قد يكون عقليا ، وقد يكون شرعيا لورود الشرع به لما يترتب عليه من الضرر في الآخرة ، وقد يكون الواجب لما يترتب عليه أو يلزم من عدم وقوعه من المحال (فالواجب ـ علىٰ هـٰذا ـ اسم مشترك إذ يطلقه المتكلم في مقابلة الممتنع ، ويقول : وجود الله تعالىٰ واجب) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾[1] ، ويقال : وجبت الشمس)[2] ، وما دامت الألفاظ مشتركة والمتنازعون لم يحصلوا معناها المتفق عليه : (فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلىٰ صدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويفهمك موارد إشاراته ـ ثم ـ أعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام)[3] ، ولـٰكن ما دام : (العقل يفيد فهم كلامه ـ أي النبي ـ والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل ، والطبع يستحث على الحذر من الضرر ، ومعنىٰ كون الشيء واجبا ـ هنا ـ أن في تركه ضررا ومعنىٰ كون الشرع ـ هنا ـ موجبا أنه معرف للضرر المتوقع ، فإن العقل لا يهدي إلى الهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات فهـٰذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب)[4] ، (ثم إن الحركات الإنسانية كما احتاجت إلىٰ إرادة عقلية في جهاتها المتباينة ، كذلك احتاجت إلىٰ مكلِّف آمرٍ ناهٍ في حدودها المختلفة حتىٰ يختار المكلف الحق دون الباطل في الحركات الفكرية والصدق دون الكذب في الحركات القولية ، والخير دون الشر في الحركات العملية)[5] .

فهـٰذه هي الأمور التي يلحق الإنسان فيها ضرر عند عدم اتباعه الواجب فيها من الناحية الشرعية ، أما الأمور التي لا يحتمل فعلها إطلاق الواجب عليه لخفة الضرر فيها أو لأنها من الأمور التي لا يلحق فاعلها أو تاركها ضرر فلا يقال

(١) سورة الحج ، آية (٣٦) .

(٢) المستصفىٰ ١/ ٢٧ .

(٣) الإحياء ١/ ٣٥ وقارن بما الاقتصاد ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٤) الإحياء ١/ ١٠٥ .

(٥) معارج القدس ١٣٥ وانظر ما قبلها ١٣٤ .

لفاعلها أو تاركها أنه ترك واجبا أو ارتكب مفسدة أو جاء بعبث : (بل المخصوص باسم الواجب ما في تركه ضرر ظاهر ، فإن كان ذلك في العاقبة أعني الآخرة وعرف بالشرع فنحن نسميه واجبا ، وإن كان ذلك في الدنيا وعرف بالعقل فقد يسمىٰ أيضا ذلك واجبا ، فإن من لا يعتقد الشرع قد يقول واجب على الجائع الذي يموت من الجوع أن يأكل إذا وجد الخبز ونعني بوجوب الأكل ترجح فعله علىٰ تركه بما يتعلق من الضرر بتركه ، ولسنا نحرم هٰذا الاصطلاح بالشرع فإن الاصطلاحات مباحة لا حجر فيها للشرع ولا للعقل)(١) .

فالإمام الغزالي في هٰذه النصوص التي يمهد بها للرد على المعتزلة ومن نحىٰ نحوهم في القول بالواجب العقلي على الله تعالىٰ وما يتصل بذلك من واجب اللطف والبعثة وعمل الأصلح لا يريد أن يقطع بأن العقل لا يحكم بالوجوب ولا يريد أن يوافق علىٰ وجوب قد تكون لهم فيه فرصة للاحتجاج به عليه وذلك لا يكون إلا إذا ضرب مثلا بحكم عقلي يوجب فيه على الله تعالىٰ أن يفعل بعباده شيئا ما .

وهٰذا ما نرى الإمام الغزالي يتجنبه في جميع كلامه في أفعال الله تعالى التي درسها في كتبه التي وقفنا عليها(٢) .

بل إنه بينما تجده يعطي للعقل فسحة في الاستقلال بالحكم علىٰ شيء ما نجده يعود عليه ليسلبه حتى التجارب الطبية والنجوم والطلاسم ويعزو ذلك كله إلى الأنبياء الذين أخذوه من الوحي الإلهي الذي به يطلعون علىٰ خواص الأشياء ، ويعلل ذلك بأن من الخواص ما لا يدرك بالعقل والتجارب باتفاق أهل الصنعة ومنها ما لا يكون إلا بعد مائة عام ومنها ما لا يوجد إلا في ألف سنة ، فعلم من ذلك أنه لم يحصل بالتجارب ولا ببضاعة العقل(٣) .

---

(١) الاقتصاد ١٠٣ .

(٢) انظر المستصفىٰ ١/ ٢٨ وما بعدها وانظر المنخول ٤٧ و٥٩ـ٦٢ والاقتصاد ٧٣ وما بعدها .

(٣) انظر المنقذ ٧١ وما بعدها .

(فالعجائب والغرائب والعقائد والأعمال ، وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلىٰ جوار الله تعالىٰ وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير ، وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن للتجربة سبيلا إليها فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة إليها ، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالىٰ زلفىٰ وعن الأعمال المبعدة عنه . . .)(١) .

وعليه فما دام العقل لابد من اعتباره في مجاله مع الحيطة من المغلطات التي توهمه أو تجعل أحكامه تقليدا لا صلة لها بالتجرد العقلي ، فإن الإمام الغزالي يرىٰ أن هناك صفات لله تعالىٰ يثبتها العقل ولا تتوقف على السمع بل إن السمع لا يمكن للعقل إثباته إلا بعد إثباتها من حيث إنه كلام الله ومن لا تعرف أنه يتكلم كيف تصدق من جاءك عنه برسالة تتضمن كلاما وأوامر ونواهي ، فلابد عند الإمام الغزالي من نظر عقلي لإثبات صفات سبعة وهي أنه سبحانه قادر عالم حي مريد سميع بصير متكلم(٢) .

ويهمنا منها هنا صفة الكلام لأن كونه تعالىٰ متكلما ثبتت بالإجماع والإجماع يستند إلىٰ قول الرسول ، ومن أنكر كون البارىء تبارك وتعالىٰ متكلما فبالضرورة ينكر تصور الرسول إذ معنى الرسول المبلغ لرسالة المرسل ، فإن لم يكن المتلقي متصوراً للكلام فمن ادعىٰ أنه مرسل كيف يتصور الرسول . . . إذ المكذب بالكلام لابد أن يكذب بتبليغ الكلام ، والرسالة عبارة عن تبليغ الكلام والرسول عبارة عن المبلغ(٣) .

إذا فمن جاءنا وقال : (إن لكم ربا كلفكم حقوقا وهو يعاقبكم علىٰ تركها

---

(١) الإحياء ١/ ٣٥ .

(٢) انظر الاقتصاد ٥٣ وما بعدها .

(٣) انظر السابق ٧٣ـ٨٣ .

ويثيبكم علىٰ فعلها وقد بعثني رسولا إليكم لأبين ذلك لكم ، فيلزمنا لا محالة أن نعرف أن لنا ربا أم لا ؟ وإن كان فهل يمكن أن يكون حيا متكلما حتىٰ يأمر وينهي ويكلف ويبعث الرسل ، وإن كان متكلما فهل هو قادر علىٰ أن يعاقب ويثيب إذا عصيناه أو أطعناه ، وإن كان قادراً فهل هـٰذا الشخص بعينه صادق في قوله أنا رسول إليكم)[١] .

فهـٰذا الكلام يعد من علامات الثقة بالعقل الذي يقول الإمام الغزالي بأنه : (نور وكرامة لا يخص الله بها إلا الآحاد من أوليائه)[٢] ويوضح ذلك بقوله عن حالة وحال الناس في اتباع العقل المجرد : (وأما اتباع العقل الصرف فلا يقوىٰ عليه إلا أولياء الله تعالى الذين أراهم الله الحق حقا وقواهم على اتباعه)[٣] .

ومع أن نور العقل وبرهانه من درجات اليقين فإنما يتم ذلك له بالرسالة والنبوة التي هي منة من الله تعالىٰ علىٰ عباده ، فباجتماع نور العقل ونور الرسالة : (تمت بذلك نعمة الله علىٰ عباده وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم)[٤] ، (وأن حقه تعالىٰ في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه علىٰ ألسنة أنبيائه ـ عليهم السلام ـ لا بمجرد العقل ولـٰكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده وعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به)[٥] ، (فمعرفة الله سبحانه وطاعته ـ علىٰ هـٰذا ـ واجبة بإيجاب الله تعالىٰ وشرعه لا بالعقل ـ خلافا للمعتزلة[٦] ؛ لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال ، فإن العقل لا يوجب العبث ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع

---

(١) السابق ٧ .
(٢) الاقتصاد ٩ .
(٣) السابق ١٠٧ وانظر المنقذ ٢٩ .
(٤) الحكمة في مخلوقات الله ٤٤ .
(٥) الإحياء ١/ ٨٦ .
(٦) السابق ١/ ١٠٥ وقارن بالاقتصاد ١١٨ ـ ١٢١ والمستصفىٰ ١/ ٢٧ وما بعدها . وشرح الأصول الخمسة ٥٦٤ .

إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالىٰ فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد ، بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالىٰ سيان ، وإما أن يرجع ذلك إلىٰ غرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له في الحال بل يتعب به وينصرف إلى الشهوات لسببه وليس في المآل إلا الثواب والعقاب. . .) . فالحق : (أن العبد لا يجب عليه شيء بالعقل بل بالشرع ، وأنه لا يجب على الله بعثة الرسل ، وأنه لو بعث لم يكن قبيحا ولا محالا ، بل أمكن إظهار صدقهم)(١) ، (فالله تعالىٰ يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾(٢) ، إلىٰ أن قال : (وندعي أن بعثة الأنبياء جائز ،وليس بمحال ولا واجب ، وقالت المعتزلة إنه واجب ـ وقد سبق وجه الرد عليهم . وقالت البراهمة إنه محال(٣) .

وبرهان الجواز أنه مهما قام الدليل علىٰ أن الله متكلم وقام الدليل علىٰ أنه قادر لا يعجز علىٰ أن يدل علىٰ كلام النفس بخلق ألفاظ وأصوات ورقوم أو غيرها من الدلالات ، وقد قام الدليل علىٰ جواز إرسال الرسل. . .)(٤) .

إن الإمام الغزالي بهٰذه النصوص قد بين أن بعثة الرسل جائزة ورد. . من وجهة نظره على القائلين بالوجوب من المعتزلة بناء علىٰ أن الأشاعرة وجمهور المسلمين لا يوجبون بعقولهم على الله تعالىٰ شيئا من رعاية الأصلح وما يقتضيه اللطف والعدل والحكمة أو قولهم : أي المعتزلة : (إن البعثة متىٰ حسنت وجبت)(٥) .

وعندي أن الإمام الغزالي ما كان علىٰ مستوى الجدية التي عهدت عنه في

---

(١) الاقتصاد ١٠٢ وانظر قواعد العقائد ضمن مجموع الرسائل ٢/ ١٢٧ .
(٢) الإحياء ١/ ١٠٤ والآية من سورة الأنبياء (٢٣) .
(٣) وسيأتي إن شاء الله في الباب الآتي وجه الرد عليهم .
(٤) الاقتصاد ١٢١ وانظر منه ٧٣ـ٨٣ .
(٥) شرح الأصول الخمسة ٥٦٤ .

الرد على الخصوم في هـٰذا النزاع الذي أثاره وذلك يلاحظ في الأمور الآتية :

أ ـ أنه لم يبعد من منهج المعتزلة في الحكم العقلي وقولهم : (إنه تقرر في عقل كل عاقل وجوب دفع الضرر عن النفس)[١] ، وذلك بالمثال الذي ضربه للجائع ، حيث أعطىٰ فيه حكما بالوجوب العقلي .

ب ـ ومعلوم أن العقل عند المعتزلة وغيرهم لا يوجب إلا ما أدرك الضرر فيه أو المصلحة المتعلقة به ، أما ما وراء ذلك من أطواره فلا يوجب فيه شيئا إذا لا إدراك له به ، أو لا يشتغل بجهته ، وإن كان يستقل بفهمه إن عُرّف به .

جـ ـ والذي يكرره دائما من القول بأنه لا مشاحة في الاصطلاحات ولا حجر عليها بالعقل ولا بالشرع يوهن من رده عليهم وخصوصا في الألفاظ المشتركة التي أراد تحصيل معناها ولم يتمكن من قصرها علىٰ معنىً يتفق عليه المتخاصمون فكأنه أجاز لهم في النهاية إطلاق المصطلح الذي يرونه يؤدي غرضهم .

د ـ والذي يضعف رده أكثر أنه بنىٰ نفي إيجابهم البعثة على الله عقليا علىٰ إثبات صفة الكلام لله بالعقل وهم أصلا يخالفونه في إثباتها على الوجه الذي شرحه هو وقال في ختامه : (فهـٰذا ما أردنا أن نذكره في إيضاح مذهب أهل السنة في كلام النفس المعدود من الغوامض)[٢] .

فالذي يعهد في الردود أن يبرهن للخصم علىٰ صحة أو ثبوت ما يخالف فيه من خلال ما يقربه أو يعترف بصحته . أما أن يربط له ما يوجبه بما يخالف فيه مع الاعتراف بأنه غامض ولم يتمكن المحاور من إيضاحه بالقدر الذي يجعله حجة لبيانه ، فهـٰذا مما لا يساعد على الإقناع أو الإلزام الذي يسعىٰ إليه الإمام الغزالي .

هـ ـ وأخيرا نراه استعمل عقله واتهم الآخرين بعدم التجرد العقلي وحذرهم

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٥٦٤ .

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ٨٣ .

من المغلطات. . . ونبههم علىٰ أن التعصب المذهبي والإلف من الصغر والوهم السابق من موانع الحكم العقلي الصحيح . وما يتوجه إليهم في ذلك يتوجه إليه فيما ذهب إليه من إثبات كلام نفسي قديم لا حرف فيه ولا صوت)[1] ، ومع أن الحق معه في عدم إيجاب شيء على الله تعالىٰ وأنه جل جلاله كما تفضل بالإيجاد تفضل بالإمداد فإن هٰذه الملاحظات متوجهة ويكون الفضل له عليهم في طلب الأدب مع الله تعالىٰ في التعبير وإلا فكل اعتمد عقله واستعمل مصطلحه ولم يسلم لخصمه ما نازعه فيه ، وفي الاتباع كفاية عن الابتداع ، والله أعلم. .

* * *

(١) السابق ٧٣ـ٨٣ و١٢١ ، ١٢٢ .

المبحث الثاني

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

علمنا مما سبق أن رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في النبوة والرسالة أنها منة ربانية وحظوة إلهية يتفضل المولىٰ بها علىٰ من يشاء من عباده رحمة لعباده ولطفا منه وعدلا يقتضيه علمه وحكمته ، مع دخوله في إرادته ومشيئته الكونية والشرعية .

وأن الصحيح عنده أن النبوة تجمع في النبي صفة الذات الثبوتية مع الصفة الإضافية لتعلق الخطاب الإلهي به[1] ، وفي بيانه لرأيه في حكم إرسال الرسل بعد حصول النزاع بين طوائف الأمة في وجوب فعل الحكيم بعباده ما هو الأصلح لهم ، أو الخلاف في التحسين والتقبيح العقليين في أفعال العباد خاصة .

أو ثبوت ذلك في أفعال الله تعالىٰ وما يترتب علىٰ ذلك من الإيجاب والمنع أو التحريم بالعقل أو العقل والشرع معا ـ تطلب منه الخوض في الأمور التالية :

أ ـ العقل وأنواعه ، والعقل المراد هنا[2] .

ب ـ صفات الأفعال الذاتية عند العقل المجرد والفطرة السليمة[3] .

جـ ـ أفعال الله تعالىٰ وثبوت حكمته وعدله التابع لإرادته ومشيئته وما يقتضيه علمه ورحمته بعباده[4] .

د ـ النافون للحكمة والتعليل وسبب تلك البدعة ـ كما يقول ـ .

---

(١) انظر النبوات ٣٨٩ .

(٢) انظر درء التعارض ١/ ١٩٤ ، ١٩٥ والاستقامة ٢/ ١٦١ وما بعدها والنبوات ٣٤٩ .

(٣) انظر النبوات ٢٤٠ .

(٤) انظر نفس المرجع ٣٥١ ، ٣٥٢ .

هـ ـ المثبتون للتعليل أو التحسين والتقبيح العقلي وما يؤخذ عليهم من سوء الفهم وسبب ذلك .

ومن خلال عرضنا لنصوصه في هٰذه العناصر سوف يتكون لدينا رأي واضح عن الرأي الذي يستصوبه والمنهج الذي يتخذه لنفسه من بين الآراء والمناهج التي برزت من خلال المباحث العقدية لطوائف المتكلمين في مسألة حكم إرسال الرسل وما يلحق بها .

أ ـ لقد بحث شيخ الإسلام ابن تيمية القوانين العقلية التي وضعها المتكلمون وجعلوا منها أصلا للسمع . وبرهن بالعقل أن نتائج العقول لا يمكن أن تكون أساسا للشرع لأن الشرع ثابت ومستغن عن وجودنا وعلمنا بثبوته ونحن المحتاجون لمعرفته المستكملون لنقائصنا بالعلم به ومعرفة أوامره واجتناب نواهيه وغير ذلك من الأمور المتعلقة به .

فالعقل القطعي المجرد الصريح لا يعارضه أبدا سمعي قطعي صحيح لذا لا يقال إن العقل أصل للنقل لا باعتبار أصل ثبوته في نفس الأمر كما أسلفنا ، ولا باعتبار أنه أصل له في علمنا بصحته .

ذلك أن العقل إما غريزة كالحياة وهٰذه شرط في كل علم عقلي أو سمعي وإن كانت في نفسها لا تسمىٰ علما ولا تنافيه بل هي شرط فيه سواء كان محصلة الاستدلال والاكتساب أو كان علما ضروريا فطريا[1] .

وأما العقل الذي يراد به المعارف والمهارات المكتسبة فهٰذه أوسع من أن تحصر حتىٰ تكون أصلا لثبوت السمع الذي لا يتطلب إلا ما يعرف به صدق الرسول : (فتبين بذلك أن العقل ليس أصلا لثبوت الشرع في نفسه ، ولا معطيا له صفة لم تكن له ، ولا مفيدا له صفة كمال ، إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم ، تابع له ، ليس مؤثرا فيه .

فإن العلم نوعان : أحدهما العملي ، وهو ما كان شرطا في حصول

---

(١) انظر درء التعارض ١/ ٧٨ وما بعدها .

المعلوم كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله ، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج إليه .

والثاني : العلم الخبري النظري ، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده إلى العلم به ، كعلمنا بوحدانية الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وصدق رسله وبملائكته وكتبه وغير ذلك)[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فإن العقل قد يراد به القوة الغريزية في الإنسان التي بها يعقل ، وقد يراد به نفس أن يعقل ويعي ويعلم ، فالأول قول الإمام أحمد وغيره من السلف : (العقل غريزة والحكمة فطنة) .

والثاني : قول طوائف من أصحابنا وغيرهم : (العقل ضرب من العلوم الضرورية ، وكلاهما صحيح ، فإن العقل في القلب مثل البصر في العين يراد به الإدراك تارة ، ويراد به القوة التي جعلها الله في العين يحصل بها الإدراك)[2] ، وتلك أنواع العقل وما يراد به .

ب ـ وحيث تبين أن المراد بالعقل هنا ما تعلم به الدلائل وتحصل به المعارف وتدرك به الحقائق حسب طاقته . فإن شيخ الإسلام ابن تيمية يبدأ في بلورة أسباب النزاع ومنشأ الخلاف فيما هو داخل في مقتضيات العقول ومداركها مما لا يتعارض معها وإن كان لا يحكم أنه من ثمارها لأنه لا ينال في أصله إلا بالخبر كآيات الأنبياء التي تعلم دلالتها بالعقل ، ولـٰكن : يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول قد أخرجوا ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده ، وأصول الدين ـ هل يجب ويحصل بالشرع ، أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل ، أو يجب ويحصل بالعقل علىٰ ثلاثة أقوال مشهورة لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة .

---

(١) السابق ٨٨ .

(٢) الاستقامة ٢/ ١٦١ ، ١٦٢ .

فطائفة يقولون : يجب بالشرع ويحصل به ، وهو قول السالمية[1] وغيرهم ، مثل الشيخ أبي الفرج المقدسي[2] ، وهٰذا هو الذي حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم . وكذلك من شابههم مثل ابن درباس[3] وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعي . وهو المشهور عن أهل الحديث والفقه الذين يذمون الكلام ، وهٰذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة ابن الحسين الحنبلي المتكلم[4] ، وبين طائفة من أصحاب أحمد ، وكذلك بين أبي الفرج ابن الجوزي[5] ، وطائفة منهم ، أولٰئك يقولون : الوجوب والحصول بالشرع ، وهٰؤلاء يقولون : الحصول بالعقل والوجوب بالشرع .

وقد ذكر الآمدي ثلاثة أقوال في طرق العلم ، قيل : بالعقل فقط ، والسمع لا يحصل به كقول الرازي . وقيل : بالسمع فقط ، وهو الكتاب والسنة ، وقيل : بكل منهما ، ورجح هٰذا وهو الصحيح .

والقول الثاني : أنها لا تجب إلا بالشرع لٰكن يحصل بالعقل وهو قول الأشعري وأصحابه ، ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلىٰ وابن الزاغوني وابن عقيل وغيرهم .

والقول الثالث : أنها تحصل بالعقل وتجب به وهو قول من يوجب بالعقل

---

(١) أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم صاحب سهل بن عبد الله التستري ، توفي سنة ٢٩٧هـ انظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، تحقيق نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٣ ، ١٤٠٦هـ ، ٤١٤ـ٤١٦ .

(٢) شيخ الحنابلة في زمنه .

(٣) من أصحاب الشافعي كما ذكر شيخ الإسلام ولم نجد بعد بحث في طبقات الشافعية لهما ترجمة .

(٤) انظر ترجمته وما اتهمه به ابن الجوزي في المنتظم ١٨/ ٢٤٣ـ٢٤٥ مولده سنة ٤٩٧هـ ووفاته سنة ٥٧٣هـ . انظر صيد الخاطر ، ص٢٥٨ . وترجمته في ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٩ وما بعدها .

(٥) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي الحافظ المفسر والفقيه الواعظ الأديب . انظر ترجمته وما يشير إليه شيخ الإسلام في ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٩٩ وما بعدها .

كالمعتزلة والكرّامية وغيرهم من أتباع الأئمة كأبي الحسن الآمدي وأبي الخطاب وغيرهم وهو قول طائفة من المالكية والشافعية ، وعليه أكثر الحنفية ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه .

وقد صرح هٰؤلاء قبل المعتزلة وقبل أبي بكر الرازي وأبي الخطاب وغيرهم أن من لم يأته رسول يستحق العقوبة في الآخرة لمخالفته موجب العقل)[1] .

وبهٰذا نعلم ثبوت نزاع متشعب بين الأمة في الحكم العقلي والشرعي أيهما أسبق وبم وجبت أصول الدين هل بالعقل أم بالوحي والشرع ، أم بهما معا وهو الذي رأينا شيخ الإسلام ابن تيمية يوافق علىٰ تصحيحه مع جزمه بأن الخلاف في هٰذه المسائل إنما نشب بين الأمة لأن كثيرا من الناس قصروا في معرفة ما جاء به الرسول فأدىٰ بهم ذلك إلىٰ إخراج ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع .

جـ - وهنا يدخل شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على المخالفين من الفلاسفة في كون المشهورات تفيد اليقين : فيقول :

(النوع الثاني : أن يقال : المراد بالمشهورات عندهم هي القضايا العلمية كلها مثل كون العدل حسنا والظلم قبيحا ، والعلم حسنا والجهل قبيحا ، والصدق حسنا والكذب قبيحا والإحسان حسنا ، ونحو ذلك من الأمور التي تنازع الناس هل يعلم حسنها وقبحها بالعقل أم لا ؟)[2] .

(فالذين أثبتوا الحسن والقبح في الأفعال ، وأن لها صفات تقتضي ذلك قالوا بما قاله جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم)[3] ، (وقد ذكرنا في غير هٰذا الموضع أن أعدل الأقوال أن الأفعال مشتملة علىٰ أوصاف تقتضي حسنها ووجوبها وتقتضي قبحها وتحريمها وأن ذلك قد يعلم بالعقل لٰكن الله لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة كما قال :

---

(١) النبوات ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٢) السابق ١٦٥ .
(٣) السابق ١٦٥ وانظر ما بعدها وقارنه بمنهاج السنة ١/ ١٤٢ .

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] ، ولم يفرق سبحانه بين نوع ونوع ، وذكرنا أن هٰذه الآية يحتج بها الأشعري وأصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلي وأتباعه ، وهم يجوزون أن الله يعذب في الآخرة بلا ذنب حتىٰ قالوا يعذب أطفال الآخرة ، فاحتجوا بها على المعتزلة ، والآية حجة على الطائفتين)[2] ، (والحسن والقبح من أفعال العباد يرجع إلىٰ كون الأفعال نافعة لهم ، وضارة لهم . وهٰذا مما لا ريب فيه أنه يعرف بالعقل ، ولهٰذا اختار الرازي في آخر أمره أن الحسن والقبح العقليين ثابتان في أفعال العباد)[3] .

وإذا كان من ظن أن الحسن والقبح صفة ذاتية لازمة للموصوف مخطئا ، فإن من ظن أن التجريبيات أولىٰ باليقينيات من المشهورات التي يجدها الناس في نفوسهم ولا يملكون دفعها عن أصل فطرهم فإنه يكون أعظم خطأ إذ الناس : (إذا قالوا : العدل حسن والظلم قبيح : فهم يعنون بهٰذا : أن العدل محبوب للفطرة تحصل لها بوجوده لذة وفرح نافع لصاحبه ولغير صاحبه وتحصل به اللذة والفرح وما تنعم به النفوس .

وإذا قالوا : الظلم قبيح : فهم يعنون به أنه ضار لصاحبه ولغير صاحبه وأنه يغيض يحصل به الألم والغم وما تتعذب به النفوس .

ومعلوم أن هٰذه القضايا هي في علم الناس لها بالفطرة وبالتجربة أعظم من أكثر قضايا الطب . . فالإنسان من نفسه يجد من لذة العدل والصدق والعلم والإحسان ، والسرور بذلك ما لا يجده من الظلم والكذب والجهل . والناس الذين وصل إليهم ذلك والذين لم يصل إليهم ذلك يجدون في أنفسهم من اللذة والفرح والسرور بعدل العادل وصدق الصادق وعلم العالم وإحسان المحسن مالا يجدونه في الظلم والكذب والجهل والإساءة .

---

(١) سورة الإسراء ، آية (١٥) .

(٢) النبوات ٢٤٠ .

(٣) الرد على المنطقيين ٤٢٢ .

ولهٰذا يجدون في أنفسهم محبة لمن فعل ذلك وثناء عليه ودعاء له ، وهم مفطورون علىٰ محبة ذلك واللذة به لا يمكنهم دفع ذلك عن أنفسهم ـ ولما كان ذلك كذلك ـ فمعلوم أن العلم والعدل والصدق والإحسان ملائم لبني آدم ، فيكونوا ملتذين بذلك ، بل التذاذهم بذلك أعظم من غيره . . . وهٰذا معنىٰ كون الفعل حسنا ومعنىٰ كونه قبيحا ضد ذلك . وإذا تصور معنى الحسن والقبح علم أن هٰذه المشهورات من أعظم اليقينات ، فإنها مما اتفقت عليها الأمم لما علموه بالحس والعقل والتجربة . . .)[١] .

وإذا كان هٰذا هو معنى الحسن والقبح في أفعال العباد فإنه مما لا يبعد الاتفاق عليه ، ذلك أن الفطرة والعقل والحس والتجربة شاهدة عليه . وعليه فلا ينكره إلا من يكابر عقله ويناقض فطرته ويرجح بلا مرجح[٢] .

(وأما إثبات ذلك في حق الله تعالىٰ فهو مبني علىٰ معنىٰ محبة الله ورضاه وغضبه وسخطه ، وفرحه بتوبة التائب ونحو ذلك ـ وهل ذلك صفات ليست هي الإرادة كما اتفق عليه السلف والأئمة ، أو ذلك هو الإرادة بعينها كما يقوله من يقوله من المعتزلة والجهمية ومن وافقهم)[٣] .

فمبدأ الكلام عند شيخ الإسلام ابن تيمية في أفعال الله تعالىٰ والتي منها النبوة هي من إثبات الإرادة والحكمة ذلك أننا لا نعلم فاعلا غير مقهور إلا بإرادة ، ولا تعقل إرادة عند الناس إلا فيمن يجوز عليه الغرض واللذة والألم والانتفاع والضرر ، فمن أثبت الإرادة ونفى الحكمة معللا ذلك بالغرض والألم واللذة ، يلزمه نفي ما أثبته من إرادة ومشيئة[٤] .

(فالله أجل من أن يحتاج إلىٰ عباده لينفعوه أو يخاف منهم أن يضروه ، وإذا

---

(١) السابق ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
(٢) انظر السابق ٤٢٨ وما بعدها .
(٣) السابق ٤٢٢ .
(٤) انظر النبوات ٣٩٣ .

كان المخلوق العزيز لا يتمكن غيره من قهره فمن له العزة جميعا ، وكل عزة فمن عزته أبعد من ذلك)[1] ، (وهو سبحانه مع غناه عن العالمين ، خلقهم وأرسل إليهم رسولا يبين لهم ما يسعدهم وما يشقيهم ، ثم إنه هدىٰ عباده المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فمن عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، فخلقه بفضله ، وإرساله الرسول بفضله ، وهدايته لهم بفضله ، وجميع ما ينالون به الخيرات من قواهم وغير قواهم بفضله ، فكذلك الثواب والجزاء بفضله ، وإن كان أوجب ذلك علىٰ نفسه ، كما حرم علىٰ نفسه الظلم ، ووعد بذلك كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

فهو واقع لا محالة واجب بحكم إيجابه ووعده لأن الخلق لا يوجبون على الله شيئا ، أو يحرمون عليه شيئا ، بل هم أعجز من ذلك وأقل من ذلك وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل . . .)[4] .

(فأفعال الرب إما واجبة وإما ممتنعة ، وإذا لم يكن ممتنعا تعين أنه واجب وأنه قد فعله وهـٰذا قد فعله)[5] ، وهـٰذا هو الواقع في نفس الأمر عند شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يعمل فكره وعلمه في البرهنة علىٰ أن الله تبارك وتعالىٰ لا مكره له وهو غني عن خلقه الغناء المطلق وله الإرادة النافذة والحكمة التامة فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والجواز إنما يكون تبعا للشك والتردد والعلم الذهني وهـٰذا لا يجوز في حق الله تعالى الذي علمه محيط بكل شيء وعدله ورحمته يعم خلقه فيما خلق وفيما شرع وعليه : (ففي نفس الأمر ما ثم إلا ما يقع أو لا يقع ، والواقع لابد من وقوعه ، ووقوعه واجب لازم ، وما لا يقع

(١) النبوات ١٦٠ .
(٢) سورة الأنعام ، آية (٥٤) .
(٣) سورة الروم ، آية (٤٧) .
(٤) الفتاوىٰ ٨/ ٧٢ ، ٧٣ .
(٥) النبوات ٣٩١ .

فوقوعه ممتنع ، لٰكن واجب بغيره وممتنع لغيره ، وهو واجب من جهات :

من جهة علم الرب من وجهين ، ومن جهة إرادته من وجهين ، ومن جهة كلامه من وجهين ، ومن جهة كتابته من وجهين ، ومن جهة رحمته ، ومن جهة عدله .

أما علمه فما علم أنه سيكون فلابد أن يكون ، وما علم أنه لا يكون فلا يكون ، وهٰذا مما يعترف به جميع الطوائف إلا من ينكر العلم السابق كغلاة القدرية الذين تبرأ منهم الصحابة)[1] .

ومن جهة أنه يعلم ما في ذلك الفعل من الحكمة فيدعوه علمه إلىٰ فعله ، أو ما فيه من فساد فيدعوه إلىٰ تركه ، وهٰذا يعرفه من يقر بأن العلم داع ومن يقر بالحكمة ، ومن جهة إرادته فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن جهة حكمته وهي الغاية المرادة لنفسها التي يفعل لأجلها ، فإذا كان مريدا للغاية المطلوبة لزم أن يريد ما يوجب حصولها .

ومن جهة كلامه من وجهين ، من جهة أنه أخبر به ، وخبره مطابق لعلمه ، ومن جهة أنه أوجبه علىٰ نفسه وأقسم ليفعلنه ، وهٰذا من جهة إيجابه علىٰ نفسه والتزامه أن يفعله ، ومن جهة كتابته إياه في اللوح ، وهو يكتب ما علم أنه سيكون وقد يكتب إيجابه والتزامه .

فهٰذه عشرة أوجه تقتضي الجزم بوقوع ما سيكون وأن ذلك واجب حتىٰ لابد منه ، فما في نفس الأمر جواز يستوي فيه الطرفان الوجود والعدم)[2] ، (والاستدلال بالحكمة أن يعرف أولا حكمته ، ثم يعرف أن من حكمته أنه لا يسوي بين الصادق بما يظهر به صدقه ، وبأن ينصره ويعزه ويجعل له العاقبة ، ويجعل له لسان صدق في العالمين ، والكاذب عليه أن يبين كذبه ويخذله ويذله ، ويجعل عاقبته عاقبة سوء ويجعل له لسان الذم واللعنة في

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٢) النبوات ٣٥١ ، ٣٥٢ .

العالمين ، كما قد وقع ، فهٰذا هو الواقع ، ولٰكن المقصود أن نبين أن ما وقع منه فهو واجب الوقوع في حكمته لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك ، فهٰذا استدلال ببيان أنه يجب أن يقع منه ما يقع ، ويمتنع أن يقع منه ضد ذلك ، وذلك ببيان أنه حكيم ، وأن حكمته توجب أن يبين صدق الأنبياء وينصرهم ويبين كذب الكاذبين ويذلهم ، وكذلك يفعل بأتباع النبيين وبأعدائهم كما أخبر بذلك في كتابه ، وبين أن هٰذا حق عليه يجب أن يفعله ، ويمتنع أن يفعل ضده)[1] .

ويزيد شيخ الإسلام ابن تيمية موضوع الحكمة والإحكام بيانا لما له من صلة بدلائل العقول الضرورية ، ولما يريد أن يبرهن من خلال شرحه وما يورده من الأمثلة علىٰ مقتضيات أدىٰ تجاهلها إلىٰ تناقضات عقدية وفكرية فيقول : (فقد تبين ثبوت حكمته من جهة علمه ومن جهة نفس أفعاله المتقنة المحكمة التي تدل علىٰ علمه بالإتقان وهٰذه أصول عظيمة من تصورها تصورا جيداً انكشف له حقائق هٰذا الموضع الشريف)[2] .

وإذا ثبت أنه حكيم ، وأن حكمته لازمة لإرادته وهما لازمان لذاته كانت حكمته من لوازم ذاته فيمتنع أن يفعل إلا لحكمة وبحكمة ، ويمتنع أن يفعل علىٰ خلاف الحكمة ، ومعلوم بصريح العقل أن العلم خير من الجهل والصدق خير من الكذب والعدل خير من الظلم والإصلاح خير من الإفساد ولهٰذا وجب اتصافه تعالىٰ بالرحمة والعلم والصدق والعدل والإصلاح دون نقيض ذلك وهٰذا ثابت في خلقه وأمره ، فكما أنه في خلقه عادل حكيم رحيم فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين فإنه لا يكون إلا عدلا وحكمة ورحمة)[3] .

إن هٰذه النصوص تكفي في بيان تناقض نفاة الحكمة والتعليل في أفعال الله

---

(١) السابق ٣٥٨ ، ٣٥٩ وانظر منه ٣٧٩ .
(٢) النبوات ٣٤٩ .
(٣) السابق ٣٥٨ ، ٣٥٩ وانظر منه ٣٧٩ .

تعالى الذين سووا بين صفات الأشياء حسنا وقبحا أمام العقول حتىٰ يرد النص الشرعي بأحدهما في حق هـٰذا دون ذلك .

وقد تمكن شيخ الإسلام ابن تيمية من اتخاذ موقف وسط بين من يثبت الإرادة والمشيئة والحكمة في المخلوقات والإتقان الذي لا يكون إلا عن علم محيط ، وهو مع ذلك ينفي الحكمة الغائية والتعليل بعقله فرارا من موهومات إن فسر المراد منها وما تؤول إليه تكون مستحيلة في حق الله تعالىٰ ، وهي في حيز الاتفاق عليها في أفعال العباد وما يحيط بهم من طمع في جلب نفع أو دفع ضر أو قلة علم وعجز في القوة والإرادة .

وكما تمكن من بيان تناقض هـٰؤلاء فقد بين حقيقة ما يذهب إليه طائفة القائلين بالحكمة والتعليل الموجبين على الله تعالىٰ فعل الأصلح مع نفيهم للإرادة والكلام وغير ذلك من الصفات العليا ا لتي يجب إثباتها لله تبارك وتعالىٰ ثم إثبات مقتضياتها أما إثبات اللازم ونفي الملزوم أو التسوية بين أفعال الخالق والمخلوق فهـٰذا تناقض واضح تنفر منه الفطرة السليمة ويأباه العقل والشرع معا .

ولنعد إلىٰ سياق نصوص شيخ الإسلام في هـٰذا الموضوع :

د ـ يذكرنا شيخ الإسلام ابن تيمية بأن إثبات الحكمة المطلوبة الغائية والعلة ومسألة التحسين والتقبيح العقليين هي الأمور الأساسية التي أفرزت هـٰذا النزاع المرير فيقول :

(ونشأ من هـٰذا الكلام نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم في مسألة التحسين والتقبيح العقلي :

فأثبت ذلك المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم وحكوا ذلك عن أبي حنيفة نفسه .

والمعتزلة أثبتت الحسن في أفعال الله تعالىٰ لا بمعنىٰ حكم يعود إليه في أفعاله . . . وهم . ومن وافقهم من الشيعة يوجبون على الله سبحانه أن يفعل

بكل عبد ما هو الأصلح له في دينه ، وتنازعوا في وجوب الأصلح في دنياه ، ومذهبهم أنه لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير ما فعل ، ولا يقدر أن يهدي ضالا ولا يضل مهتديا . . فهم ـ أثبتوا حسنا وقبحا لا يعود إلى الفاعل منه حكم يقوم بذاته إذ عندهم لا يقوم بذاته لا وصف ولا فعل ولا غير ذلك ، وإن كانوا قد يتناقضون ، ثم أخذوا يقيسون ذلك علىٰ ما يحسن من العبد ويقبح ، فجعلوا يوجبون على الله سبحانه ما يوجبون على العبد ، ويحرمون عليه جنس ما يحرمون على العبد ، ويسمون ذلك العدل والحكمة مع قصور عقلهم عن معرفة حكمته وعدله ، ولا يثبتون له مشيئة عامة ، ولا قدرة تامة)[١] .

ويوضح بنص آخر مظاهر تناقضهم وتسويتهم بعقولهم بين الخالق والمخلوق في الإيجاب والمنع بدعوىٰ جامع القدرة ، سواء في القديم أو الحادث قال : (والمعتزلة أثبتوا حسنا وقبحا عقليين في فعل القادر مطلقا سواء كان قديما أو محدثا .

وقالوا : الحسن ما للقادر فعله . والقبيح ما ليس له فعله .

وقالوا : إن ذلك ثابت بدون كونه مستلزما للذة والألم كما ادعوا ثبوت حكمة للفاعل القادر ولا تعود إليه ولا يستلزم اللذة فادعوا ما هو خلاف الموجود والمعقول)[٢] .

ولشيخ الإسلام نصوص واضحة في الرد علىٰ كل طائفة من النفاة للتعليل والحكمة المطلوبة في أفعال الله تعالىٰ بعد بيانه لاتفاق أكثر الطوائف علىٰ إثباتها في أفعال العباد وحكمة الله تعالىٰ في مخلوقات .

فيقول في صدد ذلك : (واتفق الفريقان علىٰ أن الحسن والقبح إذا فسرا

(١) الفتاوىٰ ٨/ ٩٠-٩٢ .

(٢) النبوات ١٦٤ وانظر منه ١٦٥ وقارن بمنهاج السنة ١/ ١٦٢ وما بعدها .

بكون الفعل نافعا للفاعل ملائما له ولكونه ضارا للفاعل منافرا له أنه يمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع)[1] .

(ونفىٰ ذلك ـ التحسين والتقبيح العقلي ـ الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وغيرهم)[2] .

وفي بيانه لواقع فهم الأشعرية ومن وافقهم للتحسين والتقبيح العقليين يقول:

(ومنازعوهم لما اعتقدوا أن لا حسن ولا قبح في الفعل إلا ما عاد إلى الفاعل منه حكم نفوا ذلك . وقالوا : القبح في حق الله تعالىٰ هو الممتنع لذاته ، وكل ما يقدر ممكنا من الأفعال فهو حسن إذ لا فرق بالنسبة إليه عندهم بين مفعول ومفعول)[3] ، (وأكثر الطوائف علىٰ إثبات الحسن والقبح العقليين ولـٰكن لا يثبتونه كما تثبته نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . بل القائلون بالتحسين والتقبيح من أهل السنة والجماعة من السلف والخلف ، كمن يقول به من الطوائف الأربعة وغيرهم يثبتون القدر والصفات ونحوها مما يخالف فيه المعتزلة أهل السنة .

ويقولون مع هـٰذا بإثبات الحسن والقبح العقليين) ـ ونص علىٰ أئمة كبار في المذاهب الفقهية وأهل الحديث[4] . ثم قال : (بل هـٰؤلاء ذكروا أن نفي ذلك من البدع التي حدثت في الإسلام في زمن أبي الحسن الأشعري لما ناظر المعتزلة في القدر بطريق الجهم ابن صفوان ونحوه من أئمة الجبر فاحتاج إلىٰ هـٰذا النفي ـ وقال ابن تيمية علىٰ لسان أهل السنة : (قالوا : وإلا فنفي الحسن والقبح العقليين مطلقا لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ، بل ما يؤخذ من كلام الأئمة والسلف في تعليل الأحكام ، وبيان حكمة الله في خلقه وأمره ، وبيان ما فيما أمر الله به من الحسن الذي يعلم بالعقل وما في مناهيه من القبح

---

(١) الفتاوىٰ ٨/ ٩٠ .

(٢) السابق .

(٣) السابق ٩١ .

(٤) انظر منهاج السنة ١/ ١٤١ وما بعدها والرد على المنطقيين ٤٢٠ ، ٤٢١ .

المعلوم بالعقل ينافي قول النفاة . والنفاة ليس لهم حجة على النفي أصلا)[1] .

(والمتكلمون متفقون علىٰ إثبات الحكمة في مخلوقاته ـ تعالىٰ ـ وإن كانوا في الإرادة وفعله لغاية متنازعين. . والذين استدلوا بالإحكام علىٰ علمه ولم يثبتوا الحكمة وأنه يفعل هـٰذا لهـٰذا متناقضون عند عامة العقلاء وحذاقهم معترفون بتناقضهم ، فإنه لا معنىٰ للإحكام إلا الفعل لحكمة مقصودة فإذا انتفت الحكمة ولم يكن فعله لحكمة انتفى الإحكام ، وإذاً انتفىٰ دليل العلم . وإذا كان الإحكام معلوما بالضرورة ، ودلالته معلومة بالضرورة علم أن حكمته ثابتة بالضرورة وهو المطلوب ، وأيضا فإذا ثبت أنه عالم فنفس العلم يوجب أنه لا يفعل قبيحا ، ولا يجوز أن يفعل القبيح إلا من هو جاهل)[2] .

(ومما يبين حكمته أن تقول : أفعاله المحكمة المتقنة دلت علىٰ علمه ، وهـٰذا مما وقع الاتفاق عليه من هـٰؤلاء ، فإنهم يسلمون أن الإحكام والإتقان يدل علىٰ علم الفاعل ، وهـٰذا أمر ضروري عندهم ، وعند غيرهم ، وهو من أعظم الأدلة العقلية التي يجب ثبوتها مدلولها. . . ولهـٰذا وجب اتصافه تعالىٰ بالرحمة والعلم والصدق والعدل والإصلاح دون نقيض ذلك ، وهـٰذا ثابت في خلقه وأمره ، فكما أنه في خلقه عادل حكيم رحيم فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين فإنه لا يكون إلا عدلا وحكمة ورحمة . . بل ما يأمر به مصلحة لا مفسدة وحسن لا قبيح وخير لا فساد وحكمة وعدل ورحمة والحمد لله رب العالمين)[3] .

(أما الذين قالوا : يجوز منه فعل كل شيء ، ولا ينزه عن شيء يتعذر علىٰ أصلهم وجود دليل قصدي لا الكلام ولا الفعال)[4] .

---

(١) الرد على المنطقيين ٤٢١ وانظر منهاج السنة ١/ ١٤٥ وما بعدها والفتاوىٰ ٨/ ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) النبوات ٣٥٧ ، ٣٥٨ .
(٣) السابق ٣٧٩ .
(٤) السابق ٣٩١ .

(ومن أثبت المناسبة من متأخريهم كأبي حامد ومن تبعه قالوا : عرفنا بالاستقراء أن المأمور به يقترن به مصلحة العباد وهو حصول ما ينفعهم ، والمنهي عنه تقترن به المفسدة ، فإذا وجد الأمر والنهي علم وجود قرينه الذي علم بعادة الشرع من غير أن يكون الرب أمر به لتلك المصلحة ولا نهىٰ عنه لتلك المفسدة ، وجمهورهم وأئمتهم علىٰ أنه يمتنع أن يفعل لحكمة)[1] .

(وأما سائر الطوائف الذين يقولون بالتعليل من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وأهل الكلام كالكرامية وغيرهم المتفلسفة أيضاً فلا يوافقونهم علىٰ هٰذا ، بل يقولون : إنه يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالىٰ ، وقد يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك ، والأمور العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة كإرسال محمد صلى الله عليه وسلم . . .)[2] .

(والتحقيق أن الرب يخلق بمشيئته وقدرته وهو موجب لكل ما يخلقه بمشيئته وقدرته ليس موجبا بمجرد الذات ولا موجبا بمعنىٰ أنه موجبه يقارنه أن فإن هٰذا ممتنع ، فهٰذان معنيان باطلان ، وهو قادر يفعل بمشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شاءه وجب كونه ، وما لم يشأ امتنع كونه)[3] .

(والمقصود هنا التنبيه علىٰ لوازم ذلك ـ من المحبة والفرح والحكمة . . . فإن نفاة ذلك نفوا أن يكون في الممكن فعل ينزه عنه فليس عندهم فعل يحسن منه وفعل ينزه عنه بل عندهم تقسيم الأفعال ، أفعال الرب والعبد إلىٰ حسن وقبيح لا يكون عندهم إلا بالشرع ، وذلك لا يرجع إلىٰ صفة في الفعل ، بل الشارع عندهم يرجح مثلا علىٰ مثل ، والحسن والقبح إنما يعقل إذا كان الحسن ملائما للفاعل ، وهو الذي يلتذ به ، والقبيح ينافيه ، وهو الذي يتألم به .

---

(١) السابق ١٦٧ .
(٢) السابق ١٦٧ .
(٣) النبوات ٣٥١ .

والحسن والقبح في أفعال العباد بهٰذا الاعتبار متفق علىٰ جوازه . وإنما النزاع في كونه يتعلق به المدح والثواب وهٰذا في الحقيقة يرجع إلى الألم واللذة . ويقال ـ إن الحسن والقبح العقليين ثابتان في أفعال العباد دون الرب إذا كان معناهما يؤول إلى اللذة والألم)[1] .

(وظن من ظن من هٰؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هٰذا ، وهٰذا ليس كذلك ، بل جميع الأفعال التي أحبها الله تعالىٰ وندب إليها هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم ، وجميع الأفعال التي نهى الله عنها هي ضارة لفاعليها ومفسدة في حقهم ، والحمد والثواب المترتب علىٰ طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له ، والذم والعقاب المترتب علىٰ معصيته ضار للفاعل ومفسدة له)[2] .

(والكلام في النبوة فرع علىٰ إثبات الحكمة التي يوجب فعل ما تقتضيه الحكمة ويمتنع فعل ما تنفيه فنقول :[3] . . . وإذا عرفت حكمته وعدله تبين أنه إنما يرسل من اصطفاه لرسالته واختياره لها كما قال :

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾[4] .

وكما قال لموسىٰ : ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[5] .

بهٰذه النصوص المرصوصة يمكننا أن نستخلص رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في حكم إرسال الرسل عندما تنازعت طوائف الأمة في ذلك فنقول :

إن رأي شيخ الإسلام ابن تيمية أن من أعظم بواعث النزاع في هٰذه المسألة تقصير كثير من العلماء في تحصيل ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) السابق ١٦٤ .
(٢) الفتاوىٰ ٨/ ٩٠ .
(٣) النبوات ٣٥٣ وانظر ما بعدها .
(٤) سورة الحج ، آية (٧٥) .
(٥) سورة طه ، آية (١٣) .

حتىٰ أخرجوا ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع وبذلك نصبوا فروقا وهمية بين العقل والشرع وراحوا يضاربون بعقولهم بين العقلي والشرعي وما يثبت من أصول الدين بالعقل وما لا يثبت إلا بالشرع حتىٰ كثر الكلام في ذلك وتحزب الناس طوائف لأفكارهم ونتاج عقولهم فخالفوا بذلك العقل والشرع لما وقعوا فيه من تناقض كانوا في غنىٰ عنه لو سلكوا مسالك العقلاء من السلف إذ أقروا بما دلت عليه الفطرة البشرية من الأمور التي لا يملكون دفعها ويشترك فيها كثير من الناس وبذلك يكون من رأي شيخ الإسلام ابن تيمية أن العلم في أصوله وأدلته يشترك العقل والشرع في تحصيله وإثباته .

ومن رأي شيخ الإسلام ابن تيمية أن العقول البشرية على اختلاف أجناس الأمم ولغاتهم وبلدانهم تشهد باستحسان أمور وأفعال كثيرة لا يملكون دفع ذلك عن عقولهم وفطرهم . وهـٰذا يدل علىٰ أن في الفطرة البشرية أن للأفعال صفات ذاتية اقتضت حسنها ووجوبها أو قبحها وتحريمها في النفوس ولا يختلفون أن ذلك معلوم عندهم بالفطرة والعقل وليس معنىٰ ذلك أن يحكموا لفاعل الحسن منها بالثواب أو الثناء من الله تعالىٰ أو يثبتوا لمن عمل القبيح منها قدحا شرعيا أو عقابا أخرويا إذ ذلك ليس في عقولهم وأصل فطرهم ما يصدقه أو يظهره ويحكم به حتىٰ يرد الدليل من قبل الله تعالىٰ ومن قال بذلك النوع من الإيجاب والتحسين والتقبيح العقلي الذي يترتب عليه ثواب أو عقاب خرج عن مقتضى الفطرة والعقل الصريح إلىٰ أحكام أخرىٰ أملاها عليه التحزب والتعصب .

ومن رأيه أن الطوائف كلها متفقة علىٰ أن الحسن أو القبح يدرك في أفعال العباد بالعقل لأن ذلك تابع لما يتعلق بها من المصالح أو المفاسد المدركة لهم لما فيها من اللذة والفرح والسعادة والسرور أو لما فيها من أضداد ذلك مما يقع لهم من الألم والضرر والحرمان وغير ذلك .

ويتفقون كذلك علىٰ أن الله تبارك وتعالىٰ غني عن العالمين ويستحيل في حقه توهم شيء من هـٰذه الأمور التي يتفق الناس أنها تكون للبشر .

ولـٰكن ليس معنى استحالة ذلك في حقه تعالىٰ أنه لا يفعل لحكمة وغاية كما تمسك بذلك من نفى التعليل وتوهم أن الفعل لغاية وطلب مصلحة معينة من خلق أو تشريع يتنافىٰ مع الغني المطلق الثابت لله تعالىٰ أو يدل على الخوف من حصول ألم أو ذهاب فرح وغير ذلك فذلك كله في حق من يجوز عليهم ذلك كما أسلفنا .

أما المولىٰ جل جلاله فكل أفعاله حسنة ولحكمة يشهد لها علمه وإرادته ومشيئته الكونية والشرعية سواء أدرك الناس تلك الحكمة أو لم يدركوها وعليه فلا يسلم من التناقض في هـٰذا الباب إلا من أثبت العلم والإرادة والحكمة والمشيئة ومقتضيات ذلك ، وعند ذلك سيجد أن الله تبارك وتعالىٰ .

لا يجب عليه إلا ما أوجبه علىٰ نفسه وما أوجبه علىٰ نفسه واجب لا يتخلف وما استحال عليه امتنع كونه حتىٰ لا يكون أبدا ، وبذلك فلا يقال في تقسيم أفعاله إلا واجب وقع ، أو واقع لا محالة ، أو ممتنع لا يقع ، أما الجواز بمعنىٰ تساوي الطرفين فلا يكون إلا في حق من قصر علمه وقلت حيلته كالمخلوقات ، أما الله جل جلاله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لذلك .

فنفي الحكمة والتعليل من البدع التي نجمت عن الخلافات المذهبية وسلوك مسالك المبتدعة في الجدل والمناظرة ، وكذلك من البدع المخالفة للعقل والنص الشرعي الإيجاب على الله وإطلاق ذلك علىٰ ما لم يطلقه الشارع الحكيم عليه لما في ذلك من شبهة اعتقاد التساوي بين الخالق والمخلوق وقدرة القادر القاهر بالعاجز الجاهل المغلوب .

وبذلك يكون قد اتضح أن إرسال الرسل واجب واقع لا محالة وقد وقع ، وذلك لما فيه من مقتضيات حكمة الله وعلمه ورحمته وعدله وما كتبه علىٰ نفسه وأخبر به عباده وجرىٰ به قدره ونزل به كلامه .

فهـٰذا هو الحكم والإيجاب إذا أطلق في حق الله تعالىٰ .

والله أعلم

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

من خلال استقرائنا لنصوص المبحثين السابقين نستطيع أن نستخلص ما يأتي :

أـ أن الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية يعطيان للفطرة والعقل مكانتهما اللائقة بهما لكونهما من الغرائز الجبلية التي تدعو الإنسان للخير وتدلانه عليه ، وبهما وبتنميتهما على الوجهة الصحيحة ينال العبد درجات من العلم الضروري الذي لا يمكنه دفعه أو إنكاره .

ب ـ ويتفقان علىٰ أن النبوة لا تدرك بفطرة ولا عقل راجح ولا اجتهاد نادر أو فكر ثاقب وإنما هي منة يرحم الله بها عباده ومحض تفضل منه يقتضيه علمه وإرادته وعدله ومشيئته ومقتضيات أخرىٰ كثيرة قد يدرك بعض الناس وجهها وقد يخفىٰ علىٰ كثير منهم سرها وحكمها ومن هنا :

جـ ـ فلا ينبغي إطلاق الإيجاب على الله تعالىٰ بالبعثة إلا إذا أريد أن الله جل جلاله أوجب ذلك علىٰ نفسه وكتبه في كتابه وما كان كذلك فوجوبه لا يتخلف إذ إرادة الله تعالىٰ مطلقة لا يعجزه شيء ومشيئته نافذة فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فلا مكره له ، بل يخلق لحكمة بالغة ويشرع لحكم بليغة .

د ـ ويستحيل في حقه تعالى الأغراض التي يعلم أن الناس يفعلون من أجلها أو يتركون مراعاة لها كالنفع والضر والخوف والرجاء والألم واللذة ، فهٰذه أمور يتفق الناس أن الله تبارك وتعالىٰ منزه عنها إذ هو الغني الغنى المطلق ، ولذلك فما يحسن من الناس في الأفعال والتروك لا يقاس بأفعال الله تعالىٰ ، وما يجمل منهم وما يقبح لأجل أغراضهم وعاداتهم وتوهماتهم لا يجوز أن ينظر فيه إلى القياس بالله تعالىٰ إذ كل أعماله حسنة متقنة وكل أفعاله جميلة محكمة ، ذلك أن علمه كامل محيط ورحمته شاملة ولطفه بعباده في الخلق

والأمر ظاهر ، والناس لقصور عقولهم ونقص علمهم وتشعب أغراضهم وتعارض مصالحهم وتباين عقولهم وتفاوت فهومهم قد يستحسنون في حالة ما يستقبحونه في حالة أخرىٰ ، ويؤلمهم في حالة ما يلتذون به تارة أخرىٰ علىٰ أن هـٰذا لا يعارض أن مقتضيات العقل التام المجرد يقينية تعطي العلم الضروري.

هـ ـ وإذا كان الحسن والقبح في أفعال العباد يدرك بالعقل وجهه ، ويفهم دافعه ، وكانت أفعاله تعالىٰ قد اختلف الناس في مدرك وجه الحسن فيها نظرا لاختلافهم في الحكمة والتعليل في حقه تبارك وتعالىٰ فإن نصوص هـٰذين الإمامين تعطي أن من أخذ بتعليل باطل لأفعاله تعالىٰ أشد شذوذا ممن نفى التعليل هروبا من مظنة الأغراض البشرية المستحيلة عليه جل جلاله ، وتعطي كذلك أن من أثبت التعليل والحكمة ونفى الإرادة والمشيئة وسوىٰ بين أفعال القادرين قد خالف المنهج الصحيح وجانب الصواب ، ووقع في التناقض ، إذ كان من نفى الحكمة والتعليل قد ابتدع ما لم يكن عليه السلف وجمهور الحذاق والعقلاء من الأمم قاطبة ومن المسلمين خاصة إلا أن الجميع مع ذلك يتفقون علىٰ أن الاعتراض علىٰ لفظ الإيجاب على الله تعالىٰ من خلقه أو التحسين والتقبيح العقلي في أفعاله ليس معناه أنه يترك حسنا أو يفعل قبيحا حاشاه من ذلك .

كما أنه ليس معناه أنه يتخلف شيء مما قدره وكتبه وأوجبه علىٰ نفسه الكريمة أو يقع شيء مما لم يرده ويقضي به إذ لا يقع في ملكه إلا ما شاء . ومن هنا يبدو لنا وجه خلاف بين نصوص الإمامين في النقاط الآتية :

١ـ أن الإمام الغزالي ينفي التعليل والأغراض ويثبت المناسبة وشيخ الإسلام ابن تيمية يرد عليه بأن التعليل الذي نفاه غير متوهم في حق الله تعالىٰ وهو ما يفهم منه الغرض الذي يؤول إلىٰ خوف ألم أو دفع ضر أو جلب منفعة وما إلىٰ ذلك مما يتفق الجميع أن الله تعالىٰ منزه عنه .

وأن إثبات المناسبة التي يلتزمها الإمام الغزالي غير مؤثرة في نقطة الخلاف الدائر بين نفاة الإرادة ومثبتيها ، فلابد من إثبات إرادة مطلقة لله تعالىٰ وإثبات

الأسباب والعلل الدالة علىٰ حكمة الحكيم وإلا يعود الأمر إلى التناقض في المنهج الذي يؤول عند التحصيل إلىٰ نفي التأثير .

٢ـ ومع أن الإمام الغزالي يرىٰ أن الاصطلاحات لا مشاحة فيها فإنه ما خرج من بحثه لحكم إرسال الرسل إلا بالقول بالجواز بناء علىٰ نفي الإيجاب على الله تعالىٰ من خلقه وبناء علىٰ أنه لا يعقل في حقه تعالىٰ . وكان من واجب هٰذه المسألة أن تدرس منه في نطاق ما كتبه الله علىٰ نفسه وأوجبه في كتابه وما تقتضيه حكمته ورحمته وعدله إذ فيها نصوص من الوحي يجب أن تؤصل منها ، ولا يكتفىٰ بعرض الخلافات المذهبية المحدثة التي التزم أصحابها من أجلها التزامات بدعية أو باطلة تخالف العقل والشرع والحس .

٣ـ أن الإمام الغزالي ربط حكم النبوة والرسالة بمسألة الكلام النفسي عند الأشاعرة والكلام النفسي محل خلاف ولا يثبت به عند المحققين كلام تنبني عليه نبوة ورسالة وشرع وكتب .

٤ـ إن الإمام الغزالي قد حذر من مغالطات العقول ، والتي منها الوهم والإلف والتقليد ومع ذلك نجده يقع في هٰذه المغالطات ويلتزم من أجلها أقوالا وأحكاما تنافي قوله : (ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها علىٰ أمن ويقين)[١] ، عندما حكىٰ عن حالته المرضية في بغداد[٢] .

وإذا تبينت أوجه الاتفاق بينهما على العموم وبرزت نقاط الاختلاف علىٰ ما فيها من نسبية لا يمكن حسم الفروق فيها ، فإن الأدلة من الكتاب والسنة علىٰ ما اتفقا عليه كثيرة ، وقد جلب شيخ الإسلام ابن تيمية منها في كتبه شيئا كثيرا فاق به غيره وتميز على الإمام الغزالي به من حيث وضوح المنهج وحضور الدليل عليه ، ونورد منه ما يأتي حتىٰ يعلم أن حكم إرسال الرسل واجب وواقع مع الغنى المطلق لله تعالىٰ إذ كتبه علىٰ نفسه واقتضته حكمته ورحمته وتعلقت به

---

(١) المنقذ ٢١ .

(٢) لسابق وانظر الاقتصاد ١٠٢ ، ١٠٣ .

إرادته ومشيئته وتكلم به على لسان رسله وأقره في تنزيله الخالد حسب علمه المحيط الذي لا يتخلف .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5] .

فهٰذه الآيات تقرر أن الله تبارك وتعالى قد خلق عباده فقراء إليه افتقاراً ذاتيا لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وأخبرهم بأنه لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم لكمال غناه عن العالمين فمن آمن وعمل صالحا فلنفسه ومن أساء بالكفر والعصيان فعليها . وعليه فمحال في حقه تعالى أن يخلق لغرض خوف أو طمع أو يشرع لنفع أو ضرر ، إنما ذلك يكون لمن يطلب اللذة والسرور ولا حكمة له إلا في تحصيل مراده ذلك ، ولا يليق ذلك بالمولى جل جلاله ،

---

(١) سورة فاطر ، آية (١٥) .
(٢) سورة الزمر ، آية (٧) .
(٣) سورة النمل ، آية (٤٠) .
(٤) سورة آل عمران ، آية (١٧٦-١٧٧) .
(٥) سورة آل عمران ، آية (٩٧) .

ولكنه كتب على نفسه الرحمة ، وأقام الحجة على عباده بأنبيائه ورسله ، فقال جل من قائل عليما :

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

فوقوع القيامة والجزاء على الأعمال قد أسلفنا أنه ليس في طوق العقول أو طورها إدراكه على وجه يمكنها الجزم به أو اعتقاد شيء مما يكون فيه ، فمن رحمة الله أن كتب على نفسه بيانه لعباده بواسطة من يصطفيه لذلك من خيرة عباده .

لذلك جاء الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ـ وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش « إن رحمتي تغلب غضبي »[3] .

وأعظم منة ورحمة ينشرها الله على عباده العلم الذي يميزون به بين الخير من الشر والنافع من الضار والصدق من الكذب والحق من الباطل وسبيل المفلحين ودروب الهالكين وذلك العلم كما قد علمنا هو علوم الرسالة التي هي رحمة للعامة والخاصة من خلق الله تعالى لذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ . . . ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن

---

(١) سورة الأنعام ، آية (١٢) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٥٤) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ الحديث (٧٤٠٤) وانظر رقم (٧٤٢٢) .

(٤) سورة مريم ، آية (٨٥) .

يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3] .

وقال تعالىٰ في حق يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[4] .

وقال تعالىٰ في حق موسىٰ عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[5] .

ولما كان الكفار على اختلاف مللهم وتباين نحلهم لا يحبون الحق وظهوره ، ويزنون بموازين مطففة كرهوا جميعا نزول القرآن الكريم علىٰ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأوردوا مقترحات قاصرة قصر عقولهم فردها الله عليهم وبين أن الرسالة رحمة منه لخلقه يختص بها من يشاء من عباده .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[6] .

وقال : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ

---

(١) سورة إبراهيم ، آية (١١) .

(٢) سورة الحجرات ، آية (١٧) .

(٣) سورة الأنعام ، آية (٥٣) .

(٤) سورة يوسف ، آية (٦) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (١٤٤) .

(٦) سورة الزخرف ، آية (٣١ ، ٣٢) .

عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(١)] .

فبرحمة الله رحم المبعوث والمبعوث إليهم وبمنته ومحض فضله هدىٰ من شاء من عباده ، وأضل بإرادته وعلمه المحيط من شاء أن يعذبه بسبب الكفر والإعراض عن وحيه كما قال تعالىٰ :

﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)] .

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾[(٣)] .

فوعد الله حق لا يتخلف وحكمته في ذلك الوعد الحق ظاهرة وإن جهلها كثير من الناس ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[(٤)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» الحديث[(٥)] .

وجاء في حديثه الآخر في الأمر بعزم الدعاء قوله صلى الله عليه وسلم : (وليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء لا مكره له)[(٦)] .

فإذا كان الذي يقول في حكم إرسال الرسل أنه واجب على الله تعالىٰ بهـٰذا

---

(١) سورة البقرة ، آية (١٠٥) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٣٩) .

(٣) سورة النحل ، آية (٣٨ـ٣٩) .

(٤) سورة الرعد ، آية (٤٠ـ٤١) .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء الحديث (٧٤٢٣) .

(٦) السابق باب في المشيئة والإرادة وانظر فتح الباري ١٣/ ٤١٣ وما بعدها .

المعنىٰ فقد أصاب إذ قد علمنا أنه تعالىٰ كتب علىٰ نفسه وأوجب ما كتب قدرا وشرعا بحيث يستحيل أن يتخلف منه شيء ذلك أنه كتبه بعلمه المحيط وأوجبه بقدرته وإرادته وأخرجه أو يخرجه بمشيئته لحكم بليغة وأسرار عجيبة سواء أدرك الناس منها شيئا أو حجبت عنهم : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾[1] .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ في بيانه لما جعله حقاً علىٰ نفسه وحققه في حياة الناس :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

وإذا علمنا أن ما جعله الله تبارك وتعالىٰ حقا عليه وجب أن يكون بحيث لا يتصور عقلا تخلفه كان علينا أن نعلم أن الله تبارك وتعالىٰ أخبرنا عن حكمة منصوصة في كتابه تبين علة خلقه للجن والإنس ألا وهي عبادته وحده لا شريك له ، وهـٰذا مطلب عظيم قد رتب الله عليه الجزاء فكان لابد في ضوء علمه المحيط وعدله العام أن يعلم خلقه كيف يعبدونه ويقيم عليهم الحجة بالبيان الواضح ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيىٰ من حي عن بينة[5] .

---

(١) سورة التوبة ، آية (١١١) .

(٢) سورة يونس ، آية (٤) .

(٣) سورة يونس ، آية (١٠٣) .

(٤) سورة الروم ، آية (٤٧) .

(٥) انظر في ذلك : المحرر الوجيز ١٤/ ٤٠ ، ٤١ وابن كثير ٤/ ٢٣٨ وأضواء البيان ٧/ ٦٧١ وما بعدها . وحجة الله البالغة لولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ، بتقديم الشيخ محمد شريف سكر ، ط٢ ، ١٤١٣هـ ، ١/ ٨٤ـ٨٦ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] .

فمن هنا يمكن أخذ وجوب البعثة لإقامة الحجة والبيان وكان ذلك من الله تعالىٰ رحمة وعدلا وفعلا للأصلح ولـٰكن بإيجاب الله تعالىٰ ذلك علىٰ نفسه ، وفي مقتضىٰ حكمته وعلمه وما جعله حقا عليه وكتبه في كتابه الذي لا يتغير ما كتب فيه إذ وقع عن علم وقدرة وإرادة تامة ومشيئة نافذة لذا قال تعالىٰ :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[2] .

والعزيز الحكيم لا يظلم عباده ولا يؤاخذهم بأعمالهم التي لم يبين لهم وجه الحق فيها من الباطل ولو كان في عقولهم وفطرهم إدراك غير مفصل لوجه الحق من الباطل والخير من الشر والكذب من الصدق والحسن من القبيح ، ومكنهم بالجبلة من العمل ، ومنحهم الاختيار في ضوء مشيئته الكونية التي لم يطلعهم عليها ولم يجعل لهم سبيلا للاحتجاج بها .

ولـٰكن بعد إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسل كان هـٰذا النص يخاطبهم :

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[3] .

فذلك هو العذر الذي بين النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا أحد أحب إليه إقامته منه كما في حديث المغيرة بن شعبة في غيرة سعد بن عبادة رضي الله عن الصحابة جميعاـ قال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث :

(ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة)[4] .

---

(١) سورة الذاريات ، آية (٥٦) .

(٢) سورة النساء ، آية (١٦٥) .

(٣) سورة الإسراء ، آية (١٥) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب لا شخص أغير من الله ، الحديث (٧٤١٦) .

وفي لفظ لمسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

(وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتب ـ الكتاب وأرسل الرسل)[١] .

فمن أجل قطع الأعذار وإقامة الحجة ووضوح المحجة وظهور أسباب المدحة لله تعالىٰ علىٰ جميل صنعه وبديع حكمه في خلقه وأمره كانت البعثة من أفعال الله الواجبة إذ قد رجح لنا أن أفعال الله تعالىٰ واجبة بوجوبه تعالىٰ لها وممتنعة لاستحالتها في مشيئته فلا يقع في ملكه إلا ما شاء وليس هناك في الواقع قسم ثالث يسمى الجواز ، وما في الذهن ليس له في الخارج وجود ، فلا يطلق عليه أنه فعل لله تعالىٰ ، وإنما يجوز علىٰ من يجوز عليه عدم الفعل لنقص علم أو إرادة كالخلق[٢] ، ومن علل وحكم بعثة الرسل التي تحققت في المطيع والكافر بإقامة الحجة وقطع العذر ما حكاه الله تعالىٰ في آيات كثيرة منها قوله تعالىٰ في الكفار :

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[٤] .

وحتىٰ بعد أن وقعوا في الذل والخزي والعياذ بالله من حال أهل النار تقام عليهم الحجة ويؤخذ بالعذر : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[٥] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالىٰ وتحريم الفواحش .

(٢) انظر كتاب أصول الدين للبغدادي ١٥٤ـ١٥٦ .

(٣) سورة القصص ، آية (٤٧) .

(٤) سورة طه ، آية (١٣٤) .

(٥) سورة الزمر ، آية (٧١) .

وبذلك يكون قد أتضح أن حكم إرسال الرسل في داخل الملة قد اختلف الناس فيه ، فمن قائل أن القادر يجب عليه فعل الأصلح وبذلك أوجب على الله ما يوجبه على القادرين من خلقه فأضاع بذلك ما حصله من أوجه الصواب كإثبات الحكمة والتعليل مع أن إثباته هٰذا لا يفيده مادام نافيا للصفات التي ينبني عليها ما أثبته لله من حكمة وتعليل في الأفعال .

والإنصاف يقتضي أنه أصاب الحق من وجه والتزم في مذهبه ما أوجب عليه الوقوع في التناقض .

وفريق آخر حكم بأن إرسال الرسل من أفعال الله الجائزة وبنىٰ ذلك علىٰ أن الاصطلاحات لا مشاحة فيها ما دام المعنى المطلوب محصلا بها من وجهة نظره هنا في مسألة الكلام النفسي ونفى التعليل والحكمة في التشريع .

وعندي أن دعوىٰ عدم المشاحة في الاصطلاحات نوع من التهرب وتمييع المقاصد وخصوصا في الألفاظ التي يمكن حصر معناها ولا مجال للاشتراك اللفظي فيها أو يمكن ضبط المعنى المراد بسمات ودلائل تميزه وتحدده وقرائن توضحه وتشخصه .

ومع أن هٰذا الفريق من العلماء يريد الأدب مع الله تعالىٰ في التعبير بأنه لا يوجب الخلق عليه شيئا ويثبت الإرادة والكلام علىٰ منهجه الذي أسلفنا وجه الغموض فيه ـ فإنه ينفي الملزوم وهو التعليل والحكمة وبذلك أحدث بدعة في ميدان كان بإمكانه إثبات الحكمة فيه كما أثبتها في الخلق والصنعة والإتقان الذي ظل العقلاء يستدلون بها على العلم والعدل واللطف والرفق والحكمة ولا يتناقضون إذ معلوم عندهم أن ما يفعله المخلوق لغرض فذلك مبلغ حكمته ولا يقاس عليه فعل الله تعالىٰ حتىٰ يلجأ العاقل إلىٰ جحد الأمور المدركة بالعقل والفطرة والنص والحس التزاماً للمخالفة المذهبية وهروبا من ظنون وهمية يتفق الجميع على استحالتها على الله تعالىٰ .

والإنصاف يقتضي أن للإمام الغزالي نصوصا تدخله في هٰذه المؤاخذات

ونصوصا أخرىٰ تخرجه من حيز هٰذه الاستدراكات ولا تنفي عنه مقتضىٰ ما وجهناه من مطالبات ، وما ألمحنا إليه من وجوب استبعاد ما يجب في حق الله تعالىٰ وما يستحيل من نطاق الأوهام والمظنونات والمذاهب والتعصبات .

ولما درس شيخ الإسلام ابن تيمية مقالات الإسلاميين واختلافاتهم هٰذه في ضوء الكتاب والسنة ومقتضى الفطرة والعقل أدرك أسباب الخلافات ومنشأ النزاعات ؛ فتمكن بذلك من بيان وجه الحق في كلام كل طائفة ، وتبيين ما التزمته فتناقضت لأجله أو اعتقدته فضلّت به ، أو انتهجته فانحرفت بسببه ثم استخلص لنا ما يأتي :

١ـ أن حكم إرسال الرسل واجب أوجبه الله تعالىٰ علىٰ نفسه ، وبيّن للعقلاء أن ذلك هو مقتضىٰ حكمته وعدله ومنته علىٰ خلقه ونشر رحمته .

٢ـ أن العقل يدرك وجه الحسن والقبح في الأفعال لصفات ذاتية فيها ، أما في أفعال العباد فباتفاق ، وأما في أفعال الخالق فمع الخلاف فإن الراجح عنده أن العقل قد يدرك وجه ذلك والشرع يؤيده وقد يرد الشرع بما يخفىٰ على العقل وجه الحكمة فيه فيقطع بأنه وإن لم يدرك وجهها فهو من حكيم عليم فيجزم بأنه لحكمة بالغة .

٣ـ إن رأيه في حكم إرسال الرسل وسط بين الأشعرية ومن وافقهم ، والمعتزلة ومن قلدوه من الفلاسفة في ذلك ومن شايعهم من العلماء .

فاستحق بهٰذا أن يشاد برأيه ويبرهن من الكتاب والسنة علىٰ تميزه وترجيحه علىٰ غيره ، وذلك ما تكفل المبحث التعقيبي به ، وتكاثفت مداخله ومخارجه مع نصوص الوحي فيه لإبرازه .

فلنختم هٰذا الباب بهٰذا اللباب ، ونطلب من الوهاب أن يفتح لنا في الخيرات كل باب ، وأول ذلك الباب يلي هٰذا الباب من هٰذا الكتاب .

ألا وهو طرق إثبات النبوة . . .

الباب الثالث

طرق إثبات النبوة

الفصل الأول

طرق إثبات النبوة عند الإمام الغزالي

تمهيد

بيان رأي الإمام الغزالي في طرق إثبات النبوة

قد تقدم في مفهوم النبوة عند الإمام الغزالي أنه يرىٰ أن طرق معرفة النبوة وإثباتها عديدة ، والوسائل لذلك كثيرة كثرة المخاطبين من المنكرين والمكذبين والشاكين مع ما لديهم من معارف وعلوم ، وأن من الجهل العظيم استبعاد بعض العقلاء للنبوة ، وهو يرىٰ في نومه المنامات والمرائي التي جعلها الله تعالىٰ بمثابة أنموذج لخلقه حتىٰ تكون لهم مشاركة للنبي في أصل دعواه الاطلاع على الغيب ، وأن ذلك إذ كان ممكنا باتفاق البشر في حالة ركود الحواس بالنوم كان دليلا علىٰ إمكانه في حال اليقظة من باب أولى(١) .

ثم إن الإنسان إذا نظر إلىٰ نفسه وجد أنه خلق خاليا من العلوم والمعارف ولا خبر معه عن شيء ، فيظل في حالة من النمو في الحس والعقل إلىٰ أن يرتقي إلىٰ أطوار عالية من التعقل والتدبر والتحصيل والكسب النظري والفكري ، وكل طور من تلك الأطوار التي مر بها كان معزولا عما بعده ولما حصل له لم ينكره ولم يستبعده .

فكذلك ليس له أن يعلن توقف الأطوار عند الحد الذي وصل إليه عقله بل

---

(١) انظر المنقذ ٦٦ ، ٦٧ .

عليه أن يأخذ من الأطوار السابقة برهانا علىٰ إمكان أطوار أخرىٰ بعد عقله الذي وصل إليه بعد مراحل كثيرة[1] .

(وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبىٰ مدركات النبوة واستبعدها ، وذلك عين الجهل ، إذ لا مستند له إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه . . .)[2]

ثم إن الإنسان يجد أنه يتمتع بعلوم ومعارف لا يوجد لها أصل في عقله وجهود فكره ، بل إنه يجهل خصائص كثير مما يتعاطاه من أدوية وعقاقير وسحر وطلسمات وتنجيم وغيره .

فإذا سلم أنه لا يدرك خصائص هـٰذه الأمور وقلد فيها أهل الخبرة فيها ، فعليه أن يعلم أن الأمور التي لا تدرك بالحواس والتجارب لا يكون مصدرها إلا تعليم إلهي بواسطة أحد عباده الذين اصطفاهم وتلك هي النبوة فعليه إذ جهل خصائص هـٰذه الأشياء وقلد فيها أن يقلد الأنبياء فيما وراء عقله ولا يدركه بالتجربة : (فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعا من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل)[3] .

وعلىٰ هـٰذا فالشك في النبوة : (إما أن يقع في إمكانها ، أو في وجودها ووقوعها ، أو في حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها وجودها ، ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلمي الطب والنجوم . . . فتبين بهـٰذا البرهان أن الإمكان وجود طريق لإدراك هـٰذه الأمور التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هـٰذا الجنس الخارج عن مدركات العقل

---

(١) انظر مشكاة الأنوار ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٢) المنقذ ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) المنقذ ٦٧ .

إحدىٰ خواص النبوة ولها خواص كثيرة سواها ، وما ذكرناه قطرة من بحرها ، وإنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا . . .

فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا ، فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع . . .)[١] .

(وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتىٰ أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرهما ، وإنما قدمنا هٰذه المقدمة لأجل ذلك ، وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم لأنه من نفس علمهم . ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ، كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلا من نفس علمه برهان النبوة)[٢] .

ونحن أيضا إنما ذكرنا هٰذا لنتخذ منه مدخلا لبيان أهم طرق إثبات النبوة عند الإمام الغزالي في المباحث الآتية إن شاء الله تعالىٰ بعد أن تمهدت العناصر الرئيسية .

* * *

(١) السابق ٦٧ ، ٦٨ .
(٢) السابق ٧٧ .

المبحث الأول

إثبات النبوة بإثبات الأمر لله عز وجل

إن إثبات الأمر لله عز وجل هو الأصل الذي تتفرع عنه فروع كثيرة من الخلق والأمر ، ومن ذلك النبوة : (فمن لم يعترف بأمره تعالىٰ لم يعترف بالنبوة قط)[1] .

ولإثبات الأمر له تعالىٰ طرق واضحة للعقلاء لكثرة البراهين التي بصرهم بها ، والأمثلة المعقولة والمشاهدة الدالة علىٰ أنه هو الخالق المدبر الفعال لما يريد ، فبأمره ترجح وجود الممكنات ، وانتظام الحركات وتجددها وتعاقبها وتعديل المائلات منها إلىٰ غير جهتها فوقوع ذلك كله دال علىٰ فعل مريد مختار له أن يأمر وينهىٰ ويكلف ويشرع وينشر الرحمة وغير ذلك مما يشرحه الإمام الغزالي بقوله :

(والطريق في إثبات الأمر له علىٰ نوعين :

أحدهما : أن الممكنات كما احتاجت إلىٰ مرجح لجانب الوجود على العدم ، وأن الحركات كما احتاجت بتجددها إلىٰ محرك يديمها بالتعاقب ، ثم المائلة من الحركات إلىٰ غير ما مالت عنه والمختلفات منها إلىٰ غير جهاتها الطبيعية احتاجت إلىٰ كون المحرك آمرا أمر التدبير ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾[2] .

ثم الحركات الإنسانية كما احتاجت إلىٰ إرادة عقلية في جهاتها المتباينة ، كذلك احتاجت إلىٰ مكلف آمرٍ ناهٍ في حدودها المختلفة ، حتىٰ يختار المكلف الحق دون الباطل في الحركات الفكرية ، والصدق دون الكذب في الحركات

---

(١) معارج القدس ١٣٤ .

(٢) سورة فصلت ، آية (١٢) .

القولية ، والخير دون الشرفي الحركات العملية .

وكما أن أمر التدبير جار علىٰ عموم الخلق لنظام وجود العالم الكبير كله وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

كذلك أمر التكليف جار علىٰ خصوص الخلق لنظام وجود العالم الصغير وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾[2] .

وكذلك جميع الأوامر والنواهي المتوجهة على الناس .

وكما أوحىٰ في كل سماء أمرها بواسطة ملك ، كذلك أوحىٰ في كل زمان أمره بواسطة نبي ، فذلك هو التقدير وهٰذا هو التكليف[3] .

فإن النبي متوسط الأمر كما أن الملك متوسط الخلق والأمر ، وكما وجب الإيمان بالله من حيث الخلق والأمر وجب الإيمان بالله وبمتوسط الخلق والأمر : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[4] .

فالموجب هو المرجح وهو الله تبارك وتعالىٰ ، فمعنى الوجوب عند الإمام الغزالي هنا هو ترجح جانب الفعل على الترك بدفع ضرر موهوم في الترك أو معلوم ، وإذا كان هٰذا هو الوجوب فالموجب هو المرجح وهو الله تعالىٰ لا العقل إذ العقل آلة نظر صالحة للفهم والتمييز والتبصر والتصديق .

يقول الإمام الغزالي : (فالحق الذي يكشف الغطاء في هٰذا من دون اتباع وهم وتقليد أمر هو أن الوجوب كما بان عبارة عن نوع رجحان في الفعل والموجب هو الله تعالىٰ لأنه هو المرجح ، والرسول مخبر عن الترجيح)[5] .

---

(١) سورة الأعراف ، آية (٥٤) .
(٢) سورة البقرة ، آية (٢١) .
(٣) السابق ١٣٥ .
(٤) السابق ١٣٤ والآية من سورة البقرة (٢٨٥) .
(٥) الاقتصاد ١٢٠ ، ١٢١ .

ثم قال الإمام الغزالي :

(الطريق الثاني في إثبات الأمر الأول أن نقول : قد ثبت وتحقق بالبراهين أن الأول المبدع ملك مطاع ، فله الخلق كله مِلكاً ومُلكاً .

ولكل ملك في سلطانه أمر ونهي وترغيب وترهيب وعد ووعيد ، ولا يجوز أن يكون أمره محدثا مخلوقا ، فإن المخلوق من حيث هو مخلوق لا يدل إلا علىٰ خالق ، فليس له دلالة على الأمر بمعنى الاقتضاء والطلب والتكليف والتعريف والحث والزجر والترغيب والترهيب .

ومن لم يثبت لله عز وجل أمرا يطاع فقد أحال كل هـٰذه الأوامر والنواهي والتذكيرات والتنبيهات علىٰ من ادعى النبوة مقصورة عليه غير متعدية عنه ، وما يضيفه إلى الله تعالىٰ من : قال الله ، وذكر الله ، وأمر الله ، ونهى الله ، ووعد الله ، وأوعد الله ـ يكون مجازا لا حقيقة ، وترويجاً للكلام على العامة لا تحقيقا)[1] .

ويرى الإمام الغزالي أن النبوة ثابتة بضرورة الحركات الاختيارية التي أشار فيما سبق أنها تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام فكرية يدخلها الحق والباطل ، وقولية يدخلها الصدق والكذب ، وعملية يدخلها الخير والشر ، . . .

(ولا يشك في أنها علىٰ تضادها واختلافها ليست واجبة الفعل بجملتها واجبة التحصيل . . . فظهر من هـٰذا أن بعضها واجب الترك وبعضها واجب الفعل ، وإذا ثبت هـٰذا فقد ثبت حدود في الحركات حتىٰ كان بعضها خيرا واجب الفعل وبعضها شرا واجب الترك .

فالتمييز بين حركة وحركة بالحدود ، ولا يخلو إما أن يعرفه كل واحد أو لا يعرفه أحد أو يعرفه بعض دون بعض ، وظاهر أنه لا يعرفه كل واحد وباطل أنه يعرفه كل أحد ، فظهر أنه يعرفه أحد دون أحد ، فثبت بالتقسيم الأول حدود

---

(١) معارج القدس ١٣٥ وقارن بما في الاقتصاد ١٢١ .

في الحركات ، وثبت بالتقسيم الثاني أصحاب حدود يعرفونها وهم الأنبياء وأصحاب الشرائع عليهم الصلاة والسلام . والإنسان إذا راجع نفسه علم أنه إذا لم يكن عارفا بالحدود يجب أن يكون في حكم أصحاب الحدود ، فثبت وجود النبوة بضرورة الحركات)[1] .

ومعلوم أن الذي جعل الحركات الاختيارية علىٰ هٰذا الاختلاف والتضاد الذي لا يمكن الجمع بينه في حالة واحدة ولا يعلم وجه الخير فيه من الشر إلا بتعليمه هو الذي اختار من عباده من علمه الحدود في تلك الحركات وابتعثه لخلقه هاديا مهديا وأوجب عليهم أن يدخلوا تحت حكمه إذ لم يعلموا الحدود كما علمها ولم يملكوا الكف عن التعامل والتعاون والاجتماع وتبادل المصالح والمنافع مع ما في طباعهم من حب الأثرة والأنانية والتفاوت في القدرات والملكات البدنية والعقلية والفكرية الأمر الذي يبرهن علىٰ أنه لابد لهم من ملة وشريعة ومعلم .

وحيث إنه من المعلوم أن كل ذلك لا يفي بتمهيده علىٰ قانون يشمل مصالح النوع جملة ويخص حال كل شخص تفصيلا إلا : (عقل مؤيد بالوحي مقيض للرسالة مستمد من الروحانيات التي قيضت لحفظ نظام العالم ، وهم بأمره يعملون وعلىٰ سنته في الخلق سائرون وبحكمه حاكمون . . .)[2] .

وهٰكذا أمكن الإمام الغزالي من خلال إثبات الأمر والخلق لله أن يثبت النبوة ضرورة .

* * *

(١) معارج القدس ١٣٣ .
(٢) السابق ١٣٤ .

المبحث الثاني

إثبات النبوة بالمعجزات والرد علىٰ شبه المنكرين

يعتبر الإمام الغزالي المعجزة من الأدلة القوية علىٰ إثبات النبوة ، ذلك أنها فعل لله تعالىٰ لا يقدر عليه البشر أو الخلق جميعا إذ يحدثها الله تبارك وتعالىٰ خارقة لعادة الماضين والحاضرين ومن يأتي بعدهم حيث إنها خاصة لذلك النبي أو لجنسه من الأنبياء في كميتها أو جنسها ونوعها ووقتها .

ولذلك تكون نازلة منزلة قول الله تعالىٰ : صدق عبدي في دعواه النبوة ، ومن قال الله تعالىٰ له أنه صادق علم الناس ضرورة أنه صادق وانتفىٰ كونه ساحرا أو كاهنا أو كاذبا أو غير ذلك من الأمور المضادة للصدق في الأقوال والحق والخير في الأعمال .

ومن ادعى استحالة إثبات النبوة اعتمادا علىٰ ما في العقول من إدراك لأوجه المصالح والمنافع وتذرع بشبه واهية أمكن الرد عليه وإبطال شبهه من الناحية العقلية والعملية في واقع حياة الناس حتىٰ لا يبقىٰ للشك مجال البتة .

والأمم في النبوة علىٰ ثلاث فرق : (فرقة تنفيه وفرقة تثبته ، وهي فرقتان : طائفة تزعم أن ذلك أوجبه مولده ، فكانت لنفسه قوة تنفعل لها الأمور ، وأوجب لها المولد أن يكون فاضلا حسن السيرة ، هٰذا مذهب الفلاسفة .

والفرقة الثانية : اعتقدوا معنى النبوة ، وهو حصولها لشخص يخرق الله تعالى العادة علىٰ يديه بإظهار فعل غريب ، واشترطوا أن ينضم إليها ثمانية شروط :

أحدها : أن يكون في زمن تصح فيه الرسالة .

الثاني : خرق العادة بالمعجزة .

الثالث : أن يقترن بدعواه تحد .

الرابع : أن يوافق دعواه بعمله .

الخامس : أن يتعلق مقاله بالقلب .

السادس : أن لا يظهر علىٰ وجهه ما يدل علىٰ كذبه .

السابع : أن يكشف القناع في التحدي .

الثامن : أن يعجز الخلق عن معارضته ، ويلتحق بهٰذا شرط

التاسع : وهو كون المعجزة من جنس ما يتعاطاه أهل زمانه)[1] .

بهٰذا يلخص الإمام الغزالي ما تنازعت فيه الأمم من أمر النبوة إثباتا ونفيا وما يشترطه المثبتون لها من شروط يؤخذ منها الرد على المنكرين المحيلين لها ، ثم يشرح الإمام الغزالي وجه دلالة المعجزة علىٰ صدق الرسول فيقول : (ووجه دلالة المعجزة علىٰ صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالىٰ . فمهما كان مقرونا يتحدى النبي صلى الله عليه وسلم ينزل منزلة قوله : صدقت ، وذلك مثل القائم بين يدي الملك المدعي علىٰ رعيته أنه رسول الملك إليهم فإنه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم علىٰ سريرك ثلاثا واقعد ـ علىٰ خلاف عادتك ـ ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله : صدقت)[2] .

ووجه ذلك عند الإمام الغزالي أيضاً : (أنه لم ينكر أحد صدق الأنبياء من هٰذه الجهة ، بل أنكروا كون ما جاء به الأنبياء خارقا للعادة وحملوه على السحر والتلبيس أو أنكروا وجود رب متكلم آمرٍ ناهٍ مصدق مرسل)[3] .

وقد ظهر أن الله تبارك وتعالىٰ هو المرجح للمكنات والآمر الناهي كما أنه هو الخالق المدبر ، ومادام الله هو الموجب وهو المرجح فإن الرسول : (مخبر عن الترجيح ، والمعجزة دليل علىٰ صدقة في الخبر ، والنظر سبب في

---

(١) معراج السالكين ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) الإحياء ١/ ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) الاقتصاد ١٢٤ .

معرفة الصدق ، والعقل آلة النظر ، وفهم معنى الخبر والطبع مستحث على الحذر بعد فهم المحذور بالعقل)[١] .

(وقد اتضح بهٰذا أن الفعل مهما علم أنه فعل الله تعالىٰ وأنه خارج عن مقدور البشر واقترن بدعوى النبوة حصل العلم الضروري بالصدق وكان الشك من حيث الشك في أنه مقدور البشر أم لا ؟

فأما بعد معرفة كونه من فعل الله تعالىٰ فلا يبقىٰ للشك مجال أصلا البتة)[٢]

فإن قال : (النبي إن الكفر سمٌّ مهلك والإيمان شفاء مسعد بأن جعل الله تعالىٰ أحدهما مسعدا والآخر مهلكا ولست أوجب عليك شيئا . فإن الإيجاب هو الترجيح والمرجح هو الله تعالىٰ وإنما أنا مخبر عن كونه سمّاً ، ومرشد لك إلىٰ طريق تعرف به صدقي ، وهو النظر في المعجزة ، فإن سلكت الطريق عرفت ونجوت ، وإن تركت هلكت)[٣] . فكما يعرف الناس بعقولهم وتجاربهم صدق الطبيب وصلاح الدواء لمرض معين دون الآخر كذلك بإمكانهم النظر فيما جاء به النبي من معجزة يدعي أنها برهان علىٰ صدقة ولا يضره عدم نظرهم واعتراضهم علىٰ دلالة معجزته كما لا يضر الطبيب أو أستاذه كون المريض لم يستجب للإرشادات الطبية أو اعترض بعقله القاصر علىٰ وجه الضرر في هٰذا الدواء والشفاء في الآخر .

(فكذلك النبي قد أخبره الله تعالىٰ بأن الطاعة شفاء والمعصية داء وأن الإيمان مسعد والكفر مهلك وأخبره أنه غني عن العالمين سعدوا أم شقوا فإنما شأن الرسول أن يبلغ ويرشد إلىٰ طريقة المعرفة وينصرف ، فمن نظر فلنفسه ومن قصر فعليها . . .)[٤] .

وما دامت معرفة النبوة ليست ضرورية فإنه لابد لمن يشك فيها أن يتوجه

---

(١) السابق ١٢١ .
(٢) السابق ١٢٥ وانظر ما سبق ١١٣ و١٢٠ منه .
(٣) السابق .
(٤) السابق ١٢٠ وانظر منه ١٢٢ وانظر المنقذ ٧١ ، ٧٢ .

شكه إلىٰ إمكانها أو وجودها ووقوعها أو في حصولها لشخص معين فأما :

(دليل إمكانها وجودها ، ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلمي الطب والنجوم . . . وهي معجزات الأنبياء ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا . . . فإن وقع لك لاشك في شخص معين أنه نبي أم لا ، فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله . . . فمن هـٰذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة ، لا قلب العصا ثعبانا وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله إضلال فإنه : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[1] .

وترد عليك أسئلة المعجزات ، فإن كان مستندا إيمانك إلىٰ كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة عليها ، فليكن مثل هـٰذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتىٰ يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين . . .)[2] (فما أخبر الله تعالىٰ عنه فهو صدق بدليل استحالة الكذب عليه ويدل عليه دليلان أقواهما : إخبار الرسول عليه السلام عن امتناع الكذب عليه تعالى[3] .

والثاني : خبر الرسول عليه السلام ودليل صدقه دلالة المعجزة علىٰ صدقه مع استحالة إظهار المعجزة علىٰ أيدي الكاذبين لأن ذلك لو كان ممكنا لعجز الباري عن تصديقه رسله والعجز عليه محال)[4] .

فهو تعالىٰ : (قادر علىٰ ما لا يكون وقوعه من المستحيلات ، ومن جملته انبعاث الرسل ، وتأييدهم بالمعجزات . ومستند المعجزات أسلوب العقل والعرف)[5] .

---

(١) سورة فاطر ، آية (٨) .
(٢) المنقذ ٦٧ـ٦٩ .
(٣) المستصفىٰ ١/ ١٤١ .
(٤) السابق ١/ ١٤١ وانظر الاقتصاد ١١٨ـ١٢٠ .
(٥) المنخول ٤٧ ، ٥٩ .

فالعلم بانبعاث الرسل يصوره الإمام الغزالي بأنه أغمض وأدق العلوم لأنه يزاحم السمعيات التي مبناها على العلم بالمعجزات ، ووجه خفائه بعده عن محض العقل واستناده إلى العلم باطراد العادات .

فالسمعيات لا تدل لأعيانها ، فإنها عبارات تفهم بالاصطلاح ، لا يتعدى الاصطلاح بها علىٰ نقيضها[1] .

(وأما المعجزة فتدل على الصدق وتستمد من أسلوب العقل ليتبين به أنه فعل فاعل ، ومن أسلوب العرف ، إذ لا مناسبة بين شق القمر وصدق الرسول ، ولـٰكن القائم بين يدي الأمير إذا ادعىٰ أنه رسوله ، واقترح عليه في دوم تصديقه أن يخرق عادته ، ففعل ، علم على الضرورة صدقه .

ولهـٰذا لم يعترف أحد بالمعجزة إلا واعترف بالنبوات)[2]

وعليه فإنه : (لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام خلافا للبراهمة حيث قالوا : لا فائدة في بعثتهم إذ في العقل مندوحة عنهم)[3] .

والمعتزلة مع المصير إلىٰ قانون الاستقباح والاستحسان بالعقل لم يستقبحوا بعثة الرسل ، وقد علمنا أن الحكم باستحالة بعثتهم ليس ضروريا ولا يدرك قبحه ولا امتناعه في ذاته إذ ليس في شيء مما ذكرناه في حكم بعثتهم وما يتصل بذلك شيء مستحيل لذاتـــه[4] . وغاية ما ذكره المنكرون ثلاث شبه :

(الأولىٰ : قولهم : إنه لو بعث النبي بما تقتضيه العقول ففي العقول غنية عنه ، وبعثة الرسول عبث ، وذلك على الله محال ، وإن بعث بما يخالف العقول استحال التصديق والقبول)[5] .

---

(١) السابق ٦١ .

(٢) السابق ٦١ .

(٣) الإحياء ١/ ١٠٥ .

(٤) انظر الاقتصاد ١٢١ ، ١٢٢ .

(٥) السابق .

(الثانية : أنه يستحيل العبث لأنه يستحيل تعريف تصديقه ، لأن الله تعالىٰ لو شافه الخلق بتصديقه وكلمهم جهارا فلا حاجة إلىٰ رسول ، وإن لم يشافه به فغايته الدلالة علىٰ صدقه بفعل خارق للعادة ، ولا يتميز ذلك عن السحر والطلسمات وعجائب الخواص وهي خارقة للعادات عند من لا يعرفها ، وإذا استويا في خرق العادة لم يؤمن ذلك فلا يحصل العلم بالتصديق)[1] .

(الثالثة : إنه إن عرف تمييزها عن السحر والطلسمات والتخيلات فمن أين يعرف الصدق ؟

ولعل الله تعالىٰ أراد إضلالنا وإغواءنا بتصديقه ولعل كل ما قال النبي إنه مسعد فهو مشقي ، وكل ما قال مشقي فهو مسعد ، ولـٰكن الله أراد أن يسوقنا إلى الهلاك ويغوينا بقول الرسول ، فإن الإضلال والإغواء غير محال على الله تعالىٰ عندكم إذ العقل لا يحسن ولا يقبح . . .)[2] .

والناظر في هـٰذه الشبه يجد أنها واهية لأنه يدعي أصحابها أنهم اعتمدوا فيها على العقل والعقل يردها حيث علمنا أن النبوة هبة من الله تعالىٰ وهو قادر علىٰ نصب علامات يعلم العباد بها صدق المبعوث إليهم كما علمهم الدلائل الدالة علىٰ صدق رسلهم فيما بينهم حتىٰ يكون ذلك عندهم أمرا ضروريا لا يملكون دفعه عن أنفسهم .

ثم أننا قد شرحنا مكانة الأنبياء بين الناس وعرفنا أنهم فوق بني جنسهم في العقل والذكاء والفطنة والصدق والأمانة وقوة النفس وغير ذلك مما حباهم الله به ، يزاد علىٰ ذلك أن العقل الذي أنكر به هـٰؤلاء البعثة وأحالوها يشهد للأنبياء أنه عاجز عما جاءوا به لجهله بنفسه وقصوره عن إدراك كثير مما جاءوا به من المصالح والمنافع الدنيوية والأخروية التي ليس في مقدوره الاطلاع علىٰ ما فيها إلا إن عرف ونبه بذلك وخصوصا علىٰ وجه مفصل .

---

(١) السابق ١٢٢ .

(٢) السابق وقارنه بما في شرح المقاصد ٥/٩ وما بعدها وأصول الدين للبغدادي ١٥٤ـ١٥٦ .

فالأنبياء والمرسلون يأتون بما تفهم العقول وتستحسنه أو تفهمه وتسلم به ولا ترده أو تحيله ، هـٰذا ما يمكن الرد به على الشبه المذكورة جملة ويرد عليها تفصيلا فيما يأتي من نصوص الإمام الغزالي إذ يقول :

(أما الشبهة الأولىٰ فضعيفة فإن النبي صلى الله عليه يرد مخبرا بما لا تشتغل العقول بمعرفته ، ولـٰكن تستقل بفهمه إذا عرف ، فإن العقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولا يفرق بين المشقي والمسعد كما لا يستقل بدرك خواص الأدوية والعقاقير ، ولـٰكنه إذا عرف فهم وصدق وانتفع بالسماع فيجتنب الهلاك ويقصد المسعد ، كما ينتفع بقول الطبيب في معرفة الداء والدواء ، ثم كما يعرف صدق الطبيب بقرائن الأحوال وأمور أخرىٰ فكذلك يستدل علىٰ صدق الرسول عليه السلام بمعجزات وقرائن وحالات ، فلا فرق)[1] .

(وأما الشبهة الثانية ، وهو عدم تمييز المعجزة عن السحر والتخييل فليس كذلك ، فإن أحدا من العقلاء لم يجوز انتهاء السحر إلىٰ إحياء الموتىٰ ، وقلب العصا ثعبانا ، وفلق القمر ، وشق البحر ، وإبراء الأكمة والأبرص وأمثال ذلك .

والقول الوجيز إن هـٰذا القائل إن أدعىٰ أن كل مقدور لله تعالىٰ فهو ممكن تحصيله بالسحر فهو قول معلوم الاستحالة بالضرورة ، وإن فرق بين فعل قوم وفعل قوم فقد تصور تصديق الرسول بما يعلم أنه ليس من السحر ، ويبقى النظر بعده في أعيان الرسل عليهم السلام وآحاد المعجزات وأن ما أظهروه من جنس ما يمكن تحصيله بالسحر أم لا ؟ . . .)[2] .

(وأما الشبهة الثالثة ، وهو تصور الإغواء من الله تعالىٰ والتشكيك لسبب ذلك ، فنقول : مهما علم وجه دلالة المعجزة علىٰ صدق النبي ، علم أن ذلك

---

(١) الاقتصاد ١٢٣ .
(٢) السابق .

مأمون عليه ، وذلك بأن يعرف الرسالة ومعناها ويعرف وجه الدلالة . . .)[١] .

إلىٰ أن شرح أن المثال الذي أعطاه سابقا بالمدعي بين يدي الملك أو الأمير الولاية أو الرسالة للرعية وتصديق الملك له في ذلك عند طلبه منه فعلا يخالف عادته أن ذلك يعطي علما ضروريا بصدقه بحيث لا يسبق لذهن أحد أن من عادة هـٰذا الملك الإغواء والإضلال أو أن ذلك يجوز عليه : (ويبطل أن تكون النبوة بمعنى الملك ، فإن الأنبياء بالغيب معنىٰ آخر خلاف السياسة . ويبطل أن يكون ذلك سحرا ، فإن الساحر لا قيام لسحره إلا به . . .)[٢]

فبان من هـٰذا المبحث أن الإمام الغزالي يعول على المعجزة في إثبات النبوة . ويرىٰ أنها لا تلتبس بغيرها إذا عرف أنها فعل الله تعالىٰ خارق لعادة الخلق وفوق قدرة البشر .

وأن ما ادعاه المنكرون للنبوة القائلون باستحالتها كالبراهمة لا تقوم لهم حجة علىٰ دعواهم ، وقد تبين فساد ما تمسكوا به من شبه هزيلة حيث تلاشت في وجه الأجوبة العقلية السالفة .

وعليه فقد استنار إمكان النبوة ووجودها ووقوعها بما جلبناه من نصوص الإمام الغزالي في التمهيد والمبحثين السابقين وستزداد استنارة بما يأتي في المبحثين اللاحقين إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

(١) السابق .
(٢) معراج السالكين ١٣٩ .

المبحث الثالث

إثبات النبوة بقرائن الأحوال

وبعد أن بين الإمام الغزالي رأيه في إثبات النبوة من خلال إثبات الأمر لله عز وجل بناء علىٰ أنه هو الخالق المبدع الملك الذي له السلطان المطلق في الأمر والنهي والترغيب والترهيب والإثابة والعقاب وغير ذلك ، وبين رأيه في إثبات النبوة من خلال دلالة المعجزة علىٰ ضرورة صدق من جعلت له عند التحدي والمقارنة ، وأن فائدة العقل أن عرفنا ذلك ، (وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة)[1] .

أراد ـ الإمام الغزالي ـ في هـٰذا المبحث أن ينصح من يريد إثبات نبوة نبي معين أن يسلك في ذلك المسلك النوعي والمسلك الشخصي حتىٰ يعرف بذلك الحق فيعرف أهله ، وهـٰذا أقوىٰ في الإيمان واليقين الضروري من كل برهان آخر إذ منشؤه النظر والتأمل والممارسة والتجارب ، ونتائج ذلك قطعية لا تحتمل عند صاحبها الخطأ أو التشكيك .

وموضوع هـٰذا المسلك هو النبي وما جاء به إذ لابد للنبي من أن تصدر منه أقوال وأفعال وسلوك إذ هو بشر يتعامل مع الناس من جهة ، ويتلقىٰ عن الله من جهة أخرىٰ ، وقد علمنا أن الحركات الاختيارية يدخلها الخير والشر والحق والباطل والكذب والصدق ولا تعرف الحدود في ذلك إلا عن طريق من علمه الله الآمر الناهي حد الخير من الشر والحق من الباطل والصدق من الكذب ، كما علمنا أنه يجب علىٰ من لا يعلم الحدود أن يدخل تحت حكم من يعلمها ليسلم في المعاملات بالعدل والإنصاف في الدنيا ويسعد في الآخرة

(١) المنقذ ٧١ .

بالطاعة والاتباع . وإذا كانت هذه الأمور ضرورية التحصيل لمن يريد إثبات النبوة بقرائن الأحوال فإنه لابد من إثبات نسبة الأوامر والتكاليف إلى الله تعالىٰ ، وإلا فإن من قصرها علىٰ مدعي النبوة جعل ما فيها من العزو لله تعالىٰ ترويجا للكلام على العامة ، ومجازا لا حقيقة .

وهذا عند الإمام الغزالي يتوجه علىٰ فاعله قول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾[1] .

فقد نسبوا ـ يريد الفلاسفة ـ النبي الذي في أعلىٰ درجات الإنسان إلىٰ أشد الظلم الذي هو أسفل الدرجات والخيانة التي هي أخبث السيئات ، جل منصب النبوة عن ذلك)[2] .

فلنستمع إلى الإمام الغزالي يشرح رأيه المشار إليه بقول : (فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا ، فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضا عن معرفة كون الشافعي رحمه الله فقيها ، وكون جالينوس[3] طبيبا ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئا من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه وسلم ـ علىٰ أعلىٰ درجات النبوة ، وعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)[4] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية (٩٣) .

(٢) معارج القدس ١٣٦ .

(٣) من أعظم أطباء اليونان قيل في عهد عيسىٰ عليه السلام انظر : مقدمه ابن خلدون ، ٩١٨ .

(٤) عزاه العراقي لأبي نعيم في الحلية وضعفه من حديث أنس ، الإحياء ١/ ٦٩ وحكم عليه الألباني في السلسلة بالوضع (٤٢٢) ١/ ٤٣٢ .

وكيف صدق في قوله : (من أعان ظالما سلطه الله عليه)[1] .

وكيف صدق في قوله : (من أصبح وهمومه هم واحد كفاه الله تعالىٰ هموم الدنيا والآخرة)[2] .

فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لا تتمارىٰ فيه)[3] ولما بين الإمام الغزالي طريقة الأخذ بهٰذا المسلك والدخول في هٰذه التجربة وضرب الأمثلة من السنة التي صدرت الألفاظ فيها بمن التي تقتضي العموم ـ تحمس أكثر ليصل إلىٰ درجة أعلىٰ من إقناع المخاطب وقال :

(فمن هٰذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعبانا وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله إضلال فإنه : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[4] . فبهٰذا الطريق ينجزم الإيمان ويصل إلىٰ درجة العلم الضروري اليقيني الذي لا ينقلب شكا في وجه الشبه والإشكال : (فليكن مثل هٰذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك)[5] .

فإن وجدت من يحتج لتصديقه لعلم الطب والنجوم وغيرها بالتجارب وسماع أخبار المجربين فقل له : (فاسمع أقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك)[6] وإذا لم تأخذ في ممارسة التجربة والنظر فإن العقل يدرك بالمثال الآتي أنه يجب عليه

---

(١) فيه متهم بالوضع ، انظره في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، للسخاوي ، دار الهجرة ، بيروت ، ط ١٤٠٦ هـ ، الحديث رقم (١٠٦٣) ٣٩٨ .

(٢) أورد ابن ماجه في سننه قريبا منه في المقدمة ١/ ١١٣ وفي أبواب الزهد ٢/ ٥٢٥ وحكم الألباني عليه بالضعف أو الوضع . انظر السلسلة (٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١) ١/ ٣٢٠ـ٣٢٣ .

(٣) المنقذ ٦٩ .

(٤) سورة فاطر ، آية (٨) .

(٥) المنقذ ٦٩ .

(٦) السابق ٨٠ .

تصديق الأنبياء فيما جاءوا به من العلم النافع المسعد ، وما حذروا عنه من أسباب الهلاك والشقاء ، وما دلوا عليه الخلق من أنواع الشفاء إذ كل واحد يعلم أن علاج الأبدان وشفاءها في استعمال الأدوية المركبة فكذلك بالعقل يدركون أن القلوب تمرض والأرواح تسقم ولا دواء لها ولا شفاء إلا فيما جاء به الأنبياء عليهم السلام من عند الله تعالىٰ حسب المقادير المنصوص عليها في الوحي المنزل[1] وتوضيح ذلك بالمثال هو : (أنا لو فرضنا رجلا بلغ وعقل ولم يجرب المرض فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء فقال : هٰذا يصلح لمرضك ، ويشفيك من سقمك . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مرا كريه المذاق ، أيتناوله ؟ أو يكذب ويقول : أنا لا أعقل مناسبة هٰذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجربه ؟

فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك . وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك .

فإن قلت : فبم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفته بهٰذا الطب ؟ فأقول : وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمرا محسوسا ؟ بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علما ضروريا لا تتمارىٰ فيه)[2] فكذلك عند الإمام الغزالي تعرف بتلك القرائن صدق الرسول وأنه طبيب ماهر مشفق بل هو أعظم شفقة من الوالد علىٰ ولده .

(ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلىٰ تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلىٰ ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري بأن شفقته علىٰ أمته أعظم من شفقة الوالد علىٰ ولده . .

---

(١) انظر السابق ٧١ ، ٧٢ .

(٢) السابق ٧٢ ، ٧٣ واعتبره بما في الاقتصاد في الاعتقاد ١٢١ .

فهٰذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي عليه الصلاة والسلام فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان)[1] .

فهٰذا النص يؤكد مع ما سبقه علىٰ تمسك الإمام الغزالي بمنهج القرآن الكريم والسنة المطهرة في إثبات النبوة بالاعتبار بدلائل الوحي نفسه واستعمال العقل المجرد في طلب اليقين الإيماني بحقائقه وقرائن أحوال المبعوثين به من حيث صدق الإيمان والاعتقاد والتخلق والسلوك وتحقق أخباره وغير ذلك من شواهد الصدق والإثبات .

ويصرح الإمام الغزالي بتطبيقه هو لهٰذا المسلك في معرض مناظرته لمن يريد التوصل إلى الحق بالإمام المعصوم أو المعجزة وحدها حيث يبرهن علىٰ أن العلوم كلها إنما تعرف بالتعلم والممارسة والتجارب ثم بعد إحكام موازينها يعرف الصواب منها من الخطأ ، وهٰكذا فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علمونا الموازين التي يعرف بها صدقهم دون المعجزة أو مع المعجزة ، فيقول : (وكذلك آمنت أنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصدق موسىٰ عليه السلام لا بشق القمر ولا بقلب العصا حية بمجردها ، فإن ذلك يتطرق إليه حينئذ التباس كثير ، فلا يوثق به ، بل من يؤمن بقلب العصا حية يكفر بخوار العجل .

فإن التعارض في عالم الحس والشهادة كثير جدا ، لٰكني تعلمت الموازين من القرآن ثم وزنت بها جميع المعارف الإلهية بل أحوال المعاد وعذاب القبر وعذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة ـ كما ذكرته في كتابي جواهر القرآن ـ[2] فوجدت جميعها موافقة لما في القرآن ولما في الأخبار فتيقنت أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وأن القرآن حق ، وفعلت كما قال علي رضي الله

---

(١) السابق ٨٠ ، ٨١ .

(٢) انظر المصدر المذكور ١٤ ـ ٤٧ واقرأ الآيات من سورة النحل من آية (١ـ٤٩) ومن سورة الحج من آية (٤ـ٧) .

عنه إذ قال : (لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله)[1] .

فكانت معرفتي بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ضرورية كمعرفتك إذا رأيت رجلا عربيا يناظر في مسألة من مسائل الفقه ويحسن فيها ويأتي بالفقه الصحيح الصريح ، فإنك لا تتمارىٰ في أنه فقيه ، ويقينك الحاصل به أوضح من اليقين الحاصل بفقهه لو قلب عصا ثعبانا لأن ذلك يتطرق إليه احتمال السحر والتلبيس والطلسم وغيرها ولا يحصل العلم بالقرآن ـ كذا ـ[2] (ولعل الصواب ـ ولا يحصل العلم بالفرق بينها وبين هٰذه الأشياء وكونها معجزة إلا بعد بحث طويل ونظر دقيق ويحصل به إيمان ضعيف هو إيمان العوام والمتكلمين . . .)[3] .

وإذا كنا نفهم من هٰذه النصوص أن الإمام الغزالي يدعونا إلىٰ مذهب التصوف في الذوق والسلوك فإننا نتفق معه في أن هٰذا الميزان يوصل إلى التصديق بأصل النبوة وإثباتها في حق كل نبي معين إذ في القرآن والسنة عند النظر والاعتبار ما يرشد إلىٰ هٰذا الإثبات الإيماني اليقيني[4] .

ولا يزال ذلك يرسخ ويتأكد بالممارسة العملية للشعائر والعبادات التي لا يدرك بالعقل سر أوقاتها ومواسمها وأعدادها وما يشترط لها من شروط وآداب وهيئات .

هٰذا مع أنه لا يخفىٰ أثرها وتطهيرها للمحافظ عليها من الأدران المعنوية ، وسطوع الأنوار الربانية في قلبه وروحه ، وتهذيب نفسه وسلوكه وبالتالي إثبات النبوة بالضرورة لمن جاء بها إذ لم يدرك بالعقل السر فيها فكانت بذلك من : (قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة)[5] .

وبهٰذا نعلم أن طرق إثبات النبوة كثيرة كثرة طرق التمييز بين الصادق من

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/ ٩٨٧ الأثر رقم (١٨٨١) .

(٢) في نسختين ط١ دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ مجموعة (٣) ص٣١ وط ـ ١٤٠٦هـ ص٤٦ .

(٣) في الموضعين فوق ٣١ أو ٤٦ من القسطاس المستقيم .

(٤) انظر المنقذ ٦٨ ، ٦٩ والقسطاس المستقيم (٤٦) .

(٥) المنقذ ٧١ وانظر ما بعدها .

الكاذب والمحق من المبطل والخير من الشرير ، وأن أقواها وأعظمها أثرا عند الإمام الغزالي قرائن الأحوال التي لا يتطرق إليها الاحتمال إذ إنها تشتمل على الأقوال والأعمال والأخلاق وهٰذه أمور لا يكاد يلتبس فيها الإيمان بالنفاق أو يخفىٰ على الناس فيها القزم من العملاق أو البدر من المحاق ، فكيف بالله تعالىٰ وهو الخلاق .

* * *

المبحث الرابع

إثبات النبوة على الفلاسفة والرد عليهم

سبق لنا في مواطن من هٰذا البحث أن نبهنا علىٰ نماذج من توافق الإمام الغزالي مع الفلاسفة في الفكرة أو الأسلوب . وأوضحنا حسب الإمكان مدى التطابق أو التضاد بين نتاجه في فهم النبوة وحقيقتها وما ذكر عنهم من إخلال بمقام النبوة المنيف ومكانها الشريف .

ومن ذلك أن لازم مذهبهم أنها تكتسب بالرياضة الروحية والمجاهدات وبذل الجهد في العلم والفكر(١) .

وأنها فيض يصل إلى الروح من العقل الفعال أو رفع حجاب بين القلب واللوح المحفوظ حتىٰ تنطبع فيه المعلومات التي قابلته كما تنطبع الصورة في المرآة عند المقابلة والمحاذاة(٢) .

فلنعتبر ما تقدم من ذلك جزءا من بيان حالهم وحاله معهم ولنضف إليه في هٰذا المبحث العناصر الآتية حتىٰ نستكمل الموضوع إذ ما رمي الإمام الغزالي بأبشع من تقليده للفلاسفة في حقيقة النبوة ومفهومها(٣) .

والعناصر هي :

- وصف الإمام الغزالي لمعارف الفلاسفة وثمار علومهم .
- حكمه عليهم من خلال هٰذه العلوم .
- حقيقة معتقداتهم في النبوة والشريعة .

---

(١) انظر أحوال النفس لابن سينا ١١٤ وما بعدها وإثبات النبوات له ٤١ وما بعدها ومعارج القدس للغزالي ١٢٥ وما بعدها .

(٢) انظر آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي ٦٣ـ٧١ .

(٣) انظر مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ٥٧ وما بعدها .

تعقيب :

يتحدث الإمام الغزالي عن الفلاسفة من منطلق الثقة بالمعلومات والخبرة المرجعية حيث يدعي أنه نظر في أحوالهم وعلومهم علىٰ مهل وجمع من ذلك ما تمكن به من تصنيف كتابه الأول عنهم وهو : مقاصد الفلاسفة[1] ليبني عليه رده عليهم في كتابه الثاني عنهم وهو : تهافت الفلاسفة[2] .

ويصنفهم إلىٰ ثلاثة أصناف : دهريين ، وطبائعيين زنادقة ، وإلهيين ، وهم المتأخرون منهم ، كسقراط ، أفلاطون ، أرسطاطاليس[3] .

ويصف حال المتأخرين منهم مع علوم قدمائهم ، والذي يهمنا هنا هم الصنف الثالث : وهو (الإلهيون : وهم المتأخرون منهم ، مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس . وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محررا من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجا من علومهم .

وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم .

﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾[4] بتقاتلهم .

ثم رد أرسطاطاليس علىٰ أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الإلهيين ردا لم يقصر فيه حتىٰ تبرأ من جميعهم ، إلا أنه استبقىٰ أيضا من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزع منها .

فوجب تكفيرهم ، وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا

---

(١) انظره بتحقيق الدكتور/ سليمان دنيا ط ، دار المعارف ١٩٦١م .

(٢) انظره بتحقيق الدكتور/ سليمان دنيا ، ط دار المعارف ١٩٦٥م .

(٣) انظر الملل والنحل للشهرستاني ٣٤٠ـ وما بعدها و٣٧٤ وما بعدها .

(٤) انظر فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ١٣٢ ، ١٣٣ والاقتصاد ١٥٦ ، ١٥٧ والآية من سورة الأحزاب (٢٥) .

والفارابي وغيرهما . علىٰ أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هٰذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتىٰ لا يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هٰذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ـ قسم يجب التكفير به .

٢ـ وقسم يجب التبديع به[١] .

٣ـ وقسم لا يجب إنكاره أصلا[٢] .

وبعد بيانه لعلومهم وأنواعها وفوائدها وغوائلها وآفاتها على المتلقىٰ لها بالقبول والراد لها بالجهل والتعصب الأعمىٰ ، حذر من قراءة كتبهم وأوجب حماية العامة وضعفاء العقول منها منبها علىٰ أن العالم الحاذق الغواص لا ينبغي أن يحجر عليه في القراءة واستخراج العسل أو الدر أو تصفية الترياق من السم ، (فقرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلا ، كما لا يجعل الباطل حقا)[٣] . ويهمنا هنا من المسائل الإلهية ما أوجب تكفيرهم لمخالفتهم فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم ـ كما يقول الإمام الغزالي :

١ـ (إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضا ، ولٰكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

٢ـ ومن ذلك قولهم : إن الله تعالىٰ يعلم الكليات دون الجزئيات ، وهٰذا

---

(١) انظر تهافت الفلاسفة ٢٦ـ٣٧ .

(٢) المنقذ ٣٦ وانظر الاقتصاد ١٣٥ ، ١٣٦ و١٥٧ .

(٣) المنقذ ٣٨ وما بعدها وقارن بما في فيصل التفرقة ١٣٢ ، ١٣٣ وانظر تهافت الفلاسفة ٢١٩ وما بعدها .

أيضا كفر صريح ، بل الحق أنه : (لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض)[1] .

٣ـ ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته ، فلم يذهب أحد من المسلمين إلىٰ شيء من هـٰذه المسائل)[2] .

هـٰذا وصف حالهم وقيمة علومهم وبيان المسائل التي أوجبت تكفيرهم حيث إن أكثر براهينهم في الطبيعيات والإلهيات مبني على الحس والمشاهدة ولذا (فإنهم تصوروا الأمور علىٰ قدر ما وجدوه وعقلوه وما لم يألفوه قدروا استحالته . . . ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادعىٰ مدع أنه عند ركود الحواس يعلم الغيب لأنكره المتصفون بمثل هـٰذه العقول)[3] .

ولما أراد الإمام الغزالي أن يبين حقيقة النبوة وخاصيتها لما لمسه من فتور الاعتقادات في أصلها ومسيس الحاجة لتنبيه المتفلسفة في زمانه علىٰ عظم قدرها ، وجه لهم سؤالا عن سبب كفرهم وفتور اعتقادهم في النبوة والشريعة ضمن من توجه إليهم بالأسئلة وتتبع آحادهم لمعرفة سبب تقصيرهم .

فقال : (ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلىٰ أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم فإذا هي أربعة : واعتبر أن الأول : سبب من الخائضين في علم الفلاسفة ـ ثم قال :

(فإني تتبعت مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ، وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له : مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهـٰذه حماقة . فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟

---

(١) اقتباس من الآية الكريمة (٣) من سورة سبأ .

(٢) المنقذ ٤٢ وانظر تهافت الفلاسفة ٢١٩ وما بعدها . وقارن بالملل والنحل للشهرستاني ٣٨٣ وما بعدها .

(٣) المنقذ ٧٨ وانظر مقاصد الفلاسفة ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

وإن كنت لا تؤمن فأنت كافر ، فدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطنا ، وهو سبب جرأتك ظاهرا ، وإن كنت لا تصرح به تجملا بالإيمان وتشرفا بذكر الشرع) ـ ثم عددت له كل طائفة شبهتها ، ومن ضمنهم من قرأ علم الفلسفة حيث يقول :

(وقائل خامس يقول : لست أفعل هٰذا تقليدا ، ولٰكني قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتىٰ أدخل في حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغن فيها عن التقليد)[1] .

فبهٰذا نعلم أن الإمام الغزالي مهتم جدا بدراسة أوضاع الخلق من حيث التدين والتفسق لينطلق من ذلك لدلالتهم على الإيمان الصحيح وما يقتضيه من لزوم الأوامر والنواهي ، ثم من علمه منه الإعجاب بالنفس والغرور بمعارفه وجاهه توجه لفضحه ، وإثبات النبوة عليه بمسلمات يعتقدها وأسرار يصدق بمثلها فيقول في معرض ذلك :

(هٰذا منتهىٰ إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي .

هٰؤلاء هم المتجملون بالإسلام . وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولٰكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعا من الفسق والفجور . وإذا قيل له :

إذا كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلي ؟ فربما يقول : لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد .

وربما قال : الشريعة صحيحة ، والنبوة حق . فيقال : فلم تشرب الخمر ؟

---

(١) المنقذ ٧٢ ، ٧٣ .

فيقول : إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتي محترز من ذلك ، وإني أقصد به تشحيذ خاطري ـ حتىٰ إن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : أنه عاهد الله تعالىٰ علىٰ كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهىٰ حالته في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنىٰ شرب الخمر لغرض التشافي . فهٰذا إيمان من يدعي الإيمان منهم)[1] .

ويرى الإمام الغزالي أن الكفر بحقيقة النبوة هو واقع معتقدهم وأن الزندقة والنفاق هو ديدنهم إذ يناقضون أهل الحق في أمور لا يثبتونها ويحاولون رد الشرع جملة وتفصيلا ـ فيقول :

(وأما الفلاسفة فإنهم ناقضوا في الكلام وهو باطل من وجهين :

أحدهما : قولهم إن الله تعالىٰ متكلم مع أنهم لا يثبتون كلام النفس ولا يثبتون الأصوات في الوجود ، وإنما يثبتون سماع الصوت بالحلق في أذن النبي من غير صوت من خارج .

ولو جاز أن يكون ذلك بما يحدث في دماغ غيره موصفا بأنه متكلم لجاز أن يكون موصوفا بأنه مصوت ومتحرك لوجود الصوت والحركة في غيره . وذلك محال .

والثاني : أن ما ذكروه رد للشرع كله ، فإن ما يدركه النائم خيال لا حقيقة له ، فإذا رددت معرفة النبي لكلام الله تعالىٰ إلى التخيل الذي يشبه أضغاث أحلام فلا يثق به النبي ولا يكون ذلك علما .

وبالجملة هٰؤلاء لا يعتقدون الدين والإسلام وإنما يتجملون بإطلاق عبارات احترازاً من السيف. . .)[2] .

وهٰذا منهم عند الإمام الغزالي نفاق وتناقض حيث يؤمن بشيء ثم يجانبون

---

(١) السابق ٧٤ .

(٢) الاقتصاد ٨٩ وانظر مشكاة الأنوار ١٦٥ وما بعدها .

اتباعه كما يؤمنون بخواص الأشياء التجريبية ولا يصدقون بخواص الأشياء التي جاءت بها الأنبياء لأن عقولهم لا تدركها ـ : (وأما من أثبت النبوة بلسانه وسوىٰ أوضاع الشرع على الحكمة فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، مؤمن بحكم له طابع مخصوص ، يقتضي طابعه أن يكون متبوعا ، وليس هـٰذا من النبوة في شيء ، بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة والعقل معزول عنها . .)[١] .

وإذا كان الإمام الغزالي يحيلنا في الرد على الفلاسفة الذين أنكروا أصل النبوة علىٰ كتابه المنقذ من الضلال بقوله : وأما من فسد إيمانه من أهل الفلسفة حتىٰ أنكر أصل النبوة فانظر الرد عليه في كتابه : « المنقذ من الضلال » حيث جاء الرد عليهم بخواص ما اعتقدوه في الطب والنجوم والطبيعة والسحر والطلسمات[٢] فإنه أي الإمام الغزالي يبرهن أيضا علىٰ إثبات النبوة على الفلاسفة ونحوهم من خلال الممارسة العملية لتطبيقات الأوامر الشرعية التي توصل إلىٰ أنها تعطي علما ضروريا بصحة النبوة والرسالة وأنه يجب عند عدم معرفة أسرارها تقليد الأنبياء فيها كما يقلد الناس الأطباء في معرفة منافع الأدوية وصلاحها للبدن والمرض المعين ـ فيقول :

(وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة علىٰ خواص الأشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية تركبت من أخلاط مختلفة ، وبعضها ضعف البعض في

---

(١) المنقذ ٧٨ .

(٢) انظر السابق ٧٧ .

الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات هي أدوية داء القلوب ، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتىٰ إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة)[١] (فيا ليت شعري من يصدق بذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاثة ، هي لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها اختلاف هـٰذه الأوقات ، وإنما تدرك هـٰذه الخواص بنور النبوة. . .)[٢] .

ويضيف الإمام الغزالي تعجبا آخر من أصحاب هـٰذه العقول المؤمنين بخواص الأدوية وقدر دانق من الأفيون وما اشتمل عليه من خاصية التبريد والتجميد القاتل . ويؤمنون كذلك بخواص الأشكال والرقوم الخاصة ، وأوردوها في كتب عجائب الخواص مقرين بإمكانها ومصدقين لقول منجم يخمن أحكامه تبعا لنظره في الطوالع وقد جربوا كذبه مائة مرة ولا يزالون يصدقونه : (فليت شعري ، من يتسع عقله لقبول هـٰذه البدائه ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص ، معرفتها معجزة لبعض الأنبياء ، فكيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب ـ فإن أنكر فلسفي إمكان هـٰذه الخواص في أعداد الركعات ورمي الجمار وعدد أركان الحج وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقا أصلا)[٣] .

فإن ادعىٰ أنه قد جرب هـٰذه المجربات طالبه الإمام الغزالي بتجربة هـٰذه وسماع أقوال المجربين وإدامة النظر فيما جاء به الشرع حتىٰ يصل به ذلك إلىٰ

---

(١) المنقذ ٧١ ، ٧٢ .
(٢) السابق ٧٩ .
(٣) المنقذ ٨٠ .

علم ضروري أنه حق من عند الله تعالىٰ وأن مدعيه صادق ، وإن جهلنا خواص ما جاء به قلدناه فيها إذ عرفنا صدقه ضرورة ، (ولقد تحامق وتجاهل جدا من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن أنها ذكرت ـ أي الأوامر الشرعية ـ علىٰ سبيل الاتفاق ، لا عن سر إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصية . . .)[1] .

وحيث عرفنا أن الإمام الغزالي خص الفلاسفة الجاهليين والإسلاميين بمزيد من الرد والإقناع منطلقا في ذلك من أمور يسلمون بها وخواص يعتقدونها حتىٰ توصل إلىٰ تكفيرهم في أمور علم الله تعالىٰ والمعاد وحشر الأجساد وعذابها ونعيمها وقدم العالم وأردف ذلك بأن حقيقة إيمان من ادعى الإيمان منهم يؤول به إلى الكفر أيضاً ، ويدل حاله ولسان مقاله أيضاً علىٰ أنه لا يرىٰ للنبوة ما لها من مكانة عظيمة وأسرار بليغة يمتد أثرها من الدنيا إلى الأخرىٰ ، ومن الظاهر إلى الباطن ، وأن السعادة في اتباعها ، والشقاوة في مخالفتها ، سواء علمنا خواص أوامرها ونواهيها أو جهلناها[2] .

وإذ علمنا ذلك فإن علينا أن نعلم أن الإمام الغزالي يكرر أنه لا يمنعه زندقة متفلسف أو غيره من موافقته في الحق الذي معه والتمعن في باطله ليرده عليه ، ومن الأمور التي يوافق زنادقة الفلاسفة عليها وينكر عليهم الاقتصار عليها خواص النبوة الثلاثة عندهم . وحيث وجدناه وافقهم عليها وأنكر عليهم الاقتصار عليها ، علينا كذلك أن نتفهم موقفه من الأمور المشتبهة بها)[3] ، كأخبار الكهان وما يحصل للمصروع والممرور والمجنون من إخبار ببعض المغيبات التي قد تصدق في المستقبل وتوافق الوجه الذي أخبروا به ونتفهم وجه ذلك عند الإمام الغزالي حتىٰ لا نصدر عليه حكما تقليدا لمن حكم عليه بتقليد الفلاسفة واتباعهم في النبوة وخصائصها ، أو أنه اعتبرها من جنس المنامات أو الطب والنجوم والسحر والطلسمات أو ما يقع للمصروع

---

(١) السابق ٧٢ .

(٢) انظر معارج القدس ١٤٦ وما بعدها .

(٣) انظر تهافت الفلاسفة ١٦٧ ، ١٦٨ و٢١٩ ، ٢٢٠ .

والمجنون والممرور وغيرهم ممن فسدت أرواحهم وفطرهم ، أو تعطلت بسبب علة عضوية عقولهم وأمزجتهم[١] .

قال الإمام الغزالي : (بيان خواص النبوة :

ولها خواص ثلاث : إحداها تابعة لقوة التخيل والعقل العملي ، والثانية تابعة لقوة العقل النظري ، والثالثة تابعة لقوة النفس)[٢] .

ثم أخذ في شرح هٰذه الخواص الثلاث بما نوجزه فيما يأتي :

١ ـ الخاصية الأولىٰ والتي هي تابعة لقوة التخيل والعقل العملي :

يبرهن الإمام الغزالي علىٰ هٰذه الخاصية منطلقا من أن العوالم لا حجاب بيننا معها من جهتها هي ، وإنما الحجاب فينا ـ وقد شرحنا أنواع الحجب عنده فيما تقدم في فصل الوحي[٣] ـ ولذا فمن درجات القوى المتخيلة في الإنسان ما تكون أشد تهيؤا من غيرها لقبول صور تلك العوالم والأخذ عنها في المنام عند ركود الحواس التي تشغلها ، ومنها ما هو أقوىٰ من ذلك حتىٰ إنه يمكن أن لا تشغله الحواس في حال اليقظة :

(فيشاهد صوراً إلهية عجيبة مرئية ، وأقاويل إلهية مسموعة هي مثل تلك المدركات الوحيية ، وهٰذه أدون درجات المعنى المسمىٰ بالنبوة ، وأقوىٰ من هٰذا أن يستثبت تلك الأحوال والصور علىٰ هيئتها مانعة للقوة المتخيلة على الانصراف إلىٰ محاكاتها بأشياء أخرىٰ . وأقوىٰ من هٰذه أن تكون المتخيلة مستمرة في محاكاتها والعقل العملي والوهم لا يتخليان عما استثبتاه فثبت في الذاكرة صورة ما أخذت ، وتقبل المتخيلة علىٰ بنطاسيا[٤] وتحاكي فيه ما قبلت بصورة عجيبة مسموعة ومبصرة ، ويؤدي كل واحد منهما علىٰ وجهه ، وهٰذه

---

(١) انظر معارج القدس ١٤٠ وما بعدها .

(٢) السابق ١٣٦ .

(٣) انظر مشكاة الأنوار ١٧٥ وما بعدها . وانظر من هٰذا البحث الفصل المذكور ص .

(٤) يريد به الحس المشترك .

طبقات النبوة المتعلقة بالقوى العقلية العملية والخيالية)[1] .

وهٰكذا نجد الإمام الغزالي يريد أن يبرهن علىٰ أن قوة التخيل عند الأنبياء تفوق غيرهم من بني جنسهم إذ كانت في درجاتها متفاوتة وفي حفظها ووضوح تخيلها متباينة الخاصية الثانية والتي هي قوة الحدس والذكاء :

يبرز الإمام الغزالي هٰذه الخاصية من خلال حديثه عن الحدس وتفاوت الناس في الذكاء واستنباط الحد الأوسط ، وأن التفاوت في هٰذه الأمور غير منحصر في حدود الزيادة والنقصان وبناء علىٰ ذلك يقول :

(فأيقن أن جانب الزيادة يمكن أينتهي إلىٰ حد يستغني في أكثر أحواله عن التعلم والتفكر ، فيحصل له العلوم دفعة ، ويحصل معه الوسائط والدلائل . فيمكن إذا أن يكون شخص من الناس مؤيد النفس لشدة الصفاء وكمال الاتصال بالمبادىء العقلية إلىٰ أن يشتعل حدسا في كل شيء ، فيرتسم فيه الصورة التي في العقل الفعال إما دفعة وإما تقريبا من دفعة ارتساما لا تقليدا ، بل يقينيا مع الحدود الوسطىٰ والبراهين اللائحة والدلائل الواضحة) .

ويضيف في بيانه لطرق الناس في تحصيل الحد الأوسط واختلاف قدراتهم في ذلك ، قائلا : (وقد يكون من غير طلب واشتياق بأن تكون نفسا شريفة قوية مستضيئة في نفسها ، فيحصل له العلوم ابتداء كأنه ما تخلىٰ إلى اختياره ، يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة ولو لم تمسسه نار الفكرة)[2] .

وواضح في هٰذه الخاصية أن الإمام الغزالي يريد أن يبين أن النبوة غير مكتسبة وأن من يكرم بها يكون في أعلىٰ درجات الذكاء والفطنة والصفاء وكمال الاستعداد للتلقي وكأن العلوم تصب في قلبه دون جهد منه أو طلب لها .

أما الخاصية الثالثة : والتي هي قوى النفس فإن الإمام الغزالي بعد أن أثبت ما في العقول الكلية العالمية من تأثيره في الصور الأرضية الجسمية ، تحدث

---

(١) معارج القدس ١٣٨ـ١٤٠ وانظر مشكاة الأنوار ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) السابق ١٤٣ ، ١٤٤ وانظر مشكاة الأنوار ١٧٠ ، ١٧١ والرسالة اللدنية ١٠٢ وما بعدها .

عما يشاهده الإنسان في نفسه من تأثير ما يكون في خياله وروحه في جسمه وبدنه علىٰ حسب ما رسم في النفس وبعد شرحه لذلك قال : (ولا ننكر أن يكون من القوى النفسانية ما هو أقوىٰ فعلا وتأثيرا من أنفسنا نحن ، حتىٰ لا يقتصر فعلها في المادة التي رسم لها وهو بدنها ، بل إذا شاءت أحدثت في مادة العالم ما تتصوره في نفسها ، وليس يكون مبدأ ذلك الإحداث تحريك وتسكين وتبريد وتسخين وتكثيف وتليين كما تفعل في بدنها ، فيتبع ذلك أن يحدث سحب هاطلة ، ورياح وصواعق وزلازل وصياح مثيرة ، ويتبعه مياه وعيون جارية وما أشبه ذلك في العالم بإرادة هـٰذا الإنسان ، والذي يقع له هـٰذا الكمال في جبلة النفس ، ثم يكون خيرا متحليا بالسيرة الفاضلة ومحامد الأخلاق وسير الروحانيين ، مجتنبا عن الرذائل ودنيات الأمور ، فهو (ذو معجزة من الأنبياء أي من يدعي النبوة ويتحدىٰ بها وتكون هـٰذا الأمور مقرونة بدعوى النبوة. . .)[1] ، (فهـٰذا مذهبهم في المعجزات ، ونحن لا ننكر شيئا مما ذكروه ، وأن ذلك مما يكون للأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وإنما ننكر اقتصارهم عليه ، ومنعهم قلب العصا حية ، وإحياء الموتىٰ وغيره . فلزم الخوض في هـٰذه المسألة لإثبات المعجزات ، ولأمر آخر وهو نصرة ما أطبق عليه المسلمون من أن الله تعالىٰ قادر علىٰ كل شيء[2] . . . فإن قيل : وهـٰذا يصدر من نفس النبي أو من مبدأ آخر من المبادىء عند اقتراح النبي عليه السلام ؟ قلنا : وما سلمتموه من جواز نزول الأمطار والصواعق وتزلزل الأرض ، بقوة نفس النبي ، يحصل منه أم مبدأ آخر ؟

فقولنا في هـٰذا كقولكم في ذاك ، والأولىٰ بنا وبكم إضافة ذلك إلى الله تعالىٰ ، إما بغير واسطة ، أو بواسطة الملائكة . لـٰكن وقت استحقاق حصولها انصرفت همة النبي عليه السلام إليها ويعين نظام الخير في ظهورها لاستمرار نظام الشرع ، فيكون ذلك مرجحا جهة الوجود ، ويكون الشيء في نفسه

---

(١) معارج القدس ١٤٥ ، ١٤٦ وقارن بما في التهافت ١٦٩ وما بعدها .

(٢) تهافت الفلاسفة ١٦٨ و١٧٤ ، ١٧٥ .

ممكنا ، والمبدأ به سمحا جوادا ، ولـٰكن لا يفيض منه إلا إذا ترجحت الحاجة إلىٰ وجوده وصار الخير متعينا فيه ، ولا يصير الخير متعينا فيه إلا إذا احتاج نبي في إثبات نبوته إليه لإفاضة الخير)[1] .

وعندي أن الإمام الغزالي قد أبعد نفسه بهـٰذه النصوص عن تقليد الفلاسفة وخصوصا من يتهم بأنه سلك مسالكهم في النبوات ، حتىٰ صنف في إطار من يعتبر كلامهم في النبوة من جنس كلام الصائبة أو القائلين بنظرية الفيض والعقول العشرة ، والذي لابد من استدراكه على الإمام الغزالي أنه يتكلم في النبوة ودلائلها ومسالك إثباتها على الفلاسفة والبراهمية وغيرهم بأساليب فلسفية وعبارات غامضة يحتاج الباحث إلىٰ دوام الموازنة بينها وبين مثيلاتها من كتبهم حتىٰ تتسنىٰ له الفروق والاستبعادات التي غالبا ما يلجأ إليها هـٰذا الإمام ليخرج نفسه من حظيرة هـٰؤلاء الذين يرد عليهم ويكفرهم مع توغله معهم في الكلام الذي لا يدرك بالعقل ولا يذكر دليله من الشرع .

وهـٰذا أمر لا يعذره فيه أحد من القدماء والمتأخرين ، وربما يلتبس أمره فيه علىٰ كثير من الباحثين المقتصرين في دراسته علىٰ كتاب واحد أو أثنين[2] .

علىٰ أنه قد بالغ جدا في توضيح الخواص الثلاث التي اقتصر عليها الفلاسفة واعتبروها هي النبوة تقريباً . والله أعلم .

* * *

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر إثبات لابن سينا ٤١ وما بعدها ، والحقيقة في نظر الغزالي ٧٦ـ٨٩ ، ومقارنة بين الغزالي وابن تيمية ٧٦ـ١٠٠ ، واعتبره بما في معارج القدس ١٤٠ـ١٤٦ .

الفصل الثاني

طرق إثبات النبوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

تمهيد

لقد درس شيخ الإسلام ابن تيمية مناهج من سبقه من أهل الملل والنحل في النبوات ، وفحص طرق إثباتهم للنبوة والرسالة ، متفهما الأسباب والشبه التي أدت بهم إلى الغلط والانحراف عن المسالك الصحيحة ، معتنيا بجانب الإنصاف في قبول ما معهم من الحق ، وكاشفا عن الزيغ أو التقصير الذي لحقهم في البحث والنتائج ومبرهنا في الكتاب والسنة وصريح العقل علىٰ صحة منهجه وسلامة نتائجه ، ودرس كذلك مناهج المتكلمين من المسلمين والفلاسفة الإسلاميين في طرق إثبات النبوة منتقدا قصرهم النظر على المعجزة والأمور الخارقة للعادة ، معتبرا أن تقليدهم لأهل البدع في البحث والمناظرة أفضىٰ بهم إلى التزام أمور تناقض مقصودهم وتلزمهم الاضطراب بل توصلهم في بعض الأحيان إلى العجز والتقصير ثم الحيرة عند الجدال والمحاورة إذ كانت الحقيقة أنه لا يمكن إثبات النبوة عند لزوم تلك المسالك أو التزام تلك الأصول التي قيدوا أنفسهم بها .

إن شيخ الإسلام ابن تيمية لما وجد أمامه حصاد أجيال وأمم في أمر النبوات وإثبات النبوة وطّن نفسه علىٰ قراءته ؛ ليتمكن من تصفية الحق فيه من الباطل ، وليشرح منهج السلف ومن تبعهم بإحسان من أهل العلم في إثبات النبوة ، ويقيم الدليل علىٰ ما أثبته ويظهر البرهان علىٰ نفي ما نفاه أورده أو استدرك عليه أو عقّب بوجه من الوجوه .

وهـٰذا التوسع في البحث أدىٰ إلىٰ كثرة النصوص وشرحها وتتبع أوجه الرد والنقض والمؤاخذة والمطالبة الأمر الذي يخشىٰ معه الباحث من ضياع الحقيقة وكثرة الغوص والسباحة لسبر أغوار الأفكار وتضارب حجج الفلاسفة والنظار ، فبينما يتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن إثبات النبوة بطريق عادة الله تعالىٰ وسنته مع الكاذب والصادق وما يتصل بذلك من حكمته وعدله ورحمته ولطفه بخلقه إذا به يناقض المتكلمين ويرد علىٰ طوائف الغالطين في طرق إثبات النبوة عموماً .

ثم إذا أخذ يبرهن علىٰ سلامة مسلك المتكلمين في جعل المعجزة دليلا علىٰ إثبات النبوة إذا به أيضا يستدرك عليهم ويناقضهم في حد المعجزة والخارق والعادة وما يلتبس بذلك من الأدلة الجعلية القصدية ، أو ما فُطر عليه العقل البشري من علامات التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب والخير والشر في الحركات الاختيارية والأقوال العلمية الفكرية .

وإذا تحدث عن المسلك النوعي وأنه منهج صحيح سلكه العلماء والعقلاء لإثبات النبوة بدليل توافق وتواتر ما جاء به هـٰذا المدعي بما جاء به من قبله من الأنبياء الصادقين المعروفين إذا به أيضا يدخل في ذلك ردا على اليهود والنصارىٰ مقررا عليهم الطرق التي أثبتوا بها نبوة موسىٰ وعيسىٰ ومن قبلهم من الأنبياء عليهم وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ، إذ تواتر ما جاء به بما جاءوا به وتوافقوا في الدعوة إلى الأصول العامة التي اقتضى العقل والشرع التمسك بها وحمايتها ، مستدلا عليهم بما في كتبهم ونبوات أنبيائهم وبشارات كثيرة لا يملكون دفعها وإن أعلنوا جحدها[1] .

(وقد غلط في النبوة طوائف غير الذين كذبوا بها ، إما ظاهرا وباطنا ، وإما

---

(١) انظر شرح الأصفهانية ١٢٠ وما بعدها . والنبوات ٢٤٨ ، ٢٤٩ والصفدية ٢/ ٤٢٨ والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ١٠٤ وما بعدها و٦/ ٣٢٤ وما بعدها ، والمعجزة وكرامات الأولياء لابن تيمية ، دراسة وتحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ٢٧ وما بعدها .

باطنا كالمنافق المحض ، بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وإلىٰ من قبله ، وهم خلق كثير فيهم شعبة نفاق ، وإن لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه ، بل قد يعظمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور ، وأبعد هـٰؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية الملاحدة ، فإن هـٰؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط . ولهـٰذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي ، وابن سينا عظمها أكثر من ذلك . . .)[1] .

وحيث تبين في هـٰذا التمهيد سعة المجال وكثرة النصوص بسبب كثرة الغالطين فإن الأمر يتطلب نوعا من الضبط لاستيعاب أهم العناصر التي يجب تناولها بالبحث والدراسة في هـٰذا الفصل لذا رأيت تقسيمه إلى المباحث الآتية :

المبحث الأول : إثباته للنبوة بالدلائل والقرائن .

المبحث الثاني : رده على الغالطين في طرق إثبات النبوة من المتكلمين .

المبحث الثالث : رده على الغالطين في طرق إثبات النبوة من الفلاسفة .

* * *

---

(١) النبوات ٢٨ .

المبحث الأول

إثباته للنبوة بالدلائل والقرائن

ينطلق شيخ الإسلام ابن تيمية بادىء ذي بدء في إثبات النبوة من بيانه لقدرة الله تعالىٰ : (فإنه إذا كان قادرا علىٰ أن يهدي الإنسان الذي كان علقه ومضغة إلىٰ أنواع العلوم بأنواع من الطرق إنعاما عليه ، وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه .

فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه . وهـٰذا أعظم النعم عليه والإحسان إليه ، والتعريف بهـٰذا دون تعريف الإنسان ما عرفه به من أنواع العلوم . فإنه إذا كان هداهم إلىٰ أن يعلم بعضهم صدق رسول أرسله بشر مثله بعلامات يأتي بها الرسول ، وإن كان لم تتقدم مواطأة وموافقة بين المرسل والمرسل إليهم .

فمن هدىٰ عباده إلىٰ أن يرسلوا رسولا بعلامة ويعلم المرسل إليه أنها علامة تدل عل صدقه قطعا ، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولا ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله)[1] .

وخصوصا إذا علمنا : (أن النبوة في الآدميين هي من عهد آدم عليه السلام فإنه كان نبيا وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار وقد علم جنس ما يدعو إليه الرسل وجنس أحوالهم فالمدعي في زمن الإمكان إذا أتىٰ بما ظهر به مخالفته للرسل علم أنه ليس منهم ، وإذا أتىٰ بما هو من خصائص الرسل علم أنه منهم)[2] .

لأنه تواتر ما جاءوا به مع عدم التواطىء ومع كثرتهم وتباعد أزمانهم حتىٰ إنه

---

(١) النبوات ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٢) شرح الأصفهانية ٩٣ وانظر النبوات ٣٠ .

علم من ذلك علما قطعيا أنهم صادقون ، وهٰذا واضح جدا إذا علمنا :

(أن الأنبياء عدد كثيرون وهم بإجماع العقلاء في غاية صفات الكمال من العقل ، والعلم ، والعدل ، والصدق والأخلاق الحسنة ، وكل منهم لم ير الآخر ولم يسمع منه . . . وكل منهم يخبر عما رأىٰ وسمع أخبارا يصدق بعضهما بعضها ، فلو لم تثبت عصمة الأنبياء وصدقهم ، بل كان المخبر بمثل هٰذا مجهولا ، لوجب تواتر جنس ما رأوه)[1] .

(والمقصود هنا : أن يعرف مراتب الناس في العلم بالنبوة ومعرفة قدرها وتعدد الطرق في ذلك وأن عامة الطرق التي سلكها الناس في ذلك هي طرق مفيدة نافعة لٰكن تختلف مقادير فوائدها ومنافعها ، وفيها ما يضر من وجه كما ينفع من وجه ، وفيها ما ينتفع به من كان عديم الإيمان أو ضعيف الإيمان . . .)[2] .

ومن الطرق المفيدة النافعة التي تسلك في حق جميع الأنبياء ويستدل بها علىٰ نبوة معين ويدركها العالم والجاهل علىٰ حد سواء ما يسرده شيخ الإسلام في نصوصه الآتية . . إذ يشرح ما علمه الناس من عادة الله تعالىٰ وسنته في تأييد الصادق وفضح الكاذب وإهلاكه ونشر العاقبة السيئة له :

(ومثال ذلك ما علم علما ضروريا أن خالق ـ هٰذا الكون ـ له من الرحمة والحكمة ما يبهر العقول مع ما في ذلك من الدلالة على المشيئة ، ثم من استقرأ ما يجده في نوع الإنسان من أن كل من عظم ظلمه للخلق وإضراره لهم كانت عاقبته عاقبة سوء ، واتبع اللعنة والذم ومن عظم نفعه للخلق وإحسانه إليهم كانت عاقبته عاقبة خير ، وأمثال ذلك استدل بما علم (على) ما لم يعلم حتىٰ يعلم أن الدولة ذات الظلم والجبن والبخل سريعة الانقضاء . . ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[3] .

---

(1) الرد على المنطقيين ٤٩٩ وانظر مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٢١٠ـ٢١٥ .

(2) شرح الأصفهانية ١٢٠ .

(3) سورة الفتح ، آية (٢٣) .

﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾[1] .

وعلىٰ ضوء هٰذه الآيات ومثيلاتها يبين شيخ الإسلام ابن تيمية أن عادة الله مع أنبيائه لا تكون إلا لهم ولا تكون مع الكفر أو التكذيب أو الشك فيهم بل : (عادته وسنته المطردة أن تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة والإخبار بها . . .)[2] .

فمن عادة الله تعالىٰ وسنته التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين ، فسنة الله تعالىٰ وفعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة في مقابل ما يفعله في الكفار المكذبين من الهلاك والدمار والعقوبة أمور معلومة بالتواتر للناس وهو من مسالك معرفة الصادق من الكاذب .

فانطلاقا من تنزيه الله تعالىٰ عن تأييد الكذّاب بناء علىٰ ما يعلم من حكمته تعالىٰ في مخلوقاته ، ورحمته ببريته ، وسنته وعادته في عباده قال :

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[3] .

إن في ذلك من الحكمة والرحمة وما يدل على العلم والقدرة ما يذكر الله تعالىٰ به عباده دائماً لينظروا في مواضع عادته وسنته ويتعظوا بها ويعتبروا[4] ، (فالنبوة مشتملة علىٰ علوم وأعمال لابد أن يتصف الرسول بها وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال.. والعالم لا يخلو من آثار نبي من لدن آدم عليه السلام

---

(١) سورة فاطر ، آية (٤٣) .

(٢) النبوات ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) سورة طه ، آية (٤٩ـ٥٤) .

(٤) انظر شرح الأصفهانية ٢٠٠ ، ٢٠١ .

ـ إلىٰ زماننا وقد علم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به ، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل ويفرقون بين الرسل وغير الرسل فلو قدر أن رجلا جاء في زمان إمكان بعث الرسل وأمر بالشرك وعبادة الأوثان ، وإباحة الفواحش والظلم والكذب ، ولم يأمر بعبادة الله ولا بالإيمان باليوم الآخر ، هل كان مثل هٰذا يحتاج أن يطالب بمعجزة أو يشك من كذبه أنه نبي ؟ . . .

وإذا كان صدق المخبر أو كذبه يعلم بما يقترن به من القرائن بل في لحن قوله وصفحات وجهه ويحصل بذلك علم ضروري لا يمكن المرء أن يدفعه عن نفسه فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله ؟)[1] .

فالصادق لا يلتبس على الناس بالكاذب ، ذلك أنه : (ما من أحد أدعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنىٰ تمييز ، فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولابد أن يفعل أمورا)[2] .

وهنا يبدأ شيخ الإسلام يعرض جملة من الطرق التي تسلك لبيان صدق مدعي النبوة من كذبه (والمقصود هنا : أن طرق العلم بالرسالة كثيرة جدا متنوعة ، ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا علما يقينا أنهم كانوا صادقين ، على الحق من وجوه متعددة)[3] .

وذكر من تلك الطرق والوجوه العديدة ما يأتي : فقال :

(منها : أنهم أخبروا الأمم بما سيكون في انتصارهم وخذلان أولـٰئك ـ يعني أعداءهم ـ وبقاء العاقبة لهم أخبارا كثيرة في أمور كثيرة وهي كلها صادقة

---

(١) شرح الأصفهانية ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) السابق ١٢١ .

(٣) السابق ١٣٨ وانظر النبوات ٣٧ و٤٠ـ٤٣ .

لم يقع في شيء منها تخلف ولا غلط . . وهـٰذه الطريق تسلك جملة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتفصيلا في حق واحد واحد بعينه فيستدل المستدل بما يعلمه من الحق والخير جملة علىٰ علم صاحبه وصدقه ، ثم يستدل بعلمه وصدقه علىٰ ما لم يعلمه تفصيلا ، والعلم بجنس الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب معلوم بالفطرة والعقل الصريح بل جملة ذلك مما اتفق عليه بنو آدم ، ولذلك يسمىٰ ذلك معروفا ومنكرا .

فإذا علم أنه فيما علم الناس أنه الحق وأنه خير هو أحق منهم به وأنصح الخلق فيه وأصدقهم فيما يقول علم بذلك أنه صادق عالم ناصح لا كاذب ولا جاهل ولا غاش . . .

ومن الطرق أيضاً أن من تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام فيما أخبرت به وما أمرت به علم بالضرورة أن مثل هـٰذا لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأصدقهم وأبرّهم ، وأن مثل هـٰذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد للكذب مفتر على الله يخبر عنه بالكذب الصريح أو مخطىء جاهل ضال يظن أن الله تعالىٰ أرسله ولم يرسله وذلك لأن فيما أخبروا به وما أمروا به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدي الخلائق وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلا ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا بها أعلم الخلق ممن سواهم ، فيمتنع أن يصدر مثل ذلك عن جاهل ضال ، وفيها من الرحمة والمصلحة والهدي والخير ودلالة الخلق علىٰ ما ينفعهم ما يضرهم ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بار يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق وإذا كان ذلك يدل علىٰ كمال علمهم وكمال حسن قصدهم ، فمن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذبا على الله يدعي عليه هـٰذه الدعوى العظيمة التي لا يكون أفجر من صاحبها إذا كان كاذبا متعمدا ، ولا أجهل منه إن كان مخطئا . . .

وهـٰذه الطريق يسلكها كل أحد بحسبه ولا يحتاج في هـٰذه الطريق إلىٰ أن يعلم أولا خواص النبوة وحقيقتها وكيفيتها بل إن يعلم أنه صادق بار فيما يخبر به ويأمر به ، ثم من خبره يعلم حقيقة النبوة والرسالة . . .

والمقصود هنا : أن طرق العلم بصدق النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بل تفاوت الطرق في معرفة قدر النبوة والنبي متعددة تعددا كثيرا ، إذ النبي يخبر عن الله سبحانه أنه قال ذلك إما إخبارا من الله تعالىٰ وإما أمرا أو نهيا ، ولكل من حال المخبر عنه والمخبر به ، بل ومن حال المخبرين ـ مصدقهم ومكذبهم ـ دلالة على المطلوب ، سوىٰ ما ينفصل عن ذلك من الخوارق وأخبار الأولين والهواتف والكهان وغير ذلك .

فالمخبر مطلقا يعلم صدقه وكذبه بأمور كثيرة لا يحصل العلم بآحادها كما يحصل العلم بمخبر الأخبار المتواترة ، بل بمخبر الخبر الواحد الذي احتفّت بخبره قرائن أفادت العلم . . . فإن الله نصب من الأدلة المعاينة الحسية التي يعقل بها نفسها ، وبالأمثال المضروبة وهي الأقيسة العقلية ما يمتنع معه خفاء كذب الكاذب . . فمن أباح الفواحش والمظالم والشرك والكذب مدعيا للنبوة يعلم بالاضطرار كذبه للعلم الضروري بأن الله سبحانه لا يأمر بهـٰذا ، سواء قيل إن العقل يعلم به حسن الأفعال وقبحها أولا يعلم به ـ فكل ذي فطرة سليمة يعلم بالاضطرار أن الله تعالىٰ لا يأمر عباده بالكذب والظلم والشرك والفواحش وأمثال ذلك مما قد يأتي به كثير من الكذابين بل يعلم بفطرته السليمة ما يناسب حال الربوبية)[1] .

ذلك أن من أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف فذلك ميزان في قلوبنا لنزن به المتماثلات ونفرق به بين المختلفات ، فدخول قياس الطرد والعكس في إثبات النبوة ظاهر عند العقلاء ، فمثال قياس الطرد أنه تبارك وتعالىٰ :

(لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل ما فعلوه أصابه ما أصابهم ، فيتقي تكذيب الرسل حذرا من العقوبة .

---

(١) السابق ١٣٨ـ١٤٠ و١٨٥ و١٩٣ .

ومثال قياس العكس : أن يعلم أن من لم يكذّب الرسل بل اتبعهم لا يصيبه ما أصاب هـٰؤلاء المكذبين)[1] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[2] .

ولما بين شيخ الإسلام كثرة طرق إثبات النبوة أراد أن ينصّ علىٰ بعض العلماء والعقلاء الذين أوصلهم علمهم بجنس النبوات إلىٰ سلوك منهج في الاستقراء والتتبع حتىٰ تبين لهم صدق المعين بعلم قطعي لا يرتابون فيه ، وكذلك فعل آخرون لرجاحة عقولهم ومعرفتهم بسنن الله وعادته التي يستحيل تخلفها أو نقضها لما ينبني علىٰ تغيرها من الفساد والإضرار الذي يعلم ضرورة أنه مخالف لحكمة الله تعالىٰ وعدله ورحمته ولطفه بخلقه .

فهـٰذه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنهما جزمت بما لديها من سنة الله تعالىٰ بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخزيه الله معتمدة في ذلك الحكم علىٰ ما جُبل عليه من أصول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال النافعة المتعدية للغير فقالت له عندما جاءها وقد فجأه الوحي ـ وقال : (لقد خشيت علىٰ نفسي)[3] .

(كلا : والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين علىٰ نوائب الحق)[4] .

(فهـٰذه أمور من أعظم أنواع البر والإحسان وقد علم من سنة الله أن من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزّهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه)[5] .

---

(١) الرد على المنطقيين ٣٧١ .
(٢) سورة الشورىٰ ، آية (١٧)
(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، الباب الثالث ، وانظر فتح الباري ١/ ٢٣ وما بعدها
(٤) السابق .
(٥) شرح الأصفهانية ١٢٥ . .

ويؤيد شيخ الإسلام ذلك بما نقله عن ابن عقيل منبها علىٰ أن الجمهور يأخذون به فيقول : (وهـٰؤلاء ـ يعني الجمهور ـ يسلكون في إثبات النبوة ما سلكه ابن عقيل وغيره في مواضع أخر إذ أثبت حكم الله تعالىٰ فيها حيث قال : النبوات واسطة بين الله تعالىٰ وبين خلقه في الأفعال والتروك المتضمنة لمصالح المكلفين ، والثقة بها طريقها ما سبق في علومنا باستدلالنا علىٰ أن الباري حكيم لا يؤيد كذابا بالمعجزة ، ولا يمكن من معجزاته إلا من صدق فيما يخبر به عنه ، فلما علمنا ذلك وتحققناه حصلت لنا الثقة بمن تكاملت فيه شرائط النبوة وعلمنا أنه سفير فيما بيننا وبين الله تعالىٰ ، وأنه رسوله فما أخبرنا به عنه قبلناه من غير تكشف عليه بعقولنا ولا نضرب له الأمثال بآرائنا وعاداتنا بل نعتقد أنه جاء من عند من حكمته فوق حكمتنا وتدبيره فوق تدبيرنا . .)(١) .

وقد ظهر مصداق قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

في كل من ورقة بن نوفل الذي كان قد تنصر وعرف جنس ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بمعرفته للنبوات السابقة وعلمه بصفة الوحي والملك الذي كان ينزل به علىٰ موسىٰ عليه السلام ولذا لم يتردد عندما أراد الله به الخير من إعلان صدق محمد صلى الله عليه وسلم معتمدا علىٰ ما علمه من حال من سبقه(٣) .

وكذلك النجاشي في الحبشة عندما حاوره جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وقرأ عليه القرآن به بما جاء به عيسىٰ عليه السلام بحكم معرفته بالإنجيل(٤) .

---

(١) السابق ٢٠٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية (١٤٦) .

(٣) انظر فتح الباري ١/ ٢٥ وانظر ورقة بن نوفل في بطنان الجنة ٧٧ وما بعدها .

(٤) انظر إسلام النجاشي ، بقلم اللواء الركن محمد شيت خطاب ط رابطة العالم الإسلامي ٩ ، وانظر نشأة الدولة الإسلامية علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دراسة وثائق العهد النبوي ، تأليف : الدكتور عون الشريف قاسم ، دار الكتب الإسلامية ط٢ ١٤٠١هـ ، ٩١ وما بعدها .

وكذلك استدل هرقل ملك الروم علىٰ صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما استقر عنده من علم عن النبوات السابقة وما يعرف به الصادق من الكاذب وسنة الله تعالىٰ في سير دعوة الأنبياء والمرسلين وما يصاحب ذلك وما يكتب لهم من العاقبة الحسنة[1] .

وما حكيناه مجملا فصّله شيخ الإسلام ابن تيمية فقال :

(**المسلك الأول** : النوعي هو مما استدل به النجاشي علىٰ نبوته ـ يعني النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو النبي الذي كان عند أهل الكتاب أنه منتظر وله صفات متعددة تميزه عن غيره ـ فإنه أي النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوه عليه قال : إن هـٰذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة . . .

والمسلك الثاني : الشخصي : استدل به هرقل ملك الروم فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام طلب هرقل من كان هنا من العرب ، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلىٰ غزة فطلبهم وسألهم عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأل أبا سفيان وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه فصار يجدهم موافقين له في الأخبار . وساق الحديث وشرحه وبين سلامة مأخذ هرقل ورجاحة عقله ووفور علمه إلىٰ أن قال في ذلك :

(وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فقالوا : لا ، ما جربنا عليه كذبا . . .

وسألهم بماذا يأمركم ؟ فقالوا : يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيء وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . . إلىٰ أن قال شيخ الإسلام : فهـٰذه أكثر من عشر مسائل . ثم قال : ثم بين لهم ـ أي

---

(١) انظر السابق ٧٧ وما بعدها ، وقارن بما في فتح الباري ١/ ٣١ وما بعدها .

هرقل ـ ما في هـٰذه المسائل من الدلالة وأنه سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته فرآها منتفية .

وسألهم عن علامات الصدق فوجدها ثابتة . إلىٰ أن قال :

قلت : فمثل هـٰذا السؤال والبحث أفاد هـٰذا العاقل اللبيب علما جازما بأن هـٰذا هو النبي الذي ينتظره)[1] .

فعند شيخ الإسلام أن مدعي النبوة : (ليس له إلا حالان : إما أن يكون أرسله فيكون صادقا ، أولا يكون أرسله فلا يكون صادقا ، فآيات الصدق لا توجد إلا مع أحد النقيضين وهو الصدق ، لا توجد قط مع الآخر وهو انتفاء الصدق. .) ، (فمن كان يعلم صدق موسىٰ والمسيح ومحمد وغيرهم ، وأنهم لا يكذبون في أخف الأمور ، فكيف بالكذب على الله إذا أخبرهم أحدهم بما جاءه من الوحي والرسالة ، وما غاب عن الملائكة ، فإنه قد يجزم بصدقه من غير آية لا سيما إن كان ما يقوله لهم مما يؤيد صدقه ، ولهـٰذا لم يكن من شرط الإيمان بالأنبياء وجود الآيات ، بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك. .

فدلائل الصدق والكذب لا تنحصر. . .)[2] .

وبهـٰذا نختم هـٰذا المبحث الذي بين فيه شيخ الإسلام ابن تيمية أن دلائل الصدق وقرائنه كثيرة تعرف من حال المدعي والنظر فيما يدعيه وما يأمر به أو ينهىٰ عنه[3] وإلى المبحث الثاني .

* * *

---

(١) شرح الأصفهانية ١٢٦ـ١٣٢ وانظر النبوات ٣٧ـ٣٩ و٢٨٤ـ٢٨٦ وقارن بما في الجواب الصحيح ١/ ٢٤٧ـ٢٢٩ .

(٢) النبوات ٢٨٤ـ٢٨٦ .

(٣) انظر النبوات ١٨٤ و١٨٨ـ١٩٠ و١٥١ـ١٦٨ و٢١٨ وما بعدها .

المبحث الثاني

رده على الغالطين في طرق إثبات النبوة من المتكلمين

ألمحنا فيما سبق أن شيخ الإسلام ابن تيمية يقر بالحق الذي يشتمل عليه كلام الغالطين في طرق إثبات النبوة ، وأن طلبه للإنصاف في ذلك لا يقف أمامه إذا وجد خللا في المنهج أو تقصيرا في البحث أو قصورا في الفهم أو التزام ما لا يلزم أو ارتكاب أغلاط أخرىٰ تقليدا لمذهب عقدي أو فكري منحرف أو نصاً يلزم منه عدم الوصول إلى المقصود بجعل الدليل عين المدلول عليه ، أو اشتباها في الدليل وما يعارضه لعدم إبراز الفروق إذ إن : (الدليل لا يتم إلا بالجواب عن المعارض ، فالأدلة تشتبه كثيرا بما يعارضها ، فلابد من الفرق بين الدليل الدال على الحق ، وبين ما عارضه ليتبين أن الذي عارضه باطل)[١] . (وللناس طرق في دلالة المعجزة علىٰ صدق الرسول ، طريق الحكمة ، وطريق القدرة ، وطريق العلم والضرورة وطريق سنته وعادته التي بها أيضاً يعرف ما يفعل وهو من جنس المواطأة ، وطريق العدل وطريق الرحمة وكلها طرق صحيحة ، وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج كان الرب به أجود ، وكذلك كلما كانوا إلىٰ بعض العلم أحوج كان به أجود ، فإنه سبحانه الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذي خلق فسوىٰ ، والذي قدر فهدىٰ ، وهو الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ ، فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلىٰ أن يعلموا أن هـٰذا رسوله . . .)[٢] ، فمازال العقلاء يستدلون بما علموه من صفات الرب تبارك وتعالىٰ علىٰ ما يفعله ، إذ حكمته وعدله ومقتضىٰ رحمته ولطفه وعادته أمور ظاهرة تعلم بالعقل كما شرحناه في المبحث السابق[٣] .

---

(١) النبوات ٢٢٤ .

(٢) السابق ٢٤٤ .

(٣) انظر السابق ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

وهنا يبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية في تصوير تصور المتكلمين لطرق إثبات النبوة ليبين أوجه الغلط ويستدرك عليهم في المنهج والشروط واللوازم فيقول في شرحه لقول صاحب العقيدة الأصفهانية : (والدليل علىٰ نبوة الأنبياء المعجزات. . .) هٰذه الطريقة هي من أتم الطرق عند أهل الكلام والنظر حيث يقررون نبوة الأنبياء بالمعجزات ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لتقرير نبوة الأنبياء لٰكن كثير من هٰؤلاء بل كل من بنىٰ إيمانه عليها يظن أن لا تعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات . ثم لهم في تقرير دلالة المعجزة على الصدق طرق متنوعة وفي بعضها من التنازع والاضطراب ما سننبه عليه . والتزم كثير من هٰؤلاء إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتىٰ أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك .

وللنظار هنا طرق متعددة منهم من لا يجعل المعجزة دليلا بل يجعل الدليل استواء ما يدعوا إليه وصحته وسلامته من التناقض كما يقول طائفة من النظار ومنهم من يوجب تصديقه بدون هٰذا وهٰذا . ومنهم من يجعل المعجزة دليلا ويجعل أدلة أخرىٰ غير المعجزة وهٰذا أصح الطرق .

ومن لم يجعل طريقها إلا المعجزة اضطر لهٰذه الأمور التي فيها تكذيب لحق أو تصديق لباطل ولهٰذا كان السلف والأئمة يذمون الكلام المبتدع فإن أصحابه يخطئون . إما في مسائلهم وإما في دلائلهم فكثيرا ما يثبتون دين المسلمين في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله علىٰ أصول ضعيفة بل فاسدة ويلتزمون لذلك لوازم يخالفون بها السمع الصحيح والعقل الصريح. . .)[1] .

ويزيد منهجهم نقدا ببيان أضراره علىٰ من قلدهم فيه بعد ذكره لمقدمات يراها نافعة فيقول : (فإن أكثر أهل الكلام مقصرون في حجج الاستدلال عن تقرير ما يجب تقريره من التوحيد والنبوة تقصيرا كثيرا جدا كما أنهم كثيرا ما يخطئون فيما يذكرونه من المسائل ومن لا يعرف الحقائق يظن أن ما ذكروه

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ١٢٠ .

هو الغاية في أصول الدين . والنهاية في دلائله ومسائله فيورثه ذلك مخالفة الكتاب والسنة بل وصريح العقل في مواضع ، ويورثه استضعافا لكثير من أصولهم ، وشكا فيما ذكروه من أصول الدين واسترابة ، بل قد يورثه ترجيحا لأقوال من خالف الرسل من متفلسفة وصائبين ومشركيـــن ونحوهم حتىٰ يبقىٰ في الباطن منافقا زنديقا وفي الظاهر متكلما يذب عن النبوات)[1] .

(والمقصود أن هـٰؤلاء لما احتاجوا إلىٰ إثبات النبوات اضطربوا في صفة النبي وما يجوز عليه وفي الآيات التي بها يعلم صدقه فجوزوا أن يرسل الله من شاء بما شاء لا يشترطون في النبي إلا أن يعلم ما أرسل به لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع ، ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقا يلزمه جواز أن يأمره بتبليغ رسالة لا يعلم ما هي)[2] .

ويرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية أن المتكلمين الذين لا يقولون بالسبب والحكمة والعدل ، وينفون الأسباب متناقضون أيضا إذ إنهم إن اتبعوا هـٰذا المنهج في جانب دلائل النبوة وخرق العادة فسدت أصولهم . وإن اتبعوا أصولهم في ذلك النفي وعدم القول بالسبب والحكمة والعدل وقعوا في تكذيب العقل والوحي معا .

وبناء علىٰ أن الأشعري ومن ذهب مذهبه في عدم القول بتنزيه الله تعالىٰ عن فعل من الأفعال لم يسلكوا في إثبات النبوة مسلك تنزيه الله عن فعل ينقض سنته بناء علىٰ أنهم لا يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين كما مر ، وبناء علىٰ أن المعتزلة يرون أن إظهار المعجزة علىٰ يدي المتنبىء الكذاب قبيح والله سبحانه منزه عن فعل القبيح حصل بين المتكلمين هنا تناقض حتىٰ إنه يمكن أن يقال فكأنهم حكموا أن النبي لا يمكن تصديقه في البعض إلا بتكذيبه في البعض مع أنه يمكن تقرير كونه سبحانه : (منزها عن تأييد الكذاب بالمعجزة من غير

---

(١) السابق ١٣٨ .
(٢) النبوات ١٤٥ ، ١٤٦ .

معارض . بناء علىٰ علم من حكمته تعالىٰ في مخلوقاته ورحمته ببريته وسنته في عباده . فإن ذلك دليل علىٰ أنه لا يؤيد كذابا بالمعجزة لا معارض لها[1] . ولما أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية وقوع التناقض بين طوائف المتكلمين في طرق إثبات النبوة ووجه دلالة المعجزة علىٰ صدق الرسول أوجز كلامهم في ذلك مصرحاً بأنهم سلكوا طريقين :

(أحدهما : وهو قول أكثر شيوخهم المتقدمين أن وجه دلالة المعجزة علىٰ صدق مدعي النبوة : امتناع تعجيز الإله عن نصب الدلالة علىٰ صدق الرسل ؛ فإن تصديقهم ممكن ، وذلك معلوم بالضرورة والاستدلال ، ولا دليل إلى التصديق إلا خلق المعجزات ، وبظهورها علىٰ يد الكذاب يبطل دليل صدقهم ، فلا يبقىٰ في المقدور طريق يصدَّقون به ، فيلزم عجز الإله عن الممكن وذلك ممتنع .

(والطريق الثاني : أن المعجزات تدل من حيث نزلت منزلة التصديق بالقول ، والعلم بذلك يقع ضروريا بقرائن أحوال كالعلم بخجل الخجل ووجل الوجل . . . ولا يتوقف العلم بما هـٰذا سبيله علىٰ نظر واستدلال فيقبل عليه اعتراض .

قالوا : ووجه ذلك أن الفعل الخارق للعادة إذا علم أنه من قِبل الله تعالىٰ وأنه خارق للعادة وأنه سبحانه فعله عند دعوى الرسالة والطلب ، وعند قول جار مجرى الطلب إما معينا وإما غير معين في المعجزات ، وأنه متعلق بالدعوىٰ ومطابق لها ، وأن الله تعالىٰ سامع لدعوى النبوة عليه وعالم بها في مواضعة أهل لغة الرسول ، ثم فعل ما يدعيه الرسول أنه ليس من فعله علم أنه قاصد بذلك إلىٰ تصديقه ، وأن ما يفعله من الآيات في مثل هـٰذه الحال قائم مقام تصديقه له بالقول : صدق أنا أرسلته . . .)[2] .

---

(١) انظر النبوات ٣٣١ ، ٣٣٢ ، والأصفهانية ١٩٨ـ٢٠٠ و٢٠٣ .

(٢) شرح الأصفهانية ٢٠٦ ، وانظر النبوات ١٤٨ ، ١٤٩ ، وانظر النبوة عند ابن تيمية ورده على=

وإذا كان هـٰذا المدعي وقعت له المعجزة علىٰ هـٰذا النحو وعلى الوجه الذي وصف فإن العلماء متفقون علىٰ أن التصديق بالفعل أبعد من دخول الشبهة والاحتمال . والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة ومن أدلها عند المتكلمين المثال الذي يضربونه لمدعي الولاية والوكالة بين يدي ملك فإذا طلب منه المدعي أي تصرف يخالف عادته قاصدا به تصديقه فيما ادعاه واستجاب له الملك فإن الحاضرين يحصل لهم علم ضروري بتصديق الملك إياه فيما ادعاه عليه[١] .

ويقترب شيخ الإسلام ابن تيمية شيئا فشيئا من المتكلمين ليتفهم من خلال نصوصهم مواطن الخلل في مسالكهم ، إذ يدخل في بيان مفهوم الخارق عندهم فيبين أو لا أنهم مختلفون في تسمية براهين النبوة بخرق العادة علىٰ ثلاثة أقسام ، فمنهم من يدعي أن ذلك حد لها مطرد منعكس ، ومنهم من يذهب إلىٰ أن كونها خارقة للعادة ليس حدا لها ولا شرطا فيها ، ومنهم من يقول هو شرط فيها وليس حدا لها .

ولما كانت المعجزات عند كثير منهم لا تختص بجنس من أجناس المقدورات بل خاصيتها أن النبي يحتج بها ويتحدىٰ بمثلها فلا يمكن معارضته اشترطوا لها وصفين : (أن تكون مقترنة بدعوى النبوة ـ وعنده أنهم بهـٰذا ـ جعلوا المدلول جزءا من الدليل ـ والوصف الثاني : أنها لا تعارض .

وبالأول : فرقوا بينها وبين الكرامة ، والثاني : فرقوا بينها وبين السحر والكهانة)[٢] . وكون خاصة المعجزة أن لا يقدر أحد علىٰ معارضتها من المخاطبين بها مسلك فاسد من وجوه عند شيخ الإسلام ابن تيمية إذ لا يتميز به الفرق بينها وبين غيرها من خوارق العادات الداخلة في مقدور المخلوقات من حيث إن لها اكتسابا وأسبابا ، وفي حيز العلم البشري والقدرة البشرية أو

= المخالفين ، رسالة ماجستير من قسم العقيدة ، جامعة أم القرىٰ ، إعداد الطالب/ سعيد إبراهيم مرعي خليفة ، ١٤١٠هـ ، ٢٩٣ وما بعدها .

(١) انظر تمهيد الأوائل ١٥٦ وما بعدها والأصفهانية ٢٠٧ .

(٢) النبوات ٢٩١ وانظر منه ١٥٠ .

المخلوقات عموما . ثم إنه إذا لم يوجد لها معارض في المخاطبين لفقدهم لأسباب حيلها أو علمها المكتسب لها أو الطاقة والقوة الجسمية فإنه قد يكون في غيرهم من لو علم بها لتمكن من معارضتها فلا تكون والحالة هٰذه خارقة ولا معجزة وبالتالي لا تكون دليل صدق بل تكون أقرب إلىٰ دليل الكذب[1] .

(والتحقيق أن آيات الأنبياء مستلزمة للنبوة ولصدق الخبر بالنبوة ، فلا يوجد إلا مع الشهادة للرسول بأنه رسول ، لا يوجد مع التكذيب بذلك ، ولا مع عدم ذلك البتة ، وليست من جنس ما يقدر عليه لا الإنس ولا الجن ، فإن ما يقدر عليه الإنس والجن يفعلونه فلا يكون مختصا بالأنبياء ومعنىٰ كونها خارقة للعادة : أنها لا توجد إلا للنبوة لا مرة ولا أقل ولا أكثر ، فالعادة تثبت بالمرة ، وما يأتي به السحرة والكهان يمتنع أن يكون آية لنبي بل هو آية على الكفر ، فكيف يكون آية للنبوة . . فخرق العادة بالنسبة للأنبياء أن تكون خارقة لعادة غيرهم مطلقا . ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها . . ـ وبهٰذا نعلم أن حد الدليل أنه إذا وجد وجد المدلول عليه وإذا عدم المدلول عليه عدم الدليل[2] .

ولهٰذا من ينكر النبوة لا يفرق بينها وبين السحر وما يماثله من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس بل يجعلون آيات الأنبياء من جنس السحر لما استقر في نفوسهم عن الساحر ، لذا تراهم مضطربين في الحكم عليه فتارة ينسبون النبي إلى الجنون وعدم العقل ، وتارة إلى الحذق والخبرة ، وسبب ذلك أنهم يرونه يترك ما يرونه نافعا ويفعل ما يعتقدون أنه ضار ، وكل ما خالف عادة الناس أنكروه واعتبروا فاعله مجنونا أو ساحرا ؛ لأنه جاء بأمور خارقة لعاداتهم ، وأعلم بأمور غائبة[3] .

وهنا يشتد شيخ الإسلام ابن تيمية عندما كان يتحدث عن اشتراط بعض

---

(١) انظر النبوات ١٥١ـ١٦٨ و١٨٨ـ١٩٠ و٢١٩ .

(٢) السابق ٢٩٥ و٣٠٨ ، ٣٠٩ و٣٣١ ، ٣٣٢ و٤٠٩ .

(٣) انظر السابق ٧١ ، ٧٢ و٢١٤ وما بعدها .

النظار كون المعجزة مقرونة بالتحدي والدعوىٰ كطريق واحد لإثبات النبوة مع تجويزهم على الله تعالىٰ فعل كل ممكن بحيث لم يبرز فرق بين ما يفعله تأييدا للنبي مما يقع استدراجا للفجار والكفار من السحرة والكهنة المشركين المضادين للنبي الجاحدين لما يأتي به اللهم إلا ما ذكروه من سلامتها من المعارض في حيز المخاطبين بها .

وهٰذا الاشتداد الذي ينفي به شيخ الإسلام عن أهل الكلام المشار إليهم إثبات النبوة عند التحقيق ولازم المذهب يأتي بعد بحث في بيان أن القرآن الكريم اشتمل على الأدلة والبراهين والبينات والهدىٰ والفرقان والحجج الصحيحة ، ولٰكن : (المقصود هناك الكلام على النبوة فإن المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير لبسوا فيه الحق بالباطل كما فعلوا ذلك في غير النبوات . . وعند التحقيق لم يعرفوا النبوة ولم يثبتوا ما يدل عليها ، فليس عندهم لا هدىٰ ولا بينات)[1] .

ويعقب بعد أن حكىٰ عنهم أنهم جعلوا المدلول عليه جزءا من الدليل ، وأن الدليل علىٰ هٰذا هو : (مجموع دعوى النبوة والخارق) فيبطل هٰذا من وجهين :

أحدهما : أن الخوارق التي تأتي أمام الساعة أنها من آيات الله ولو لم تكن معجزة لأحد ، فإنها تتضمن التخويف الداعي إلى الطاعة ، الناهي عن المعصية وحتىٰ يدخل في ذلك أشراط الساعة .

ثانيهما : أن يقال هي آيات علىٰ صدق الأنبياء فإنهم أخبروا بها ، وهي آية علىٰ ما أخبروا به وعلىٰ صدقهم . . . وأيضا فمن آيات الأنبياء ما كان قبل ولادتهم ، وقبل إنبائهم وما يكون بعد موتهم ، فإن الآية دليل علىٰ صدق الخبر بأنه رسول الله ، وهٰذا الدليل لا ينحصر لا بمكان ولا بزمان ، ولا يكون هٰذا الدليل إلا من جنس لا يقدر عليه الإنس كلهم ، ولا الجن ، فلابد أن يكون

---

(١) النبوات ٢٢٥ .

جنسه معجزا أعجز الإنس والجن. . . وقولهم : (إن المعتبر خرق عادة من أرسل إليهم ، مع أنهم لا يحتجون بالسمعيات لأن دلالتها مشروطة عندهم بعدم المعارض العقلي باطل وقد تبين أن الشيء في نفسه إذا لم يكن دليلا لم يصر دليلا باستدلال المستدل به ، بل هو في نفسه دليل وإن لم يستدل به إذا كان الدليل هو المسلتزم للمدلول ، فدليل صدق النبي هو يدل علىٰ أنه نبي ، وأن الخبر بنبوته صدق ، وإن كان هو لا يستدل بذلك ولا يتحدىٰ بمثلها ، وقد لا يخبر بنبوة نفسه ، ويكون له دلائل تدل علىٰ نبوته كما كانت قبل أن يولد ، وفي الأمكنة البعيدة. . .)[1] .

وبعد إيراد شيخ الإسلام ابن تيمية لكثير من الآيات القرآنية المشتملة علىٰ ذكر الأدلة والبراهين علىٰ صدق المرسل وجحد الناس وتكذيبهم له بعد إقامة الحجة عليهم ـ قال :

(فالآيات التي هي دلائل النبوة وبراهينها هي آيات من الله وعلامات منه أنه أرسل الرسول ، وكما أن الآيات هي كلامه تتضمن أخباره لعباده وأمره لهم ، ففيها الإعلام والالتزام ، فكذلك دلائل النبوة هي آيات تتضمن إخباره لعباده بأن هـٰذا رسوله وأمره لهم بطاعته ، ففيها الإعلام والإلزام. . فالآيات التي تكون آيات للأنبياء هي دليل وبرهان ـ والقرآن شاهد علىٰ ذلك ـ فحدها حد الدليل والبرهان ، وهي أن تكون مستلزمة لصدق النبي فلا يتصور أن توجد مع انتفاء صدق من أخبر أن الله أرسله. . . والله تعالىٰ سماها آيات وبراهين ، وهو اسم مطابق لمسماه مطرد لا ينتقض ، فلا تكون قط إلا آيات لهم وبراهين. . . وخاصتها التي تمتاز بها عن غيرها أن تكون آية ودليلا علىٰ نبوتهم ، فكل ما استلزم نبوتهم فهو آية لهم ، وما لا يستلزم نبوتهم فليس آية ، وليست مختصة بجنس من الموجودات ، تكون في جنس العلم والإخبار بغيب الرب

(١) السابق ٢٩٣ ، ٢٩٤ وانظر منه ٣٢٠ـ٣٢٣ .

الذي اختص به ، وتكون في جنس القدرة والتصرف والتأثير في العالم ، وهي مقدورة للرب ، فله سبحانه أن يجعلها في أي جنس كان من المقدورات ولهٰذا تنوعت آيات الأنبياء بل النبي الواحد تتنوع آياته . . .[1] .

والمقصود هنا أن الهدىٰ والبيان والأدلة والبراهين في القرآن ، فإن الله تعالىٰ أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ، وأرسله بالآيات البينات ، وهي الأدلة البينة الدالة على الحق وكذلك سائر الرسل ، ومن الممتنع أن يرسل الله رسولا يأمر الناس بتصديقه ولا يكون ما يعرفون به صدقه ، وكذلك من قال : إني رسول الله فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلا له وحجة على الناس ، هٰذا لا يظن بأجهل الخلق فكيف بأفضل الناس . . ومن هنا دخل الغلط علىٰ كثير من الناس ، فإنهم لما رأوا آيات الأنبياء خارقة للعادة لم يعتد الناس مثلها أخذوا مسمىٰ خرق العادة ، ولم يميزوا بين ما يختص به الأنبياء ، ومن أخبر بنبوتهم وبين ما يوجد معتادا لغيرهم ، واضطربوا في مسمىٰ هٰذا الاسم كما اضطربوا في مسمى المعجزات ، ولهٰذا لم يسمها الله في كتابه إلا آيات وبراهين ، فإن ذلك اسم يدل علىٰ مقصودها ويختص بها لا يقع علىٰ غيرها ، لم يسمها معجزة ، ولا خرق عادة ، وإن كان ذلك من بعض صفاتها فهي لا تكون آية وبرهانا حتىٰ تكون قد خرقت العادة وعجز الناس عن الإتيان بمثلها ، لٰكن هٰذا بعض صفاتها وشرط فيها ، وهو من لوازمها ، لٰكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعم منه ، وهٰؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة ، هو الحد المطابق لها طردا وعكسا . كما أن بعض الناس يجعل اسمها أنها عجائب ، وآيات الأنبياء إذا وصفت بذلك فينبغي أن يقيد بما يختص بها فيقال العجائب التي أتت بها الأنبياء ، وخوارق العادات ، والمعجزات التي ظهرت علىٰ أيديهم ، أو التي لا يقدر عليها البشر ، أو لا يقدر عليها الإنس والجن ، أو لا يقدر عليها إلا الله بمعنىٰ أنه لا يقدر عليها

---

(١) السابق ٢٢٣ و٢٣٤ و٢٨٧ و٣٢٨ .

أحد بحيلة واكتساب ، كما يقدرون على السحر والكهانة ، فبذلك تتميز آياتهم عما ليس من آياتهم . . .)[١] .

ويلخص شيخ الإسلام ابن تيمية موقف المتكلمين مما جاء به الرسول ليلزمهم بلازمه إذ إنهم كما حكىٰ عنهم يقولون : اطلبوا الحق بعقولكم ، ثم انظروا فيما جاء به الرسول فإن وافق ما فيها فذلك ، وإلا فاعملوا الفكر والعقل في تأويله أو تعويضه ـ ومقتضىٰ ذلك عنده أن يقال لهم : (لو لم يكن الحق فيما بينه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم للناس وأظهر لهم بل كان الحق في نقيضه ، للزم أن يكون عدم الرسول خيرا من وجوده إذا كان وجوده لم يفدهم عند هـٰؤلاء علما ولا هدىً بل ذكر أقوالاً تدل على الباطل) .

(وحقيقة الأمر أنه لا فرق عندهم بين المعجزات والكرامات والسحر والكهانة لـٰكن هـٰذه إذا لم تقترن بدعوى النبوة لم تكن آية ، وإذا اقترنت بها كانت آية بشرط أن لا تعارض . . ـ ومعلوم ـ أن عامة معجزات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يتحدىٰ بها ، ويقول ائتوا بمثلها ، والقرآن إنما تحداهم لما قالوا : إنه افتراه ولم يتحدهم به ابتداء ، وسائر المعجزات لم يتحدهم بها ، وليس فيما نقل تحد إلا بالقرآن لـٰكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء ، فهـٰذا لازم لها ، لـٰكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره . . .) ، (وقلوب كثير من الناس يجول فيها أمر النبوات وما جاءت به الرسل ، وهم وإن أظهروا تصديقهم والشهادة لهم ففي قلوبهم مرض ونفاق إذ كان ما جعلوه أصولا لدينهم معارض لما جاءت به الأنبياء ، ولم يأخذوا عنهم الدلائل والأصول والبينات والبراهين . . .)[٢] .

هـٰكذا رأينا منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في بيانه لوجه دلالة المعجزة علىٰ صدق مدعي النبوة والرسالة ووقفنا مع نصوصه التي صور فيها مسالك

---

(١) السابق ٣١٠ ، ٣١١ ، وانظر منه ١٤٨ـ١٥٨ و٤٢٢ وما بعدها .

(٢) السابق ٢٢٧ و٢٩٣ .

المتكلمين في طرق إثبات النبوة وما نقد به تلك المسالك التي توصل إلىٰ أنها إن نفعت من وجه أضرت من وجوه أخرىٰ ، وأنها عديمة الفائدة لصاحب الإيمان الضعيف بل قد تورثه النفاق والرضىٰ بمنهج غير منهج الكتاب والسنة مع أنها مبنية علىٰ أصول فاسدة أو ضعيفة ، وأدت بمتبعيها إلىٰ إنكار شيء من الحق كالكرامات أو وجود السحر وأثره السيىء إلىٰ غير ذلك من خوارق أخرىٰ ، وكما أدت بهم إلىٰ إنكار شيء من الحق أدت بهم إلى التسوية بين جميع الخوارق ولم يقدروا على التميز لذلك بين آيات الأنبياء وبراهين صدقهم وذلك بسبب ما التزموه من شروط في المعجزة أو الخارق الذي تثبت به نبوة الأنبياء ، ذلك أن آيات الأنبياء لا تنحصر في جنس من المقدورات ولا تحد بزمان ولا بمكان إذ منها ما يكون قبل ميلادهم ومنها ما يكون بعد موتهم ومنها ما يكون بعيدا منهم ومنها ما لا يستدلون به وإن كان دليلا علىٰ صدقهم لأن الدليل على الصدق والحق هو دليل سواء استدل به أو لم يستدل به ، وما لم يكن دليلا في نفسه لا يصيره استدلال المستدل به دليلا . وبالاختصار : فإن طرق إثبات النبوة كثيرة ومتنوعة ومن اعتمد على المعجزة فقط أو قصرها علىٰ تحدي النبي والمقارنة بالدعوىٰ ، أو كونها خارقة لعادة المخاطبين في زمن النبي المعين وسلامتها من ظهور معارض لها في زمنه من بينهم فقد غلط من وجوه :

١ـ لأن أصح الطرق تقرير إثبات النبوة من أوجه متعددة ، والمعجزة واحدة منها والجمع بين المعجزة وطرق أخرىٰ متنوعة هو الأصوب .

٢ـ أنه لا يشترط فيها التحدي بدليل عدم نقل تحدي النبي صلى الله عليه وسلم بكل معجزاته وإن كان عند التكذيب تحداهم بالقرآن الكريم ولـٰكن من لوازمها عدم المعارض مطلقا وكونها خارقة لعادة الخلق جميعا بحيث لا يقدر عليها من سوى الله تعالىٰ .

٣ـ وبذلك يكون شيخ الإسلام ابن تيمية استوعب مناهج المتكلمين دراسة وتمحيصا ووافقهم في الحق الذي قرروه ، وزاد عليهم فيما قصّروا فيه أو

حجروه ، ورد عليهم فيما خالفوا فيه أهل الحق من السلف الصالح والأئمة بما ابتدعوه من بدع كلامية التزموها فاقتضت منهم إنكار حق أو اتباع باطل .

وإذا كان هـٰذا هو حالة مع أهل الكلام فما هو حالة مع المتفلسفة والزنادقة ؟

ذلك ما نعرفه إن شاء الله في المبحث الآتي : وبالله التوفيق .

* * *

المبحث الثالث

رده على الغالطين في طرق إثبات النبوة من الفلاسفة

إنه لما نبتت في شواطىء الإسلام الزاخرة وحياضه المتدفقة وغيضاته الدائمة أشجار شوكية تؤذي من اقترب منها وتنشب في حلق من طعمها وتزكم أنف من استنشق النسيم الذي مر بها ، كان علىٰ حماة هـٰذا الدين من ورثة الأنبياء أن يفكروا في اقتلاع هـٰذه الشجرة الملعونة في القرآن ، لأنها شجرة خبيثة يجب أن تجتث من فوق الأرض ولا يكون لها قرار فيها ، إذ ظهر لهم أنها تشتمل علىٰ ثمرة مرة المذاق تفسد على المسلم عقله وتحيره في دينه وتشككه في خالقه وتبعده من نهج أنبيائه والصالحين من عباده حتىٰ يتسمم قلبه وتظلم روحه وتفسد فطرته ويتعطل مزاجه ، فإن فكر في أمره . وجد أن الشياطين قد اجتالته بعيدا عن حظيرة دينه وزينت له عبادة الأصنام من دون خالقه ، والركوع للأوثان من دون إلهه فلا يملك إن كان بقي في قلبه ذرة من إيمان إلا أن يبادر في طلب النجاة لنفسه ودينه بالتمسك بأصل الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن بها ، فإن وفقه الله لذلك وأعانه انشرح صدره وقرت عينه واطمأن قلبه ورغد عيشه وسعد في الدنيا والأخرىٰ وإلا فهو الهالك . تلكم الشجرة الخبيثة التي نبتت في الملة الإسلامية هي الفلسفة اليونانية التي سرت في أفكار وعقول أقوام يتكلمون بلغتنا ويعيشون بين ظهرانينا وربما يصلون في مساجدنا ويحيون مجالس العلم فينا ويتعاملون في أسواقنا ، وتلك أمور تزيد من صعوبة اقتلاع تلك الشجرة أو استلال تلكم النبتة ، ولـٰكن إذا اجتمع العلم والذكاء والإخلاص في رجل تمكن من التحيل حتىٰ يجتثها ، وإن تلك الصفات قد اجتمعت في هـٰذين الإمامين ، الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ وقد رأينا في مناسبات من هـٰذا البحث جوانب من جهودهما في قطع الينابيع المغذية لأصول تلك الشجرة بتعريتها من أوراقها وفضح المتمسكين بجذعها بعزلهم وكشف ما لحقهم في دينهم

وعقولهم من جراء ذلك التمسك وما صحبه من تذوق لتلك الثمار المشتملة على السم الزعاف ، كما سبق لنا في الفصل الماضي أن تبين لنا شيء من جهود الإمام الغزالي في الرد عليهم في النبوات خاصة[1] . ونريد أن نرىٰ في هـٰذا المبحث قدرا من جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في هـٰذا السبيل إن شاء الله .

ولئن كنا قلنا بأن الإمام الغزالي قرأ علوم الفلاسفة من باب حب الاطلاع والغيرة على الإسلام لما رأىٰ عندهم من إعجابهم بمعارفهم وإزرائهم بغيرهم من الأذكياء حتىٰ عرف مقاصدهم بطبقاتهم ، وكثرة اختلافاتهم وتفرقهم في العقائد والأفكار وكثرة ردود بعضهم علىٰ بعض وتبرأ اللاحق من السابق الأمر الذي جرأه عليهم وحكم بتهافتهم وكثرة تناقضهم وخصوصا في الإلهيات التي خاضوا فيها بدون نور يستضاء به إلا زبالة عقولهم القاصرة وقرائهم الفاترة التي لا تنتج إلا تجارة خاسرة بائرة ـ لئن كان ذلك هو مقتضىٰ ما فهمناه من موقف الإمام الغزالي منهم ، فإن الذي فهمناه من حال شيخ الإسلام ابن تيمية أنه بعد أن تضلع من علوم الكتاب والسنة وتدرع بأساليب الجدل والمناظرة المستنبطة منهما ومن العلوم العقلية المساعدة أخذ في قراءة علومهم والتمعن في ثمار عقولهم ، ثم نظر في مقالاتهم ومؤداها وفحص كتب الآخذين عنهم والمتأثرين بهم من أهل الملة الإسلامية حتىٰ توصل إلىٰ أن ما قام به الإمام الغزالي لا يكفي لعظم ضرر رواج هـٰذه العلوم والأفكار والمعارف التي لا تستند في كثير من أصولها وأقيستها إلا إلىٰ جهد بشري متناقض وبالتالي لا يفيد تبيين مقاصدهم الزائفة ولا توضيح تناحرهم وافتراقهم وحتىٰ لا يغني إظهار تهافتهم واستخدام التشويش دون إظهار وجه الحق من الباطل[2] .

---

(١) انظر النبوات ٣٩ و٧٣ و١١٥ و١١٧ـ١٢٤ ، والتهافت ٢٢٦ وما بعدها ، ومقاصد الفلاسفة ٣٧١ وما بعدها وقارن بما في إثبات النبوات لابن سينا ٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر الرد على المنطقيين ١٣٨ و٣٠٣ و٤٣٧ وما بعدها ، ونقض المنطق ٢٦ و٣٢ و١١٢ ، ومجموع الفتاوىٰ ٤/١١٨ وما بعدها و١٢١ وما بعدها وبغية المرتاد ٢٣٤ وما بعدها و٤٤٨ وما بعدها .

فلما توصل إلىٰ ذلك أخذ في الرد عليهم بعرض فكرتهم وتوضيح مدلولها ثم إبطال ما نصت عليه أو دلت عليه من الباطل حتىٰ بان وجه الحق مؤيدا بالبراهين العقلية والنقلية وأضحى الباطل مردودا أو منقوضا[1] .

والذي يهمّنا هنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية نقد وبشدة مصادر المعرفة عند الفلاسفة القدماء والمتفلسفة من أهل الإسلام خاصة لتقليدهم لأولـئك في وثنيتهم العقدية وعبادتهم لأصنامهم الفكرية بعد أن جاءهم الله بالنور والهدى[2] .

وإن أعظم بيان له عليهم هو بيانه أن الفلسفة والشريعة الإسلامية لا يمكن اتفاقهما لأن الفلسفة تقول بالعقول العشرة أو النفوس التسعة والفيض وتنفي إرادة الله وعلمه بالجزئيات وتنكر حشر الأجساد ومعاد الأبدان والعذاب الحسي إلىٰ غير ذلك مما كفرهم به أدرى الناس بحقيقة أقوالهم من علماء المسلمين[3] .

ويعنينا في هـٰذا المبحث أن نأتي بما يدل من نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ بيانه لأوجه الغلط عندهم في طرق إثبات النبوة ونحاول توضيح صورة ذلك حسب الإمكان إذ إن الفلاسفة الأقدمون كانوا في بيئات لا تعرف النبوة وإن بلغهم شيء من فطر الأنبياء وآدابهم الشرعية وأحكامهم الدينية فإنما يكون ذلك علىٰ وجه مجمل يحتاج إلىٰ تفصيل وبيان ، ولا بيان عند من عاصروهم من أهل الكتب من اليهود والنصارىٰ لكثرة جهلهم بدينهم وابتداعهم في شرعهم وانحرافهم عن مناهج أنبيائهم[4] .

(وهـٰؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئا بمشيئته ،

---

(١) انظر نقض المنطق ٣٢ والجواب الصحيح ١/ ٣٤٠ وما بعدها .

(٢) الفتاوىٰ ٤/ ١٢١ ونقض المنطق ٤٩ و٨١ .

(٣) انظر الفتاوىٰ ٤/ ٩٩-١٠٠ و٩/ ١٤-١٦ و١٥١ ، ١٥٢ و١٢/ ٣٥٢ ، ٣٥٣ والرد على المنطقيين ٣٦٩ .

(٤) انظر نقض المنطق ٢٦ وما بعدها والجواب الصحيح ١/ ٣٤٠-٣٥٣ .

ولا يجيب دعاء الداعي ، بل ولا يعلم الجزئيات ، ولا يعرف هـٰذا الداعي من هـٰذا الداعي ، ولا يعرف إبراهيم من موسىٰ من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله ، بل منهم من ينكر علمه مطلقا كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من يقول : إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله)[1] .

(وأبعد هـٰؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة ، فإن هـٰؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهـٰذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي ، وابن سينا عظمها أكثر من ذلك)[2] .

وفي معرض بيانه لجهلهم جميعا بما جاء به النبي يقول :

(ومنهم من ينكر خرق العادة ، أن يظهر علىٰ يد غير نبي - يعني أهل علم الكلام - ومنهم من لا يفرق بين الولي والساحر ، إلا ببر هـٰذا ، وفجور هـٰذا ، ومنهم من يطرد ذلك في النبي لا سيما متفلسفة اليونان ، فإنهم من أجهل الناس بأمر النبوة ، إذ كانوا لم يأخذوها من العلم بصدق الأنبياء ، وبما جاءوا به من الآيات والبراهين والعلم بصفاتهم ، وإنما أخذوها من القياس على المنامات ، فجوزوا فيها مثل ما يجوز على النائم من الأحلام والتخيل ، وما يصيب أهل المرة السوداء مما يشبه ذلك .

وهـٰذا هو الموجود في عامة أتباع أرسطو ، ولـٰكن متأخريهم كابن سينا ضم إلىٰ ذلك تصرفه في هيولى العلم ، لما بلغه من خوارقهم الفعلية التي لم يكن يعرفها أولـٰئك ، إذ كان علم أرسطو هو ما كان يعلمه قومه من اليونان ، وهم أمة أولاد يافث ، لم يكن فيهم ما في أولاد سام ، كهود ، وصالح ، وغيرهما ، ثم أولاد إبراهيم الخليل الذي وعده الله أن يجعل في ذريته النبوة

---

(١) الجواب الصحيح ١/ ٣٥٣ .

(٢) النبوات ٢٤٨ وانظر نقض المنطق ١١٢ .

والكتاب ، حتىٰ يكون علم النبوة مشهورا فيهم . . .)[1] .

وما دامت البيئة التي وفدت منها الفلسفة لا تعرف طرق إثبات النبوة بالبراهين العلمية والنظر في الدلائل العقلية والعيانية التي أبقاها الله تعالىٰ شاهدة علىٰ صدقهم وتأييده لهم ، وإهلاكه وإبادته لمن كذبهم وعاداهم من الأمم التي بعثوا فيها فإن الحق لا يطلب من جهتهم إلا ولا يظن أن الجل المحض يورث علما ، لذلك كانت وثنية العرب خير منهم واليهود والنصارىٰ بعد تبديلهم لكثير من كتبهم وتحريفهم لنصها أو معناها خير منهم ولذلك فإن الله تعالىٰ إذا خاطب أمثال هـٰؤلاء الذين انقطعت صلتهم بالأنبياء قرونا متتالية حتىٰ كان جنس النبوة وما يختص به الأنبياء مجهولا عندهم خاطبهم بما يثبت هـٰذا الجنس وإذا كذبوا بنبيهم المبعوث لهم كانوا مكذبين بجنس النبوة لأن تكذيبهم إنكار لوجود الجنس أو جحود وتعمد لترك النظر المفضي للعلم الضروري العلمي الذي يثمره الاعتبار والتفكر في مسالك أحوال هـٰذا المدعي وتفهم ما جاء به ومدىٰ مطابقته للفطرة والمعروف الذي جبل الناس علىٰ معرفة استحسان اتباعه ومحبته[2] .

أما أهل الكتاب فإن الله يخاطب المنكرين منهم لنبوة المعين بإثبات نبوة نبي بعده استدلالاً عليهم بنصوص ذلك النبي وأحواله وما ثبتت به نبوته هو عندهم كما سنأتي عليه إن شاء الله في باب إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم[3] .

ومن هنا اشتد نكير شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ من قلد هـٰؤلاء الفلاسفة الجاهليين من الفلاسفة الإسلاميين واتهمهم بمخالفة العقل والشرع في كثير من الأمور التي اتبعوهم فيها ولم يحصلوا طائلا من متابعتهم فيما وافقوه من الحق لإمكان تحصيله دون الأخذ بمسالكهم علما أن أهل الكلام بدافع التعصب

---

(١) الجواب الصحيح ٦/ ٤٩٦ـ٤٩٨ وانظر ١/ ٣٤٤ـ٣٤٧ .

(٢) انظر النبوات ٢٢٨ـ٢٣١ ، والفتاوىٰ ١٩/ ١٨٥ ، والرد على المنطقيين ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

(٣) انظر الفتاوىٰ ٩/ ١٥ و١٩/ ١٨٦ وما بعدها والرد على المنطقيين ٥٣٨ـ٥٣٩ ، والصفدية ١/ ١٣٤ والنبوات ٢٢ ، ٢٣ ، ٨١ و٢٤٣ وما بعدها . وشرح الأصفهانية ١٩٤ ، ١٩٥ .

ضدهم قد أنكروا الحق الذي معهم . وهـٰذا من بدعهم التي ركبوهم بها وشنعوا عليهم بسببها[1] ، وإلا فقول : (هـٰؤلاء الفلاسفة شر من قول هـٰؤلاء كلهم ـ يعني الوثنيين من العرب في الجاهلية واليهود والنصارىٰ ـ إذ العرب مع قولهم بأن الملائكة بنات الله فإنهم مقرون بأن الله خالق كل شيء ـ أما الفلاسفة : (فإن الملائكة عند من آمن بالنبوات منهم هي العقول العشرة ، وتلك عندهم قديمة أزلية ، والعقل رب كل ما سوى الرب عندهم ، وهـٰذا لم يقل مثله أحد من اليهود والنصارىٰ ومشركي العرب .

لم يقل أحد إن ملكا من الملائكة رب العالم كله . ـ وهـٰؤلاء : يقولون : إن العقل الفعال مبدع لما تحت فلك القمر ـ وهـٰذا أيضا كفر لم يصل إليه أحد من أهل الكتاب ومشركي العرب)[2] ، (وما أخبر به الأنبياء يناقض قول من قال عن الأنبياء إن الذي رأوه من الملائكة إنما هو ما يخيل في نفوسهم ، وإن الذي سمعوه إنما سمعوه في نفوسهم ، فإن كان مقصوده أنهم أرادوا بما أخبروا به هـٰذا ، فهـٰذا كذب صريح عليهم لا حيلة فيه .

وإن كان مكذبا لهم يقول :

إنهم لم يروا شيئا ، أو أنهم غلطوا فيما أخبروا به من ذلك ، فهـٰذا ليس مقام من يفسر كلامهم ويبين مرادهم ، كما يزعمه هـٰؤلاء المتفلسفة الذين يتكلمون على النبوة بما يدعون أنه تفسير لها .

والمقصود هنا بيان كذبهم على الأنبياء وأن النبوة ليست كما يدعون)[3] ، وقد أوضح شيخ الإسلام وجه ذلك في مناسبات سابقة إذ يقرر عليهم دائما أن الأنبياء عدد كثير متباعدون في الأزمان والأماكن ، وما جاءوا به يشهد أنهم في غاية العلم والكمال والنصح للخلق والرحمة بهم لقصدهم لذلك ولأمر الله

---

(١) انظر الفتاوىٰ ٤/ ٩٩ و١٠٠ والرد على المنطقيين ١٣٨ وما بعدها .

(٢) الرد على المنطقيين ١٠٢ ، ١٠٣ و١٨١ـ١٨٧ .

(٣) السابق ٤٩٩ .

تعالىٰ لهم به ، وهـٰذا جنسه متواتر عند عامة عقلاء الأمم الذين وصلت إليهم النبوات أو أخبار الأنبياء ولو علىٰ سبيل الإجمال ، الأمر الذي يشهد بكذب هـٰؤلاء الفلاسفة عليهم ويحكم بجهلهم وسوء قصدهم[1] : (وإنما المقصود أن نعرف أن ما يفسر به الملائكة والوحي مما يعلم بالاضطرار من دين الرسول أنه مناقض لما جاء به ، فعلم أن ما يثبتونه من النبوة لا حقيقة له وأن ادعاءهم أن علم الأنبياء إنما يحصل بالقياس المنطقي وإما باتصال نفسه بالنفس الفلكية من أبطل الكلام[2] .

فبهـٰذا يكون شيخ الإسلام ابن تيمية بين لنا الأمور الآتية كما صرحت النصوص السابقة بها :

أ ـ الفلاسفة القدماء أعظم أهل الأرض جهلا بما جاء به الأنبياء لبعد اليونان التي انطلقت منها فلسفتهم من مهبط الديانات ، وما وصل إليهم أمور مجملة عن طريق أهل الكتاب المحرفين لدينهم ، ومن جاء منهم إلىٰ بلاد الشام وما جاورها وإن كان أحسن حالا وخبرة من غيره فلا يصل بفلسفته وما حصله عن أهل الكتاب إلىٰ درجة مشركي العرب واليهود والنصارىٰ بعد التحريف إذ هـٰؤلاء يقرون بأن الله خالق كل شيء وإن عبدوا غيره جهلا وقد علموا جنس النبوات ويستحسنون مسالك المتدينين والمتحنفين والرهبان اعتقادا منهم أنه من أمور النبوة وعادات الأنبياء وسننهم وفطرتهم .

أما الفلاسفة فيعظمون مع جهلهم بجنس الأنبياء وبعدهم عما جاءوا به الكواكب والأصنام والأوثان المصورة مع ادعائهم الحكمة والعلم الذي أوصلهم فقط إلى القول على الله تعالىٰ مالا يعلمون وما لم ينزل به سلطانا[3] .

ب ـ ونتج عن جهلهم وكفرهم المشار إليه غلط عظيم في الاعتقاد في النبوات وما يتصل بها من وسائل المعرفة الغيبية إذ جعلوا الملائكة مع كونها

---

(١) انظر الفتاوىٰ ٩/ ١٥ وما بعدها و١٢/ ٣٥٢ ، ٣٥٣ و١٧/ ٣٣٠ .

(٢) الرد على المنطقيين ٥٠٠ وانظر نقض المنطق ٢٦ و٨٣ و١١٢ .

(٣) انظر شرح الأصفهانية ١٤٠ـ١٤٢ والنبوات ١٥٨ والجواب الصحيح ١/ ٣٤٤ـ٣٥٤ .

مربوبة من الله تعالىٰ ربة تفيض بالمعارف والعلوم بلا إرادة ولا مشيئة وهٰذا يعني أنها لا تخص أحدا دون أحد بعلم مخصوص بل من كان عنده استعداد روحي نفسي للقبول عنها فاض عليه من قبلها ما يتهيأ له من واهب الصور وما تحت فلك القمر وهٰذا بلا شك يخالف عقيدة الإرادة والمشيئة الإلهية التي تختص من شاءت بما شاءت ومن ذلك النبوة . وكذلك يخالف العقيدة في الملائكة أنهم جنود الله تعالىٰ أحياء ناطقون يدبرون بأمر الله تعالىٰ وإرادته أمور الخلق العلوي منها والسفلي ومن ذلك تبليغ وحيه إلىٰ من خصه برسالاته واصطفاه لهداية خلقه[1] .

جـ ـ فالعقيدة الصحيحة والفطرة السليمة في النبوات : (بخلاف ما عليه ـ المتفلسفة ، فإن النبي عندهم من جنس غيره من الأذكياء الزهاد لٰكنه قد يكون أفضل ، والنبوة عندهم جزء من الفلسفة ، وهٰذا هو الضلال العظيم ، فإن الفلسفة كلها لا يصير صاحبها في درجة اليهود والنصارىٰ بعد النسخ والتبديل فضلا عن درجتهم قبل ذلك ، فضلا عن درجة المؤمنين ـ أهل القرآن كالصحابة والتابعين فضلا عن درجة واحد من الأنبياء فضلا عن الرسل ، فضلا عن أولي العزم منهم ، بل غاية أذكياء الناس وأزهد الناس أن يكون مشبها للتابعين بإحسان للسابقين الأولين)[2] .

فما عند المتفلسفة من ذكاء ومعارف وحكمة وتزهد وارتياض لا يساوي في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية درجة أقل الناس عنده درجة في الخير والعلم ، وهم اليهود والنصارىٰ ومشركو العرب حيث لم ينفعهم ما عندهم من فلسفة في معرفة درجة النبي ومكانته في العلم الخاص والقرب من الله تعالىٰ إلىٰ غير ذلك من الفروق الكثيرة بينه وبين غيره من الأذكياء والفطناء والمجرمين وأصحاب النظر وسائر البشر[3] .

---

(١) انظر النبوات ١٦٥ـ١٥٧ و١٣٥ـ١٤٩ .

(٢) الرد على المنطقيين ٥١٣ ، ٥١٤ .

(٣) انظر شرح العقيدة الأصفهانية ١٤٠ ، ١٤١ و١٦٠ والنبوات ٣٩ .

د ـ ويتدرج شيخ الإسلام ابن تيمية مع هٰؤلاء المتفلسفة الذين إن أقروا بإمكان كمال النوع البشري بالنبوة فإنهم في الحقيقة لم يعترفوا للأنبياء إلا بصفات مشتركة بين النوع مشهورة في جنس الآدميين مؤمنين وكافرين ، وفي ذلك من هضم مقام النبوة والجهل بها ما لا يخفىٰ حيث إنهم في حصرهم لطرق العلم جعلوا النبوة : (من جنس ما يكون لبعض الناس إذا كان فيه ذكاء وزهد . ثم هٰؤلاء المتفلسفة في الإرادة صاروا فرقا ، أما ابن سينا وأمثاله من الملاحدة فإنهم يأمرون بهٰذا ـ يعني يوجبون النبوة للمصلحة والسياسة ـ مع سائر إلحادهم من نفي الصفات ، وقدم الأفلاك ، وإنكار معاد الأبدان ، وجعل النبوة تنال بالكسب كالذكاء والزهد ، وإنما يفيض عليها فيض من العقل الفعال فيخرج من دين المسلمين واليهود والنصارى)[١] .

فشيخ الإسلام ابن تيمية يكفّر الفلاسفة بمسائل تزيد علىٰ ما كفرهم به الإمام الغزالي[٢] ، ويهمه كثيرا مناقشتهم في الخصائص الثلاث التي أضاف إليها ابن سينا على المتقدمين من الفلاسفة . إذ يرىٰ أن هٰذه الخصائص وإن كان النبي يختص بالدرجة العليا فيها ويفوق جميع البشر في قوى النفس والعلم والعقل فإن الفلاسفة غالطون في إثبات النبوة بها أو عزو خوارق العادات التي تكون للأنبياء إليها ؛ إذ إنه يحصل للرجل الصالح من الكرامات ما يقع له من الله تعالىٰ به الخوارق والعجائب إكراما له وإظهارا لاتباعه لنبيه الذي يعد ذلك كله من علامات صدقه وشاهدا علىٰ بره ، بل إنه قد يحصل لبعض العوام من المعونة والإنقاذ من المضايق والمهالك ما يدل علىٰ لطف الله بهم وإيقاع العجائب والغرائب الخارقة للعادة لهم . فبم يتميز النبي عن الولي والرجل الصالح والعارف عندهم ـ والكل تكون له خوارق وقوىٰ في العقل والنفس القدسي والروح الإيماني ما يقع له به ذلك بإرادة الله تعالىٰ ومشيئته ؟

---

(١) الرد على المنطقيين ٥٢٠ وانظر الصفدية ١/١٥٦ـ١٦١ .

(٢) انظر السابق ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

فعلىٰ منهجهم لا يمكن إثبات ما يختص به النبي عن الولي والعارف عندهم من النبي المؤيد بالمعجزات علىٰ أن ما ذكروه من الخوارق ليس في مقدور النبي ولا غيره تحصيله بقوى النفس ولا بغير ذلك من الخصائص[1] ، وحتى الساحر والكاهن وأهل الدجل عموما مع كفرهم وإلحادهم وبعدهم من الخير لهم خوارق بقوىٰ نفوسهم وعلومهم التي هي من علوم الشر المكتسبة فبأي شيء يتميز خارق النبي أو خاصته من خارق الساحر والكاهن ؟

إنه لا يمكن علىٰ مقتضىٰ مسلكهم إثبات النبوة بفارق محدد يتميز به النبي من الساحر والكاهن إلا النظر في أحوالهم من حيث طيب النفس الذي يتصف به النبي ، وخبثها الذي هو سجية الكاهن والساحر وهٰذا وإن كان الواقع يشهد له لا يمكن جعله طريقا لإثبات النبوة إذ ليس ظهوره مما يستوي فيه الناس حتىٰ تقوم عليهم به الحجة[2] .

هٰذا مجمل نقده لهم قدمناه بين يدي نصوصه التي لا يمكن جلبها بألفاظها لكثرتها وتكرارها في مؤلفاته الكثيرة ورسائله العديدة .

ولٰكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وحسبنا هنا ما يوضح وجه غلطهم في إثبات النبوة .

يصدر شيخ الإسلام ابن تيمية جوابه عن السؤال الذي وجه إليه عن رجل مسلم يقول بأن معجزات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم قوىٰ نفسانية ـ بقوله : (هٰذا الكلام : باطل ، بل هو كفر يستتاب قائله ويبين له الحق ، فإن أصر على اعتقاده بعد قيام الحجة الشرعية عليه كفر ، وإذا أصر علىٰ إظهاره بعد الاستتابة قتل .

وهو من كلام طائفة من المتفلسفة ، والقرامطة الباطنية والإسماعيلية ونحوهم ، كابن سينا وأمثاله ، وأصحاب رسائل إخوان الصفا ، والعبيديين

---

(١) انظر الصفدية ١/ ١٣٤ و١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) انظر النبوات ١٥١ـ١٥٨ وشرح العقيدة الأصفهانية ١٤٠ .

الذين كانوا بمصر من الحاكمية وأشباههم . .)[1] ، (وهٰؤلاء الملاحدة من المتفلسفة والقرامطة ومن وافقهم يقولون : إن النبوة لها ثلاث خصائص من قامت به فهو نبي ـ والنبوة عندهم لا تنقطع بل يبعث الله بعد كل نبي نبيا دائما ، وكثير منهم يقول إنها مكتسبة . .) ، وبعد أن نص علىٰ أسماء رجال من متفلسفة المتصوفة الذين ذكر عنهم طلب النبوة وادعاء ما يدل علىٰ ذلك من الكفر[2] حكى الخصائص المذكورة باختصار فقال :

(**الخاصة الأولىٰ** : أن يكون له قوة قدسية ، وهي قوة الحدس ، بحيث يحصل له من العلم بسهولة ما لا يحصل لغيره إلا بكلفة شديدة . وقد يعبرون عن ذلك بأنه يدرك الحد الأوسط[3] من غير احتياج إلىٰ ما يحتاج إليه من ليس مثله ، وحاصل الأمر أنه أذكىٰ من غيره ، وأن العلم عليه أيسر علىٰ غيره .

الخاصة الثانية : قوة التخييل والحس الباطن بحيث يتمثل له ما يعلمه في نفسه فيراه ويسمعه ، فيرىٰ في نفسه صورا نورانية هي عندهم ملائكة الله ، ويسمع في نفسه أصواتا هي عندهم كلام الله ، من جنس ما يحصل للنائم في منامه ، ومن جنس ما يحصل لبعض أهل الرياضة ، ومن جنس ما يحصل لبعض الممرورين الذين يصرعون . ويقولون : إن ما أخبرت به الرسل من أمور الربوبية واليوم الآخر إنما هو تخييل وأمثال مضروبة ، لا أنه إخبار عن الحقائق علىٰ ما هي عليه .

الخاصة الثالثة : أن تكون له قوة نفسانية يتصرف بها في هيولى العالم ، كما أن العائن له قوة نفسانية يؤثر بها في المعين ، ويزعمون أن خوارق العادات التي للأنبياء والأولياء من هٰذا النمط)[4] .

---

(١) الصفدية ١/ ١ ، ٢ .

(٢) السابق ٣ـ٦ .

(٣) انظر الرد على المنطقيين ٧ـ١٣ .

(٤) الصفدية ١/ ٦ ، ٧ وانظر الفتاوىٰ ٩/ ١٤ـ١٦ والنبوات ٣٩ و١٥٨ ، ١٥٩ و٢٢٦ و٢٤٨ ، ٢٤٩ وانظر الإشارات والتنبيهات لابن سينا ٤/ ٨٥٣ـ٩٠١ .

ولما كان المتفلسفة ينكرون المعجزات الخارجة عن قوانين الطبيعة مثل انشقاق القمر وانفطار السماء وانقلاب العصا ثعبانا يبتلع العُصي والحبال وغير ذلك مما هو معلوم من معجزات الأنبياء جعلوا معجزات الأنبياء خاضعة لمقتضى الطبيعة وما في الأعيان من القوى الطبيعية والخصائص المؤثرة لذا قالوا : (إن النبوة هي من نوع قوى النفوس ـ كما أسلفنا ـ وأن المعجزات هي قوىٰ نفسانية حتىٰ يجعلونها هي سبب ما أحدثه الله من آيات الأنبياء)[1] .

وهنا يلطف شيخ الإسلام ابن تيمية سياق الكلام في الرد عليهم بمدخل يقول فيه من باب ذكر واقع يدعونه وإن كان لا يفيدهم شيئا فيقول : وهم (وإن كانوا مع هـٰذا يعظمون الأنبياء ويوجبون طاعة نواميسهم ، ويأمرون بقتل من يخرق النواميس ، ويقولون : إنهم وضعوا للناس قانونا من العدل به يعيش الناس في الدنيا ، فهم فيما يخبرون به من صفات الأنبياء يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، كما أخبر الله تعالىٰ ، فيؤمنون ببعض الصفات التي اتصف بها الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وببعض ما آتاهم الله من الفضائل ، ويكفرون ببعض)[2] .

والذي يؤمنون به من الحق يحمدون عليه ويقرون عليه ولا يعتدىٰ عليهم في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية برد جملة ما يقولونه لكفرهم بالبعض أو لإنكارهم ما لا تدركه عقولهم ، بل طلب الحق يوجب قبول ما أقروا به والرد عليهم فيما قصروا عنه من الحق أو أنكروه بعقولهم القاصرة ولذا قال :

(والذي يثبتونه للأنبياء قد يحصل لرجل الصالح العالم ، والمخاطبات والمكاشفات التي يثبتونها للأنبياء تحصل لكثير من عوام الصالحين ، وما أثبتوه من الحق فهو حق ، لـٰكن كفرهم فيما كذبوا به من الحق ، فنقول : ما وصفوا به الأنبياء من أن لهم خصائص في العلم والقدرة والسمع والبصر امتازوا بها حق ، لـٰكن دعواهم أن منتهىٰ خصائصهم ما ذكروه باطل ، فنحن

---

(١) الصفدية ١/ ١٣٤ وانظر الفتاوىٰ ١٢/ ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٢) السابق ١/ ١٣٥ وانظر النبوات ٣٨ ، ٣٩ .

لا ننكر أن الله تعالىٰ يخص النبي بقوة قدسية يعلم بها ما لا يعلم غيره ، ولا ننكر أيضا ما يمثله الله له إما في اليقظة وإما في المنام من الأمور الصادقة المطابقة للحقائق ، ولا ننكر أيضا أن الله قد يجعل في النفوس قوىٰ يحصل بها تأثير في الوجود)[١] . وكون السلف والفقهاء وجمهور العقلاء يقولون : (إن الله جعل في الأعيان قوىٰ وطبائع تحصل بها الآثار)[٢] ، لا ينكر لا في العقل ولا في الشرع ومن أنكره من نظار المتكلمين جاء بقول ضعيف : (مخالف للشرع والعقل)[٣] ، (ولـٰكن دعوى المدعي أن معجزات نبينا أو غيره من الأنبياء هي من هـٰذا الباب بهتان عظيم)[٤] .

(إذا تبين هـٰذا فيقال : الكلام علىٰ هـٰؤلاء من وجوه :

أحدها : أن يقال : قولكم هـٰذا قول بلا علم ، وهو قول لا دليل علىٰ صحته ، وهـٰذا يقال قبل الجزم ببطلان قولهم .

فإنهم ـ أولا ـ يطالبون بالدليل الدال علىٰ صحة قولهم ، وليس لهم علىٰ ذلك دليل أصلا ، بل عامة ما يعتمدون عليه التجويز الذهني ، والذي قرره ابن سينا وأمثاله ليس فيه ما يدل علىٰ أن هـٰذا هو الواقع ، بل غاية مطلوبهم تجويز ذلك وإمكانه ، مع أن ذلك باطل .

وأيضا ، فإثبات قوى النفوس لا يوجب مثل هـٰذه الآثار ، ولا ريب أن المعجزات المعلومة عند المسلمين واليهود والنصارىٰ مما اتفق الناس علىٰ أن قوى النفوس لا تقتضيها .

والفلاسفة يسلمون ذلك ، لـٰكن إنما يقرون من المعجزات بما يظنون أنه يمكن إحالته علىٰ قوى النفوس ، كإنزال المطر . . .)[٥] .

---

(١) الصفدية ١/ ١٣٥ ، ١٣٦ .
(٢) السابق ١٣٦ .
(٣) السابق ١٣٦ .
(٤) السابق ١٣٦ .
(٥) السابق ١٦٣ ، ١٦٤ .

ومع أن أهل الحق يقرون بالأسباب وقوى النفوس فإن :

الوجه الثاني : عند شيخ الإسلام ابن تيمية في إبطاله نسبتهم ما يقع من خوارق العادات إلىٰ قوى النفس أو الطبيعة أو العنصرية أو الفلكية أو الجسمانية إذ لا يمكن إدخال خوارق العادات التي تكون للأنبياء تحته ؛ ذلك أن قصارىٰ ما ذكروه أمور ممكنة بالعادات[1] ، (وهـٰذا بخلاف انفلاق البحر اثني عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم وانقلاب العصا حية ، ونزول المن والسلوىٰ ، وانفجار اثنتي عشرة عينا من الحجارة، ومثل نبع الماء من بين الأصابع . . .)[2] .

وإذا كان ما ذكروا تجويزه وإمكان إحالته إلىٰ قوى النفوس والطبيعيات والعاديات لا يرقىٰ إلىٰ خوارق الأنبياء لا في القدر والجنس حكمنا أنه لا دليل لهم علىٰ أن هـٰذه الآثار التي تفوق الحصر عند اليهود والنصارىٰ والمسلمين من قوى النفس : (وعلىٰ هـٰذا فيكونون منكرين لجنس الخوارق ، وهـٰذا هو أصلهم الفاسد)[3] .

الوجه الثالث : أن يقال : الخوارق ثلاثة أنواع منها ما هو من جنس الغناء عن الحاجات البشرية ، ومنها ما هو من جنس العلم الخارج عن قوى البشر ، ومنها ما هو من جنس المقدورات الخارجة عن قدرة البشر)[4] .

وكل ذلك يفعله الله تعالىٰ بأنبيائه تأييدا لهم وتصديقا حتىٰ لا يطمع طامع في جنس علمهم أو استغنائهم بالله أو ما يوقعه لهم من عجائب التصرف في المادة وعناصرها . وهـٰذه الأمور إنما ذكروا سبب مثلها ، (أما سبب انقلاب العصا حية وخروج الناقة من الأرض وأمثال ذلك فهم معترفون بأنه غير ممكن ولا يمكنهم إحالة سببه إلىٰ قوى النفس)[5] .

---

(١) انظر السابق ١٧٤ـ١٨١ .

(٢) السابق ١٨٢ .

(٣) السابق ١٨٢ وانظر النبوات ٣١٥ وبغية المرتاد ٣٨٠ـ٢٨٧ .

(٤) السابق ١٨٣ وانظر شرح الأصفهانية ١٤٤ـ١٤٦ .

(٥) السابق ١٨٣ وانظر ما بعدها .

(**الوجه الرابع** : أن يقال النوع الذي يقولون عنه إنه لقوى النفس يؤثر تأثيرا لا يدعون أن تأثيره يبلغ إلىٰ أن ينزل ماء الطوفان الذي غرق أهل الأرض. . .)[1] ، ولا غير ذلك مما جاء في القرآن الكريم من أنواع الخوارق التي أهلك الله بها من كذب رسله أو أكرم به أنبياءه من إحياء الموتىٰ علىٰ أيديهم . .[2] : (فتبين أنهم معترفون أن هٰذه الأمور لا يمكن إضافتها إلىٰ قوى النفس)[3] .

وفي الوجه الخامس إلى العاشر في الرد عليهم بين لهم وجود الملائكة والجن وما لها من قدرة علىٰ توصيل العلوم والتأثير في الموجودات بقدرة الله تعالىٰ وإرادته ، وأن السحرة والكهان يخدمون الجن في أغراضهم الخبيثة ، والملائكة عباد مكرمون يطيعون الله تعالىٰ وينزلون بأمره إلىٰ عباده علىٰ مقتضىٰ إرادته ومن ذلك الوحي للأنبياء وتأييدهم بالمعجزات والدلائل والآيات الشاهدة بصدقهم وإعانتهم في أمورهم وجهادهم وغير ذلك مما هو متواتر عند أهل الملل[4] .

ولعل شيخ الإسلام ابن تيمية أحس أنه أطنب في هٰذه الردود فأراد أن يلخص للقارىء مما ذكره جملة مختصرة تكون في حيز الحفظ والفهم حتىٰ يخرج بفائدة ثابتة عن حقيقة معتقد المتفلسفة في النبوات وطرق إثباتها فقال : (والمقصود هنا أن الأنبياء خصهم الله بفضائل ومحاسن ومكارم أخلاق يميزهم بها عن غيرهم ، فمن قال : إن الله خص النبي بقوىٰ في نفسه ، وأراد بذلك إثبات خصائص وفضائل له فهٰذا حق ، وإن قال إن هٰذه الخصائص تكون أسبابا لخوارق عادات يكرمهم الله بها وتكون معجزات وكرامات ، أو قال نفس هٰذه الخصائص والفضائل مما خرقت له فيها العادة ، فهٰذا مما لا ينكر .

---

(١) السابق ١٨٣ وانظر ما بعدها .

(٢) انظر السابق ١٨٤ـ١٨٧ .

(٣) السابق ١٨٧ .

(٤) انظر السابق ١٨٧ـ٢٢٨ .

ولـٰكن يبقى الكلام في أمور :

أحدها : أنه لا يظن أن جميع خوارق العادات هـٰذا سببها ، فإن هـٰذا باطل قطعا . .

الثاني : أنه لا يظن أن هـٰذا هو مجرد النبوة ، وأن من حصلت له هـٰذه الخصال التي ذكروها فقد صار نبيا . . .

الثالث : أن نعرف أن النبوة لا تنال باكتساب الإنسان واستعداده كما تنال بذلك العلوم المكتسبة والدين المكتسب . .

والمقصود هنا أن نبين أن ما أثبته هـٰؤلاء في فضائل الأنبياء الثابتة فهو حق ، ولـٰكن جهلهم وكفرهم فيما أنكروه وكذبوا به وما قالوه من الباطل من هـٰذه الوجوه الثلاثة وغيرها ، فالوجهان الأولان الباطلان أبطلوا بهما كون الله هو الخالق بقدرته ومشيئته لمخلوقاته ، وأبطلوا ما خلقه من الملائكة والجن وغير ذلك مما لا يعرفونه ، وأبطلوا ما امتازت به الأنبياء علىٰ غيرهم ، وجعلوا الأنبياء من جنس العارفين المعرفة المشتركة بين المسلمين واليهود والنصارىٰ والمجوس والصابئين . . .)[1] .

فبهـٰذا النص الواضح في بيان غلط المتفلسفة في طرق إثبات النبوة ومكانتها نختم هـٰذه الجولة الواسعة التي أفادنا فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بعرض كثير من النصوص المبتكرة والردود العقلية والشرعية حتىٰ أقنعنا بأن هـٰؤلاء المتفلسفة على اختلاف طبقاتهم لا يؤمنون بالنبوة حقيقة ، بل هم بين كافر كفرا أصليا ، أو زنديق اكتسب الإلحاد بعد أن ولد في الإسلام ، وجرّ معه بالمخادعة طوائف من الأمة . والله المستعان . .

* * *

(١) السابق ٢٢٨ ، ٢٢٩ و٢٣٣ ، وقارن بالنبوات ٣١٥ و٤٢٢ـ٤٣٣ .

الفصل الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

المبحث الأول

ثبوت جنس الأنبياء وأدلة ذلك

شرحنا فيما مضىٰ كون أبينا آدم عليه السلام نبيا معلما من الله تعالىٰ إذ كلمه الله وعلمه الأسماء كلها حتىٰ أظهر للملائكة عليهم السلام فضله ومزيته ، وأنه كان يعلم أولاده مما عليه حتىٰ علمت النبوة فيهم ضرورة ، وأنه لما طال الأمد وقست القلوب بسبب انقطاع النبوة عنهم فترة من الزمن علمها عند الله تعالىٰ ثم مات من كان بينهم من العلماء والصالحين تسلل الشيطان إلى النفوس المحبة للخير من الجهل فزيّن لها الغلو في الصالحين وعبادة تماثيلهم وصورهم التي أغراهم بتصويرها في البداية لتكون مذكرا للخير وأهله وعونا علىٰ عبادة الله تعالى(١) .

ولما عُبدت الأوثان وسجد عباد الله تعالىٰ للأصنام كثر الاختلاف وتنوعت العقائد وتعددت الآلهة المعبودة من دون الله تعالىٰ حتىٰ نسي بنو آدم العهد والميثاق الذي أخذ عليهم بأن لا يشركوا بالله شيئا ، وأنه سوف يرسل إليهم رسلا لينذرونهم ذلك العهد والميثاق(٢) .

فلما كفروا بنعمة العقل والفطرة واستسلموا للشيطان التي اجتالتهم وزينت

---

(١) انظر فتح الباري ٨/ ٦٦٦-٦٦٩ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٣ .

لهم عبادة ما لم ينزل الله به سلطانا تفضل الله تعالىٰ عليهم ببعثة آدم الصغير وأبو البشر الثاني نوحا عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له وخاطب عقولهم واستثار فطرهم التي تغبرت بسبب الشرك وفسدت باستمراء الكفر ، وضرب لهم الأمثال وقرب لهم الأمور بالترغيب والترهيب والوعظ والتذكير وإقامة الحجة في النظر والتفكر في عجائب صنع الخالق المتفرد بالخلق والأمر وجلب النفع ودفع الضر ، فلما مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم ليلاً ونهاراً سرا وجهارا ، وما آمن معه منهم مع طول المدة وعظم الجهود إلا قليل دعا عليهم دعوة عامة(١) ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ونجا الله تعالىٰ نوحا ومن آمن معه وركب سفينته فعلم عند الخليفة من ذلك أن الله تعالىٰ له سنة ماضية لا تتخلف وهي أنه إذا أرسل رسولا إلىٰ قوم مشركين ودعاهم وأقام عليهم الحجة وظلوا علىٰ كفرهم وعنادهم أن الله تعالىٰ يبطش بهم ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر ويكتب النجاة لأوليائه من الأنبياء وأتباعهم المتبعين لهم .

وهـٰذا ما يقرر وجود جنس النبوة ، وجنس ما يأتي به الأنبياء ، وما يدعون له من توحيد ودين وعلم وعمل ، وما يخالف ذلك من شرك وكفر وعناد وجهل وفجور إلىٰ غير ذلك .

ومع ظهور هـٰذه الحقائق وجلائها فمازال في البشر منذ اختلفوا وتفرقوا في شعاب الكفر وأودية الضلالة من ينكر النبوات ويحيلها عقلا أو يؤمن ببعضها ويكفر بنبوة معين آخر ثبتت نبوته ، أو يدعي الإيمان بالنبوات بلسانه ، ولا يتبع مع ذلك ما جاءت به من إيمان وعلم ودين وأخلاق وتشريعات وأحكام .

ومع أن إنكار الناس للنبوات علىٰ درجات فإنه جميعا يدخل في نوع الجحود الذي لم يتوقف العلماء عن إظهار الحجج علىٰ أهله وإقامة البراهين

---

(١) انظر قصص الأنبياء في القرآن الكريم وما فيها من عبر ، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، دار روضة الناظر للنشر والتوزيع ط١ ، ١٤١٥هـ ١٤-٢٢ .

العقلية الجدلية على المتسترين خلفه ، وهـٰذا هو مسلك القرآن والسنة الذي يجب اعتماده دائماً حتىٰ يظل الحق يدمغ الباطل ويزهقه .

فالناس عبر التاريخ البشري مواقفهم متشابهة من مدعي النبوة فمنهم من يتعجب مستنكرا من بعث بشر رسولا ويطلب أن يكون الملائكة هم رسل الله ، وبعضهم يدعي أن العقول فيها غنية عن بعثة الرسل مدعيا أنه لا مزية للرسول على الناس لأنه إن ادعىٰ أنه نزل عليه وحي من الله فلا يمكنه إقامة الحجة علىٰ ذلك إذ منتهىٰ ما لديه أن يقول إن الله كلمه أو أرسل إليه رسولا من الملائكة ليبلغ عنه الرسالة والناس لا يصدقونه في ذلك إذ هو بشر مثلهم .

ومنهم من يقول بأنه لا سبيل إلى الجزم بأن الوحي من الله بل قد يكون من قرين من الجن ، وقد يكون مدعي النبوة حاز هـٰذه المعلومات من شخص آخر واكتسبها بمجهوداته فصار من طبقة السحرة والكهان والعرافين والمنجمين أو الطبائعيين والمطلعين علىٰ خصائص المادة ومنافعها وأضرارها وطرق التصرف فيها[1] .

ومنهم من يدعي أن الأنبياء جاءوا بما يخالف العقل وينكره الذوق لبعض الحركات والعبادات من رمي الجمار والسعي بين جبلين ، والركوع والسجود وإيلام الحيوان بالذبح والسلخ .

ومنهم من يكذّب النبي ويرد عليه دعوته لأنه ليس له فضل على المدعوين من حيث المال والجاه والبشرية وينفر عنه الناس بالطعن عليه في طبقة الأتباع الأوائل إذ لم يكونوا حسب منطق الملأ أصحاب جاه عريض أو مال وفير .

ومنهم من يكتفي بترديد تقليد الآباء والتمسك بما عليه الأجداد الأوائل .

ومنهم من يضطرب في شبهه وطرق إنكاره فتارة يكيل لمدعي النبوة السب والشتائم متهما إياه بالافتراء والمبالغة في الكذب على الله وعلى الناس ، وتارة يصفه بالجنون والخبال وإضلال الخلق عن الآلهة المعبودة من دون الله ، وتارة

---

(١) انظر تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ١٢٦ ، ١٢٩ وتلبيس إبليس لابن الجوزي ٨٢ ، ٨٣ .

يصفه بالحذق ومظاهر المعرفة بالشعر تارة وبالسحر تارة أخرىٰ .

وإذا ادعىٰ أنه نزل عليه الكتاب من السماء كان ذلك أبعد لتصديقه إذ عدم التمييز مازال قائماً والاحتمال واقعا[١] .

فالناس إذاً حيال النبوة مطبقون على الجحود والإنكار والتكذيب وإثارة الشبه التي لا يؤمنون بها ولا يملكون دليلا عليها وهي تحمل في نفس الوقت البرهان علىٰ دحضها .

فتحصل أن الأنبياء واجهوا طبقات من الناس منهم الدهري الذي لا يرىٰ أمامه إلا الحياة التي يعيشها كالبهيمة والموت الذي يشاهده في بني جنسه ، ومشركون تمرسوا على الكفر وعبادة الأصنام والعكوف على الأوثان مدعين أن ذلك يقربهم إلى الله زلفىٰ .

وكذلك ظل في الأرض جماعات تدعي اتباع الأنبياء المتقدمين وتقرّ بنوع من التوحيد المشوب بالشرك المصحوب بالجهل إلىٰ عهد إبراهيم الخليل ثم موسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلى الله عليهم وسلم تسليماً[٢] .

والقرآن الكريم وما بينته السنة المطهرة يعد أوسع سجل وأصدقه في معرفة أخبار الأنبياء مع أممهم وما جابهوهم به وماذا كان مصير المكذبين وما فاز به المؤمنون المصدقون وبالنظر في ذلك السجل الصادق الخالد يجد العالم أن قصص الأنبياء أحسن القصص وأن القرآن صورها للسامع حتىٰ كأنه كالمشاهد ونوعها للمعاند حتىٰ يقتنع فيصير كالموافق فبذلك أبطل شبههم ودحض حججهم وأقام البرهان علىٰ جحودهم للحق وعنادهم للمحق وتمسكهم بما لا دليل عليه من عقل ولا علم وناقضهم في أقوالهم وعقائدهم وأعمالهم حتىٰ ألزمهم بالخزي والبوار وأظهر ما حل بهم من سخط الجبار الذي أفضىٰ بهم إلى الخلود في النار وبئس القرار .

---

(١) انظر تمهيد الأوائل ١٢٩ـ١٣٤ .

(٢) انظر منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية ، تأليف : الدكتور/ هادي حسين حمود ، ط١ دار القلم القادسية ، بغداد ١٩٨٤م وما بعدها .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ . . ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(٥) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(٦) .

ولما بين تعالىٰ سنته في نصرة عباده المرسلين وإهلاك خصومهم من المكذبين إظهارا لحكمته وعدله وما تقضيه ربوبيته وقيوميّته علىٰ خلقه ، وكون الخلق كلهم خلقه والأمر على الإطلاق أمره .

---

(١) سورة هود ، آية (١٠١ـ١٠٢) .
(٢) سورة غافر ، آية (٥١ ، ٥٢) .
(٣) سورة الصافات ، آية (١٧١ـ١٧٣) .
(٤) سورة إبراهيم ، آية (١٣ـ١٤) .
(٥) سورة الفتح ، آية (٢٢ـ٢٣) .
(٦) سورة فاطر ، آية (٤٢ـ٤٣) .

لما بين ذلك أراد أن ينص على تتابع رسله وتتابع تكذيب أقوامهم لهم بأسمائهم وإهلاكه لهم على ذلك التكذيب الذي لا مستند لهم عليه إلا الطغيان والتكبر على الحق .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(١) .

ثم بدأ بذكر أول المكذبين وهكذا على الترتيب تارة وعلى الإشارة والنعت تارة أخرى فقال :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(٣) .

ولما تمادى قوم لوط عليه السلام في ارتكاب ما نهوا عنه من الفاحشة المدمرة المنافية لكل مقاييس العقل والفطرة والشرع أنزل الله عليهم رجزا من السماء وألحقهم بجملة الهالكين لأنهم كانوا قوما فاسقين فقال تعالى عنهم وأمثالهم من الخاسرين :

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

---

(١) سورة المؤمنون ، آية (٤٤) .

(٢) سورة الحج ، آية (٤٢-٤٥) .

(٣) سورة غافر ، آية (٥) .

وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾
فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم
مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾
مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ
ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾(٤) .

فالقرآن الكريم علىٰ هـٰذا والكتب المنزلة قبله حفظت للبشرية أسماء الأنبياء وذكرت ما كانوا يدعون إليه وما كان يأتيهم من الله تعالىٰ من علم وخير وهدىٰ ورحمة .

ثم ذكرت أسماء الأقوام وديارهم وما كانوا عليه من شرك بالله تعالىٰ وتكبر على الحق والخلق وما حل بهم من هلاك ودمار وما ينتظرهم من سوء العاقبة بسبب تكذيبهم لرسل الله تعالىٰ ، ثم أوضحت ما كان من النجاة والعاقبة الحسنة للأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين . وما خلدته الكتب

---

(١) سورة العنكبوت ، آية (٣٣ـ٤٠) .
(٢) سورة غافر ، آية (٣٠ـ٣١) .
(٣) سورة الأنفال ، آية (٥٤) .
(٤) سورة الإسراء ، آية (٥٩) .

السماوية من ذلك تواتر بين الناس وتناقلوه جيلا بعد جيل حتىٰ حفظه اللاحق عن السابق ، ودون في ذاكرة التاريخ البشري بحيث لم يصر نبي في زمن الإمكان والبعثة يحتاج أن يذكر لمدعويه أنه كان قبله ناس من جنسه يقولون ما يقوله ويدعون لما يدعوا إليه ولا أن من صدقهم فاز وسعد ومن كذبهم خاب وشقي ، وإنما يبلغ دعوته وينصح بالاعتبار والنظر في دلائل صدقه وموافقته لما جاء به من قبله من جنسه ويخوف من العاقبة التي لا تخطىء المكذبين ويرغب في المسابقة إلى الإيمان والعمل الصالح الذي كان سبباً في فلاح المؤمنين في الدنيا والأخرىٰ قال الله تعالىٰ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية (١٣٧) .

(٢) سورة يوسف ، آية (١٠٩-١١١) .

(٣) سورة الحج ، آية (٤٦) .

(٤) سورة الروم ، آية (٩-١٠) .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٢) .

فهٰذا القرآن الكريم يبرهن علىٰ أن من استعمل عقله ونظر نظراً علمياً في الدلائل والآثار الباقية علم علما ضروريا ثبوت النبوة ووجودها ووقوعها لرجال من أهل القرىٰ وذلك أنهم بشر يأكلون ويشربون ويأتون ما يأتيه أهل بلدتهم مما يحتاجه البشر عادة من الأمور العادية وأن ميزتهم ما ميزهم الله به من إكرامهم بالوحي والعلم النافع وما خصهم به دون غيرهم من دلالات النبوة وعلامات الصدق في الخبر والعصمة في التبليغ ووجوب الطاعة المطلقة في الأمر كله .

وكذلك إذا مشى الإنسان في الأرض رأىٰ دلالات عيانية مشاهدة أبقاها الله تعالىٰ من آثار إهلاكه للمكذبين لرسله كمعجزات حسية شاهدة علىٰ عظيم قدرته ونفوذ أمره ، وأنه لا يصح في مقتضىٰ عدله وحكمته أن يكون المطيع والمسيىء سواء محياهم ومماتهم بل ذلك يخالف سنته وما علم بالفطرة والعقل من حال الربوبية .

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة فاطر ، آية (٤٤) .

(٢) سورة غافر ، آية (٨٢ـ٨٥) .

(٣) سورة القلم ، آية (٣٤ـ٣٥) .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[٢] .

وقد جلبنا هٰذه النصوص الواضحة من القرآن الكريم لنؤكد بها صدق نصوص هٰذين الإمامين ـ الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية في بيانهما لإمكان النبوة ووجودها ووقوعها وشهرة ذلك بين بني آدم على العموم جملة وعلى الخصوص في البلاد التي كانت ميدان النبوات وكذلك البلاد المجاورة لها وأن الله تعالىٰ في خطابه لجنس الناس المكذبين لجنس الرسل يحتج عليهم بما أودعه في فطرهم ويبرهن لهم علىٰ أن بعثة الرسل واقعة وأنها من مقتضيات الحكمة والعدل واللطف والرحمة وأن شواهد ذلك بارزة لمن نظر ببصره وبصيرته واستمع بعقله وسمعه .

وهٰذا يتفق مع قول الإمام الغزالي : (والشك في النبوة إما أن يقع في إمكانها ، أو في وجودها ووقوعها ، أو في حصولها لشخص معين . ودليل إمكانها وجودها ، ودليل وجودها وجود معارف لا يتصور أن تنال بالعقل . .)[٣] .

ويؤيده قوله : (وانظر قصص القرآن كيف أتت علىٰ جزئياتها كأنه ـ أي النبي ـ شاهدها وحضرها ، وكأنها كانت بمرأىٰ من النبي ومسمع ، وكيف صدقت بحيث لم ينكرها أحد من منكري النبوة)[٤] .

---

(١) سورة الجاثية ، آية (٢١ـ٢٢) .
(٢) سورة ص ، آية (٢٨) .
(٣) المنقذ ٦٧ .
(٤) معارج القدس ١٤٠ .

(ولهـٰذا ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ إنما يقرر الرب تعالىٰ في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسىٰ وغيرهم فيذكر وجود هـٰؤلاء وأن أقواما صدقوهم وقوما كذبوهم .

ويبين حال من صدقهم وحال من كذبهم فيعلم بالاضطرار حينئذ ثبوت هـٰؤلاء ويتبين وجود آثارهم في الأرض فمن لم يكن رأىٰ في بلدة آثارهم فليسر في الأرض ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة)[1] .

وما تواتر في القرآن الكريم من ذلك بينته السنة المطهرة في أحاديث الأنبياء ، فقل أن تجد نبيا له قصة في القرآن أو خبر إلا وتجد توضيحا عنه في سنة المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم[2] .

وبهـٰذا نختم هـٰذا البحث الذي خصصناه للبرهنة علىٰ أن وجود جنس النبوة ثابت ثبوتاً ضرورياً لكثرة تواتره بحيث لا يمكن لعاقل دفعه أو الارتياب فيه .

* * *

---

(١) النبوات ٣٧ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١١٩ وما بعدها ، وفتح الباري ٦/ ٣٦١ وما بعدها .

المبحث الثاني

تعدد طرق إثبات النبوة في الكتاب والسنة

يتفق الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية كما مر في المباحث السابقة في نصوصهما علىٰ أن طرق إثبات النبوة كثيرة ومتعددة بحيث من الخطأ حصرها في أمر معين ، ذلك أنه قد تكون ضرورية ونظرية وقد تحصل لبعض الناس بمجرد الخبر لكثرة مخالطتهم ومعرفتهم بحال النبي قبل النبوة ، وقد تحصل لبعض الأفراد لقوة فراستهم وقوة حدسهم وصفاء بصائرهم وما يقع لهم من العلم الجازم بصدق الرجل عند مشاهدة طلعته والنظر في وجهه ، وقد تقع لآخرين بما ألفوه من سماع الكلام وإدراك الفروق بين حديث الصادق من الكاذب وما يصاحب ذلك من قرائن إذا احتفت بالخبر انقدح في العقل صدقه أو كذبه .

وقد يكون علامات النبوة والصدق من خلال أفعال حسية مشاهدة تقع خارجة عن مقدور الخلق بطلب وتحدٍ وبغير ذلك .

وقد تكون لآخرين من خلال النظر في معلوماتهم السابقة عن هٰذا الجنس من الناس وسنة الله وعادته معه وما يأتون به وما يأمرون به فمن جاء بمثل ما جاءوا به جزموا بصدقه ومن جاء بما يخالف ذلك جزموا بكذبه وانتظروا سوء العاقبة له .

وبهٰذه الطرق كلها علم الناس ثبوت النبوة جنسا وعلى التعيين لمن يدعيها ذلك أن تقسيمها يرجع إلىٰ ما علم من حكمة الرب تبارك وتعالىٰ من كونه له الخلق والأمر يبعث رسله رحمة ويأمرهم بما فيه صلاح العباد وسعادتهم وإبعادهم عما فيه فسادهم أو هلاكهم وهٰذا يؤيده وينصره وينشر له القبول ويبقي له لسان الصدق والثناء الحسن . ومن كان علىٰ نقيض هٰذه الصفات كذبه وانتقم منه وأورثه الذل والصغار وأتبعه اللعنة والبوار فهٰذا ما يخص الجانب الإلهي ومن يدعي عليه النبوة .

أما القسم الثاني فهو يتصل بالمتلقي وما يقع في قلبه وما تمليه عليه معلوماته السابقة وتجاربه وما خوله الله من ملكة التمييز والتفريق بين الخير وأهله والشر ومروجيه .

قال الله تعالىٰ مبينا الغاية المعرفية للإنسان : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢) وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾(٣) .

فالرب الخالق المدبر المسخر قادر علىٰ أن يعلم عباده ما يأمرهم به بواسطة أحدهم إذ قد أقدرهم على التخاطب والتفاهم وأن يرسل أحدهم رسالة إلىٰ من عجز عن مخاطبته لبعده المكاني أو المعنوي ويبلغه ما يريد منه وما يطلب من عمل ، فمن أقدر غيره علىٰ ذلك كان ببرهان العقل أقدر عليه .

والله جل جلاله لا يتمكن عبيده من سماع كلامه لتعذر ذلك فأرسل إليهم بكلامه رسلا وأنزل إليهم كتبا وخص المرسلين بأمور وأفعال ليكون اختصاصهم بها وعجز غيرهم عنها برهانا وعلامة منه لعباده علىٰ صدق مدعي الرسالة عليه وثبوتها له .

وإذا كان الخلق قد أقدرهم الخالق علىٰ أن يرسلوا رسلا بعلامات ويعرف المرسل إليه أنها علامة صدق هـٰذا المرسل فكيف لا ينزه المولىٰ جل جلاله عن أن يرسل رسولا ولم يجعل له من العلامات ما يعرف به صدقه بل إنه تعالىٰ

---

(١) الطلاب (١٢) والآية من سورة الطلاق ، آية (١٢) .
(٢) سورة الأعراف ، آية (٥٤) .
(٣) سورة آل عمران ، آية (١٥٤) .

أرسل الرسل ونصب لهم العلامات التي لا تلتبس على الناس لأمور منها : أن كلامه تعالى الذي يبلغه الرسول لا يشبه كلام المخلوقين إذ هو العالم بالغيوب التي لا غلط فيها ولا يقع في كلامه كذب ولا تخمين (وهٰذا طريق للعلم بصحة الرسالة واضح)[١] .

ثم إنه تعالىٰ قادر على اضطرار الخلق إلى العلم به ثم العلم بكلامه ثم إقدار أنبيائه على البلاغة ، فالنبي (يعلم أن المتولي لخطابه هو محدث الآيات ومبدع المعجزات لتقدم علمه أن الخلق لا يقدرون علىٰ ذلك)[٢] .

وكما يظهر ذلك للنبي فإنه يظهر له أن الملائكة الذين يؤدون الرسالة تظهر عليهم أمور من العلم والعمل الخارق حتىٰ يقطع أن المخلوق لا يقدر عليه فيأمن الرسول حينئذ كون مخاطبه جني أو روح أخرىٰ شريرة وقد علم أن الله تعالىٰ مع حكمته المتفق عليها قد خلق العلم والجهل والسلامة والعلل وقال : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[٣] .

فله أن يخصص من شاء بما شاء تفضيلا فيه ، وله إكرام غير المستحق تفضلا ، وله مجازاة المحسن أكثر مما يستحق كما أن له أن يحتج علينا بما وضعه في عقولنا وفطرنا عليه من التمييز بين الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب . وعليه : (فلم إنكار احتجاج الله ببعض خلقه علىٰ خلقه) والكل خلقه ، وكذلك كما حسن في العقول أن يحتج الله تعالىٰ عليها بما فطرها عليه حسن منه أن ينقض عادته ويظهر المعجزات والخوارق إظهاراً لصدق رسله وأنبيائه ، ومن أحال ذلك عقلا لزمه أن يحيل خلق آدم من غير أب وأم ، وخلق عيسىٰ عليه السلام من غير أب وغير ذلك من الخوارق والعجائب التي لم يعتد الخلق فعلها ومشاهدتها ، ومن قال أن حكمة الرب تحيل إرساله رسلا إلىٰ من علم أنه سيكذبهم ويشقىٰ بسببهم فإنه ليس فيها منع إرسالهم إلىٰ

---

(١) تمهيد الأوائل ١٣٤ .

(٢) السابق .

(٣) سورة الزخرف ، آية (٣٢) .

من علم أنه سيصدقهم ويسعد بالإيمان بهم ، ثم يلزم هـٰذا أنه يمتنع في حكمته خلقهم مع علمه بكفرهم .

ومثل ذلك يقال لمن أحال إرسال من يبيح إيلام الحيوان وذبحه وسلخه إذ يقال له : ليس في عقلك إحالة إرسال من لا يأمر بذلك(١) .

ويرى ابن الجوزي أن إبليس لبس علىٰ جاحدي النبوات بشبه واهية(٢) سقناها آنفاً عن الإمام الغزالي ـ ويرد عليهم ابن الجوزي جملة بأنه ما دام الجميع يقرون بتفاوت الناس في العقول والأمزجة وكون بعض الأشخاص قد خصه الله بالحكمة والمعرفة ، وأن النباتات بعضها لعلاج بعض الأمراض والبعض الآخر أدوية لعلل أخرىٰ : (فلم يبعد ـ والحالة هـٰذه ـ أن يخص الله شخصا من خلصه بالحكمة البالغة والدعاية إليه إصلاحا لمن يفسد في العالم بسوء الأخلاق والأفعال)(٣) ، فكان إيجاب الشرع لما أنكروه بعقولهم فيه المصلحة للمكلف بالتعبد والانقياد لله تعالىٰ وهـٰذا حسن في العقول إذ يحسن فيها عندهم السعي في الأرض طلبا للرزق والضرب فيها طلبا للربح ، ويحسن فيها الهروب من الظلم والجور وما فيه هلاك للنفس في العاجل والآجل(٤) .

فتعقيبنا علىٰ منهج الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية في طرق إثبات النبوة ينحصر في موافقتهما على الجهود الجبارة التي بذلاها لإظهار ضعف حجج المنكرين والجاحدين للنبوات وإبراز تعدد طرق إثبات النبوات وكثرة المسالك الموصلة للحق في ذلك .

ذلك أن كلا منهما برهن من خلال نصوصه السالفة علىٰ أن جحود النبوة وإنكارها من العقلاء مكابرة للعقل والعلم والواقع ، وانحراف عن الفطرة

---

(١) انظر أصول الدين للبغدادي ١٥٤ـ١٥٦ وشرح المقاصد ٨ـ٣٥ ومقالات الإسلاميين ٢٢٦ ، ٢٢٧ والفرق بين القرن ٢٠٩ ، ٢١٠ وتمهيد الأوائل ١٣٠ـ١٤٢ .

(٢) تلبيس إبليس ٨٢ـ٨٧ .

(٣) السابق ٨٣ .

(٤) انظر تمهيد الأوائل ١٤٣ وما بعدها .

والموروث الديني عند من له دين سماوي سابق ، وتنكر لتاريخ البشرية وما تواتر فيه من أخبار الأديان والأنبياء والأمم المشهورة .

وقد رأينا بالمقارنة لما ألمحنا إليه من نصوص غيرهما من العلماء أنهما فاقا في هٰذا الصدد كثيراً من المؤلفين في الفرق والمقالات والدارسين للملل والنحل . وذلك واضح إذا علمنا أنهما في سبيل إثبات هٰذا الأصل العظيم وجها خطابهما لكل فئات الناس على اختلاف عقائدهم ونحلهم وكفرهم وعنادهم ، وحاولا تحديد شبههم والرد عليها من خلال ما يدركونه ويصدقون به ويقرون بوجوده ووقوعه .

فتحدثا عن الإنسان وما يجده في نفسه من خواطر وعلوم لا يعلم سببها ، وعن عقله وما يمليه عليه من مخزون فطري لا يملك دفعه ، وتحدثا كذلك عن وجود الملائكة والجن وما تحدثه في نفوس الناس من خير وشر ، وأن أكفر الناس يقرون بالملائكة وما لها من أثر بأمر الله تعالىٰ إذ يقول القرآن حاكيا عن قوم نوح : ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً . .﴾[1] .

وقال تعالىٰ عمن بعدهم : ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2] .

وقال تعالىٰ عن فرعون مع جحده للإله تبارك وتعالىٰ وترشيحه لنفسه إلها من دون الله في معرض التهوين من دعوة موسىٰ عليه السلام :

﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾[3] ، يضاف إلىٰ إظهارهما لوجود الملائكة وتوقع الناس منها العلم وغيره مما

---

(١) سورة المؤمنون ، آية (٢٤) .

(٢) سورة فصلت ، آية (١٤) .

(٣) سورة الزخرف ، آية (٥٣) .

يرسلها الله به تحدثنا عن الجن والشياطين وما هو مشاهد في واقع الناس من تخديم أهل السحر والكهانة والطلاسم لهم في أمورهم وعلومهم الخبيثة وهٰذا أمر شهرته وتواتره كتواتر السحر والكهانة والعرافة وأنواع طرق الشر بين أهل الملل وغيرهم حتىٰ إن أكثر الناس تعمقا في الفلسفة وعقلانيتها يشهد بذلك ويقر بتصرف الجن في الأرواح البشرية الخبيثة وصرعها للإنسان وتكلمها علىٰ لسانه وإفسادها لعقله بالجنون وتسلطها علىٰ فكره وسلوكه بغية إضلاله وإغوائه .

واستشهدا علىٰ ذلك من خلال تواتره وإقرار فطاحلة الأطباء والطبائعيين به ، ولجوء كل قوم من الكافرين المكذبين لرسلهم بوصف رسلهم بالاتصال بهٰذه الأرواح الخبيثة والاستعانة بها حسب ما عهدوه من عادة السحرة والكهنة ومن علىٰ شاكلتهم ، وهٰذا أمر شهد به القرآن عليهم ونزه عباد الله عن أي صلة بالجن أو مشابهة لمن يمكن أن يكون له بهم صلة أو لهم عليه تسلط .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾(1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(2) .

وقال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . . . ﴾(3) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ

---

(1) سورة النحل ، آية (٣٦) .

(2) سورة النحل ، آية (٦٣) .

(3) سورة الشعراء ، آية (٢٢١ـ٢٢٦) .

كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . . ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . . ﴾(٣) .

فعلىٰ ضوء الكتاب والسنة رأيناهما يفرقان بين الأنبياء وبين الجن ومخدوميهم من السحرة والكهنة ومن لهم تسلط عليه كالمجنون والمعتوه والمصروع ، وبذلك يكون اتفاقهما علىٰ إثبات التضاد في الأرواح والترتيب في العقول ، ويثبتان أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضا ، والسحرة يذم بعضهم بعضا ويكذب بعضهم بعضا ، والأنبياء يأمرون بعبادة الله وحده والصدق والعدل والخير وكل رحمة ومحبة .

والسحرة وجميع طبقات الأشرار بخلاف ذلك إذ يحبون الشرك وأهله ويوالونهم ويخدمونهم ويستخدمونهم ويبغضون التوحيد والعدل وأهله ، فمن جعل النبي ساحرا أو كاهناً أو شاعراً كمن جعل المجنون أو الساحر أو الكاهن نبيا ، وهٰذا أظهر قبحا وأشد بهتانا من جعل العاقل مجنونا والمجنون عاقلا ، والجاهل عالما والعالم جاهلا(٤) .

ثم إنهما أثبتا النبوة علىٰ من ينكرها من حيث منع الوحي وإنكار تميز الواحد على الجماعة بعلم لا يمكنهم إدراكه بدعوى الاشتراك في العقل والوسائل علاوة علىٰ وحدة الجنس البشري وذلك من خلال تنبيهه إلىٰ ما يقع له من المرائي المنامية التي لا يشاركه فيها غيره من النائمين بجواره ، وتفاوت في

---

(١) سورة الحاقة ، آية (٤٠ـ٤٣) .

(٢) سورة الزخرف ، آية (٣٦ـ٣٧) .

(٣) سورة الأنعام ، آية (١١٢) .

(٤) إبراهيم أبو الأنبياء ، تأليف عباس محمود العقاد ، ط بيروت دار الكتاب العربي ، ١٣٨٦هـ ٢٤١ـ٢٤٥ وانظر النبوات ٢١٠ وشرح المقاصد ٥/ ١٤ ومعارج القدس ١٤١ـ١٤٤ .

المدارك وقوة الفهم وسرعة التعلم واختصاص خواص من الناس بمعرفة خواص بعض الموجودات والتعرف علىٰ ما في الطبيعة من المكنونات هـٰذا مع بيانهما للفلاسفة ومن حذا حذوهم من الخائضين في شرح النبوات وجعلها من جنس المنامات أو خواص الأرواح والنفوس أن ذلك باطل يمنعه أن النبوة خاصيتها إنباء من الله تعالىٰ بلا كسب مع تفصيل الأمور الكبار علىٰ وجه الحق والإخبار بالغيب وحقائق الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة .

هـٰذا بالإضافة إلىٰ ما شرحاه من إثبات الأمر لله تعالىٰ وبيان حكمته وعادته في خلقه وأمره وما يقتضي منه عدله ولطفه بعباده من دلالتهم علىٰ ما يسعدهم في الحركات والسكنات وأن الناس قديما وحديثا أثبتوا النبوات بالنظر في مسلك النبي في حياته الخاصة والنظر فيما جاء به وما فيه من علم وخير وإصلاح وما يجلب من سعادة عاجلة وآجلة مع تطابقه في الأصول بما جاء به الأنبياء الأولون إلىٰ غير ذلك مما شرحناه أثناء عرضنا لنصوصهما ، وبهـٰذا يكون ما ادعيناه من اتفاقهما علىٰ تعدد طرق إثبات النبوة وبروز جهودهما في ذلك أصبح واضح البرهان أصيل الجذور شامخ البنيان مؤصلا من الأصلين السنة والقرآن وكفىٰ بهما غاية في البيان ، وتلخيص ذلك كله من حديث من بعث بجوامع الكلم ـ صلى الله عليه وسلم هو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه من قوله صلى الله عليه وسلم :

(ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله أو من ـ أو آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة)[١] .

فمن هنا كان أصل الدين إثبات النبوات ، وذلك هو المبحث الثالث .

* * *

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم ، الحديث (٧٢٧٤) وانظر الحديث (٤٩٨١) .

المبحث الثالث

أصل الدين إثبات النبوات

تبين من خلال معالجة الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية للنبوة من حيث مفهومها وحقيقتها وصفات المكرمين بها ، وحاجة البشر لها واختلاف الناس في حكم البعثة بالنسبة إلىٰ حكمة الباري جل جلاله ـ تبين ـ أن أصل الدين إثبات النبوات ، ذلك أنه اتضح أن الإنسان عابد بطبعه متدين بفطرته متعبد شاء أم أبىٰ ، كما أنه اجتماعي تعاوني بجبلته ، صائر إلىٰ غيب لا علم له بالفطرة والعقل عن حقيقته وتفاصيل أمره .

لذلك أوليا ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ عناية كبيرة لإبراز هـٰذه الحقيقة والتي هي أن أصل الدين إثبات النبوات من خلال المقاصد الآتية :

المقصد الأول : أن الله تبارك وتعالىٰ بعلمه المحيط وأمره المطلق وحكمته الباهرة ، ومشيئته النافذة وإرادته القاهرة جعل عباده مع ما فطرهم عليه من معرفة به وقدرة على اكتساب معاشهم بما ركب في عقولهم من استعداد للكسب والدفع والجلب والتمييز بين الضار من النافع بالممارسة والتجارب والمهارات الذاتية ـ جعلهم مع ذلك كله مفتقرين إليه افتقاراً ذاتياً يقرون من قرارة نفوسهم أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

فهم علىٰ هـٰذا بحاجة اضطرارية إلىٰ أن يعلمهم كيف يعبدونه وكيف يطلبون رضاه وكيف يجتنبون ما يغضبه ويسخطه حتىٰ يرحمهم ويلبي رغبتهم الفطرية في ذلك وليس أمامهم إذا لم يتفضل عليهم بهـٰذا العلم إلا فطرهم التي هي عرضة للفساد وعقولهم القاصرة القادرة على الإفساد وتحصيل ما يبعد عن الإسعاد إذ نورها لا يضيء إلا في حدود ضيقة جدا فإن وجد إضاءة من الله تعالىٰ تقوىٰ بها واستنار له سبيل الخير وإن لم يجد ذلك الضياء أو لم يوفق للاستضاءة به كان عرضة للضياع والهلاك والإهلاك .

ولـٰكن الله جواد يتفضل علىٰ عباده بما يعلم أنهم بحاجة إليه ، وأعظم ما يحتاجون إليه كما رأينا هو النبوة والرسالة ـ لذلك رأينا أن الله علم آدم وكلمه واصطفاه واجتباه ، ولما ضلت البشرية بعده أرسل الله نوحا وهيأ له البقاء في الأرض ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالىٰ وحده لا شريك له ويبصر الناس بعظمة الله وإحسانه إليهم ويرغبهم ويرهبهم ، فلما أيس من إيمانهم دعا عليهم ونجاه الله ومن آمن معه من الطوفان الذي عم الأرض وأغرقهم عن آخرهم .

المقصد الثاني : فإذا تقرر ما جاء في المقصد الأول علمنا أن الله لا يترك عباده بلا أمر أو نهي وخير يتبعوه وشر يجتنبوه إذ لو كان تاركهم من ذلك لما أهلكهم وطهر الأرض منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاما حتىٰ علم الناس من حينها أن هـٰذه سنته في المكذبين لرسله يمهلهم ولا يهملهم فإذا جاء الوعد الذي قدره أزلا لنجاة رسوله ومن آمن معه وهلاك من كذبه وجحد ما جاء به أحدث للمكذبين من أسباب الهلاك والدمار ما يناسب حالهم وكتب لعباده الصالحين النجاة والفلاح في الدارين .

وهـٰذا ما شرحه الوحي علىٰ تعاقبه وبلغته الأنبياء علىٰ تطاول الزمن واختلاف الأماكن والأجناس واللغات حتىٰ كانت خلاصة ذلك في الكتاب المهيمن علىٰ لسان النبي الخاتم .

ومن هـٰذا نعلم أن إثبات النبوات الذي تحدث العلماء عن تعدد طرقه وأبرزها الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية في صورها المختلفة إنما اعتمدوا فيها على الكتاب والسنة حيث إن القرآن الكريم شرح حجج المكذبين والمنكرين والجاحدين وأبطل شبههم وأقام الحجة علىٰ فساد دينهم وانحراف فطرهم ومكابرتهم لما في عقولهم ، وأظهر صحة ما جاء به الأنبياء واستقامته وموافقته للفطر السليمة والعقول المستقيمة وسجل ما جعله الله دلالات صدق لأنبيائه وما كتبه من نصر وتأييد لأوليائه ، وأوضح ما حاق بالكافرين من المكذبين الضالين ، كل ذلك ليكون برهان صدق لهـٰذا الجنس من المصطفين

الأخيار وترغيبا للأبرار ، وترهيبا للكفار والفجار وتبصرة للأولي الأبصار .

هـٰذا بالإضافة إلىٰ ما رأيناه من إظهار القرآن الكريم والسنة المطهرة لمكانة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند ربهم وما نشره لهم من قبول في الأرض رغم ما لهم من أعداء وحساد إذ بيان الوحي لما هم عليه من الشرف في الأصل والمنعة في الأهل والعشيرة والاعتزاز بالله وحده دون ذلك كله ، وعرضه لما لا قوه من أصناف الأذىٰ والإعراض والتكذيب والاستهزاء وهم علىٰ ذلك كله في قمة الأخلاق الحسنة والصبر والتحمل والصفح والعفو والحرص على الهداية والإرشاد ، والدلالة على الخير والصلاح ، والتبصير بأسباب السعادة والترهيب والتحذير من دواعي الشقاوة يدل ذلك كله علىٰ أن أمرهم إلهي ودعوتهم ربانية ووجهتهم إيمانية ورغبتهم في تبليغ ما كلفوا به وإنقاذ البشرية من أسباب الشقاء في الدنيا والأخرىٰ . وواضح أن القرآن الكريم إنما أبرز ذلك وسجله لإثبات نبوتهم .

المقصد الثالث : هو أن ما حكيناه من اتفاق الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ مضامين هـٰذه الأصول التي شرحناها من خلال نصوصهما وما فهمناه من المقارنة بين مواد كلامهما ومؤدىٰ عباراتهما هو الواقع الذي يوقن به من تأمل ما نصا عليه أو ألمحا إليه(١) .

وقد يزيد ذلك وضوحا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من خلال تعقبه للإمام الغزالي في كتابه : المنقذ من الضلال إذ قال بعد نقول منه (قلت : فهـٰذه الطريق التي ذكرها أبو حامد وغيره تفضي أيضاً إلى العلم من النبوة والتصديق منها بأكثر من القدر الذي تقر به المتفلسفة .

وما ذكره من المشاهدات والكشوفات التي تحصل للصوفية وأنهم يشهدون تحقيق ما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع ما به وأمر به فهـٰذا أيضاً حق في كثير مما أخبر وأمر به ثم إذا علم ذلك صار حجة علىٰ صدقه فيما لم يعلمه

---

(١) انظر فصول الباب السابق .

كمن سلك طريقا من العلم بفن من الفنون إذا رأىٰ كلام متكلم في ذلك العلم ورآه يحقق ما عنده ويأتي بزيادات لا يستعطيها فإنه يعلم فإنه يعلم بما رآه من مزيد تحقيقه لما شاركه في أصل معرفته أنه أعلم منه بما وراء ذلك ـ وضرب شيخ الإسلام أمثلة بالطب والنحو والعلوم الشرعية الدينية والأعمال كالزهد والعبادة والسياسة ـ ثم قال :

(وهٰذه الطريق ينقسم الناس فيها إلىٰ عام وخاص بسبب علمهم بالخير والشر والصدق والكذب ونحو ذلك ، وهٰذه تفيد العلم القطعي بأن الأنبياء أكمل الخلق وأفضلهم وأنه لا يصلح لأحد أن يعارضهم برأيه ولا يخالفهم بهواه .

لٰكن لا يفيد العلم بحقيقة النبوة إلا أن يعترف أن النبي أعلم منه ، فلا يمكنه أن يقول هو أعلم منه . فكل من حصل له من المخاطبات والمشاهدات ما يحصل للأولياء فإنه يعلم أن الذي للأنبياء فوق الذي له من ذلك[1] ، وما ذكره أبو حامد فيه من تقرير النبوة في الجملة على الأصول التي يسلمها المتفلسفة ويعرفونها وينتفع به من كان متفلسفا محضا ، فإن ذلك يوجب أن يدخل في الإسلام نوع دخول . . . وكلام أبي حامد في هٰذا ونحوه يصلح أن يكون برزخا بين المتفلسفة وبين أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارىٰ ، فالمتفلسفة تنتفع به من حيث يصير عندهم من الإيمان والعلم ما لا يحصل لهم بمجرد الفلسفة .

وأما من كان مسلما يريد أن يستكمل العلم والإيمان فإن ذلك يضره من وجه ويرده عن كثير من كمال الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وإن كان ينفعه من حيث إنه يحول بينه وبين الفلسفة المحضة[2] ، وما ذكره شيخ الإسلام ينطبق علىٰ كلام الإمام الغزالي في الكتاب الذي كان يتعقب نصوصه ، وليس

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ١٥٦ ، ١٥٧ وانظر النبوات ١١٧ـ١٢٠ .
(٢) السابق ١٦٣ ، ١٦٤ وانظر منه ١٦٧ .

بالضرورة طرده في نصوص الإمام الغزالي الأخرىٰ إذ ذلك الكتاب كان فعلا يوجه كلامه فيه إلى المتفلسفة ويريد مجرد تنبيههم إلىٰ واقع حالهم مع النبوة وما جاء به النبي[1] . والإنصاف الذي لا يخالطه لبس هو ما نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله :

(ولا ريب أن كل ما يقر به من مقر من الحق فإن أهل الإيمان يقرون به لـٰكن يعلمون أشياء فوق ذلك لا يعلمها أهل الباطل ، فما علمته المتفلسفة من هـٰذه الأمور لا ينكرها أهل الإيمان ، لـٰكن ينكرون عليهم اقتصارهم في التصديق عليها)[2] .

وبهـٰذا النص المنصف نختم هـٰذا الباب الذي تحصّل بمجموع فصوله الثلاثة أن : إثبات النبوة تقتضيه الحكمة الإلهية ، ويدل عليه إثبات الأمر لله عز وجل ، وتستدعيه الفطرة البشرية ويتطلبه العقل ، ويشهد له التواتر الذي يوجب العلم الضروري والقطع بالإمكان والوجود والوقوع .

وبراهين ذلك في الكتاب والسنة قاطعة وفي وجه الباطل دامغة ، ولكل شبهة دافعة .

فنسأل الله تعالىٰ أن تكون جهودنا في بيان ذلك نافعة ، وعلىٰ طريق النهج الصحيح هادفة ، كما نسأله دائماً دوام التوفيق مع العافية .

وإلىٰ باب الختام الذي نخصصه لإثبات نبوة خاتم الأنبياء صلى اللـه عليه وسلم وخصائص رسالته الخاتمـة .

* * *

---

(١) انظر المنقذ ٦٦ـ٨١ .

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ١٦١ .

الباب الرابع

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم
والرد على المنكرين

المبحث الأول
رأي الإمام الغزالي

يدخل النبي صلى الله عليه وسلم دخولا أوليا فيما أوضحناه بالنصوص والشرح والتعقيب من كون النبوة والرسالة هبة ربانية وحظوة إلهية يمن الله تعالىٰ بها علىٰ من سبق في علمه المحيط أنه معد لها إذ الله أعلم حيث يجعل رسالته .

ذلك المفهوم الذي حققناه يدل علىٰ أن النبي صلى الله عليه وسلم يتصدره من حيث إن سنة الله تعالىٰ قاضية بإرسال رسول بنبوة جديدة عندما يظهر الفساد في العباد من حيث انتشار الشرك وعموم الشر علىٰ أهل الأرض ، فهو صلى الله عليه وسلم كان رحمة من الله تعالىٰ عندما ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس فنبأه الله تعالىٰ بالوحي الذي أوضحنا إمكانه ووقوعه وابتعثه الله رسولا مطلقا بشريعة عامة إذ كانت رسالته إلىٰ قوم مشركين يعبدون الأصنام ويسجدون للأوثان ، ويتقربون للملائكة والجان ، وينسبون ما لا يليق إلى الرحمن ، من الزوجة والولد والشريك وغير ذلك من تحريف الأديان ، وانحراف العقول وفساد الفطر في سائر البلدان .

فكانت نبوته ثابتة بالحكمة الإلهية والسنة الكونية والبشارة الرسولية والدلائل والعلامات النبوية والبراهين المعجزة والقرائن الصادقة ، فإذا كانت

النبوة تثبت للنبي بتنبيء الله له فقد صدقت عليه بأنواع الإنباء وأقسام الوحي والإيحاء ، وإذا كانت الرسالة المطلقة بالكتاب والدعوة إلى التوحيد وبيان الملة والشريعة والنسخ وإقامة العدل والصلاح وتزكية النفوس وتطهير القلوب وتزويد العقول والأفكار بالعلم النافع ، ودلالتها على العمل الصالح وكبحها عن المظالم والمفاسد ، وأخذها في سلم الكمال الأخلاقي والسمو الروحي والرغبة والرهبة إسلاما وإيمانا فقد كانت رسالته بذلك أوضح من غيره .

وهٰذا واضح إذا نظرنا في الأبواب السابقة التي أثبتنا النبوة فيها من خلال إثبات الأمر لله تعالىٰ وحكمته وما يقتضيه عدله ورحمته وما يدل عليه لطفه ، وما يوجبه علىٰ نفسه ، وما يدخل تحت إرادته ومشيئته وما كتبه في سابق علمه وأبرزه علىٰ لسان رسله وأنبيائه وما علم من سنته وعادته عند فساد خلقه وكذلك ما تقرر من اضطرار العباد إلىٰ تعليم الله لهم وامتناع حصول ذلك إلا عن طريق واحد منهم ليكون البيان باللسان والقدوة والأسوة الحسنة في الإيمان بالجنان والعمل بالأركان ، وطواعية الجوارح على الملة والشريعة وإقامة العدل بالقسطاس والميزان حيث لم يتوفر بالعقل أو الفطرة إحكام ذلك لبني الإنسان ، فاقتضت الحكمة الإلهية كما رأينا تلبية الحاجة الإنسانية كما علمنا ، وإقامة الأدلة والبراهين علىٰ صدق المدعي وتوضيح الحجة الدامغة على المكذبين بأنواع الطرق وشتى المسالك والسبل .

فما تتيقن به نبوة نبي من الأنبياء ورسالة رسول من رسل الله تعالىٰ تتيقن به نبوته من باب الأولىٰ والأحرىٰ .

وجلاء ذلك أنه نشأ في قوم مشركين وكان أحسنهم حالا يأتي معهم المعروف ويجتنب المنكر صيانة من الله تعالى[1] ، وهٰكذا كانت الأنبياء ، وإذا كان الأنبياء يبعثون في أشراف قومهم فقد شهد الأعداء أنه في الصدارة من قومه نسبا وشرفا[2] .

---

(١) انظر الشفا ٢/ ٩ وما بعدها .

(٢) انظر المواهب اللدنية ١/ ٨٥ وما بعدها .

وإذا كان الأنبياء يأتون من قبل الله مدعين أنه أوحىٰ إليهم ووهبهم من العلم ما أمرهم أن يعملوا به ويدعون أقوامهم إليه فقد كانت يده في ذلك أطول ممن تقدمه[1] .

وإذا كان للأنبياء دلائل صدق وعلامات نبوة ومعجزات ظاهرة وعجائب باهرة فقد كان له قصب السبق في ذلك كماً وكيفية وخلودا[2] ، وإذا كان الأنبياء يفوقون الناس في العلم والحلم وسعة الأخلاق وطيب الشمائل وسلامة الفطرة وحسن المعشر وعراقة المنشأ وقوة الذكاء وشدة الفطنة وصدق الحديث واللهجة ، ورجاحة العقل والبعد عن الريب والخيانة وكل ما يخل بالمروءة ويخدش الأمانة ، فقد كان ذلك من أظهر السجايا التي طبع عليها وبزمن دونه من البشر فيها[3] .

هـٰذا مع قوة النفس القدسي والتحمل لأعباء الدعوة والصبر علىٰ أذى الخلق ومصارحتهم بالحق وتعليمهم ما جل ودق .

وبيان أمور الآخرة والبرزخ بيانا لم يأت به من سبق . وبهـٰذا نكون قد علمنا أنه كان بالنبوة أحق ، فمن أنكر النبوات وجحدها فقد أقمنا عليه الحجة والبرهان بالعقل والنقل حتىٰ ثبت إمكانها ووجودها ووقوعها وشدة الحاجة البشرية إليها .

ومن آمن ببعض الرسل والأنبياء كانت دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم تطارده وتفحمه وتلجمه حتىٰ تجره إلى الإيمان به أو تسكته وتكفره وتقيم عليه الحجة بالتناقض وتعريه من إيمانه الذي يدعيه ، وهـٰكذا لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال حتىٰ يلقىٰ مصيره وما ينتظره من سوء العاقبة ويذوق الوبال ويتذوق النكال[4] .

---

(١) انظر الأنبياء في القرآن ٩ وما بعدها .

(٢) انظر معجزات المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ١١ وما بعدها .

(٣) أشعة الأنوار ١/ ١٣ـ١٢٦ .

(٤) انظر رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبو الوليد الباجي عليها ط ١٤٠٧هـ ٤٥ وما بعدها .

إذا علمنا ذلك فقد علمنا ثبوت نبوته صلى الله عليه وسلم من خلال ثبوت جنس النبوات ، وما كان من جهود الإمام الغزالي في إثبات النبوة والرسالة واضطرار الخلق لها . وحان لنا أن نعرف رأيه في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم على الخصوص وعلىٰ من نفتقر إلىٰ إثباتها عليه من منكريها من المقرين بالنبوات السابقة أو بعضها ؟ وما أعظم برهان نمتلكه لإقامة الحجة عليه وإبطال شبهه ؟

يثبت الإمام الغزالي نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بطرق سردية وصفية دون أن يوجه خطابه فيها لمنكر أو جاحد وهـٰذا في الغالب حيث يوجه كلامه للمسلمين المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم المقرّين بما جاء به وإن كانوا قد يخالفون أمره أو لا يتبعون تماماً أمره ما داموا لم يكذبوه أو ينكروا ما علم ضرورة من دينه(١) .

وهـٰذا الطريق يفيدنا في حالة التعليم وزيادة الإيمان عند المؤمن بتوارد الأدلة والبراهين وإكسابه أدلة علىٰ ما آمن به تؤهله إن كان مستعدا للطريق الآخر وهو مجادلة أهل الكتاب ومن شاكلهم في إنكار نبوته صلى الله عليه وسلم سواء في ذلك اليهود والنصارىٰ ، وسواء من صدّق منهم بنبوته وخصه بالعرب ، أو أنكر نبوته بناء علىٰ إنكار وقوع النسخ بعد موسىٰ عليه السلام أو ادعاء حصر النبوة في بني إسرائيل أو ختمها بموسىٰ عليه السلام . وسواء من أنكر منهم إتيانه صلى الله عليه وسلم بمعجزة تدل علىٰ نبوته كالأنبياء قبله . فالإمام الغزالي لما فرغ من إثبات جنس النبوات على البراهمة والدهرية والفلاسفة ، وعلم أن أهل الكتاب يقرون ببعض النبوات وينكرون بعضا أراد أن يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من خلال إقامة الحجة عليهم في المحاور الآتية :

أولاً : إثبات نبوة عيسىٰ عليه السلام على اليهود الناكرين لها بدعوىٰ إحالة النسخ زاعمين أنه من البداء والتغيير في العلم وذلك محال على الله تعالىٰ .

---

(١) انظر المنقذ ٧٢ والإحياء ١/ ٩٨ ، والرسالة اللدنية ١٠٥ والقسطاس المستقيم ٤٤ والاقتصاد في الاعتقاد ١٣٢ وما بعدها .

ثانياً : إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم على النصارىٰ من خلال إثبات نبوة عيسىٰ عليه السلام على اليهود .

ثالثاً : إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم من خلال إقامة البرهان علىٰ أن ما جاء به من القرآن وما وقع له من خوارق أخرىٰ كثيرة تدل علىٰ صدقه وتأييد الله تعالىٰ له في نبوته ورسالته إذ بإقرارهم بذلك يعلمون أنه أولىٰ بالنبوة من حيث عظم المعجزات وكثرتها وخلودها وهـٰذا هو المطلوب ، وإلىٰ نصوصه في ذلك :

قال الإمام الغزالي : (القطب الرابع . .

الباب الأول : في إثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما نفتقر إلىٰ إثبات نبوته على الخصوص ، وعلىٰ ثلاثة فرق :

الفرق الأولىٰ : العيسوية[(١)] .

الفرقة الثانية : اليهود : فإنهم أنكروا صدقه لا بخصوص نظر فيه وفي معجزاته ، بل زعموا أنه لا نبي بعد موسىٰ عليه السلام ، فأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسىٰ عليه السلام .

فينبغي أن تثبت عليهم نبوة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ لأنه ربما يقصر فهمهم عن درك إعجاز القرآن ولا يقصرون عن درك إعجاز إحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص . فيقال لهم : ما الذي حملكم على التفريق بين من يستدل علىٰ صدقه بإحياء الموتىٰ وبين من يستدل بقلب العصا ثعبانا ؟)[(٢)] .

ويجزم الإمام الغزالي بعد هـٰذا السؤال بأنهم لا يجدون للجواب عنه سبيلا ، ثم يحدد سبب ضلالهم فيقول :

(ولا يجدون إليه سبيلا البتة ، إلا أنهم ضلوا بشبهتين : إحداهما :

---

(١) العيسوية من فرق النصارىٰ ، وسيأتي نص دعواهم اختصاص نبوته صلى الله عليه وسلم بالعرب .

(٢) الاقتصاد ١٢٧ .

قولهم : النسخ محال في نفسه لأنه يدل على البداء والتغيير وذلك محال على الله تعالى)[1] .

وبطلان هٰذه الشبهة كما يقول الإمام الغزالي يكون بفهم النسخ ، وهو : (عبارة عن الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت المشروط استمراره بعدم لحوق خطاب يرفعه .

وليس من المحال أن يقول السيد لعبده قم مطلقا ، ولا يبين له مدة القيام ، وهو يعلم أن القيام مقتضىٰ منه إلىٰ وقت بقاء مصلحته في القيام ، ويعلم مدة مصلحته ولٰكنه لا ينبه عليها ، ويفهم العبد أنه مأمور بالقيام مطلقا وأن الواجب الاستمرار عليه أبدا إلا أن يخاطبه السيد بالقعود ، فإذا خاطبه بالقعود قعد ولم يتوهم بالسيد أنه بدا له أو ظهرت له مصلحة كان لا يعرفها ، والآن قد عرفها ، بل ، يجوز أن يكون قد عرف مدة مصلحة القيام وعرف أن الصلاح في أن لا ينبه العبد عليها ، ويطلق الأمر له إطلاقا حتىٰ يستمر على الامتثال ، ثم إذا تغيرت مصلحته أمره بالقعود ، فهكذا ينبغي أن يفهم اختلاف أحكام الشرائع .

فإن ورود النبي ليس بناسخ لشرع من قبله بمجرد بعثته ، ولا في معظم الأحكام ، ولٰكن في بعض الأحكام كتغير قبلة وتحليل محرم وغير ذلك ، وهٰذه المصالح تختلف بالأعصار والأحوال فليس فيه ما يدل على التغير ولا على الاستبانة بعد الجهل ولا على التناقض .

ثم هٰذا إنما يستمر لليهود إذ لو اعتقدوا أنه لم يكن شريعة من لدن آدم عليه السلام إلىٰ زمن موسىٰ عليه السلام لم ينكروا وجود نوح وإبراهيم عليهما السلام وشرعهما ، ولا يتميزون فيه عمن أنكر نبوة موسىٰ وشرعه وكل ذلك إنكار ما علم على القطع بالتواتر)[2] .

وإذا لم يفد اليهود المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم تفهيم الإمام الغزالي معنى النسخ وأنه لا يترتب عليه محال فإنه من المفيد لنا أن دعواهم

---

(١) السابق وانظر المستصفىٰ ١/١٠٧ـ١٢٨ .

(٢) الاقتصاد ١٢٨ .

هـٰذه لا تفيدهم إلا إذا كانوا مانعين للنسخ منذ آدم عليهم السلام إلىٰ موسىٰ عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام والحال أنهم فعلوا ذلك إذ أنكروا أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ أحد من خلقه وحيا مطلقا كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ بيانه .

وحيث لم تفدهم الشبهة الأولىٰ فإن الثانية الآتية لم تفدهم أيضا شيئاً لضعفها وسخافتها من وجهين كما يقول الإمام الغزالي في النص الآتي :

(والثانية : أي الشبهة الثانية هي : لقّنهم بعض الملحدة أن يقولوا : قد قال موسىٰ عليه السلام : عليكم بديني ما دامت السموات والأرض ، وأنه قال : إني خاتم الأنبياء)[1] .

وظاهر من صياغة هـٰذه الشبهة أنها مختلقة حسدا وردا للحق بعد ظهوره ، إذ علم اليهود أن عيسىٰ ظهرت علىٰ يديه المعجزات التي تستدعي الإيمان والتصديق بنبوته التي تحدىٰ بها ، وعلموا كذلك أن الله لا يؤيد الكاذب عليه ولا يمكن له في الأرض ولا يبقي له لسان صدق في العالمين ، والحال أنه فعل ذلك كله مع عيسىٰ عليه السلام وهو ينادي أنه مصدق لموسىٰ ومتبع للتوراة فكيف يدعي أنه يصدقه ويدعي أنه نبي بعده جاء بالإنجيل وما فيه من هدىٰ ونور ورفع للأغلال وبيان لما حرم إسرائيل علىٰ نفسه ومبينا لحل بعض ما حرم على اليهود . إن ذلك لا يستقيم ودعوى اليهود أنه لا نبي بعد موسىٰ ، ولذلك لا ينكرون شيئا من ذلك إلا لزمهم في دين موسىٰ عليه السلام لذا قال الإمام الغزالي في تفنيد هـٰذه الشبهة :

(وأما الشبهة الثانية فسخيفة من وجهين .

أحدهما : أنه لو صح ما قالوه عن موسىٰ ـ عليه السلام لما ظهرت المعجزات علىٰ يد عيسىٰ ، فإن ذلك تصديق بالضرورة ، فكيف يصدق الله بالمعجزة من يكذب موسىٰ وهو أيضاً مصدق له ؟

أفتنكرون معجزة عيسىٰ ـ عليه السلام ـ وجودا أو تنكرون إحياء الموتىٰ دليلا علىٰ صدق المتحدىٰ ؟

---

(١) السابق ١٢٧ ، ١٢٨ .

فإن أنكروا شيئا منهم لزمهم في شرع موسىٰ لزوما لا يجدون عنه محيصا ، وإذا اعترفوا به لزمهم تكذيب من نقل إليهم من موسىٰ عليه السلام قوله : إني خاتم الأنبياء .

والثاني : أن هـٰذه الشبهة إنما لقنوها بعد بعثة نبينا محمد عليـه السلام وبعد وفاته .

ولو كانت صحيحة لاحتج اليهود بها وقد حملوا بالسيف على الإسلام ، وكان رسولنا عليه السلام مصدقا بموسىٰ عليه السلام وحاكما على اليهود بالتوراة في حكم الرجم وغيره ، فلا عرض عليه من التوراة ذلك .

وما الذي صرفهم عنه ومعلوم قطعا أن اليهود لم يحتجوا به لأن ذلك لو كان لكان مفحما لا جواب عنه ولتواتر نقله ، ومعلوم أنهم لم يتركوه مع القدرة عليه ، ولقد كانوا يحرصون على الطعن في شرعه بكل ممكن حماية لدمائهم وأموالهم ونسائهم .

فإذا ثبت عليهم نبوة عيسىٰ أثبتنا نبوة نبينا عليه السلام بما نثبتها على النصارى)[1] .

وهـٰكذا أراد الإمام الغزالي من خلال بيان وجه سخافة هـٰذه الشبهة وكذبها أن يثبت على اليهود نبوة نبي بعد موسىٰ عليه السلام بدليل عدم تمكنهم من نفي معجزة عيسىٰ وتصديقه لموسىٰ عليهما وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام وبالتالي كذب النقل عن موسىٰ عليه السلام بالقول إنه خاتم الأنبياء ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ ـ فإذا ثبتت نبوة عيسىٰ عليه السلام وبطل النقل المنافي لها ثبتت نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم على الطائفتين بجامع ثبوت ما أثبتوا به نبوة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام له صلى الله عليه وسلم .

أما الفرقة الثالثة المجوزة للنسخ النافية لوجود إعجاز بالقرآن الكريم فإن الإمام الغزالي يثبت عليهم إعجازه وتحدي النبي صلى الله عليه وسلم به عن

(١) السابق ١٢٨ ، ١٢٩ .

طريق قطعيات لا يملكون دفعها لشهرتها وتوفر دواعي نقلها ونقل مخالفها إن وجد ، فإلىٰ نصوصه في ذلك :

قال : (الفرقة الثالثة : وهم يجوزون النسخ ولٰكنهم ينكرون نبوة نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حيث إنهم ينكرون معجزته في القرآن ، وفي إثبات نبوته بالمعجزة طريقتان :

الطريقة الأولىٰ : التمسك بالقرآن . فإنا نقول : لا معنىٰ للمعجزة إلا ما يقترن بتحدي النبي عند استشهاده علىٰ صدقه علىٰ وجه يعجز الخلق عن معارضته ، وتحديه على العرب مع شغفهم بالفصاحة وإغراقهم فيها متواتر ، وعدم المعارضة معلوم ، إذ لو كان لظهر ، فإن أرذل الشعراء لما تحدوا بشعرهم وعورضوا ظهرت المعارضات والمناقضات الجارية بينهم .

فإذا لا يمكن إنكار تحديه بالقرآن ولا يمكن إنكار اقتدار العرب علىٰ طريق الفصاحة ولا يمكن إنكار حرصهم علىٰ دفع نبوته بكل ممكن حماية لدينهم ودمهم وما لهم وتخلصا من سطوة المسلمين وقهرهم ، ولا يمكن إنكار عجزهم لأنهم لو قدروا لفعلوا ، فإن العادة قاضية بالضرورة بأن القادر علىٰ دفع الهلاك عن نفسه يشتغل بدفعه ، ولو فعلوا لظهر ذلك ونقل)[1] .

وحيث ثبت ذلك وظهر ولم ينقل عندها معارضة وتحاكم الناس للسيف والقرآن والحجة والبيان حتىٰ ثبت العجز وقامت علاماته ولاحتْ أماراته فقد ثبت أن القرآن معجزة تحدىٰ بها النبي صلى الله عليه وسلم وتركها باقية تتحدى الإنس والجن إلىٰ يوم القيامة .

(فهٰذه مقدمات بعضها بالتواتر وبعضها بجاري العادات وكل ذلك مما يورث اليقين فلا حاجة إلى التطويل)[2] .

وما ذكره الإمام الغزالي واضح ؛ إذ الإطناب مع إمكان توضيح المطلوب

---

(١) السابق ١٢٩ وانظر معراج السالكين ١٣٨ـ١٤٠ والإحياء ١/ ١٠٥ .

(٢) السابق ١٢٩ وانظر معراج السالكين ١٤٠ .

بدونه نوع من العي الذي يترفع عنه من يتصدىٰ لبيان مثل هـٰذه الحجج والرد علىٰ هـٰذه المجاحدات التي تنم عن كراهية للحق وأهله مهما كان المسلك المتبع لإقناع الخصم أو المعاند علىٰ أن المعترف بأصل النبوات لا يمكنه مواصلة تلك المجاحدات وهـٰذا ما صرح به الإمام الغزالي في الخلاصة الآتية التي ختم بها الطريقة الأولىٰ في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم بالمعجزة إذ يقول :

(وبمثل هـٰذا الطريق تثبت نبوة عيسىٰ عليه السلام ولا يقدر النصراني علىٰ إنكار شيء من ذلك ، فإنه يمكن أن يقابل بعيسىٰ فينكر تحديه بالنبوة واستشهاده بإحياء أو وجود إحياء الموتىٰ أو عدم المعارضة أو يقال عورض ولم يظهر ، وكل ذلك مجاحدات لا يقدر عليها المعترف بأصل النبوات)(١) .

وكلامنا هنا مع المعترفين بأصل النبوات الذين يرتكبون دائماً هـٰذه المجاحدات التي يصدون بها أنفسهم وغيرهم عن الإيمان بالنبوة المحمدية فكانوا بصنيعهم ذاك مكذبين لما يدعون الإيمان به من الرسالات .

وحيث تمسكنا بالقرآن كمعجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم في وجه من ينكر وجه إعجازه قصورا أو جحودا ، فما وجه إعجازه حتىٰ كان معجزة يتحدىٰ بها وبرهان صدق تخر هامات الفصحاء المستكبرين على الحق لجزالته وبلاغته وغير ذلك مما تضمنه مما لا يتمارىٰ ناظر فيه بقصوره عن بلوغ شأوه(٢) ؟

هـٰذا سؤال يطرحه الإمام الغزالي ويجيب عليه حتىٰ يتم له ما أراده من إبطال شبهة الفرقة الثالثة الناكرة لإعجازه مع تجويزها للنسخ فيقول : (فإن قيل : ما وجه إعجاز القرآن ؟

قلنا : الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب والمنهاج الخارج عن منهاج

---

(١) السابق ١٢٩ .

(٢) انظر الرسالة اللدنية ٩٨ والمنقذ ٨١ وإلجام العوام ٩٢ ، ٩٣ .

كلام العرب في خطبهم وأشعارهم وسائر صنوف كلامهم ، والجمع بين هٰذا النظم وهٰذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر)[1] .

وسبق أن حد المعجزة هو الأمر الخارق الذي يعجز الناس عن مثله على اختلاف ذكرناه في شروطه ونبهنا علىٰ أنه غير محصور في جنس معين من الموجودات أو الممكنات بل يكون في المعاني كما يكون في المباني .

وهٰذا ما يزيده الإمام الغزالي بيانا ليسلم له ما يبتغيه من كون القرآن معجزا فيقول : (نعم ربما يرىٰ للعرب أشعار وخطب حكم فيها بالجزالة ، وربما ينقل عن بعض من قصد المعارضة مراعاة هٰذا النظم بعد تعلمه من القرآن ، ولٰكن من غير جزالة بل مع ركاكة كما يحكىٰ عن ترهات مسليمة الكذاب حيث قال : الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل وخرطوم طويل[2] .

فهٰذا وأمثاله ربما يقدر عليه مع ركاكة يستغثّها الفصحاء ويستهزؤون بها ، وأما جزالة القرآن فقد قضىٰ كافة العرب منها العجب ، ولم ينقل عن واحد منهم تشبث بطعن في فصاحته ، فهٰذا إذاً معجز وخارج عن مقدور البشر من هٰذين الوجهين ، أعني من اجتماع هٰذين الوجهين)[3] .

فوجه إعجاز القرآن الكريم علىٰ هٰذا عند الإمام الغزالي هو كونه جمع بين أمرين جزالة اللفظ وفصاحته والنظم العجيب فباجتماعهما فيه خرج عن مقدور البشر حتىٰ صار بذلك معجزة سيد البشر - صلى الله عليه وسلم - واستكمالا لذلك يجيب الإمام الغزالي علىٰ ما قد يثيره من لا يعرف الواقع كالعرب ومن جاورهم من أهل الكتاب فيقول :

(فإن قيل : لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج علىٰ معارضة القرآن ولو قصدت لقدرت عليه ، أو منعتها العوائق عن الاشتغال به .

---

(١) الاقتصاد ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) هو مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب الحنفي الوائلي الكذاب المتنبىء الذي قتل في حروب الردة عام ١٢هـ انظر الإعلام للزركلي ٤/ ٢٢٦ .

(٣) الاقتصاد ١٣٠ .

والجواب : أن ما ذكروه هوس ، فإن دفع تحدى المتحدي بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف مع ما جرىٰ على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبي وشن الغارات ، ثم ما ذكروه غير دافع غرضنا ، فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالىٰ ، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات ، فلو قال نبي آية صدقي أني في هٰذا اليوم أحرك أصبعي ولا يقدر أحد من البشر علىٰ معارضتي ، فلم يعارضه أحد في ذلك اليوم ، ثبت صدقه ، وكان فقد قدرتهم على الحركة مع سلامة الأعضاء من أعظم المعجزات ، وإن فرض وجود القدرة ففقد داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات مهما كانت حاجتهم ماسة إلى الدفع باستيلاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ علىٰ رقابهم وأموالهم ، وذلك كله معلوم على الضرورة)[1] .

ولما قرر الإمام الغزالي هٰذا النوع من الإعجاز المبني على القول بالصرفة اقترح على المجادل للنصارىٰ أن لا يشتغل بمناظرتهم إلا بما يثبت به عليهم نبوة عيسىٰ عليه السلام : (فهٰذا طريق تقدير نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على النصارىٰ ومهما تشبثوا بإنكار شيء من هٰذه الأمور الجليلة فلا تشتغل إلا بمعارضتهم بمثله في معجزات عيسىٰ عليه السلام)[2] .

وبيان أهمية هٰذا المقترح تتضح أكثر بذكر الطريقة الثانية التي تثبت بها نبوته صلى الله عليه وسلم وهي : أي :

(الطريقة الثانية أن تثبت نبوته بجملة من الأفعال الخارقة للعادات التي ظهرت عليه ، كانشقاق القمر ، ونطق العجماء ، وتفجر الماء من بين أصابعه ، وتسبيح الحصىٰ في كفه ، وتكثير الطعام القليل ، وغيره من خوارق العادات ، وكل ذلك دليل علىٰ صدقه .

---

(١) السابق ١٣٠ .

(٢) السابق ١٣١ وانظر إلجام العوام ٩٢ ، ٩٣ والقسطاس المستقيم ٤٥ ومعراج السالكين ١٣٩ ، ١٤٠ والمنقذ ٨١ والإحياء ٣ .

فإن قيل : آحاد هٰذه الوقائع لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر .

قلنا : ذلك أيضاً إن سلم فلا يقدح في الغرض مهما كان المجموع بالغا مبلغ التواتر . وهٰذا كما أن شجاعة علي رضوان الله عليه وسخاوة حاتم معلومان بالضرورة على القطع تواترا ، وآحاد تلك الوقائع لم تثبت تواترا ، ولٰكن يعلم من مجموع الآحاد على القطع ثبوت صفة الشجاعة والسخاوة ، فكذلك هٰذه الأحوال العجيبة بالغة جملتها مبلغ التواتر . لا يستريب فيها مسلم أصلا . فإن قال قائل من النصارىٰ : هٰذه الأمور لم تتواتر عندي لا جملتها ولا آحادها .

فيقال : ولو انحاز يهودي إلىٰ قطر من الأقطار ولم يخالط النصارىٰ وزعم أنه لم تتواتر عنده معجزات عيسىٰ ـ عليه السلام ـ وإن تواترت فعلىٰ لسان النصارىٰ وهم مهتمون به فبماذا ينفصلون عنه ؟

ولا انفصال عنه إلا أن يقال : ينبغي أن يخالط القوم الذين تواتر ذلك بينهم حتىٰ يتواتر ذلك إليك ، فإن الأصم لا تتواتر عنده الأخبار ، وكذا المتصامم ، فهٰذا أيضاً عذرنا عند إنكار واحد منهم التواتر علىٰ هٰذا الوجه)[1] .

وهٰكذا نكون قد أتينا علىٰ أهم نصوص الإمام الغزالي في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأحلنا علىٰ ما يتفق معها خوفا من التكرار والإملال حيث تقدم معظمها في دراسة إثبات جنس النبوات وما يتصل بذلك من حيثيات . والآن قد رأينا ما أضافه الإمام الغزالي من نصوص عقلية تستند في غالبها إلىٰ نصوص شرعية أثبت فيها نبوته صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارىٰ بإظهار تطابق ما جاء به بما جاء به موسىٰ وعيسىٰ ورد شبههم ببيان سخافتها وافترائها .

وأقام البرهان علىٰ وجه إعجاز القرآن ، ودفع ما يمكن أن يعترض به من

---

(١) السابق ١٣١ وانظر إلجام العوام ٩٢ ، ٩٣ والقسطاس المستقيم ٤٥ ومعراج السالكين ١٣٩ ، ١٤٠ والمنقذ ٨١ والإحياء ٢/ ٣٥٢ـ٣٥٥ .

تمحلات أو يتعنت به متعنت من مجاحدات لا يقدر على التمسك بها من يقر بأصل النبوات أو يمكن أن يفهم دلالة المعجزات وما تواتر من مجموع ذلك برواية الثقات حتىٰ صار العلم بمقتضاه من الأمور الضروريات هٰذا بالإضافة إلىٰ ما شرحه سابقا من رتب الكفر التي تعم كل مكذب للرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان كفره منصوصا بالكتاب والسنة أو ملحقا بمنصوص لاتحاد العلة في سبب الكفر[1] .

ونلاحظ أن الإمام الغزالي لا يذكر لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارىٰ نصاً من كتبهم كبشارات الأنبياء السابقين به ولا يورد عليهم نصاً من الكتاب والسنة .

ولا أدري ما السبب في ذلك ، ولعله لعدم ثقته بنصوصهم لما دخلها من تحريف متعمد ولعدم إيمانهم بما ينص عليه من كتاب وسنة ، فضّل مجادلتهم بالعقل ومناقضتهم بالفكر وإثبات ما أنكروه من نبوته صلى الله عليه وسلم من خلال لاحتجاج عليهم بنظيره فيما ادعوا الإيمان به . وهٰذا مسلك حسن يوصل إلى المطلوب إذ به يحصل إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم ويتم الرد على المنكرين وإلى المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية .

* * *

---

(١) انظر السابق ١٥٦ـ١٦٠ .

المبحث الثاني

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية من أعظم علماء الإسلام المحامين عن النبوة المدافعين عن حياضها الذابين عن ساحتها كل ما يخدش الجناب النبوي أو يعد طعنا فأحرىٰ جحودا أو إنكارا .

وهٰذه أمور واضحة جداً في نصوصه في المباحث والفصول والأبواب السابقة حيث وجدناه يكتب شارحا العقيدة الأصفهانية فيعطي لمباحث النبوات قسطا وافرا من البيان والشرح والاستدلال والرد والنقد ، فردّ على المنكرين لها مبينا شبههم الواهية ومهونا من اعتراضاتهم السخيفة ومشهرا بمن غلط فيها من الفلاسفة والملاحدة الصوفية وغير ذلك من أصناف الغالطين من المتكلمين ومن شايعهم[(١)] .

وكما رد علىٰ هـٰؤلاء جميعا وأثبت النبوة بطرق عديدة صنف كتابه النبوات لمخاطبة من يؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ويقر بما جاء به وبوجوب اتباعه في كل ما أمر ، ومع ذلك التخصيص الذي ذكره في نفس الكتاب[(٢)] ، فإنه حاور كثيرا من أصناف الناس حيال مسائل النبوة وإثباتها وحقيقتها واختلاف الناس في مفهومها وبيّن خصائص النبي والفروق بين عجائب الأنبياء وآياتهم الدالة علىٰ صدقهم ، والتي جعلها الله تعالىٰ برهانا لنبوتهم ، وبين الخوارق التي هي في مقدور البشر[(٣)] .

وقد خص أهل الكتاب بكتاب جامع انتصاراً لنبي الإسلام ودحضا لافتراءات أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ وإبطالا لدعاواهم نفي نبوة محمد

---

(١) انظر شرح العقيدة الأصفهانية ١٢٠ وما بعدها .

(٢) انظر منه ٢٢٦ .

(٣) انظر النبوات ٤٠ وما بعدها و٤٧ و١٥٠ .

صلى الله عليه وسلم عموما ، أو تخصيص نبوته بالعرب مع ما نبه عليه من أمور دلت علىٰ نبوة الأنبياء قبله وهي بشارة وشهادة علىٰ نبوته .

هـٰذا بالإضافة إلىٰ ما أوضحه من تحريفهم لكتبهم وقلة عملهم بما فيها وجهلهم بفحواها ومخالفتهم الصريحة لما جاء فيها حتىٰ أقام عليهم الحجة بكمال الشريعة المحمدية وفضل نبي الإسلام وأنه جاء بخاتمة الرسالات التي اشتملت على العدل والفضل والقوة والمنعة حتىٰ عمت المشارق والمغارب وظهر للناس خلودها وبقاؤها ومازالوا يزدادون إيمانا وتصديقا بها وتعظيما لمن جاء بها حتىٰ إن اليهود يرون أن النصارىٰ أولىٰ لهم اتباعها ، والنصارىٰ يفضلون لليهود لو آمنوا بها وعملوا بها ناهيك عن غيرهم ممن دونهم في العلم والإيمان والعمل كأصناف المشركين وعباد الأصنام والهوىٰ والشيطان[١] .

إذا تذكرنا ذلك أمكننا فهم منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على المنكرين ، وأنه بما تقدم من عرضه لتعدد طرق إثبات النبوة ووجود جنس الأنبياء في الأرض يدخل فيه محمد صلى الله عليه وسلم دخولا أولياً إذ قد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس من عموم الكفر وظهور الشرك وانتشار الظلم والجور وتسلط المفسدين على المستضعفين وأكل القوي للضعيف وفشو الفاحشة بين أهل الأرض واستمرار التناحر والتقاطع والتقاتل لأتفه الأسباب وانطماس نور العقل وخمود جذوة الفطر حتىٰ لا أحد يعرف منكرا فينكره ولا معروفا ليأمر به .

وهـٰذه أمور قد علم من سنة الله وعادته أنه لا يقرها ولا يرضىٰ بها وأنه دائماً يرحم عباده بإنقاذهم من هـٰذا الواقع المخزي ببعثة رجل أو رجال من خيرة أهل الأرض وأطهرهم قلوبا وأطيبهم أخلاقا وأعرقهم أنسابا وأرجحهم عقولا وأوقرهم وأحلمهم وأزكاهم نفوسا فيعلمهم من لدنه علما ويرسلهم للدعوة إلى

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح تجد ما ذكرناه وافيا إن شاء الله .

التوحيد واستصلاح العبيد وتخليصهم من الكفر والطغيان وعبادة الهوىٰ والشيطان إلىٰ عبادة الواحد الديان .

وإذا كانت تلك الحال واقعة في الأرض كما وصفنا وسنة الله ماضية كما قررنا فإن بعثته صلى الله عليه وسلم ثابتة بذلك الحال الموصوف والسنة التي لا تتبدل[١] .

وإذا كان جنس الأنبياء قد تقدم إثبات شيخ الإسلام له بإثبات الأمر لله تعالىٰ ، وقدرته وما علم من نصره لرسله ، وعادته معهم من تأييد بالمعجزات وجبلهم علىٰ أسمى الشمائل والأخلاق السنيات ، والبراهين والدلائل الباهرات التي لا تلتبس بأمر يدخل في إمكان المخلوقات مع تمكن الأنبياء من بيان ما جاءوا به وإقامة الحجة علىٰ ما يدعونه حتىٰ يؤمن من أراد الله به الخير ويهلك عن بينة من كتب الله له الهلاك ، ذلك أنه غني عن العباد وعن طاعتهم ولا يرضىٰ لعباده الكفر .

وهٰذه أمور قد تواترت كما علمنا في كتب الله وتناقلها الناس قرونا متطاولة حتىٰ علم الناس أن العدالة الإلهية تقتضي ذلك وحكمته توجبه[٢] .

فبذلك أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية النبوة علىٰ منكريها وبه يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ من ينكرها على العموم أو على الخصوص والتعيين لأنه : (ما من دليل يستدل به علىٰ نبوة غيره إلا وهو علىٰ نبوته أدل ، فإن جحد نبوته يستلزم جحد نبوة غيره بطريق الأولىٰ ، ولٰكن من قال ذلك هو متناقض كما يتناقض سائر أهل الباطل)[٣] .

الذين أوضحنا أنه لا دليل لهم علىٰ نفي النبوة إلا التعلق بشبه تبين بالبحث أنها أوهىٰ من خيط العنكبوت .

---

(١) انظر النبوات ١٩ وما بعدها .

(٢) انظر السابق ١٨٨ وما بعدها .

(٣) الجواب الصحيح ٥/ ١١٦ وانظر النبوات ٢٨ـ٣٩ .

ويقرب ذلك أن الله تعالىٰ قد بين : (أن هٰذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال ، وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور الأنبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو هو مخالف له ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء ، وحينئذ نعرف قطعا أن محمداً نبي بل هو أحق بالنبوة من غيره .

والثاني : ـ من المقصود بسؤالهم ـ أن يسألوهم عن خصوص محمد صلى الله عليه وسلم وذكره عندهم ، وهٰذا يعرفه الخاصة منهم ليس هو معروفا كالأول يعرفه كل كتابي . . . والمقصود أن الله قال لمحمد صلى الله عليه وسلم في سورة الأحقاف : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١) .

وقال تعالىٰ في محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٢) .

فبين أن هٰذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال ، فهو معتاد في الآدميين وإن كان قليلا فيهم ، وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولا كقوم نوح ، فهٰذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور ، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله ، فهٰذا يدل على النوع والشخص ، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص إذ النوع قد عرف قبل هٰذا(٣) .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية (٩ـ١٠) .
(٢) سورة آل عمران ، آية (١٤٤) .
(٣) النبوات ٢٥ـ٣٠ وانظر الفتاوىٰ ٩/ ١٥ .

فانطباق ما علم من حال النوع عليه يعرف به صدقه وتثبت به نبوته فقد علم أنه ذو نسب في قومه ومنعة في عشيرته ، وأنه علىٰ أشرف الأخلاق قبل البعثة وحصلت إرهاصات وبشارات تعلن وجوده في الدنيا وتشير إلىٰ قرب مبعثه واستبشار العالمين بنبوته صلى الله عليه وسلم .

وهـٰذا من دلائل نبوته إذ دليل صدق النبي : (هو يدل علىٰ أنه نبي وأن الخبر بنبوته صدق ، وإن كان هو لا يستدل بذلك ولا يتحدىٰ بمثلها وقد لا يخبره بنبوة نفسه ويكون له دلائل تدل علىٰ نبوته كما كانت قبل أن يولد ، وفي الأمكنة البعيدة ـ فمن آيات الأنبياء ما كان قبل ولادتهم ، وقبل إنبائهم وما يكون بعد موتهم ، فإن الآية دليل علىٰ صدق الخبر بأنه رسول الله ، وهـٰذا الدليل لا ينحصر لا بمكان ولا بزمان)[1] ، ومن ذلك أشراط الساعة فإن الأنبياء أخبروا بها وبوقوعها فدلت علىٰ صدقهم ؛ إذ أخبروا بعلم الغيب الذي يختصهم الله به وكان محمد صلى الله عليه وسلم أعظمهم شأنا في هـٰذه الأمور وأكثرهم خبرا في تلك المغيبات فكان الأولىٰ بإثبات نبوته بذلك)[2] .

ولما علم أهل الكتاب من سنة الله مع الأنبياء ومن آمن بهم وعادته مع من كذبهم كان الخطاب في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم متوجها إليهم أكثر ودلائل صدقه تبهرههم أكثر ، وحجج كتابه الذي جاء به تدفع باطلهم أكثر ذلك أنه عندهم ما يثبت نبوته من دعوة التوحيد الذي اتفقت عليه الأنبياء وأن الشرك ليس بدين ولا شرع ، ثم علمهم بأن الله تعالىٰ إنما يبعث من اصطفاه لرسالته من الرجال الذين يوحي إليهم من أهل القرىٰ فحاله كحال الأنبياء السابقين له وهم يعلمون ذلك .

فبعلمهم بجنس الأنبياء وما جاؤوا به من التوحيد ونبذ الشرك والدعوة إلى الهدىٰ ونشر الخير وصلة الأرحام والبر والصدق والرحمة وغير ذلك مما

---

(١) النبوات ٢٩٣ـ٢٩٤ وانظر منه ٣٢٠ـ٣٢٣ .

(٢) انظر الفتاوىٰ ١٥/ ٣٠ ، ٣١ والرد على المنطقيين ٤٩٩ والفتاوىٰ ١٨/ ٦ـ١٠ .

شرحوه من علم الغيب كصفات الله تعالىٰ وما يجوز عليه وما يستحيل وما يجب كان ـ علمهم بذلك كله يمكنهم من العلم بصدق ما جاء به وإثبات نبوته وتصديقه .

هـٰذا علاوة علىٰ علمهم بالبشارات الناصة عليه في بشارات أنبيائهم وما كانوا هم يهددون به جيرانهم من العرب بقرب ظهور نبي آخر الزمان ويستفتحون عليهم به[١] .

ويتأكد هـٰذا الخطاب في حقهم لما رأوا دعوته سارت علىٰ سنة الله تعالىٰ في سير دعوة الأنبياء عليهم السلام .

حيث سارع إلى اتباعه صلى الله عليه وسلم أتباع الأنبياء من ضعفة الناس المضطهدين في الغالب أو حذاقهم الذين لا تمنعهم شهوة الجاه والمال والخوف من الملإ من إعلان الحق واتباعه ، وأن الحق الذي ظهر لهـٰؤلاء فاتبعوه لا يتركونه ولا يسخطون دينهم الذي دخلوا فيه بل يزدادون ويتقوىٰ إيمانهم مع مرور الزمن[٢] .

وقد رأوه لا يغدر كما يغدر الملوك والزعماء بل علىٰ سنن الأنبياء في الوفاء بالعهود إذ هم معصومون من الغدر ؛ لأنه ينافي مهمتهم ولأنه كذب في المستقبل وذلك لا يجوز عليهم ، وهو صلى الله عليه وسلم في هامة الوفاء وسالفة الرسل ، ورأوا الحرب سجالا بينه وبين أعدائه ولا يثنيه ذلك عن الجد والاجتهاد في الدعوة لدين ربه وتبليغ رسالته والجهاد في سبيل الله تعالىٰ ، هـٰذا مع علمهم أن الكذاب لا يدوم حاله بل ينكشف أمره ويبور إلى الأبد[٣] .

فالله تعالىٰ إذا خاطب جنس الإنس ذكر جنس الأنبياء وما جاؤوا به ، وإذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسىٰ عليه السلام خاطبهم بإثبات نبي

---

(١) انظر الجواب الصحيح ٢/ ٣٥٩ وما بعدها . والفتاوىٰ ٤/ ٢١٠ـ٢١٥ .
(٢) انظر السابق ٣/ ٦٣ و٥٠٨ و٥/ ١٩٧ وانظر شرح العقيدة الأصفهانية ١٢٦ وما بعدها .
(٣) انظر السابق ١٢٨ وانظر دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٢/ ٦٣ .

بعده : (كما قال تعالىٰ في سورة البقرة في خطابه لبني إسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسىٰ وذكرهم بإنعامه عليهم ، وبما فعلوه من السيئات ومغفرته لها :

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[1] .

ثم ذكر محمدا فقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[2] .

وهنا يسلك شيخ الإسلام ابن تيمية مع أهل الكتاب طريقا واضحة كما يقول لبيان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعموم بعثته ، ويهمنا هنا الأولىٰ ، وهي :

(أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورسالته ، وهدىٰ أمته : أبين وأوضح ، وتعلم ـ أي نبوته صلى الله عليه وسلم ـ بكل طريق تعلم بها نبوة موسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام وزيادة ، فلا يمكن القول بأنهما نبيين دونه لأجل ذلك ، وإن شاء الرجل استدل علىٰ ذلك بنفس الدعوة ، وما جاء به ، وإن شاء بالكتاب الذي بعث به وإن شاء بما عليه أمته ، وإن شاء بما بعث به من المعجزات .

فكل طريق من هٰذه الطرق إذا تبين بها نبوة موسىٰ وعيسىٰ : كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بها أبين وأكمل)[3] .

---

(١) النبوات ٢٢٨ ، ٢٢٩ وانظر الفتاوىٰ ٤/ ١٩٧ وما بعدها والآية من سورة البقرة ، (٨٧) .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الفتاوىٰ ٤/ ٢٠٧ ، ٢٠٨ وانظر وما بعدها إلىٰ ٢١٥ .

ومن مسالك إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم علىٰ أهل الكتاب أن البشارة به صلى الله عليه وسلم أعظم من البشارة بالمسيح عليه السلام ، ومن أنكر ذلك من النصارىٰ كان حاله مع النبي صلى الله عليه وسلم كحال اليهود مع عيسىٰ عليه السلام في تأويلهم البشارة به وحملها علىٰ نبي بعده .

هٰذا مع أن نبوة النبي إذا كانت تثبت بالبشارة به وإخبار نبي صادق بنبوته من بعده فإنها تثبت بأمور أخرىٰ كثيرة ولا يشترط فيها البشارة دائما فنوح عليه السلام وإبراهيم وموسىٰ عليهم وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام أنبياء من أولي العزم من الرسل ولا تعلم بشارات بنبوتهم ممن تقدمهم من الأنبياء .

هٰذا علىٰ سبيل التنزل مع الخصم وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يشك أن الأنبياء قد بشروا به وذلك أنه إما أن يكون حسب زعمهم ـ كاذبا والعياذ بالله ـ فيكون مع هٰذا الظهور والدوام أعظم ضررا من الأعور الدجال وقد حذر الأنبياء أقوامهم منه فأين التحذير منه ؟ .

وإما أن يكون صادقا فلا يعقل مع عظم أمره وانتشار دينه واشتهار أحواله بما لم يماثله نبي قبله أو دين سماوي كان قبل إرساله ، إذ كيف يستقر في العقل إهمال الأنبياء ـ مع هٰذه الأمور ـ للبشارة به وبيان أحواله وتقرير أوصافه حتىٰ يؤمن به من أراد الحق ممن أدركه من أهل الكتاب أو كتب الله له الهداية ممن يعلم ذلك من كتبهم علىٰ تعاقب العصور والأزمان(١) .

بل إن دعوىٰ عدم البشارة به باطلة ومردودة بنصوص الكتب التي بأيديهم مع ما ارتكبوه من تحريف للألفاظ تارة وللمعاني تارة أخرىٰ فإن الله تبارك وتعالىٰ بحكمته أبقىٰ طائفة كبيرة من النصوص المبشرة به حتىٰ فضحهم بذلك(٢) .

هٰذا علىٰ أنه : (ليس ما يخبر به ويأمر به من الهدىٰ قولا مجردا عن دليله ليؤخذ تقليدا واتباعا للظن بل هو مبين بالآيات البينات وهي الأدلة اليقينية

---

(١) انظر الجواب الصحيح ٥/ ١٨٨ـ١٩٦ .

(٢) السابق ٥/ ١٩٧ـ٣١٨ .

والبراهين القطعية ، وكان عند أهل الكتاب من البينات الدالة علىٰ نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحة ما جاء به أمور متعددة لبشارات كتبهم ، وغير ذلك فكانوا يكتمونه كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾(١) .

ومن أعظم الآيات البينات القرآن الكريم المعجز بلفظه ومعناه ومضامينه من العلوم والحقائق الكونية والأخبار الغيبية والأحكام التشريعية والآداب السامية والقصص الحسنة الواقعية . لذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية .

(والقرآن ـ نفسه ـ قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته ، أنواعا متعددة ، مع اشتمال كل نوع علىٰ عدد من الآيات والبراهين ، مثال ذلك : إخباره لقومه بالغيب الماضي ، الذي لا يمكن بشرا أن يعلمه إلا أن يكون نبيا ، أو يكون ممن تلقاه عن نبي .

وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ، ولا من أهل الكتاب ولا غيرهم . وهـٰذا نوعان :

منه ما كان يسأله المشركون وأهل الكتاب ، لينظر هل هو نبي أم لا ؟ . . . ومنه ما كان الله يخبره به ابتداء ، ويجعله علما وآية لنبوته ، وبرهانا لرسالته . . .)(٢) .

وهـٰذا القرآن الذي تقرر أنه معجز لفظا ومعنا وأنه معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الذي جعلها الله وحيا أوحاه إليه يبين شيخ الإسلام ابن تيمية وجه إعجازه ودلالته على النبوة والرسالة ويوضح أن تعدد نظرات الناس لأوجه إعجازه يعد من الإعجاز الذي لا يعتبر متعارضا ، فيقول :

(وأما نبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام فإنها تعرف بطرق

---

(١) النبوات ٢٢٤ والآية من سورة البقرة (١٤٠) وانظر من المرجع السابق ٢٨٤ـ٢٨٦ ، و٢٣٤ ، ٢٣٥ و٣١٨ و٣١٩ .

(٢) الجواب الصحيح ٣١٩/٥ وانظر وما بعدها وقارن بما في النبوات ٢٩٣ .

كثيرة ، منها : المعجزات ومعجزاته منها القرآن ، ومنها غير القرآن ، والقرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه ، وإعجازه يعلم بطريقين جملي وتفصيلي ، أما الجملي فهو أنه قد علم بالتواتر أن محمدا صلى الله عليه وسلم ادعى النبوة وجاء بهٰذا القرآن وأن في القرآن آيات التحدي والتعجيز ، وذكر الآيات ثم قال :

(وقد علم أيضاً بالتواتر أنه دعا قريشا خاصة والعرب عامة ، وأن جمهورهم في أول الأمر كذبوه وآذوه وآذوا الصحابة ، وقالوا فيه أنواع القول مثل قولهم هو : ساحر وشاعر وكاهن ومعلم ومجنون ، وأمثال ذلك وعلم أنهم كانوا يعارضونه ولم يأتوا بسورة من مثله وذلك يدل علىٰ عجزهم عن معارضته ؛ لإن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة .

ومعلوم أن إرادتهم كانت من أشد الإرادات علىٰ تكذيبه وإبطال حجته وأنهم كانوا أحرص الناس علىٰ ذلك حتىٰ قالوا فيه ما يعلم أنه باطل بأدنىٰ نظر . . . إلىٰ أن قال :

(وأما الطرق فكثيرة جداً متنوعة من وجوه ، وليس كما يظنه بعض الناس وأن معجزته من جهة صرف الدواعي عن معارضته . وقول بعضهم إنه من جهة فصاحته ، وقول بعضهم من جهة إخباره بالغيوب إلىٰ أمثال ذلك فإن كلاً من الناظرين قد يرىٰ وجها من وجه الإحجار وقد يريد الحجر وإن لم ير غيره ذلك الوجه)[1] .

وبهٰذا النص الشامل نختم هٰذا المبحث الذي تبين فيه بجلاء أن شيخ الإسلام ابن تيمية يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما أثبت به جنس النبوة ويخص النبوة المحمدية ببيان أكثر حيث برهن علىٰ إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما تواتر من اتفاقه في الوحي وما تضمنه من خير وعلم نافع مع من

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ وقارن بالجواب الصحيح ٥/ ٤٢٢ وما بعدها .

سبقه من الأنبياء وأن حال أهل الأرض كان يتطلب بعثته ويوجب إنقاذ البشرية برسالته .

وأن قومه يعلمون صدقه لما علموه من حاله قبل النبوة من الصدق والأمانة حيث لم يجربوا عليه كذبا فلا يعقل أن يدع الكذب على الناس ويأتي بعد الأربعين ليكذب على الله تعالىٰ ، هـٰذا مع ما عرف عنه من رجاحة العقل والالتزام المروءات وأصول مكارم الأخلاق التي يعلم أن الله تعالىٰ لا يختص بها أحدا ثم يعرّضه لما يناقضها . فقومه علىٰ هـٰذا إنما كذبوه حسدا وجحوداً وكذلك أهل الكتاب فإنهم كانوا ينتظرون مبعثه لما لديهم من البشارات به ووصف مخرجه ومهاجره والعلم بما سيكون من أمره من عزة ونصرة وانتشار دعوة وظهور أمر ، هـٰذا مع اطلاعهم علىٰ سنن الله في الكون وحال البشرية حين مبعثه .

فعلم الجميع بصدقه ظهر علىٰ ألسنتهم في مناسبات عديدة وتبين للناس أنهم تركوا اتباعه وإثبات نبوته عنادا وحسدا من عند أنفسهم وأن الشبه والاعتراضات التي ذكروها إنما هي تمويهات ، وكذلك الكتاب الذي جاء به شاهد بنبوته وأنه لا يصدق العقل التفريق بينه وبين عيسىٰ وموسىٰ في النبوة إلا متناقض لا يطلب الحق وينفر منه إذا بُيِّن له .

وكذلك ما تواتر في السنة المطهرة من إكرام الله تعالىٰ له في مناسبات عديدة بخوارق عجيبة ومعجزات باهرة لا يرتاب العاقل في كونها من أظهر البراهين على النبوة والصدق إذ هي خارجة عن نطاق القدرة البشرية ، وإن كانت ليست هي برهان نبوته فهي من أعلامها التي لم يمكن لأحد إنكارها أو الاعتراض عليها ، ولذلك لم يتحدهم بها إذ لم يظهر من حال القوم المشاهدين لها إلا التصديق بأنها من الله تعالىٰ وأنها دالة على الإكرام والصدق والتأييد .

أما القرآن الذي ادعوا بهتانا أنه افتراه أو تعلمه مع علمهم فيما بينهم أنهم هم الذين ارتكبوا هـٰذا الافتراء والبهتان فإنه هو معجزته الخالدة التي تحداهم بها وأغلق الباب بتعجيزهم مدى الدهر ، ولا يضرنا عدم الجزم بوجه إعجاز محدد

فيه ، وليس بقادح في غرضنا القول بالصرفة والمنع من الممكن مع توفر القدرة والدواعي وإن كان شيخ الإسلام ابن تيمية يعترض علىٰ ذكرها كوجه إعجاز إذ الأوجه المذكورة في الإعجاز تغني عنها لظهورها وخلودها[1] . والله أعلم .

وإلى المبحث الثالث لنعقب فيه علىٰ مضامين المبحثين السابقين علىٰ ضوء الكتاب والسنة .

* * *

(١) انظر الجواب الصحيح ٣١٩/٥ وما بعدها و٤٢٢ وما بعدها ، وشرح العقيدة الأصفهانية ٢١٠ .

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

قد تبين من واقع نصوص المبحثين السابقين وما تهيأ من دراستها أن النبي صلى الله عليه وسلم ثبتت نبوته بما ثبتت به نبوة إخوانه من الأنبياء والمرسلين من حيث بيان قدرة الله تعالىٰ علىٰ تعليم الخلق الذي خلق ، ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾(1) .

فالذي خلق الإنسان وفطره علىٰ معرفته تعالىٰ بربوبيته ، وعلمه بما جبله عليه من الطلب والسعي ، والكسب والجلب والدفع أن يتعلم من الأشياء والموجودات ما يلبي حاجته بعقله وفكره حتىٰ صار الناس يتعلم بعضهم من بعض ويفهم بعضهم مقاصد بعض بالمخاطبة والإيحاء والإيماء والإشارة والكتابة بالقلم والمراسلة وبعث الرسل .

فالذي يَسّر له ذلك كله قادر علىٰ أن يعلمه ما يحتاجه من العلوم والمعارف وما يكمل به عقله ويصحح به فطرته فيجتمع له بذلك نور العقل والفطرة وأنوار الشرع والهداية .

ذلك أن الأمر كله لله تعالىٰ ، وهو حكيم رحيم ، لا يخلق عباده ويتركهم سدىٰ ويبقيهم هملا دون أن يشرع لهم ملة يتبعونها وقانونا يحكمونه في حركاتهم وسكناتهم ، ونظاماً يترافعون إليه في حال منازعاتهم عند تضارب مصالحهم .

وهـٰذا ما رأينا إمكانه ووقوعه في أمم كثيرة وتعلمنا منه سنة الله تعالىٰ في نصرة أنبيائه وتأييده لهم بالمعجزات ودلائل الصدق من خلال الآيات الباهرات ، وإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين .

---

(1) سورة العلق ، آية (١ـ٥) .

وبما أثبتنا به نبوتهم وجدناه عند النظر في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم يتفق معهم فيه بشهادة القرآن الكريم والسنة المتواترة والصحيحة والأخبار والسير المستفيضة .

وهـٰذه أمور يتفق الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية عليها ، والرد على المنكرين من خلالها وإبطال شبههم علىٰ ضوئها كما شرحناه آنفا وعليه فنماذج من نصوص الوحيين الكتاب والسنة تغني عن الإطناب في ذلك قال تعالىٰ :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[١] .

فالذين لا يرتابون في نبوة هـٰؤلاء قد أعلمهم الله أنه أرسله كما أرسلهم ونبأه كما نبأهم وأوحىٰ إليه كما أوحىٰ إليهم .

ولذلك لما بالغ اليهود في إنكار نبوته حتىٰ أنكروا أن يكون الله تعالىٰ أنزل وحيا علىٰ أحد ، بيّن لهم أنهم ما عظموا الله ولا قدروه حق قدره بهـٰذا الافتراء ، وأفحمهم بما لا جواب لهم عنه وهو كتاب موسىٰ عليه السلام الذي يدعون التمسك به وأنه قال إنه لا نبي بعده فقال تعالىٰ :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[٢] .

---

(١) سورة النساء ، آية (١٦٣ـ١٦٦) .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٩١ـ٩٢) .

وإذا كان الأنبياء الذين نزل عليهم الوحي لا يملكون إلا تلقيه وتبليغه فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(١) .

وقد احتج الله تعالىٰ كثيراً في القرآن الكريم علىٰ أهل الكتاب موبخا إياهم علىٰ إنكار نبوته صلى الله عليه وسلم لما عندهم من دلائل صدقه والعلم ببشارات الأنبياء به وذكرهم بالشهادة التي كتموها حسدا وتكبرا عن الحق(٢) .

وكما دفع الله شبه اليهود والنصارىٰ عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما احتج عليهم به من نبوات الأنبياء المتقدمين الذين يدعون الإيمان بهم احتج كذلك على المشركين وسائر الكافرين لإثبات نبوته صلى الله عليه وسلم ، ونفىٰ ما زعموه افتراء أنه تعلم القرآن من بشر أو افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، أو أنه يشتبه بالسحر وأعمال الكهنة والعرافين ، وإن كان له أثر عظيم في القلوب والنفوس . ولما قرر القرآن إبطال ما عندهم من تخرصات وظنون لا دليل عليها خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم آمرا له بقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٣) .

وإذا لم يكن بدعا من الرسل فإن ذلك معناه أن للرسل علامات وأحوالاً يعرف بها صدقهم وتثبت بها نبوتهم . وقد جئنا علىٰ كثير من ذلك ـ ولله الحمد ـ ونود هنا أن نلم بأهم ما برهن به الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ نبوته صلى الله عليه وسلم مما له شاهد في الكتاب والسنة زيادة علىٰ ما تقدم عنهما إذ من مهام التعقيب استكمال الفكرة والاستدلال عليها وإعطاء نظرة شاملة مركزة عن فحوى المباحث التي يعقب عليها وذلك لا يتحقق في حالات كثيرة إلا بنهج نظام الفقرات لضبط المعلومات وتصوير المعطيات ، لذا نقول :

---

(١) سورة النمل ، آية (٦) .

(٢) انظر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ، تأليف الدكتور/ حسن ضياء الدين عتر ، دار البشائر الإسلامية ط١ ، ١٤١٠هـ ، وما بعدها .

(٣) سورة الأحقاف ، آية (٩) .

إن الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية برزت جهودهما في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على المنكرين في المسائل الآتية :

أ ـ في النظر إلىٰ حاله قبل المبعث وما كان عليه من أصول الأخلاق وطيب الشمائل بحيث لم يجرب عليه قومه كذبا ولا ظلما ولا خيانة ولا عبادة للأوثان والأصنام ولا دخولا فيما هم فيه من الفواحش والموبقات حتىٰ ظهر لهم تميُّزه بخصال الخير ومجانبته لأسباب الشر ، هٰذا بالإضافة إلى الإرهاصات والعلامات التي حفظت عند مولده أو وقعت عند مبعثه وبما نظرا فيه شهد الكتاب والسنة وعلماء الأمة[(١)] .

وما كان قبل المبعث يدل على الاصطفاء والعناية الربانية وإن لم يكن برهان نبوة .

ب ـ أنه ادعى الوحي ودعا إلىٰ توحيد الله وعبادته وأمور عظيمة وأخبر بالغيوب البعيدة في الزمان والمكان خبرا صادقا يوافق ما جاء به الأنبياء قبله كما شهد بذلك ورقة بن نوفل والنجاشي ، وعبد الله بن سلام ، وهرقل ملك الروم وغيرهم ممن كان يعلم أن ما جاء به مطابق لما جاء به الأنبياء ، وأن ما أخبر به جوابا عن سؤال أو ابتداء من خبر أو أمر ونهي وعقيدة وآداب وغير ذلك من الأحكام والتشريعات يتفق وما دعا إليه الأنبياء قبله .

وبذلك يكون أهل الكتاب جحدوا نبوته وحسدوه علىٰ هٰذه النعمة فضلوا ضلالا بعيدا . وهٰذا ما تقدم في نصوصهما ما يبرهن على اتفاقهما عليه ، وبهٰذه الأمور شهد الكتاب والسنة وأطبق علماء الأمة[(٢)] .

---

(١) انظر الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، للإمام المؤرخ إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي ، تحقيق سيد بن عباس الجليمي ، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ط١ ، ١٤١٣هـ ـ ٣١ـ٤٠ ، وانظر المواهب اللدنية ١/ ٨٥ـ١٠٥ ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ١٣٢ـ١٥٠ .

(٢) انظر إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات ، للإمام محمد بن علي الشوكاني ، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤هـ ، ٢٥ وما بعدها .

جـ ويتفقان كذلك علىٰ أن النظر في القرآن الكريم يوصل إلىٰ إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة وأنه صلى الله عليه وسلم تحدى الإنس والجن به وقد توفرت في قومه دواعي معارضته ومناقضته فلم يتعرضوا لمعارضته لما بهرهم من فصاحته وعظيم أمره وجزالة أسلوبه واتساق نظمه ، فسلموا لإعجازه واستسلموا لأمره وتعرضوا لمقاومة أوامره والاستخفاف بوعده ووعيده وارتكبوا نواهيه وعاندوا زواجره فحكم فيهم السيف حتىٰ هلك من هلك عن بينة وحيي من حيي عن بينة وهم مع ذلك كما وصفهم الله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1] .

وعلىٰ ما اتفقا عليه دل الكتاب والسنة وتحقق عند علماء الأمة[2] ، علىٰ أن الإمام الغزالي في بيانه لوجه الإعجاز في القرآن الكريم يرىٰ أن القول بالصرفة أي دعوىٰ صرف الله تعالى العرب عن معارضة القرآن الكريم بدعوىٰ أنه لم يتجاوز مستوىٰ طاقتهم واقتدارهم في البلاغة غير ضائر في تحصيل الغرض من حصول الإعجاز بناء علىٰ أن منع المعتاد بالتحدي أمر خارق للعادة ومعجز إعجازا يدل على الصدق ويدل على النبوة إن اقترن بالدعوىٰ والتحدي ، ومذهب الصرفة وما يتصل بذلك من لوازم وشبه يرفضه شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولا يقره الإمام الغزالي لما بين من توفر دواعي الدفاع عن النفس وأنه من المقطوع به ضرورة أن الاشتغال بذلك أي بنظم كلام أسهل من التعرض للسيف والقتل والسبي وكل ما وقع للعرب من ذلك بما تغني شهرته عن ذكره[3] .

د ـ ويتفقان علىٰ صور أخرىٰ عديدة من الأمور التي أثبت الناس بها نبوته

---

(١) سورة الأنعام ، آية (٣٣) .

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن ٢/ ٩٠ـ١١٨ و١٧٤ و٣/ ٤٦٨ وما بعدها ، وقارن بما في مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٣١ـ٤٠٩ واعتبره بما في الشفا للقاضي عياض ٢/ ٧٦٢ـ٨٤٥ .

(٣) انظر الاقتصاد ١٣٠ وقارن بما في شرح العقيدة الأصفهانية ٢١٠ ، واعتبر بما في مناهل العرفان ٢/ ٤١٤ـ٤١٩ .

صلى الله عليه وسلم لما وقع أمام أعينهم أو بنقل يثبت به تواتر الجنس وثبوت المجموع من خوارق العادات التي وصلت إلىٰ ألف واقعة عند من أحصاها من العلماء[1] .

وهٰذا النقل المشار إليه يفيد علما ضروريا لا يرتاب معه مسلم ، ولا يملك دفعه معاند إلا جحوداً ، ولا يقدر من يقر بأصل النبوات ويعلم ما أكرمهم الله به من معجزات حسية أن يتهرب من الإقرار بها ؛ إذ نقلتها أكثر وأوضح سندا ومتنا من الوسائل التي وصلت له بها معجزات موسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام .

وكذلك لا يملك طبائعي أو متفلسف نسبتها إلى التصرف في المادة ؛ إذ لا يقبل ذلك بنقل المشاهدين وتوافق الناقلين ، ولذا فاتفاقهما علىٰ إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم علىٰ هٰؤلاء جميعا بالمعجزات الحسية يتفق وما شهد به القرآن ونص عليه الوحي بالبيان أعني الوحي الذي أوتيه صلى الله عليه وسلم مع القرآن وهو سنة سيد ولد عدنان ، وقد أجمع على الإيمان بها وإثبات نبوة الأنبياء بها علماء سائر الأديان التي أصلها خرج من المشكاة التي خرج منها القرآن[2] .

هٰذا علاوة علىٰ أن من خالطه قبل المبعث وعرف صدقه وبعده عن مواطن الريب لم يتردد في إثبات نبوته والمبادرة إلى الإيمان به ، وحال أم المؤمنين خديجة وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة يشهد بذلك ؛ إذ علمنا أنه لم يطلب أحد منهم برهانا ولم يتلعثم ساعة ؛ لمكان الإلف والمخالطة الموجبة للعلم التام بحاله صلى الله عليه وسلم من الصدق وحب الخير للناس[3] .

---

(١) انظر الجواب الصحيح ١/ ٣٩٩ وما بعدها .

(٢) انظر معجزات المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ٨٢ـ١٠٦ ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ٢٢٣ـ٢٣٢ و٦/ ٥٨٠ وما بعدها .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٣ـ٢٥٠ ، وصحيح مسلم لشرح الإمام النووي ١٥/ ١٤٨ ، =

وكما آمن به وأثبت نبوته صلى الله عليه وسلم من كان مطلعا علىٰ أحواله عالما بفضائله وجميل شمائله كذلك كتب الله الإيمان لأقوام بمجرد سماع كلامه لصدق لهجته وحلاوة منطقه وبهاء طلعته بحيث يجزم أحدهم قائلا : (هـٰذا نبي) أو قائلا : (أشهد أنه نبي)[1] .

وبهـٰذا نعلم أن طرق الناس في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم كثيرة وعديدة ، وأن جهود هـٰذين الإمامين في إثباتها والرد علىٰ منكريها كانت جبارة ومتنوعة .

وإذا كان ذلك واضحا فإنه مما يحمد لهما ويدعو إلىٰ إبراز جهودهما في هـٰذا الصدد ، وخصوصا شيخ الإسلام ابن تيمية لما ظهر من كثرة نصوصه في هـٰذا السبيل وتوجهه لمجادلة أهل الكتاب بالكتاب والسنة والأدلة العقلية والبرهنة علىٰ مراده من نصوص كتبهم ومناقضتهم في دعاواهم الإيمان بها وبمن يدعون أنه نقلها لهم عن الأنبياء المقربين بنبوتهم ، فلا يرتاب من تتبع كتبه وما خص النبوات به في أن هـٰذا الأمر يشغل باله ويليه جل اهتمامه ويسلك فيه مسالك حسنة ومناهج مقنعة يدرك الباحث منها سعة علمه وقوة عقله واستيلاء الأمر علىٰ فؤاده واعتباره كل شيء في حياته لأنه أصل دينه الذي يذود عن حياضه ، ويدعو الناس لولوج أبوابه . هـٰذا ما أردنا التعقيب به علىٰ هـٰذا التعقيب الذي عقبنا به علىٰ طرق إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند هـٰذين الإمامين لنصله بفصل عن خصائص نبوته التي ثبتت ، ثبتنا الله علىٰ ملته . آمين .

* * *

= والفتح الرباني ٢٢/ ٢ـ٣٩ ، والشفا ٢/ ٣ وما بعدها . و٢١٥ وما بعدها .

(١) انظر الجواب الصحيح ٦/ ٤١٨ـ٥١٧ .

الفصل الثاني

خصائص نبوته صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي

إن من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي يشتركون فيها الوحي والاطلاع على الغيب ، والدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ، والأمر بالمحافظة على الدماء والأموال والأعراض والأنساب والعقول .

أما التشريعات والأحكام الأخرىٰ والآداب العامة والأنظمة المعمول بها فقد تختلف وتنسخ وينزل علىٰ هٰذا النبي ما كان محرما في شريعة من قبله ، ويخفف في شرع هٰذا ما كان فيه أغلال وآصار علىٰ من قبله من الشرائع .

وقد رأينا أن الله تعالىٰ أرسل رسله تترىٰ بعد نوح عليه السلام وكان كل نبي يبعث في قومه خاصة وبلسانهم ليبين لهم ، ولا يتجاوزهم إلىٰ غيرهم بالدعوة إلىٰ ما جاء به وقد يصرح بأنه لم يبعث إلا إلىٰ هٰذا الشعب الخبيث ، أو خراف بني إسرائيل الضالة كما نقل ذلك عن عيسىٰ عليه السلام ، وكما هو حال موسىٰ فيما آلت إليه نبوته بعد غرق فرعون وقومه .

وعليه فالأنبياء دينهم واحد وشرائعهم قد تختلف والاستجابة لدعوتهم ودرجة تكذيب أقوامهم لهم أو تصديقهم واتباعهم مختلفة هي الأخرىٰ أيضاً ، هٰذا مع أن لكل واحد منهم آية أو آيات تدل علىٰ صدقه ويؤمن عليها البشر ، ولهم صفات حسنة تعمهم مع تفاوتهم فيها حسب ما تقدم بيانه في فصل صفات

الأنبياء[1] . وتصديق ما ذكرنا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه :

(. . . والأنبياء إخوة لعلاّت ، أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد)[2] .

وإذ عرفنا صوراً من الاشتراك في الخصائص فلنحاول مع الإمام الغزالي حتىٰ يعرفنا ما به الافتراق بعرض شيء من نصوصه النادرة في هـٰذا المبحث بالذات ألا وهو خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأكثر ما وجدناه له من النصوص المساعدة على استطلاع رأيه في الخصائص النبوية هي ما جاء في كتاب : روضة الطالبين وعمدة السالكين[3] المطبوع ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي رقم[4] .

وهـٰذا الكتاب فيما هو واضح لمن قرأه وعرف تاريخ العلماء يعلم أنه ليس للإمام الغزالي إذ فيه نقل في الرد علىٰ من أجاز الصغائر على الأنبياء من كتاب الشفا للقاضي عياض المتوفىٰ ٥٤٤هـ[5] .

وما لم تثبت نسبة هـٰذا الكتاب للإمام الغزالي فإننا نقتصر علىٰ ما وجدناه من نصوصه في كتبه الثابتة له ولا يضرنا ندرتها في هـٰذا الصدد ما دام يعرف منها وجه المقصد[6] .

إن كلام الإمام الغزالي فيما يمكن أن يصنف في بيان خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم يرجع إلىٰ مقصدين هما :

المقصد الأول : عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/ ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٢) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ الحديث (٣٤٤٣) وانظر في معنى الحديث فتح الباري ٦/ ٤٨٩ .
(٣) المذكور ٧٣ وما بعدها .
(٤) طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ١٤٠٦هـ .
(٥) انظر المرجع المذكور ٤/ ٢٩٢ وما بعدها .
(٦) انظر الإحياء ٤/ ١٨٢ ، ١٨٣ .

المقصد الثاني : ختم النبوة بنبوته صلى الله عليه وسلم .

أما المقصد الأول : فيرد فيه على العيسوية القائلين بأن رسالته صلى الله عليه وسلم خاصة بالعرب ، ويورد فيه نصوصا أخرىٰ يوضح فيها بطريق حكاية الواقع شمول شريعته صلى الله عليه وسلم وأنه مبعوث إلىٰ كافة الناس وأن العيسوية متناقضون : (حيث ذهبوا إلىٰ أنه رسول إلى العرب فقط لا إلىٰ غيرهم ، وهـٰذا ظاهر البطلان فإنهم اعترفوا بكونه رسولا حقا ، ومعلوم أن الرسول لا يكذب ، وقد ادعىٰ هو أنه رسول مبعوث إلى الثقلين ، وبعث رسوله إلىٰ كسرىٰ وقيصر وسائر ملوك العجم[1] وتواتر ذلك منه . فما قالوه محال متناقض)[2] .

(والأصل المقطوع به أن كل من كذب محمداً صلى الله عليه وسلم فهو كافر أي مخلد في النار بعد الموت، ومستباح الدم والمال في الحياة إلىٰ جملة الأحكام. . .)[3] .

وهـٰذا التكفير يشمل كل مكذب لعموم رسالته صلى الله عليه وسلم ذلك أن : (معنى الكلمة الثانية ـ التي هي شطر كلمة الشهادة بالإسلام ـ هي الشهادة للرسل بالرسالة ، وأنه ـ تعالىٰ ـ بعث النبي الأمي القرشي محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلىٰ كافة العرب والعجم والإنس والجن ، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها .

وفضله علىٰ سائر الأنبياء وجعله سيد البشر . ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول : لا إله إلا الله ، ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك : محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة)[4] .

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ٣١ وما بعدها . و٨/ ٢١٤ وما بعدها .
(٢) الاقتصاد ١٢٧ .
(٣) السابق ١٥٦ وانظر منه ١٥٧ وانظر معراج السالكين ١٣٨ـ١٤٠ وانظر فيصل التفرقة ١٢٠ .
(٤) الإحياء ١/ ٨٦ ، ٨٧ وانظر قواعد العقائد ضمن المجموعة (٢) ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

وبرهان ذلك أنه صلى الله عليه وسلم : (أفاض على الخلق ما أوحي إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم ، وأنه ما كتم شيئا من الوحي وأخفاه وطواه عن الخلق ، فإنه لم يبعث إلا لذلك ، ولذلك كان رحمة للعالمين فلم يكن متهما فيه ، وعرف ذلك علما ضروريا من قرائن أحواله في حرصه علىٰ إصلاح الخلق وشغفه بإرشادهم إلىٰ صلاح معاشهم ومعادهم ، فما ترك شيئا مما يقرب الخلق إلى الجنة ورضاء الخالق إلا دلّهم عليه وأمرهم به وحثهم عليه ، ولا شيئا مما يقربهم إلى النار وإلىٰ سخط الله إلا حذرهم منه ونهاهم عنه ، وذلك في العلم والعمل جميعاً)[1] .

فبهٰذه النصوص التي تضمنها هٰذا المقصد يكون رأي الإمام الغزالي أن من خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم العموم والشمول والوفاء بما يحتاجه الخلق في العلم والعمل وكل ما يتصل بالدنيا والأخرىٰ .

فهٰذا بينه النبي صلى الله عليه وسلم إذ لم يبعث إلا لتعليم الناس وتبلغيهم وإرشادهم إلىٰ ما يقربهم من الله تعالىٰ ويبعدهم من سخطه ويدخلهم الجنة ويجنبهم النار فبذلك كان رسولا إلى الثقلين ورحمة للعالمين .

فمن أنكر أصل نبوته فقد أثبتناها عليه في المباحث السابقة ومن اعترف بكونه رسولا لزمه تصديقه فيما تواتر عنه من دعوة الناس عامة وجهادهم على الإيمان به بالإضافة إلىٰ ما علم ضرورة من وفاء شريعته بما يحتاجه العباد في معاشهم ومعادهم .

وهٰذا مؤذن بختم الشرائع بها وكونه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وذلك هو المقصد الثاني .

المقصد الثاني : ختم النبوة بنبوته صلى الله عليه وسلم :

رأينا الإمام الغزالي في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم يرد على اليهود المنكرين للنسخ مفهما إياهم أن المحذور الذي بنوا عليه نفيهم للنسخ

---

(١) إلجام العوام ٩٢ ، ٩٣ وانظر الرسالة اللدنية ٩٨ والمنقذ ٨١ .

بعد موسىٰ غير حاصل وأنه يلزمهم منعه منذ آدم عليه السلام إلىٰ موسىٰ عليه وعلىٰ سائر الأنبياء الصلاة والسلام .

كما أوضح أن ورود نبي لا يقضي بنسخ شريعة من قبله بمجرد الإنباء وأن النسخ لا يحصل في غالب الشرائع وإنما في أمور اقتضت رحمة الله بعباده في الأعصار والأحوال نسخها لتقلب الأزمان واختلاف الأقوام والبلدان وحيث ألزمهم ذلك حتىٰ أثبت عليهم نبوة نبي بعد موسىٰ عليه السلام كان لزاما عليهم تكذيب من نقل لهم عن موسىٰ عليه السلام أنه قال : (عليكم بديني ما دامت السمـوات والأرض ، أو قال : إني خاتم الأنبياء)[(١)]

هٰذا علاوة علىٰ جزمه بأن هٰذه الشبهة إنما لقنوها بعد وفاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذ لو كانت معلومة لديهم لأفحموه بها ولما ترددوا في الإدلاء بها .

ومن هنا قال الإمام الغزالي في نصوصه جازما بختم النبوة ونسخ ما قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما أقره الله تعالىٰ من تشريعاته :

(الأصل العاشر : أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارىٰ والصابئين . .)[(٢)] .

(وأغلق الله باب الوحي من عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وكان أعلم الناس وأفصح العـرب والعجـم . .)[(٣)] .

ويوضح الإمام الغزالي أنه ولو انقطع الوحي وانسد باب الرسالة فإن باب

---

(١) انظر الاقتصاد ١٢٨ وانظر الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، الدكتور/ عبد العظيم المطعني ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، ٤٣٧ وما بعدها ، واستيفنوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ١٧١ وما بعدها .

(٢) الإحياء ١/ ١٠٥ .

(٣) الرسالة اللدنية ١٠٥ .

الإلهام لم ينسد لحاجة النفوس إلى التذكر والتجديد ، فيقول :

(واعلم أن الوحي إذا انقطع ، وباب الرسالة إذا انسد استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] ، فالله تعالىٰ أغلق باب الوحي وهو آية العباد وفتح باب الإلهام رحمة وهيأ الأمور . . .)[2] ، (وكانت النبوة مقصودة بالإيجاد والمقصود كمالها وغايتها لا أولها ، وإنما تكمل بحسب سنة الله تعالىٰ بالتدريج كما تكمل عمارة الدار بالتدريج لتمهد أصل النبوة بآدم ولم يزل ينمو ويكمل حتىٰ بلغ الكمال بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان المقصود كمال النبوة وغايتها ، وتمهيد أوائلها وسيلة إليها كتأسيس البنيان وتمهيد أصول الحيطان فإنه وسيلة إلىٰ كمال صورة الدار ، ولهـٰذا السر كان خاتم النبيين . . فإن الزيادة على الكمال نقصان وكمال شكل الآلة الباطشة كف عليه خمس أصابع ، فكما أن ذا الأصابع الأربعة ناقص فذو الأصابع الستة ناقص لأن السادس زيادة على الكفاية فهو نقصان في الحقيقة وإن كان زيادة في الصورة . فإذا عرفت أن كونه خاتم النبيين ضرورة لا يتصور خلافه إذ بلغ به الغاية والكمال في التقدير وآخر الوجود)[3] .

وبعد أن قرر الإمام الغزالي هـٰذا ، رأىٰ أن يسد بعض الثغرات التي قد يتسرب منها شذاذ من الناس كما حصل فعلاً[4] ومحاولة ذلك السد جاءت ضمن مناقشة رتب الكفر التي رتبها الإمام الغزالي ليبين من خلالها أن الحكم

---

(١) سورة المائدة ، آية (٣) .

(٢) السابق ١٠٧ .

(٣) المضنون به الصغير ١٧٦ـ١٨٠ .

(٤) انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية للدكتور عثمان ، مصدر سابق ١٠ وما بعدها و٨٣ـ١٨٣ ، والقاديانية دراسات وتحليل تأليف إحسان إلهي ظهير ط ١٤٠٤هـ ـ ٤٩ـ٩٣ . والتجانية دراسة لأهم عقائد التجانية علىٰ ضوء الكتاب والسنة ، تأليف علىٰ بن محمد الدخيل الله ، دار طيبة ، الرياض ، ١٠٤ـ١٢٣ .

بكفر جاحد الخالق وناكري النبوات ليست متساوية في الجزم بها والقطع بتكفير معتقدها مع منكر الإجماع ، (إذ الإشكالات كثيرة في وجه كون الإجماع حجة فيكاد يكون ذلك الممهد للعذر ولكن لو فتح هذا الباب انجر إلىٰ أمور شنيعة وهو أن قائلا لو قال : يجوز أن يبعث رسول بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيبعد التوقف في تكفيره ومستند استحالة ذلك عند البحث تستمد من الإجماع لا محالة فإن العقل لا يحيله وما نقل فيه من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا نبي بعدي)[1] ، ومن قوله تعالىٰ : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[2] .

فلا يعجز هذا القائل عن تأويله ، فيقول : خاتم النبيين أراد به أولى العزم من الرسل ، فإن قالوا : النبيين عام ، فلا يبعد تخصيص العام .

وقوله : لا نبي بعدي لم يرد به الرسول ، وفرق بين النبي والرسول ، والنبي أعلىٰ رتبة من الرسول إلىٰ غير ذلك من أنواع الهذيان ، فهذا وأمثاله لا يمكن أن ندعي استحالته من حيث مجرد اللفظ . فإنا في تأويل التشبيه قضينا باحتمالات أبعد من هذه ولم يكن ذلك مبطلا للنصوص .

ولكن الرد علىٰ هذا القائل أن الأمة فهمت بالإجماع من هذا اللفظ ومن قرائن أحواله أنه أفهم عدم نبي بعده أبدا وعدم رسول لله أبدا وأنه ليس فيه تأويل ولا تخصيص فمنكر هذا لا يكون إلا منكر الإجماع)[3] .

هذا هو الإمام الغزالي يركز في حديثه عن خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ أهمها وأعظمها أثرا وأدلها علىٰ خلود هذا الدين الذي لا يقبل الله تعالىٰ من أحد غيره ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[4] .

وبهذا الجهد يكون قد أبطل مزاعم من قصر نبوته صلى الله عليه وسلم على

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل الحديث رقم (٣٤٥٥) .

(٢) سورة الأحزاب ، آية (٤٠) .

(٣) الاقتصاد ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٤) سورة آل عمران ، آية (٨٥) .

العرب من المعترفين بنبوته وأثبت شمول شرعه وهيمنته على الأديان قبله وأن ما لم ينسخ منها لا يعمل به إلا لأنه شرع له صلى الله عليه وسلم .

وللإمام الغزالي جهود كبيرة في بيان يسر هٰذه الشريعة وعمومها وكمالها ووفائها بحوائج البشر بكل سهولة ومرونة وهٰذه أمور أنزلها الله بها لتكون قاضية ببقائها ، إذ قطع التشريع بها وهيأ العلماء للنظر في استخراج أسرارها والاستنباط عند النوازل من عمومات نصوصها التي يندرج تحتها كثير من الأحكام والحلول والآداب ، والأخلاق والتربية والسلوك والمعاملات الواضحة والعبادات المزكية للنفس المصفية للروح ، هٰذا بالإضافة إلىٰ ما شرحته عن الكون وما يحيط بالإنسان وما ينتظره بعد الموت في البرزخ وعند قيام الساعة حتىٰ يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار كل ذلك بأسلوب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب المثمر في القلب المصلح للنفس . .[1] .

* * *

---

(١) انظر المنقذ ٨١ وما بعدها . ومنهاج العابدين ، وميزان العمل ، وإحياء علوم الدين ، ومعراج السالكين تجد ما المحنا إليه فيها واضحا جليا بإذن الله .

المبحث الثاني

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية

إذا تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن خصائص النبوة المحمدية تفتح ذهنه وتفتق فكره وسال يراعه وتقاطرت عليه الأدلة والنصوص فكوّن منها جيشا جراراً يقوده الكتاب والسنة وتسانده نصوص العهد القديم والعهد الجديد ، وفي خضم هـٰذه المعركة يجد الباحث نفسه بين جبهات متعددة ولا يعرف إذا حجم بجهده المتواضع علىٰ إحداها ما نصيبه من الغنيمة وإذا شتت جهده عليها ضاع وقته وجهده معا وأيقن بالهزيمة من بداية الهجمة .

ولعلمنا مسبقا بذلك الحال الموصوف تذرعنا بالقول القائل والمثل السائر : ما لا يدرك كله لا يترك جله ، وقنعنا من الغنيمة بسهمين إذا تحقق لنا الفوز بحيازتهما كانت لنا مشاركة في المعركة وحظ من النصر والظفر ، علىٰ أننا لا نغفل دراسة الخصائص المعروفة التي من الله تعالىٰ علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم بها وفضله بالاختصاص بها علىٰ سائر إخوانه كما جاء في الحديث المتفق عليه منّ قوله صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبعثت إلىٰ كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلىٰ حيث كان ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة . . (وفي لفظ لمسلم أيضاً) وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون)[1] .

فهـٰذا الحديث بألفاظه وطرقه المختلفة يشهد بأن للنبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة الحديث (٣) وصحيح البخاري . كتاب التيمم ، الباب الأول ، الحديث (٣٣٥)

خصائص خصه الله بها تكرمة له وتفضلا على العباد ، وكلها واضحة جلية ودالة علىٰ ما نصت عليه علاوة علىٰ دلالتها علىٰ جمع الدين لأسباب القوة واليسر معا ، إذ النصر من مسيرة شهر ، والرعب الذي يصيب العدو من غزواته صلى الله عليه وسلم ، وما أحل له من غنائم ، دال على القوة والأخذ بأسباب النصر والغلبة لنشر الخير وبث الدين وتعميم العدل وإخراج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له[1] .

والذي يحصل فيه الخلاف دائماً ويعظم الضرر به عاجلا وآجلا هو عدم الإيمان بكونه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس كافة أو إلى الخلق عامة أو عدم الإيمان بكونه خاتم الأنبياء والمرسلين ، فمن هنا كان بيان ذلك ووجوبه ووقوعه أولىٰ من غيره من عامة الخصائص التي تدخل فيها الأمة أو يشترك فيها الأنبياء والعلماء من وجه كالشفاعة .

فهما إذا مقصدان :

المقصد الأول : عموم بعثته صلى الله عليه وسلم .

المقصد الثاني : ختم النبوة بنبوته صلى الله عليه وسلم .

الأول : يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن العرب ومن كان مثلهم من المشركين ممن لا كتاب له ولا شبه كتاب عندما ظهرت لهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبهرهم نصر الله وتأييده له دخلوا في دين الله أفواجا وآمنوا بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم بما في ذلك عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين وختمه للنبوات والرسالات ولذلك لم يتوانوا في الخروج إلى الجهاد في سبيل الله والدعوة إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتريثوا في حرب أهل الردة والقضاء على الكذابين المتنبئين لأن إيمانهم ونصوص الوحي الذي يتبعونه دلتهم دلالة قاطعة علىٰ أن الرسالة عامة وكافة

---

(١) انظر شرح الحديث في الفتاوىٰ ٢١/ ٣٤٧ وما بعدها و٢٨/ ٢٦٩ وما بعدها .

لسائر الناس وعموم الإنس والجن ، وأنها خاتمة ، وأن من خرج عن هـٰذا كان مرتدا يجب قتله أو قتاله ، ومن لم يؤمن بذلك أصلا كان كافرا بالأصالة يفترض الله على المسلمين دعوته أو فرض الجزية عليه أو قتاله وتحكيم الوحي في رقبته وما له وبلاده وذراريه حتىٰ يذعن لدين الله صاغرا ويطيع لأوامره راغبا أو راهبا ، لا يستثنىٰ من ذلك كتابي ولا غيره[1] .

ولا يصح إيمان أحد بالأنبياء قبله ما لم يؤمن به ويتبعه فيما جاء به[2] ، ولا تصح كذلك دعوىٰ من صدقه في رسالته من أهل الكتاب وأعرض عن الإيمان به مدعيا أنه رسول إلى العرب فقط . (فإذا عُلم هـٰذا فنقول بعد ذلك لمن قال إنه رسول أرسل إلى العرب الجاهلية دون أهل الكتاب : إنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله بالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترا مما ينقل عن موسىٰ وعيسىٰ وغيرهما ، وبالقرآن المتواتر عنه وسنته المتواترة عنه ، وسنة خلفائه الراشدين من بعده ، أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر أنه أرسل إلىٰ أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ ، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين ، بل ذكر أنه أرسل إلىٰ جميع بني آدم عربهم وعجمهم من الروم ، والفرس ، والترك والهند ، والبربر ، والحبشة وسائر الأمم ، بل إنه أرسل إلى الثقلين : الجن والإنس جميعا .

وهـٰذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه التي اتفق علىٰ نقلها عنه أصحابه مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم ، وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصي عددهم على الحقيقة إلا الله تعالىٰ ـ ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف الصحابة عدداً ، ثم ذلك منقول قرنا بعد قرن إلىٰ زماننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها . . .)[3] ، (. . . فكان أكثر دعائه في أول الأمر للمشركين ، لأنهم بمكة ، ثم لليهود لأنهم جيرانه بالمدينة ، ثم

---

(١) انظر النبوات ١٦٤ ، ١٦٥ و٢٢٧ .
(٢) انظر الفتاوىٰ ٤/ ١٢١ .
(٣) الجواب الصحيح ١/ ١٦٢ـ١٦٤ .

للنصارىٰ لأنهم كانوا أبعد عنه من ناحية الشام واليمن ، والمجوس أيضاً لأنهم كانوا أبعد عنه بأرض العراق وخراسان .

وهٰذا هو الترتيب المناسب ، يدعو الأقرب إليه فالأقرب ثم يرسل رسله إلى الأبعد . وهو صلى الله عليه وسلم كان ـ أولا ـ مشغولا بجهاد المشركين واليهود ، فلما صالح المشركين صلح الحديبية وحارب يهود خيبر عقب ذلك ففتحها الله عليه وقسمها بين الذين بايعوا تحت الشجرة : الذين شهدوا صلح الحديبية ، تفرغ لمن بعد عنه فأرسل رسله إلىٰ جميع من حواليه من الأمم . فأرسل إلىٰ ملوك النصارىٰ بمصر والشام والحبشة . .)[1] .

فإذا وضح أنه تواتر عنه أنه رسول إلى الثقلين الإنس والجن[2] ، الأميين والكتابيين ، ولم ينقل عنه قط أنه لم يبعث إلىٰ أهل الكتاب بل وضح أن صنيعه يخالف دعوىٰ أنه رسول إلى العرب فإذا قامت عليهم الحجة بذلك كان من لم يؤمن به منهم كافرا مخلدا في النار وهٰذا ما وقع فعلا لمن كان غير مؤمن بنبوته منهم حيث كان صلى الله عليه وسلم يكفرهم ويقوم بجهادهم ويأمر به : (وهٰذا كله يخبر به عن الله ويذكره تبليغا لرسالة ربه ، وإنما يضاف إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أنشأه وابتدأه)[3] .

إذا تبين ذلك بطلت دعوىٰ خصوصية رسالته صلى الله عليه وسلم للعرب وبه يتبين أنه لا مستند لهٰذه الدعوىٰ لا من كتبهم هم التي اشتملت على البشارات بنبوته صلى الله عليه وسلم ، ووصفت أحواله وأعطت صفاته وشرحت ما أعطاه الله من شريعة تجمع الفضل والعدل والخير والقوة والهدىٰ والنور ، والأخذ بالعدل وعدم تضييع أي حق .

وحيث تبين أنه لا مستند لهٰذه الدعوىٰ في كتبهم ولا في واقع سير دعوته

---

(١) السابق ٥/ ٦٦ـ٦٨ .

(٢) انظر الفتاوىٰ ـ إيضاح الدلالة في عموم الرسالة ضمن ١٩/ ٩ وما بعدها . و١٣/ ٣٦٤ .

(٣) الجواب الصحيح ٢/ ٢٢١ ، ٢٢٢ وانظر النبوات ٣٩٦ ، ٣٩٧ وما بعدها .

صلى الله عليه وسلم فإنه لا وجه لها في مجرد كون القرآن نزل بلسان العرب أو كانت الدعوة إلى الإسلام منطلقة من ديارهم أو جاء الخطاب موجها إليهم فذلك كله لا ينافي عموم الرسالة وشمول الدين لجميع الأجناس والأمم والجن ؛ لأن كل نبي كان يبعث في قومه إنما كان يخاطبهم بلسانهم ، ويبين لغيرهم ما يحتاجون إليه من الأحكام إذ ليس كل الناس مطالبون بفهم معاني القرآن كله وتعلم جميع أحكامه وهٰذا واقع في كتب الأنبياء قبله إذ موسىٰ وعيسىٰ عليهم وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام إنما كانوا يخاطبون الناس بالعبرانية مع أن دعوتهم كانت خاصة ولا يطالبون كل مخاطبيهم بتعلم كل معاني التوراة والإنجيل وما نقل عن عيسىٰ عليه السلام أنه أرسل الحواريين لتعليم غير العبرانيين وأمرهم بالترجمة لهم حتىٰ يتم الفهم والبيان شاهد علىٰ ما ذكرناه ، وهٰذا هو الواقع في القرآن فليس كل عربي يفهمه وليس ممتنعا علىٰ كل أعجمي أن يتعلم ما يتطلبه منه دينه منه[1] .

ثم إن كثرة انتشار الإسلام شرقا وغربا وشمالا وجنوبا دال علىٰ عموم هٰذه الرسالة المحمدية ويشهد بذلك القرآن الكريم والسنة المتواترة كما أسلفنا وبرهانه الواقعي دخول اليهود والنصارىٰ بأعداد كثيرة في هٰذه الملة ونبذهم ما خالفها ومازال ذلك الدخول متزايداً مع توقف المسلمين عن واجب جهاد الكافرين[2] .

إذا تبين ذلك فإن علامات عموم الشريعة لكافة الخلق وعموم البعثة المحمدية إلى الثقلين ظاهرة في عدم تخصيصها لأحد أو جنس من الناس في الأحكام والآداب والواجبات والحقوق ، ومسايرتها للزمن وصلاحها في الأزمان والبلدان لكل مؤمن بها أو ذمي داخل تحت ظلها ، فتعلق أحكامها وخطابها بالأوصاف لا بالأشخاص والأجناس ، تخاطب المؤمن بالعمل

---

(١) انظر النبوات ٢٣٧ـ٢٤٢ والجواب الصحيح ١/ ١٦٢ـ٢٤٧ .

(٢) انظر الجواب الصحيح ٥/ ٧٦ـ٩٢ والفتاوىٰ ١٩/ ٨٢ وما بعدها .

الصالح وتحثه عليه وترغبه فيه وترهبه من المعاصي والذنوب ومخالفة أوامر الحي القيوم علام الغيوب[1] .

وتخاطب الكافر بدعوته إلى الإيمان وتوعده وتعده وتزجره وتخوفه وتبين له حتىٰ يؤمن أو يهلك عن بينة .

وهٰكذا سائر الأوصاف المعروفة من بر وفاجر ، وتقي وفاسق ، وظالم وعادل وخائن أو جائر أو أمين أو غاش . .

فأحكامها ونصوصها شاهدة بعمومها وشمولها وواقعيتها ومثاليتها في نفس الوقت ، فمن نظر في العقائد وجدها وسطا بين الأديان والملل المحرفة ، وكذا من مارس العبادات فيها أو عامل الناس علىٰ أساس من تعليماتها ، وهٰكذا سائر الأمور العلمية والعملية والسلوكية والأخلاقية والبدنية والروحية إلىٰ غير ذلك من مصالح العقل والروح والبدن والمشاعر والوجدان والقلب والنفس[2] .

إذا تبين عموم الشريعة المحمدية وشمولها فإن نظرة في غيرها من واقع الناس وما عندهم من كتب تؤكد أن ذلك ضرورة واقعة إذ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ حين مبعث النبي صلى الله عليه وسلم كانوا بقرون قبل ذلك وهم في واقع مؤلم جداً حيث تسلط عليهم الجبابرة وأهل الجور من الملوك الظلمة واضطهدوهم وشردوهم في البلاد ، فصاروا مشتتين مقهورين لا يتمكنون من إظهار دينهم ولا إشاعة ما عندهم حتىٰ صار ذلك سجية لهم ونظاما معمولا به ، فعم الجهل وطمّ الكفر في أوساطهم ونافق رؤساؤهم وحرفوا الكتاب المقدس وفسروه بما لا يتفق والمقصود من الدين المنزل وحرفوا في الألفاظ واختلفت نسخ الكتاب إلىٰ ما بين زيادة وحذف وتغيير في اللفظ أو المعنىٰ ففقدت الثقة في كتبهم وضلوا عن كثير من الحق الذي بين أيديهم .

---

(١) انظر النبوات ٢١٥ و٢٣٧ و٢٧٥ .

(٢) انظر الفتاوىٰ ـ الوصية الكبرىٰ ٣/ ٣٦٣ وما بعدها .

هـٰذا علاوة علىٰ أن شرائعهم كانت خاصة وفي بلاد محدودة وشعب واحد[1] .

وهـٰذه أمور لا ينكرونها وهي دالة علىٰ عدم العموم وشاهدة بعدم الشمول فكان ذلك كله برهانا علىٰ أنه لابد للإنسانية من شريعة تجمع شملها وتفي بحاجياتها وتكون خالدة مدى الدهر للعمل بها[2] .

فجاء الله بمحمد صلى الله عليه وسلم منة منه على الخليقة فأظهر ما طمسوه وبين ما كتموه وأحل ما حرموه ورفع الآصار والأغلال التي كانت عليهم وأشهدهم علىٰ ما حرفوه وبدلوه فجمع الله بشريعته العدل والفضل والعموم والشمول .

هـٰذا علاوة علىٰ ما شرحته من مصير الإنسان وما ينتظره بعد الموت من جنة أو نار . . .

المقصد الثاني : ختم النبوة بنبوته صلى الله عليه وسلم ، فهمنا مما تقدم أن شيخ الإسلام ابن تيمية يسير في إقناع الخصم بختم النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من منطلقات ثابتة بالكتاب والسنة والتواتر المفيد للعلم الضروري والواقع التاريخي الذي عايشه الناس[3] .

ذلك أنه إذا ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وجب تصديقه فيما جاء به ، ومما جاء به أن رسالته عامة للثقلين وافية بحاجيات المخلوقات والإنسان علىٰ وجه الخصوص في جوانب حياته الاعتقادية والعلمية والدنيوية والأخروية وهـٰذا مع اليسر والشمول والواقعية والمثالية ، وإعطاء حدود للأوامر والنواهي تعين على الإتيان بالحد الأعلى المثالي ، وتمكّن من تحصيل الحد الأدنى المجزي[4] .

---

(١) انظر الجواب الصحيح ٢/ ٤١٠ـ٤١٩ و٣/ ٦٨ ، ٦٩ و٥/ ٨٠ـ٩٨ .
(٢) انظر النبوات ٢٢٢ و٢٢٧ و٣٤٥ـ٣٤٩ والجواب الصحيح ٣/ ٦٤ .
(٣) انظر النبوات ٣٩ و١٦٤ ، ١٦٥ وانظر الصفدية ٢/ ٢٨٥ـ٣٢٣ .
(٤) انظر الرد على المنطقيين ٤٤١ـ٤٥٥ .

هـٰذا علاوة علىٰ أنه لا دليل من العقل ولا من النقل يقاوم تلك الدعوىٰ في العموم والشمول والصلاح لكل زمان ومكان بل الموجود من واقع أهل الكتاب وغيرهم وما وصلت إليه أحوالهم من النواحي الدينية والعلمية والفكرية تنادي بضرورة وجود دليل على الخير وتبوح بما لدى الأحبار والرهبان من البشارة بنبي آخر الزمان ولـٰكن لما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسدا ولم يتمكنوا من مواجهته علميا أو عسكريا فاتبع فيهم أوامر الله تعالىٰ ودعاهم بالمشافهة والمراسلة وغزاهم في عقر دارهم حتىٰ آمن منهم من آمن وهلك منهم من هلك ورضي بالذلة والصغار أقوام دفعوا الجزية وعاشوا تحت الجزية وحماية الأمة[١] .

فمن هـٰذا نأخذ أن الدين قد كمل والنعمة قد تمت والوحي قد انقطع بعد محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت رسالات الله تعالىٰ إلىٰ أهل الأرض (فإن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين لا نبي بعده وقد بعث بدين الإسلام ومازال الإسلام دينه)[٢] ، (وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين ، وسيد ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا. . .)[٣] ، (فـلابد في الإيمان من أتؤمن أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين لا نبي بعده ، وأن الله أرسله إلىٰ جميع الثقلين الجن والإنس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن)[٤] ، (وقد وضح للعالم أن الرسالة التي وصف بها الأنبياء ممنوعة إذ هي أخص من النبوة ، وعلم أن النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم منفية بقوله : (إن الله ختم بي النبوة والرسالة)[٥] .

---

(١) انظر الفتاوىٰ ١٩/ ٩ وما بعدها . و٢٨/ ٢٤٤ـ٣٩٧ .

(٢) الصفدية ٢/ ٣٠٧ .

(٣) الفتاوىٰ ١١/ ١٦٢ .

(٤) السابق ١٧٠ .

(٥) بغية المرتاد ٣٩٢ والحديث هنا بالمعنىٰ فيما يظهر لي وانظر قريبا منه في سنن الترمذي أبواب=

وبهٰذا نعلم أن شيخ الإسلام ابن تيمية تعطي نصوصه العامة في بيانه لختم النبوة ما يأتي :

أـ القرآن الكريم والسنة المتواترة جاء نصوصهما واضحة في ختم النبوة بالنبوة المحمدية .

ب ـ وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم من نصوص الوحي ختمه صلى الله عليه وسلم للنبوة والرسالة ، وهو ما أجمعت عليه الأمة فمن خالفه كان كافرا مرتدا يقتل إن لم يتب قبل ذلك .

جـ ـ الدلائل العامة لنصوص الوحي ووفاء الشريعة بالضروريات والحاجيات والكماليات من البراهين علىٰ بقائها وخلودها وعدم إتيان نبي بعد نبيها ولا أمة بعد الأمة التي آمنت بها .

د ـ ثم إنه لا يصح في العقل أن يؤيد الله من يدعي عليه هٰذه الدعوىٰ ويبلغها ويجاهد من أجل تخليدها فيقتل من وقف في وجهه ويغنم ماله ويسبي أهله ويفعل ذلك كله وهو متمسك بأن أمره بذلك ويتواصل تأييده له ويخلف صحابته علىٰ هٰذا المعتقد حتىٰ يقاتلوا هم من حاول مخالفته ويستقر في الأمة أن الكذاب المفتري الذي يجب أن يقتل ويهان ويستخف بشأنه هو ذلك الذي يدعي وحيا بعد محمد صلى الله عليه وسلم أو نبوة أو رسالة أو يحاول بأي حيلة ماكرة أو تأويل فاسد خرق ذلك الباب المسدود من الله تعالىٰ :

وهٰكذا عهد عند الناس كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ورود أقوام كذابين لا يلبث الواحد منهم حتىٰ ينكشف أمره ويخذله الله ويتفرق عنه جمعه فيقتل أو يموت موتة سوء يشمت الناس به أو يبقىٰ موضع تندر الناس ومحل استهزاء(١) ، فلهٰذا اشتد نكير شيخ الإسلام ابن تيمية كما أسلفنا في الوحي

= السير ، باب ما جاء في الغنيمة ، وستأتي إن شاء الله أحاديث ختم النبوة .

(١) انظر بغية المرتاد ٤٨٣ـ٤٨٩ والنبوات ٢٥١ـ٢٥٤ وقارن بما في الجواب الصحيح ١/ ٣٧١ـ والصفدية ١/ ٥ .

وطرقه علىٰ طوائف من متفلسفة الصوفية تزندقوا تبعا للفلاسفة الإشراقيين وصارت تصدر منهم عبارات مشتبهة أو صريحة تدل علىٰ كفرهم وعدم إيمانهم بختم النبوة بالنبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ حكىٰ عن ابن سبعين قوله :

(لقد زَرَّبَ ابن آمنة حيث قال : (لا نبي بعدي)[(١)] .

إن شيخ الإسلام ابن تيمية يكفر هـٰذا الملحد ويحذر من أي كلام يقدح في النبوة أو يفضي بوجه من الوجوه إلىٰ تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ، ويستأنس بحفظ الله تعالىٰ لدينه ومحاماته عن نبيه صلى الله عليه وسلم كما هي سنته تعالىٰ وعادته ـ بما يأتي : فيقول :

(ولهـٰذا أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبىء لا يدوم إلا مدة يسيرة ، وهـٰذه من بعض حجج ملوك النصارىٰ الذين يقال إنهم من ولد قيصر ـ يعني : الذي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وراسله كما تقدم في حديث أبي سفيان ـ حيث رأىٰ رجلاً يسب النبي صلى الله عليه وسلم من رؤوس النصارىٰ ويرميه بالكذب ، فجمع علماء النصارىٰ وسألهم عن المتنبي الكذاب كم تبقىٰ نبوته ؟ فأخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء : إن الكذاب المفتري لا يبقىٰ إلا كذا وكذا سنة لمدة قريبة ، إما ثلاثين سنة أو نحوها ، فقال لهم هـٰذا دين محمد له أكثر من خمسمائة أو ستمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع فكيف يكون هـٰذا كذابا ثم ضرب عنق ذلك الرجل)[(٢)] .

وهـٰكذا يكون رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قد اتضح أنه يعتمد فيها على الكتاب والسنة وإجماع الأمة المعصومة عند الاجتماع وذلك إثباتا وردا علىٰ ما يناقضها أو يعارض واحدة من المنصوص عليها .

---

(١) انظر الرد على المنطقيين ٤٨٧ وبغية المرتاد ١٨٢ـ١٨٤ و٣١٥ و٣٨٤ـ٣٩٣ .

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية ١٢٨ وانظر الرسالة القبرصية لابن تيمية ، تحقيق علاء الدين دمج ، دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، ٤٣ـ٥٣ .

وقد غرفنا من السبيل الذي هجم به على الخصوم غرفات يعرف بها المطلوب واستخرجنا من ساحل بحره المتدفق دررا مضيئة لمن أراد الاستنارة ومن نور الله قلبه فتكفيه الإشارة . والله أعلم . وإلىٰ مبحث تعقيبي نختم به قبل الخاتمة والله يختم لنا بأحسن خاتمة .

* * *

المبحث الثالث

تعقيب في ضوء الكتاب والسنة

إن خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تولى الله تعالىٰ بيانها في كتابه وبلغها رسوله صلى الله عليه وسلم في أحاديث جاءت متواترة من سنته وبألفاظ مختلفة وروايات متعددة جمع العلماء بينها وأوضحوا المقصود منها ، وشرحوها حسب ورودها في الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم .

وأفردها جهابذة بالتأليف ورغبوا في الإيمان بها والعمل بمقتضىٰ فحواها ورهبوا من جحدها أو إنكارها أو الشك فيما ورد من القرآن منها منصوصا أو ورد في السنة الصحيحة .

وقد كتبت فيها رسائل جامعية تحدث فيها أصحابها عن عالمية الرسالة المحمدية وبرهنوا علىٰ ذلك من الكتاب والسنة والواقع التاريخي منذ بعثته صلى الله عليه وسلم إلىٰ يومنا هـٰذا .

وأوضحوا بالأدلة منهجه صلى الله عليه وسلم في الدعوة ومخاطبة الناس بها وتبليغها لكل عربي وأعجمي على السواء وتعميم ذلك على المجوسي والمشرك الذي لا دين له والكتابي المتعصب من اليهود والنصارىٰ دون نظر إلىٰ جنس أو لغة أو بلد وتناولوا جهاده ومن بعده في سبيل ذلك وما كان لذلك من أثر حسن علىٰ جميع الشعوب والبلاد .

وتناولوا كذلك بشيء من التفصيل ـ كل حسب جهده وخطته أهداف الرسالة المحمدية ومجالها في إصلاح المجتمعات والأفراد والظاهر والباطن ، وما لنظمها من مزايا على الحضارة الإنسانية وأسهبوا في شرح كونها خاتمة للرسالات السماوية واستجلبوا أدلة ذلك من الكتاب والسنة المصرحة بالختم والواصفة بالكمال والإتمام والمظهرة الامتنان بالحفظ والوفاء بالأغراض وعدم التفريط في شيء وأظهروا كذب التنبؤات المبكرة وإجماع الصحابة رضوان الله

عليهم على محاربة كل خارج على هذه العقيدة الثابتة ثبوت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وكذا استعرضوا مصير من تنبأ بعد ذلك من الدجالين والمدعين للمهدوية المارقين من الملة إلى يومنا هذا[1] .

وقد رأينا جهود الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح خصائص نبوته صلى الله عليه وسلم عموماً وخصوصا خاصيتي العموم والختم ، حيث وجدنا أن الإمام الغزالي يرد بإيجاز شديد على الخارجين على هاتين الخاصيتين فيذكر أن العيسوية مثلا من النصارى متناقضون إذ اعترفوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم خصصوها بالعرب وهذا باطل ؛ إذ يلزم عندما اعترفوا بنبوته أن يصدقوه في عمومها إذ جاء القرآن بذلك ونصت عليه السنة وجاهد النبي صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى كما جاهد غيرهم ودعاهم كما دعا غيرهم .

هذا فحوى ما رد به كما تقدم عن هذه الخاصية ، ولم يتعرض لما أثاروه من شبه أخرى وما كان من جهود الأمة بعد ذلك في تعميم الدين ونشره وتقرير عموم الرسالة بالمناظرة والمجادلة والتصنيف والردود .

وكذلك قرر ختم النبوة وكفر الخارج عليه وذكر حيلا من التأويلات الباطلة البعيدة للنصوص الواردة في عقيدة ختم النبوة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وخلص إلى أن الإجماع هو أساسها والذي عليه اعتمادها واستبعد أن يتمكن أحد من إنكار هذا الإجماع أو أن يتحرز أحد من تكفيره عند ارتكاب ذلك ، هذا على ما في التكفير بالإجماع أو إنكاره من إشكالات عديدة تحير المجتهد[2] .

---

(١) انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية للدكتور/ عثمان عبد المنعم عيش مصدر سابق ، وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية تأليف أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ط١ دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض ، ١٤٠٥هـ وخصائص الرسالة المحمدية ماجستير من جامعة الملك عبد العزيز أحمد مرعي عبد الهادي العمري عام ١٣٩٨هـ ـ ١٣٩٩هـ .

(٢) انظر رأيه السابق في المبحث المخصص لبيان رأيه .

وإذا كان هـٰذا هو حال الإمام الغزالي في جانب الإيجاز فإن مجال توضيح الخصائص والدفاع عنها عند شيخ الإسلام واسع رحب جداً ، وجهوده في بيان عموم الرسالة استوعبت مجلدات لأنه تناولها شارحاً لنصوصها ومدافعا الخصوم المدعين لخصوصية العرب بها ، وكأنه بنىٰ علىٰ ما أثبته من عمومها بالأدلة والبراهين ووفائها بمتطلبات البشرية وما تعهد الله به من حفظها وما علم من كون كل نبي كان يبعث إلىٰ قومه خاصة أن الجهد الذي ينبغي أن يبذل في تقرير ختم النبوة يكون دون المجهود الذي بذل في تأكيد العموم إذ هو من الأمور المبنية عليه أو كالمؤسسة عليه ، علىٰ أنه كما رأينا أفاد في توضيح هـٰذه الخاصية وقرر بالنصوص والإجماع هـٰذه العقيدة وبين ما آل إليه أمر المتنبئين الكذابين وضلال المتفلسفين من المتصوفين المدعين لاستمرار النبوة بالكسب أو الكشف والإلهام وغير ذلك[1] .

وإذا كان ذلك هو الذي يمكن أن يعقب به علىٰ جهودهما فإنه مما ينبغي أن نذكر الأدلة من الكتاب والسنة علىٰ مجهودها إذ بذلك يتم مرادنا ومقصودهما .

فنقول وبالله التوفيق : إن الكتاب العزيز أوضح بصريح العبارة أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء .

وأثنىٰ علىٰ شرعه الذي جاء به ثناء بليغا لا يكون إلا دالا علىٰ بقائه ووفائه مع حفظه وشموله .

وبينت السنة المطهرة خصائص النبي صلى الله عليه وسلم في نبوته وأكدت علىٰ عموم شريعته وبقاء ملته وأنه لا أمة بعد أمته ولا دين بعد دينه فهو الذي اكتمل به بنيان النبوة وختمت بمبعثه الديانات السماوية .

أولا من أدلة العموم :

قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ

---

(١) انظر في ذلك المبحث السابق .

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(١) .

ومن لم يؤمن بهـٰذا النبي من أهل الكتاب وغيرهم فإنه لا يكون مهتديا ولا يدخله الله في رحمته الواسعة التي ذكرها في الآية التي قبل هـٰذه حيث يقول تعالىٰ : ﴿ . . . وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٥) .

وقال تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(٦) .

فهـٰذه الرحمة العامة التي أرسل بها والنذارة التي أنزل القرآن من أجلها دالة علىٰ عموم الدعوة وشمولها ومن لم يرض بها لا تكون له رحمة ولـٰكن يرحم الله العباد منه بالجهاد وأن يكون في مضمار الخدم الأذلاء المستعبدين وطائفة الصناع المستخدمين فهو كشهاب يحرق نفسه ونفعه لغيره . وهـٰذا حال

---

(١) سورة الأعراف ، آية (١٥٨) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٥٦ ، ١٥٧) .

(٣) سورة سبأ ، آية (٢٨) .

(٤) سورة الأنبياء ، آية (١٠٧) .

(٥) سورة ص ، آية (٨٧) .

(٦) سورة الفرقان ، آية (١) .

أهل الكتاب في كل زمان وأوان وواقع كل كافر لا يؤمن بالله وخاتم أنبيائه المبعوث رحمة للعالمين ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١) .

وقد جاءت السنة المطهرة مبينة لصور تلك الرحمة العامة من خلال أحاديث شريفة وأعمال منيفة : منها قوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

(ياأيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)(٢) .

ومن حديث سلمان رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال في خطبة له : (أيما رجل من أمتي سببته سبة أو لعنته لعنة في غضبي فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين فأجعلها عليهم صلاة يوم القيامة)(٣) .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في الخصائص الخمس قوله صلى الله عليه وسلم : (وكان كل نبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبعثت إلىٰ كل أحمر وأسود)(٤) .

وإذا رأينا الكتاب والسنة متواطئان علىٰ شيء ، فلنعلم أن ذلك هو الحق الذي لا مراء فيه وأنه هو ميدان التطبيق العملي للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده وإجماع أمته من بعد ذلك ، وقد عرضنا من واقع العمل ما يكفي ويشفي ويقمع الخصم والمتشفي ، وحيث ثبت العموم للعموم فإن ختمه صلى الله عليه وسلم لعموم الرسالات ثابت أيضاً بالكتاب والسنة وإجماع كافة الأمة .

---

(١) سورة البقرة ، آية (٢٥١) .

(٢) المستدرك ١/ ٣٥ .

(٣) سنن أبي داوود ، كتاب السنة ، ٥/ ٤٦ وفي الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ١/ ١٤٩-١٥٢ أحاديث صحاح في النص على العموم إلىٰ كافة من أدركه حيا ومن يولد .

(٤) المذكور كتاب المساجد ومواضع الصلاة الحديث الثالث .

أما من الكتاب فيقول الله تعالىٰ في وصف ما أنزل علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١) .

ويقول تعالىٰ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٢) .

وهٰذه الأوصاف دالة على البقاء والخلود والخالد المحفوظ الشامل لا تحتاج البشرية معه إلىٰ كتاب جديد أو بعثة نبي جديد .

والواقع التاريخي للبشرية يشهد بتصديق ذلك وسيظل ذلك إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها(٣) .

وإذا كان ذلك هو وصف الكتاب فإنه ربطنا بمن جاء به ربطا وثيقا وبين أن الخلاص منوط باتباعه وطاعته .

قال الله تعالىٰ : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٥) .

ولما استقرت هٰذه المعاني في نفوس المؤمنين بها قيل لهم في يوم عظيم هو يوم عرفات . ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾(٦) .

فإذا علم الناس أن الدين الذي جاءهم هو الذي قد كمل والنعمة التي نفحتم

---

(١) سورة فصلت ، آية (٤١ـ٤٢) .

(٢) سورة الحجر ، آية (٩) .

(٣) انظر النبوة والأنبياء في ضوء القرآن للندوي ، ١٩٨ وما بعدها .

(٤) سورة آل عمران ، آية (٣١ـ٣٢) .

(٥) سورة الأحزاب ، آية (٢١) .

(٦) سورة المائدة ، آية (٣) .

قد تمت فمعنىٰ ذلك أن المرسل بها هو المتمم المكمل لسلسلة الأنبياء والمرسلين ، وهٰذا ما نص عليه ليكون عقيدة راسخة ، ولا يكون معنىٰ يحتمل تعدد وجهات النظر أو تختلف فيه الأفهام قال الله تعالىٰ : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[1] .

إن الذين نزل القرآن بلغتهم وقاموا بتبليغه يفهمون معنى الختم ولا يلتبس معناه عندهم بمعنىٰ آخر ثم إنهم لم يتركوا علىٰ ذلك فقط بل جاءت السنة المبينة للقرآن فنصت لهم علىٰ ذلك المقصود وأوضحت لهم أن هٰذا الكتاب الذي تحدث عن الأنبياء السابقين ونوع القصص عنهم لم يهمل الحديث عن نبي بعد النبي الذي جاءهم به إلا لأنه غير منتظر ، وأن النبي الذي قال لهم : (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي)[2] .

لو كان بعده نبي لبشرهم به كما بشر به هو الأنبياء قبله ولأحالهم عليه ، ولم يحذرهم شفقة عليهم من الوقوع في حبائل المتنبئين الكذابين والدجاجلة المفترين .

بل قل لهم منوعا البيان : (وإنه لا نبي بعدي)[3] وقال لهم : (وأنا خاتمالنبيين)[4] ، وقال : (جئت فختمت الأنبياء)[5] ، وقال : (وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي)[6] ، وقال : (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدي ولا نبي)[7] .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية (٤٠) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل عيسىٰ عليه السلام .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء الحديث (٣٤٥٥) .

(٤) السابق كتاب المناقب ، ما باب خاتم النبيين (٣٥٣٥) وصحيح مسلم ، كتاب الفضائل باب ذكر كونه خاتم النبيين .

(٥) السابق .

(٦) السابق ما جاء في أسماء النبي .

(٧) الترمذي ، كتاب الرؤيا ، باب ذهاب النبوة .

إذا كانت هٰذه النصوص قد دلت علىٰ ختم النبوة بالنبوة المحمدية فلنختم بها هٰذا الباب الذي كرسناه لإثبات نبوته وتوضيح خصائصها وبذلك نختم هٰذه الرسالة المباركة ونقول ونحن نوجه القلم إلى الخاتمة : (اللهم اجعل صلاتك ورحمتك وبركاتك علىٰ سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة)[1] .

والله أعلم وبالله تعالى التوفيق . . .

* * *

---

(١) سنن ابن ماجه ، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من دعاء ابن مسعود رضي الله عنه .

خاتمـــة

الحمد لله على التمام ونسأله سبحان المزيد من فضله وحسن الختام ، وبعد : فنضمن هـٰذه الخاتمة أهم نتائج بحث النبوة والرسالة بين الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية .

ـ درسنا في مطلع هـٰذا البحث بشكل تمهيدي حياة الإمام الغزالي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية فوجدنا أن كلا منهما عاش في عصر متلاطم بالحوادث العظام ، قد تفرق أهله شيعا وأحزابا ، يتصارعون عقديا ، ويتقاتلون عسكريا ، ويتعصبون للمذاهب والطرق المختلفة ، ويتنافسون من أجل الجاه والمال والسلطة .

كما وجدنا أن كلا منهما تربىٰ طالباً للعلم محصلا للفنون منغمسا في الحياة العلمية والعقدية والفكرية والاجتماعية لعصره ، إلا أن كلا منهما كان ابن بيئته ونشأته يدور حيث دارت به معلوماته وينافح عن دينه وما يعتقده علىٰ ضوء ما أملته عليه قريحته .

وبذلك نكون قد فمهنا سكونات حياة كل منهما وأدركنا محيطه العام والخاص ، فعشنا مع نصوصه وأفكاره وأسلوبه وكأننا معه في عصره ، ولم نعتبره بعصر غيره ولم نمل عليه ظروفاً لا تلائم ظروفه . فسلمنا بإذن الله من الجور في الأحكام أو سوء الفهم للمقاصد والكلام .

وهـٰكذا ينبغي أن يفهم العالم بصوابه وأخطائه في ضوء محيطه وظروفه في بيئته حتىٰ يتم تقديره علىٰ أنه بشر يتفاعل ويتعامل مع بشر فيهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله .

ـ وإذا علمنا ذلك فإن تعريفات النبوة والرسالة قد كثرت بعد الإمام الغزالي

وشيخ الإسلام ابن تيمية وتنوعت عباراتها ، وكثرت المجادلات حول الجامع والمانع منها ، حتىٰ أفردت بمؤلفات ، ولم يكن هناك اتفاق علىٰ تعريف محدد يسلم له جميع أهل العلم ، وذلك راجع إلىٰ أن النظر في المعرَّف يشمل صفته ووصف ما جاء به وحال المخاطبين .

وأوجز نتيجة توصلت إليها في التعريفات هي أن من نبأه الله تعالىٰ بالوحي فاز بخاصية الاطلاع على الغيب المعصوم ، فإن أرسل إلىٰ قوم مشركين كان نبيا رسولا إرسالا مطلقا ، سواء جاء بكتاب أو نزل عليه نسخ في شريعة كانت قبله أو غير ذلك من الشروط والمحترزات ، وإن أرسل إلىٰ قوم مؤمنين بما جاء به فهو يجدد لهم أصل الإيمان ويسوسهم بالأحكام سواء نزل عليه كتاب يضيف جديداً أو ينسخ شيئا أو لم ينزل عليه إلا أمره بالنبوة والإرسال .

ـ وبذلك نعلم أن الاشتراك في أصل الإنباء قاض بالاشتراك أيضاً في أصل الإرسال ، وعلىٰ هـٰذا فلا يكون هناك نبي يوحىٰ إليه بوحي ليعمل به في خاصة نفسه بل من ثبتت له النبوة فقد أرسل ، ويبقى النظر في حال المخاطبين هل هم مشركون أم مؤمنون ضالون ، ليعلم هل إرساله عام مطلق ، أم إرساله خاص معلق باتباع غيره في الشريعة والأتباع .

ـ وقد تحصل عندنا من دراسة مفهوم النبوة أنها عبارة عن اصطفاء من الله تعالىٰ لعبد من عبيده ليكون سفيرا بينه وبين عباده إذ يتعذر عليهم سماع كلامه تعالىٰ ويستحيل عليهم معرفة مراده إلا بتعريفه ، فهي طور فوق أطوار الحواس والعقول والفطر ، ولا كسب للنبي فيها ولا يعتد النبي فيها بذكائه وفطنته وعقله أو تجاربه ومهاراته العلمية المكتسبة أو جهده الفكري والذهني . فالنبي علىٰ هـٰذا يتلقى الوحي كما هو ويبلغه كما هو ويسوس الناس ويعاملهم في حدود الوحي وما يدل عليه .

فمفهوم النبوة وحقيقة أمرها أنها تعليم للإنسان ممن خلقه ودبر أمره وإليه مرجعه ومصيره .

ـ وإذا كان اعتماد النبوة على الوحي الإلهي واصطفاء الله تعالىٰ لمن يختصه بذلك الوحي فإن دراستنا لهـٰذه الخاصية أفادتنا بأن المولىٰ تبارك وتعالىٰ قد أودع في الإنسان فطرة تهيؤه لقبول وحي الله تعالىٰ إن كان هو المنبأ ، وتعينه على الإيمان به إن كان مخاطبا به من النبي المنبإ من الله تعالىٰ .

وذلك أن خاصية التعلم والتلقي قد أخذ الإنسان الصدارة فيها وميزه الله علىٰ ملائكته بها ، وأودع في فطرته حب التعلم والاطلاع واستكشاف الأمور والتعرف بعقله وفكره حسبما أتيح له على العالم من حوله .

ثم ضربت له الأمثلة من نفسه بأمور تقع في قلبه وعلوم وخواطر لا يدري ما سبب حصولها ولا يمكنه دفعها أو نفيها ، هـٰذا بالإضافة إلىٰ علمه بوجود ملائكة وجن ومالهم من تصرف مع خفائهم عنه ، فذلك يحسه في نفسه كإحساسه بوجدانياته وما يحزنه أو يسره في يقظته ، يضاف إلىٰ ذلك أن المرائي والأحلام التي يتفق الناس علىٰ وجودها تعد حجة علىٰ من يكذب بالوحي وإمكانه إذ تضرب للنائم صور لأمور ويرغب في أمور ويحذر من أمور فقد يرىٰ أشخاصا وقد لا يراهم إلا أنه يستيقظ وهو مزود بمعلومات لا يشك في حصولها له ، وتظل نفسه واقعة تحت أثرها . فمن صدق بذلك كله لزمه أن يصدق بإمكان الوحي ، وإذا صدق بإمكانه فقد أقمنا عليه الحجة بوجوده ووقوعه وتواتر ذلك في بني جنسه . وإذا تقرر ذلك فإنه قد اتضح لنا في ثنايا البحث أن الإمام الغزالي لا يقتصر في البرهنة على النبوة والوحي عند مجادلته للفلاسفة علىٰ ضرب الأمثلة بالمنامات أو وقوع صرع الجن للمجنون والمصروع ، وما يهذي به المرور والمحموم فقط ، بل رأينا أنه يريد أن يقرب لأذهانهم مفهوم النبوة من خلال أمور لا يملكون دفعها بل يؤمنون بها أكثر من إيمانهم بالمحسوسات إذ يتبعون خواصها ويبنون عليها معتقدات لا يرجعون عنها . وقد رأينا أن شيخ الإسلام ابن تيمية يسلك معهم نفس المسلك .

ـ وقد استفدنا من دراستنا لصفات الأنبياء أن النبوة تستوجب صفات لا تعقل النبوة بدونها إذ هي من لوازمها التي لا يمكن تخلفها عنها ، ولا يجوز

عقلا ولا شرعا انتفاؤها ، ومن ذلك رجاحة العقل مع الذكورة التامة والرجولة والفطنة النافذة والصدق الدائم والأمانة المطلقة والعصمة في التبليغ والتلقي ، وعدم الإقرار من الله تعالىٰ علىٰ سهو أو خطإ في الاجتهاد من النبي إن وقع . هـٰذا مع الحفظ من كل ما يخالف هـٰذه الصفات ومقتضياتها .

ـ وبما تقدم يتحصل أن الأنبياء وإن شاركوا الناس في البشرية وصفاتها الضرورية فقد فاقوا بني جنسهم من غيرهم في تلك الصفات كما اختصوا بالوحي الإلهي علىٰ أنحائه التي علم أنها من خصائصهم كوجود الملك وتنزله بالوحي وإنزال شرع عليهم خاصة . وأن الأولياء وإن كان الإيمان بكراماتهم من واجبات الدين الذي شهد لهم بها فإنها من أجل اتباعهم للأنبياء ولـٰكن لا يوجب ذلك لهم عصمة ولا وحياً ولا صفة زائدة علىٰ عباد الله المؤمنين الآخرين .

فمن فتح باب الوحي بعد النبي صلى الله عليه وسلم وادعىٰ مكانة لا يدل عليها شرعه فهو إما ضال دجال ، أو جاهل مخدوع اجتالته الشياطين عن ملة سيد المرسلين فكان من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن .

ـ وقد تبين أن الله تعالىٰ خلق عباده لا يستغنون عنه في حياتهم المادية البدنية والروحية بل يفتقرون إليه افتقارا ذاتيا ولا يجدون في فطرهم وعقولهم ما يدلهم علىٰ ما يرضي ربهم ويثيب عليه ، وما يسخطه ويعاقب عليه ، وهو تعالىٰ لم يخلقهم عبثا ولم يتركهم سدىً بل ما خلقهم إلا ليعلمهم ويكلفهم ويقيم الحجة عليهم ، وقد علم أن حياتهم الدنيوية والأخروية لا يسعدون في واحدة منهما إلا إذا رحمهم وعلمهم سبل السعادة وحذرهم بالتفصيل من طرق الشقاوة ، فتفضل عليهم بالنبوة وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، فوضحت لهم السبيل واستنارت لهم الطريق فوجدوا أنهم كانوا إلى البعثة أحوج من الحياة والماء والهواء والغذاء والدواء والأطباء ، ذلك أن هـٰذه الأمور الضرورية إذا فقدها الإنسان كان أقصىٰ ما يلحقه بفقدها موت بدنه ، أما الإنسان بدون النبوة وعلومها ونورها فهلاك بدنه وشقاء روحه وتعاسة نفسه مقطوع به في هـٰذه

الدار ، والدار الآخرة لا يعلم عنها شيئاً إلا بالنبوة وقد حرمها ، فهو أيضاً في شقاء أبدي سرمدي لذلك ، إلا أن الله لا يعذب عباده إلا بعد إقامة الحجة عليهم وتيسير ما يحتاجون إليه فكتب علىٰ نفسه الرحمة وأوجب علىٰ نفسه إرسال الرسل حتىٰ غطت الدنيا الرسالات وأخبار النبوات .

ـ ومن ذلك علمنا أن العقل وإن أرشد إلىٰ حسن البعثة ووجوبها في مقتضياته فليس له أن يوجب على الله تعالىٰ شيئاً ، وكذلك فإنه لا يبرز دليلا علىٰ ذلك الإيجاب إلا ووجد في عقل آخر ما يعارضه ويناقضه وبالتالي فموقف العقل أن يحكم بالحسن وينظر في المحاسن ويتلقىٰ بتفهم ويصدق بالبرهان ، ويطالب بالدليل الذي يقنعه فإن وجده سلم واستسلم .

ـ وإذا كان العلم بصدق الرسول ليس ضرورياً فلابد له من برهان ودليل صدق حتىٰ يثبت نبوته ورسالته ويقيم الحجة القاطعة علىٰ إرسال الله تعالىٰ له .

وإذا كان لا يحسن في العقل أن يبعث أحد من الناس رسولا لأمر ولا يعطيه للوصول إليه أمارة ولا يدل المرسل إليهم علىٰ علامة يعلمون تخصيصه بتلك الرسالة وأنه صادق فيما ادعاه ، فإنه لا يعقل عند عامة العقلاء كما رأينا أثناء البحث أن يبعث الله رسولا ولم يؤيده بما يدل علىٰ صدقه وهو العليم الحكيم القادر المريد .

بل تبين لنا أن طرق إثبات النبوة كثيرة ، ومسالك الناس في ذلك عديدة وأن المقتصر على المعجزة فقط مخطىء ، فدلائل الصدق وثبوت النبوة والرسالة يكون بالمعجزة والمعرفة التامة بالصدق عند مجرد الدعوىٰ وبتوافق جنس الصادق في النبوة مع ما جاء به من قبله من جنسه ، وتكون بالنظر في قرائن الأحوال وتتبع الأوامر والنواهي والمسلك الشخصي والنوعي وكل بحسب ما عنده من استعداد واختبار لما جاء به النبي وحتىٰ إنه من علامات إثبات النبوة وطرق ذلك عند أهل الفراسة النظر في وجه النبي المدعي فلا يخفىٰ عليهم وجه الصادق من الكاذب المتنبىء أو الساحر والكاهن والعراف والمشعبذ أو الدجال الممخرق أو الطبائعي المتزندق .

فهٰذه الأمور والدلائل قد مارس الناس أنواعها وعرفوا عاقبة أمر أهلها كما تواتر عندهم جنس النبوات وبراهين الصدق وسنة الله تعالىٰ في تأييد أنبيائه وإهلاك أعدائه .

ـ وحيث رأينا كثرة طرق إثبات النبوة فإنه يتحصل عندنا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تدخل في ذلك دخولا أوليا بحيث لا يسلك الناس طريقا لإثبات نبوة نبي معين أو جنس النبوات إلا ووجدناه أصدق عليه وأدل علىٰ نبوته من دلالته وصدقه علىٰ نبوة ذلك النبي أو حتىٰ جنس النبوات .

وإذا تقرر ذلك ـ كما قررناه ـ وجب تصديقه في كل ما أخبر به إذ النبي لا يكذب وما قاله بلاغا ووحيا لزم من صدق بنبوته وعرف صدقه بأي مسلك من المسالك وأي طريق من طرق معرفة الصادق من الكاذب أنه يؤمن به .

ـ ومما وجب الإيمان به وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيه خصائص نبوته صلى الله عليه وسلم التي دل عليها الكتاب والسنة والإجماع المعصوم وقد رأينا أن عموم رسالته وختمها للنبوات والرسالات من آكد ذلك وأن إنكارها أو جحودها وعدم الإيمان بها والعمل علىٰ مقتضاها كان له أعظم الضرر على البشرية جمعاء مع قوة أدلته وظهور مصداقيته وتوفر دواعي اتباع الحق في ذلك كله .

هٰذا علىٰ أن المجال أمام الباحثين واسع لخدمة كتب هٰذين الإمامين والاستفادة من ثمرات أقلامها والنهل من معين أفكارهما ، ثم تقديم ذلك تقديما رائقا للأمة المتعطشة للعلم النافع . نفع الله بنا وبإخواننا آمين .
وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين .

والله أعلم .

* * *

فهرس المراجـــع

- آراء أهل المدينة الفاضلة ، أبو النصر الفارابي ، مكتبة ومطبعة محمد علي منبج وأولاده .

- إبراهيم أبو الأنبياء ، تأليف عباس محمود العقاد ، ط بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٣٨٦هـ .

- أبو حامد الغزالي والتصوف ، تأليف عبد الرحمن محمد سعيد دمشقية ، ط٢ ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٩هـ .

- إثبات النبوات ، لابن سينا علي ، حققها وقدم لها ميشال مرمورة ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٨م .

- أحوال النفس رسالة في النفس وبقائها ومعادها ، لابن سينا ، تحقيق وتقديم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ، طبع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط١ ، ١٣٧١هـ .

- إحياء علوم الدين ، تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، صحح بإشراف الشيخ عبد العزيز عز الدين السيراون ، دار القلم ، بيروت ، ط٣ .

- إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات ، للإمام محمد بن علي الشوكاني ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤هـ .

- أشعة الأنوار علىٰ مرويات الأخبار ، تأليف محمد سالم البيحاني ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، إدارة إحياء التراث الإسلامي ، بدولة قطر .

- أصول الدين للبغدادي ، تأليف أبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي ، ط١ ، مطبعة الدولة ، استنبول ، ١٣٤٦هـ .

- الأصول والفروع ، لابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم تحقيق الدكتور/ محمد عاطف العراقي وزملاؤه دار النهضة العربية ، ط١ ، ١٩٧٨م .

ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، عالم الكتب ، بيروت .
ـ الاستقامة ، لابن تيمية ، تحقيق الدكتور/ محمد رشاد سالم ، ط٣ ، مؤسسة قرطبة .
ـ إسلام النجاشي ، بقلم اللواء الركن محمد شيت خطاب ، طبع رابطة العالم الإسلامي .
ـ الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، تأليف الدكتور : عبد العظيم المطعني ، دار الوفاء المنصورة ، ط١ ، ١٤٠٧هـ .
ـ أعلام النبوة ، تأليف أبي الحسن علي بن محمد الماوردي ، قدّم له وشرحه ، وعلق عليه ، محمد شريف سكر ، دار إحياء العلوم ، بيروت . ط٢ ، ١٤١٢هـ .
ـ الأعلام للزركلي ، خير الدين الزركلي ، ط٨ ، ١٩٨٩م ، دار العلم للملايين بيروت ، لبنان .
ـ إلجام العوام عن علم الكلام ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، رقم ٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ١٤٠٦هـ .
ـ الأنبياء في القرآن نوح وإبراهيم وموسىٰ عليهم الصلاة والسلام ، الدكتور/ مصطفىٰ عبد الواحد ، مكتبة ومطبعة دار إحياء الكتب العربية .
ـ البداية والنهاية ، تأليف أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، تحقيق الدكتور/ أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الريان للتراث ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .
ـ البرهان في أصول الفقه ، تأليف أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ ، دار إحياء التراث بقطر .
ـ البرهان في علوم القرآن ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
ـ بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد ، تأليف أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق ودراسة موسىٰ بن سليمان الدويش ، مكتبة العلوم والحكم ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

- بنية العقل العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ، للدكتور/ محمد عابد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط٤ ، ١٩٩٢م .
- تاريخ المذاهب الإسلامية ، لمحمد أبي زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
- تبسيط العقائد الإسلامية ، تأليف حسن أيوب ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ط٤ ، ١٣٩٩هـ .
- التيجانية ، دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة ، تأليف علي بن محمد الدخيل الله ، دار طيبة ، الرياض ، ط١ .
- تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة لابن الجزري ، ط١ ، ١٣٩٢هـ ، دار الوعي بحلب .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، لأبي العلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠١هـ .
- التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة ، تأليف الدكتور/ إبراهيم هلال ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٧٩م .
- التعريفات ، تأليف الشريف علي بن محمد الجرجاني ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .
- تفسير القرآن العظيم ، تأليف إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، ط شباب الأزهر ، ١٤٠٠هـ .
- تلبيس إبليس ، لابن الجوزي ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، دراسة وتحقيق وتعليق د/ السيد الجميلي ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، بيروت .
- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، تأليف القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت لبنان .
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، تأليف أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيق د/ عمر الجيدي ، سعيد أحمد أعراب ، ١٤٠٥هـ . مطبعة فضالة ، المغرب ، ط٢ .

- التنبيه والرد علىٰ أهل الأهواء والبدع ، تأليف محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي ، ط١ ، بغداد .
- تهافت التهافت ، للقاضي أبو الوليد محمد بن رشد ، القسم الثاني تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م .
- تهافت الفلاسفة ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، ط دار المعارف ، ١٩٦٥م .
- تهافت الفلاسفة ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، تقديم وضبط وتعليق د . جيرار جهامي ، دار الفكر اللبناني ، ط١ ، ١٩٩٣م ، لبنان .
- جامع بيان العلم وفضله ، تأليف أبي عمر يوسف بن عبد البر ، تحقيق أبي الأشبال الزهيري ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر ، ط٢ ، دار المعارف بمصر .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ، تأليف عبد الرحمن ابن شهاب الدين زين الدين أبي الفرج الشهير بابن رجب ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باحبس ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ .
- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، ط٢ ، ١٩٦٥م .
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تأليف أحمد بن تيمية ، تحقيق د/ علي بن حسن بن ناصر وزملاؤه ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، دار العاصمة ، السعودية .
- جواهر القرآن ، تأليف أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، تحقيق الدكتور/ الشيخ محمد رشيد رضا القباني ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان .
- حجة الله البالغة ، لولي الله ابن عبد الرحيم الدهلوي ، بتقديم الشيخ محمد شريف سكر ، ط٢ ، ١٤١٣هـ .
- الحقيقة في نظر الغزالي ، تأليف الدكتور/ سليمان دنيا ، ط٣ ، دار المعارف بمصر .

ـ الحكمة من خلق المخلوقات ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، ط مجموعة رسائل رقم ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
ـ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ، الدكتور/ عبد الفتاح عبد الله بركة ، ط ، مجمع البحوث الإسلامية .
ـ خصائص الرسالة المحمدية « ماجستير » ، إعداد أحمد مرعي عبد الهادي العمري ، ١٣٩٨ـ١٣٩٩هـ .
ـ خطط الشام ، محمد كرد علي ، المطبعة الحديثة ، دمشق ، ١٣٤٣هـ .
ـ خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل ، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٠٤هـ .
ـ درء تعارض العقل والنقل ، تأليف تقي الدين أحمد بن تيمية ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، ط١ ، ١٤٠٣هـ ، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
ـ الدر الثمين والمورد المعين ، تأليف الشيخ محمد بن أحمد ميارة المالكي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
ـ دلائل النبوة ، لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران المهري الأصبهاني حققه الدكتور/ محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس ، دار النفائس ، ط٣ ، ١٤١٢هـ .
ـ دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول ، « ماجستير » قسم التاريخ والحضارة ، بجامعة أم القرىٰ ، إعداد الطالبة/ مريم بنت محمد عوض بن لادن ، ١٤٠٣هـ .
ـ رؤية نقدية لفكر الغزالي وفلسفته ، تأليف الدكتور زكريا بشير إمام ، ط مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٤٠٩هـ .
ـ رحلة الخلود ، للشيخ حسن أيوب ، دار التراث ط٢ ، ١٤٠٦هـ .
ـ الرد على المنطقيين ، لأحمد بن تيمية ، معارف لاهور ، ط٢ ، ١٣٩٨هـ .
ـ رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها ، ط١٤٠٧هـ .
ـ رسالة الفطرة ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرىٰ لابن تيمية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- رسالة في اللاهوت والسياسة ، اسبينوزا ، ترجمة وتقديم د/ حسن حنفي ، مراجعة د . فؤاد زكريا .

- الرسالة القبرصية ، لابن تيمية ، تحقيق علاء الدين دمج ، دار ابن حزم ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، بيروت .

- الرسالة ، للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي ، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار التراث ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ .

- الرسل والرسالات ، الدكتور/ عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس ، ط٥ ، ١٤١٤هـ .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، ط٢ ، إحياء التراث ، بيروت .

- الروض الأنف للسهيلي في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، للفقيه المحدث أبي القاسم بن عبد الله الخثعمي السهيلي ، قدم له وعلق عليه وضبطه ، طه عبد الرؤوف سعد ، دار الفكر .

- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، لأبي حاتم محمد بن حبان البستي ، المكتبة التجارية ، ١٤١٤هـ .

- زاد المعاد في هدي خير العباد ، لابن قيم الجوزية ، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية ، ط١٤ ، ١٤٠٧هـ .

- سراج السالكين ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ضمن مجموعة رسائل رقم ١ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .

- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، تأليف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، منشورات لجنة إحياء السنة ، مكتبة المعارف الرياض ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

- سنن أبي داود ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، إعداد وتعليق : عزت عبيد دعّاس ، وعادل السيد ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٣٨٨هـ .

- سنن ابن ماجه ، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
- سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- سير أعلام النبلاء ، تصنيف محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ط١٠ ، ١٤١٤هـ .
- السيرة النبوية ، لأبي الحسن الندوي ، دار الشروق جدة ، ط١ ، ١٣٩٧هـ .
- السيرة النبوية ، لابن هشام ، حققها مصطفى السقا وزملاؤه ، مؤسسة علوم القرآن .
- شرح الأصول الخمسة ، تأليف عبد الجبار بن أحمد ، بتعليق الإمام أحمد بن الحسين ابن جاسم ، حققه وقدم له الدكتور/ عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٣٨٤هـ .
- شرح أم البراهين ، تأليف الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان .
- شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا ، لنور الدين علي القاري ، تحقيق حسين محمد مخلوف ، ط المدني .
- شرح العقيدة الأصفهانية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، نشر مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤١٥هـ .
- شرح العقيدة الطحاوية ، لعلي بن أبي العز الحنفي بتحقيق جماعة من العلماء ، ط مكتبة الدعوة الإسلامية شباب الأزهر .
- شرح الفقه الأكبر ، لملا على القاري الحنفي ، دار الكتب العلمية .
- شعب الإيمان ، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٠هـ .
- الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد بن عبد اللـه بن عمر الحلواني ، ومحمد كبير أحمد شودري ، دار الرمادي للنشر ، الدمام ، السعودية ، ١٤١٧هـ .
- الصحاح للجوهري ، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ .

- صحيح البخاري بشرح فتح الباري للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، أشرف علىٰ طبعه محب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- صحيح مسلم ، شرح الإمام النووي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠١هـ .

- طبقات الشافعية الكبرىٰ ، تأليف : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو وآخر ، ط١ ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- الطبقات الكبرىٰ ، لمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي المعروف بابن سعد ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٠هـ .

- الظاهرة القرآنية تأليف ، مالك بن نبي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٧هـ .

- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، لأبي بكر بن العربي ، دار الفكر .

- عصمة الأنبياء ، تأليف الإمام فخر الدين الرازي .

- العقائد العضدية للقاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد ، ط١ ، دار سعادات ، ١٣١٦هـ .

- العقائد النسفية ، لأبي حفص عمر بن محمد النسفي ، بشرح مسعود بن عمر بن سعد الدين التفتازاني ، ط مكتبة المثنىٰ بغداد .

- عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ، للدكتور/ عثمان عبد المنعم عيش ، ط١ ، ١٣٩٦هـ .

- عمل اليوم والليلة ، لأحمد بن شعيب النسائي ، دراسة وتحقيق الدكتور ، فاروق حمادة ، المغرب ، مكتبة المعارف ، ١٤٠١هـ .

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ط دار المعارف .

- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني ، تأليف أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي ، دار إحياء التراث العربي .
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، للإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي .
- الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، ضبطه وحققه : حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ، ط ١٤٠١هـ .
- الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، للإمام المؤرخ : إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي ، تحقيق سيد بن عباس الجليمي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، بيروت لبنان .
- الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، تأليف الدكتور/ ناجي التكريتي ، دار شئون الثقافة العامة ، ط٣ ، ١٩٨٨م .
- في رحاب دمشق وأخبار دار الحديث السكرية ، محمد بن دهمان ، بدون .
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ٣ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .
- القاديانية ، دراسات وتحليل ، تأليف إحسان إلهي ظهير ، ط ، ١٤٠٤هـ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض .
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، تأليف أحمد بن تيمية ، ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية ، الرياض ، ١٤٠٤هـ .
- القاموس المحيط ، تأليف مجد الدين الفيروزأبادي ، دار المعرفة ، بيروت .
- قانون التأويل ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد للغزالي ، ضمن مجموعة رسائل رقم (٧) ، وضع حواشيه وخرج أحاديثه وعلق عليه ، أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٩هـ .
- قانون التأويل ، للقاضي أبي بكر بن العربي ، تحقيق محمد السليماني ، ط١ ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، ١٤٠٦هـ ، جدة .
- القسطاس المستقيم ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، ضمن مجموعة رسائل رقم (٣) ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ١٤٠٦هـ .

- القصد النافع لبغية الناشىء والبارع على الدرر اللوامع في مقرأ الإمام نافع ، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن الحسن التازي ، وشرح الإمام محمد بن إبراهيم الشريشي ، تحقيق التلميذي محمد محمود ، دار الفنون ، ط١ ، ١٤١٣هـ .

- قصص الأنبياء في القرآن الكريم وما فيها من عبر ، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، دار روضة الناظر للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤١٥هـ .

- كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء ، مع الإحياء ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، ط مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ .

- كتاب التوكل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : د/ علي بن عبد العزيز بن علي الشبل ، دار الصميعي ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٦هـ .

- كتاب الصفدية ، تأليف تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ .

- كتاب الفراسة ، للإمام فخر الدين الرازي ، تحقيق مصطفىٰ عاشور ، مكتبة القرآن .

- كتاب النبوات ، تأليف تقي الدين أحمد ابن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م .

- كتاب ميزان العمل ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ .

- الكشاف ، لأبي القاسم محمود جار الله الزمخشري ، ط ، دار المعرفة .

- الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية ، تأليف : مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ، تحقيق : نجم عبد الرحمن خلف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

- كيمياء السعادة ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسه ، تونس .

- مؤلفات الغزالي ، تأليف عبد الرحمن بدوي ، ط ، المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق ، ١٩٦٠م .

- مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد الأول عام ١٤٠٠هـ .
- مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ، طبع مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب .
- مجموعة الحواشي البهية علىٰ شرح العقائد النفسية ، ط كردستان العلمية ، بمصر ، ١٣٢٩ .
- مجموعة الرسائل الكبرىٰ لابن تيمية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ .
- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي تحقيق وتعليق الرحالي الفاروق ، وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، السيد
- عبد العال السيد إبراهيم ، ومحمد الشافعي صادق العنابي ، ط١ ، ١٣٩٨هـ ، الدوحة .
- مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ، ط١ ، ١٤٠٣هـ .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، تأليف أبي محمد عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .
- المستدرك على الصحيحين في الحديث ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري ، وفي ذيله تلخيص المستدرك ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- المستصفىٰ من علم الأصول ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، ط١ ، المطبعة الأميرية ، بولاق مصر ، ١٣٢٢هـ .
- مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار ، تأليف القاضي عياض اليحصبي ، طبع ونشر ، المكتبة العتيقة بتونس ، ودار التراث بالقاهرة .
- مشكاة المصابيح ، تأليف محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط٣ ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ .
- المصادر العامة للتلقي عند الصوفية عرضا ونقدا ، تأليف صادق سليم صادق ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٥هـ .

- المضنون به على غير أهله ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ضمن مجموعة رسائل رقم ٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ .

- معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٩هـ .

- معجزات المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، بقلم خير الدين وانلىٰ ، راجعه وخرج نصوصه وعلق عليه لجنة التحقيق في مكتبة السوادي للتوزيع ، جدة ، ط٣ ، ١٤١١هـ .

- المعجزة وكرامات الأولياء لابن تيمية ، دراسة وتحقيق : مصطفىٰ عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- معجم الأحاديث القدسية الصحيحة ، إعداد وتحقيق أبي عبد الرحمن كمال بن بسيوني الأبياني المصري ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط١ ، ١٤١٣هـ .

- معراج السالكين ، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ضمن مجموعة رسائل رقم (١) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- المعرفة الصوفية ، دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة ، ناجي حسين جودة ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ .

- المعلم بفوائد مسلم ، للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري ، تحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .

- المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الآثار ، ط مع الإحياء .

- مفردات القرآن ، تأليف الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ط١ ، ١٤١٢هـ .

- مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ، محمد رشاد سالم .

- مقاصد الفلاسفة ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، ط١ ، دار المعارف مصر ، ١٩٦١م .

- مقدمة ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢م .

ـ المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، دراسة وتحقيق ، محمد عثمان الخشت ، مكتبة القرآن ، القاهرة .

ـ الملل والنحل ، تأليف : أبي الفتح عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني ، ط دار الفكر .

ـ مناهج الأدلة في عقائد الملة ، لابن رشد ، تقديم وتحقيق الدكتور/ محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٦٤م .

ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، ط٣ ، دار الفكر .

ـ المنخول من تعليقات الأصول ، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، حققه وخرج نصه وعلق عليه : محمد حسن هيتو .

ـ المنقذ من الضلال ، تأليف أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، ضمن مجموعة الرسائل رقم (٧) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ .

ـ منهاج السنة النبوية ، تأليف أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، لابن تيمية ، تحقيق : د/ محمد رشاد سالم ، من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

ـ منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية ، تأليف الدكتور هادي حسين حمود ، ط١ ، دار القادسية ، بغداد ، ١٩٨٤م .

ـ مهرجان الغزالي ، مصدر المعرفة عند الإمام الغزالي ، محمد جواد مغنية .

ـ النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن ، تأليف الدكتور محمد عبد الله دراز ، ط١ ، دار إحياء التراث الإسلامي بقطر ، ١٤٠٥هـ .

ـ النبوة عند ابن تيمية ورده على المخالفين ، رسالة ماجستير من قسم العقيدة ، جامعة أم القرىٰ ، إعداد الطالب سعيد إبراهيم مرعي خليفة ، ١٤١٠هـ .

ـ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ، تأليف الدكتور/ حسن ضياء الدين عتر ، دار البشائر الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، بيروت ، لبنان .

- النبوة والأنبياء ، محمد علي الصابوني ، ط٤ ، ١٤٠٠هـ .
- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم ، لأبي الحسن علي الحسني الندوي ، ط٦ ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٠٤هـ .
- النبي والرسول ، تأليف الدكتور أحمد بن ناصر بن محمد آل حمد ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، مكتبة القدس ، الزلفي ، السعودية .
- نشأة الدولة الإسلامية علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دراسة وثائق العهد النبوي ، تأليف : الدكتور عون الشريف قاسم ، دار الكتب الإسلامية ، ط٢ ، ١٤٠١هـ .
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، تأليف الدكتور/ راجح عبد الحميد الكردي ، مكتبة المؤيد ، ط١ ، ١٤١٢هـ ، المملكة العربية السعودية .
- نقض المنطق ، تأليف أحمد بن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة وزملاؤه ، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة .
- نهاية الأقدام في علم الكلام ، تصنيف الشيخ عبد الكريم الشهرستاني ، حرره وصححه ألفرد جيوم .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية ، بيروت .
- الوحي المحمدي ، تأليف رشيد رضا ، ط١٠ ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ .
- ورقة بن نوفل في بطنان الجنة ، تأليف الدكتور/ عويد بن عياد الكحيلي المطرفي ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، رابطة العالم الإسلامي .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥
كلمة شكر وتقدير	١٣
مقدمة	١٥
تمهيد وفيه فصلان	٢٣
الفصل الأول : حياة الإمام الغزالي ، ويشتمل علىٰ أربعة مطالب	٢٥
المطلب الأول : عصره	٢٥
المطلب الثاني : شخصيته	٢٨
المطلب الثالث : حياته العلمية	٣٠
المطلب الرابع : منهجه في العقيدة	٣٦
الفصل الأول : حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ويشتمل علىٰ أربعة مطالب	٤٠
المطلب الأول : عصره	٤٠
المطلب الثاني : شخصيته	٤٤
المطلب الثالث : حياته العلمية	٤٦
المطلب الرابع : منهجه في العقيدة	٤٨
الباب الأول : حقيقة النبوة والرسالة ويشتمل علىٰ أربعة فصول :	٥١
الفصل الأول : مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما ويشتمل علىٰ تمهيد وثلاثة مباحث :	٥٣
تمهيد : تعريف النبوة والنبي لغة واصطلاحاً	٦٣

الموضوع	الصفحة
تعريف الرسول والرسالة لغة واصطلاحاً	٦٤
الفرق بين النبوة والرسالة والعلاقة بينهما	٦٦
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي	٧٤
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية	١٠٧
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة	١٢١
الفصل الثاني : الوحي وطرقه ويشتمل علىٰ مدخل وثلاثة مباحث :	١٣٤
مدخل	١٣٤
معنى الوحي واصطلاحا	١٣٥
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي في إمكان الوحي وطرقه	١٤٠
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية	١٦٦
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة	١٨٠
الفصل الثالث : صفات الأنبياء وفيه ثلاثة مباحث :	١٩٥
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي	١٩٥
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية	٢٠٥
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة	٢١٨
الفصل الرابع : النبوة والولاية ويشتمل علىٰ ثلاثة مباحث :	٢٣٨
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي	٢٣٨
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية	٢٥٢
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة	٢٦٦
الباب الثاني : حاجة الناس للنبوة وحكم إرسال الرسل ويشتمل علىٰ فصلين :	٢٧٧
الفصل الأول : حاجة الناس للنبوة ويشتمل علىٰ ثلاثة مباحث :	٢٧٧
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي	٢٧٧
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية	٢٨٧

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة	٢٩٩
الفصل الثاني : حكم إرسال الرسل وتحته ثلاثة مباحث :	٣١٧
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي	٣١٧
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية	٣٢٧
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة	٣٤٥
الباب الثالث : طرق إثبات النبوة ويشتمل علىٰ ثلاثة فصول :	٣٥٩
الفصل الأول : إثبات النبوة عند الإمام الغزالي وفيه تمهيد وأربعة مباحث	٣٥٩
تمهيد	٣٥٩
المبحث الأول : إثبات النبوة بإثبات الأمر لله عز وجل	٣٦٢
المبحث الثاني : إثبات النبوة بالمعجزات والرد علىٰ شبه المنكرين	٣٦٦
المبحث الثالث : إثبات النبوة بقرائن الأحوال	٣٧٤
المبحث الرابع : إثبات النبوة على الفلاسفة والرد عليهم	٣٨١
الفصل الثاني : طرق إثبات النبوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية ويشتمل علىٰ تمهيد وثلاثة مباحث :	٣٩٤
تمهيد	٣٩٤
المبحث الأول : إثبات النبوة بالدلائل والقرائن	٣٩٧
المبحث الثاني : رده على الغالطين في طرق إثبات النبوة من المتكلمين	٤٠٧
المبحث الثالث : رده على الغالطين في طرق إثبات النبوة من الفلاسفة	٤١٩
الفصل الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة ويشتمل علىٰ ثلاثة مباحث :	٤٣٥
المبحث الأول : ثبوت جنس الأنبياء وأدلة ذلك	٤٣٥
المبحث الثاني : تعدد طرق إثبات النبوة في الكتاب والسنة	٤٤٦
المبحث الثالث : أصل الدين إثبات النبوات	٤٥٤

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويشتمل علىٰ فصلين : ٤٥٩
الفصل الأول : إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم والرد على المنكرين
وفيه ثلاثة مباحث : ٤٦١
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي ٤٦١
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٧٥
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة ٤٨٧
الفصل الثاني : خصائص نبوته صلى الله عليه وسلم ويضم ثلاثة
مباحث : ٤٩٤
المبحث الأول : رأي الإمام الغزالي ٤٩٤
المبحث الثاني : رأي شيخ الإسلام ابن تيمية ٥٠٢
المبحث الثالث : تعقيب في ضوء الكتاب والسنة ٥١٣
الخاتمة ٥٢١
فهرس المراجع ٥٢٧
فهرس الموضوعات ٥٤١